قادة الفتح الإسلامي

(١)

قادة فتح العراق والجزيرة

تأليف
اللواء الركن
محمود شيت خطاب
وزير بلديات الجمهورية العراقية
وعضو المجمع العلمي العراقي

الناشر



الإهـــداء

إلى سيد القادات وقائد السادات، بطل الأبطال ورجـل الرجال، الرسول القائد النبي العربي محمـد بن عبدالله صلوات الله وتسليمه عليه.

أهدي سِير خريجي مدرسـته ودعاة عقيدته، وحمـاة مبادئه ورافعي راياته: قادة الفتح الإسلامي.

محمود شيت خطاب

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا »

[قرآن كريم]

مقـــدمة

— ١ —(*)

كانت أمنية غالية على القلب والعقل معا ، تراودنى منذ ما يزيد على العشرين عاما خلت ، أن أتفرّغ للكتابة عن : تاريخ قادة الفتح الإسلامى ، الذين حملوا رايات الإسلام من الصين شرقاً إلى فرنسا غربا ، إلى حدود سيبريا شمالا إلى المحيط الهندى جنوبا ! .

لقد كنت أشعر شعوراً عميقاً بعظمة هؤلاء الرجال ، وأشعر بالحزن والأسى يحزّان فى نفسى ، حين ألمس أن هؤلاء الرجال — على عظمتهم فى آثارهم وفى تضحياتهم ، لانعرف حتى أسماء أكثرهم ، وما نعرفه عن بعضهم لايتجاوز بعض المعلومات السطحية المشوشة التى يشيع فيها التناقض والاضطراب .

وكنت أقرأ فى بعض الأحيان بعض ما كتبه الأجانب عن قادتهم الفاتحين وغير الفاتحين ، فألمس بوضوح ما أضفوه عليهم من إجلال وتقدير ، وما بذلوه فى سبيل ذلك من وقت وجهد ومال .

وعدت لأقارن بين تكريم الأجانب لقادتهم وبين ما يلاقيه قادتنا من عقوق ، فأثار ذلك فى نفسى (فكرة) تأريخ حياة قادتنا الفاتحين — تلك الفكرة التى مازالت تتغلغل فى نفسى منذ انبثاقها فيها لأول مرة حتى

(*) كتبت هذه المقدمة ونشرت قبل ثورة ١٤ رمضان المبارك .

أصبحتُ أشعر بمرّ الأيام أنها (رسالة) عليّ واجب ومسؤولية حملها وتبليغها للناس .

ولكن عدد قادة الفتح كبير جداً ، وتاريخ حياتهم يتطلّب تفرّغاً كاملاً لهم وحدهم ، فكيف السبيل إلى هذا التفرغ ؟

وأخيراً ، تيسّر لي التفرغ المنشود الذي كنت أتمناه على الله ، فعكفت على المصادر القديمة والحديثة : أجمع أخبار قادة الفتح من شتات كتب (السِّيَر) و (المغازي) و (طبقات الرجال) وكتب التاريخ والأدب ، وكنت كلما وجدت اسم قائد فاتح أبادر إلى تسجيله في سجل خاص وأشير إلى كل مصدر ومرجع يتحدّث عنه ؛ وفي النهاية تجمّعت عندي مادة غزيرة عن بعض القادة وشذرات مقتضبة عن أكثر القادة .

والحق أنني كنت أشعر بفيض غامر من الغبطة والسعادة حين كنت أؤرخ حياة قادة الفتح — غبطة وسعادة لا تقدران بثمن ولا يمكن وصفهما ، خاصة إذا عثرت على معلومات جديدة ، في مصدر من المصادر تلقي ضوءاً جديداً على حياة أحد القادة وتعينني على رسم صورة حية دقيقة لحياته قائداً وإنساناً .

لقد مضيت قُدماً أستمدّ العون من الله تعالى وأدعوه أن يأخذ بيدي لتحقيق ما أصبو إليه من بعث تاريخ القادة الفاتحين إلى الوجود ، بأسلوب اجتهدت أن يكون قريباً من الكمال ، ولكنني كنت أحس أن الصورة التي رسمتها لبعض القادة ينقصها شيء غير قليل من الضوء لم أستطع توفيره ، وذلك لاضطراب بعض المعلومات الواردة عنهم أولا ولنقص بعض المعلومات الواردة عنهم ثانيا .

ولست ألوم الجيل الحاضر من أبناء العرب والمسلمين على عقوقهم قادة الفتح ، فقد تظافرت جهود الثقافة الاستعمارية منذ دخول الاستعمار هذه البلاد على إغفال كل ما يثير فى النفوس روح الاعتزاز بالماضى المشرّف المجيد ؛ كما أن الشعوبيين منذ سيطر بعض رجالهم على الدولة العباسية فى القرن الثانى للهجرة بذلوا جهوداً عن عمد وسبق إصرار ولا يزال أحفادهم يبذلون جهودهم حتى اليوم ، لطمس أسماء القادة الذين دكّوا عروش أكاسرتهم وقياصرتهم ، ولعل جهود الشعوبيين هذه كانت ولا تزال من أهم أسباب حرماننا كل هذه القرون الطوال ، من تأليف كتاب واحد عن طبقات القادة ، بينما تيسّرت كتب كثيرة عن طبقات الشعراء والأدباء والمحدثين والأطباء . . . الخ .

إن معرفة الماضى هى وحدها تطوّع لنا تصوير المستقبل وتوجيه جهودنا إلى الغاية الجديرة بتراثنا العظيم ، فالماضى والحاضر والمستقبل وحدة لاسبيل إلى انفصامها ، ومعرفة الماضى هى وسيلتنا لتشخيص الحاضر ولمعرفة المستقبل .

إن معرفة حقيقة تاريخنا ، ومعرفة سيرة (روح) هذا التاريخ وهم قادة الفتح وقادة الفكر ، هى مصل وقائى للعرب والمسلمين تصونهم من الانحراف فى مجرى التيارات الفكرية الدخيلة التى لا تنبع من صميم تربة وطننا ولا تمتّ بصلة إلى تراثنا وعقائدنا .

وقد بذل كثير من مفكرى العرب والمسلمين جهوداً مشكورة لتأليف كثير من المؤلفات عن قادة الفكر ، فهل آن الأوان لهم أن يبذلوا جهوداً مماثلة لتأليف كثير من المؤلفات عن قادة الفتح ؟

إن المراجع القديمة التى تتحدّث عنهم يشوبها اضطراب قد يجعل تتبع

الحوادث الواردة فيها عسيراً كل العسر فى سيرها التاريخى والجغرافى أيضا ، فقد تجد القائد فى بعض المراجع يقاتل فى العراق وفى أرض الشام مثلا فى وقت واحد !

والمراجع الحديثة اقتصرت على أشهر مشاهير القادة فقط ، وقد أعارت اهتماماً كبيراً لمعاركهم التى خاضوها أكثر مما أعارته لحياتهم بشراً وقادة ! فقد تجد سفراً ضخماً عن قائد ما ، يقص عليك تفاصيل حروبه فى سائر صفحات الكتاب ، ثم لا تقرأ عنه إنساناً وقائداً إلا بعض النتف الضائعة فى خضم تفاصيل حروبه !

ومع ذلك ، فإن أشهر مشاهير القادة المسلمين الذين تحدّثت عنهم المراجع الحديثة لا يزيدون على ثلاثة بالمائة من عدد سائر القادة الفاتحين .

— ٢ —

لقد حاولت أن أسلط النور على حياة القائد إنساناً ، بحيث يستطيع من يقرأ قصة حياته أن يرسم له صورة واضحة فى ذهنه ، وحاولت أن أقتصر على إيراد أعماله الحربية من معاركه بالقدر الذى أستطيع به إظهار سمات قيادته للعيان ، بحيث يستطيع قارىء قصة حياته أن يتلمّس مزاياه قائداً مما يقرأه من أثره الشخصى فى سير المعارك التى خاضها ؛ وقد يكون إظهار سمات معظم هؤلاء القادة فى بحوث خاصة جديداً ، لأن أكثرهم غير معروفين على الرغم من ضخامة فتوحاتهم وأهمية أعمالهم ؛ ولكننى لا أطمع أبدا أن ينقل هذا الكتاب إلى قارئه صورة واضحة كل الوضوح عن قصة حياة كل القادة الذين تحدّثت عنهم ، وعذرى أن المصادر التى اطلعت عليها شحّت كثيراً على معظم القادة فلم تذكرهم إلا نادراً ، وأن هذا المجهود مجهود تأريخ حياة

قادة الفتح تنوء به العصبة أولو الثقافة والقوة والعزم ، فكيف أقوى على تحمله وحدى ؟!

ولكن ، حسبي أن أبدأ الطريق وأن أدلّ عليه من يريد سلوكه ، وهذا كل ما أطمع به .

— ٣ —

وربما يجد القارىء أن مزايا قيادة أكثرهم متشابهة ، ذلك لأنهم عاشوا فى بيئة واحدة ، وتلقّوا تجاربهم العسكرية فى معارك متشابهة ، كما أنهم خريجو مدرسة واحدة هى مدرسة الرسول القائد التى هى حصيلة تجارب العرب وتعاليم الإسلام فى القتال .

وقد أشرت إلى المصادر التى استقيت منها المعلومات التاريخية الواردة عن القادة ، وهدفى من ذلك أن أعاون كل من يريد الكتابة عنهم فى المستقبل على معرفة بعض المصادر المهمة التى قد تعينهم على إنجاز بحوثهم .

وقد رجعت إلى الكتب الجغرافية القديمة لشرح بعض الأماكن الواردة فى صلب الحوادث التأريخية ، لأن هذه الكتب تعطى أقرب صورة وصفية لهذه الأماكن القديمة ، بينما تقتصر المراجع الجغرافية الحديثة على وصفها وصفاً أقرب ما يكون إلى وضعها الراهن فى الوقت الحاضر ولا تقرِّب وصفها إلى ما كانت عليه فعلاً أيام وقوع الحوادث فيها .

وكان على أن أعتمد أقرب الروايات إلى الواقع والمعقول من الروايات التى ترددها المصادر القديمة ، إذ لا يمكن أن يكون القائد فى الشرق والغرب فى زمن معين ووقت واحد ، فلابد أن يكون إما فى الشرق وإما فى الغرب . ويمكن استنتاج الرواية المعقولة القريبة من الواقع بسهولة تارةً وبصعوبة تارة

أخرى : من سير الحوادث ، ومن تواتر الروايات ، ومن درجة الثقة بالمصدر الذى يروى الحوادث . على كل اخترت أقرب الروايات المعقولة وثّبتها بعد تدقيق وتمحيص وتجرد ، إذ لابد من وضع الأشياء فى محلها ـ وكل ما أريد من الذين سيكتبون فى المستقبل عن هؤلاء القادة أو من الذين سينقدون هذا الكتاب أن يمحِّصوا كل المصادر ، ويقلِّبوا الرأى فى كافة الروايات ، ويقارنوا بين أماكن الحوادث والخرائط الجغرافية ، ويدققوا فى تعاقب الحوادث وتطوّرها — عند ذاك سيجدون أن اختلاف الروايات فى غالب الأحيان لا مبرِّر له ، وأن الحق واضح ، فلابد من البت فى هذه الاختلافات التى لا طائل من ورائها خدمة للحقيقة والتاريخ .

ولم يكن بإمكانى أن أردد فى هذا الكتاب جميع الروايات مع تمحيصها ونقدها لاستخلاص الرأى الذى أثبَتّهُ فى قصة حياة أكثر القادة . لأن التطرق إلى كل تلك الروايات بهذا الشكل يضاعف حجم الكتاب ويضيع وقتى ووقت القارىء عبثاً ؛ لذلك ضربت صفحاً عن ذكر كافة الروايات ، واكتفيت بإثبات الرواية المعقولة منها ، خاصة إذا تواترت روايتها وكان رواتها ثقاة ؛ ولكننى اضطررت على الإشارة فى الهوامش إلى الروايات المعقولة الأخرى — ولو أننى رجّحت ما أثبته فى المتن على ما أثبته فى الهامش ، لتواتر الرواية أو قربها من سير الحوادث ومنطقها فى تسلسلها التاريخى من جهة والجغرافى من جهة أخرى .

وكان لابد من خطة واضحة لكتابة قصة حياة قادة الفتح ، وكان أمامى ثلاثة مسالك لابد أن أسلك أحدها : المسلك الأول : أن أتتبع سير الحوادث الزمنى ، فأكتب عن القادة حسب أسبقية حدوث فتوحاتهم من الوجهة الزمنية ؛

ولعل من محاذير هذا المسلك هو اختلاف المؤرخين فى زمن حدوث أكثر الفتوحات التى كان القادة روحها .

والمسلك الثانى ، أن أكتب عن القادة حسب تسلسل أوائل حروف أسمائهم أسوة بكتب السير القديمة أو كتب دوائر المعارف الحديثة أو المعاجم ؛ ولعل من محاذير هذا المسلك أن أضيع على القارىء فرصة تتبع الحوادث من الناحيتين الزمانية والمكانية على حد سواء .

والمسلك الثالث : أن أكتب عن القادة حسب تسلسل فتوحاتهم فى منطقة جغرافية معينة — كقادة فتح العراق والجزيرة مثلا ، وقادة فتح أرض الشام . . الخ ، وهذا يُعين القارىء على تتبع سير الفتوحات فى منطقة معينة ؛ ولعل من محاذير هذا المسلك أن بعض القادة فتحوا منطقتين جغرافيتين معينتين أو أكثر ، أى أنهم فتحوا بعض أرض العراق وبعض أرض الشام ، وكان لهم جهاد وجهود هنا وهناك .

لقد آثرت المسلك الثالث ، لأن فوائده أكثر من محاذيره ؛ ولكى لا أعيد ذكر قائد من القادة مرتين فى حالة فتحه منطقتين متباعدتين جغرافياً ، أشرت فى أول كل كتاب من كتب قادة الفتح إلى أسماء القادة الفاتحين وإلى القائد الذى سبق تاريخه فى كتاب سابق من كتب قادة الفتح .

— ٤ —

وما دام هذا الكتاب عن : قادة فتح العراق والجزيرة ، فلابد من إعطاء فكرة خاطفة عن حالة العراق والجزيرة من النواحى السياسية والاجتماعية والعسكرية قبيل الفتح وفى أثنائه ، فقد يساعد ذلك على إعطاء صورة واضحة عن الظروف الراهنة التى جابهها أولئك القادة الفاتحون .

كان العراق قبل الفتح ضمن الإمبراطورية الفارسية ، وكانت أكثر الجزيرة ضمن الإمبراطورية الرومانية ، وكان العرب منتشرين فى أرجاء العراق[1] والجزيرة[2] ، بل كان فى العراق إمارة عربيـة فى الحيرة[3] موالية للفرس .

وكانت عوامل الفساد والاضطراب قد استفحلت فى القرن السادس الميلادى واشتد أثرها فى كل من فارس والروم ؛ وكان من أثرها فى فارس أن اضطرب بلاطها وانتشرت الدسائس فى جوّها وتنازع الطامعون فى عرشها ، واتخذ بعضهم الغدر سلاحه لتولى أمورها . بذلك فسد الرأس فامتد الفساد منه إلى مادونه ، فكثرت مذاهبها وأحزابها ، وتبلبلت عقائد الناس فيها ؛ لذلك انحلّت العصبية القومية فى الفرس وانهارت القوة المعنوية فى نفوسهم ، وتدهور مثلهم الأعلى إلى حيث لا يعدو متع الحياة[4] .

وكان الفرس ميالين إلى عبادة المظاهر الطبيعية ؛ فالسماء الصافية والضوء والنار والهواء والماء ، جذبت أنظارهم وجعلتهم يعبدونها على أنها كائنات إلهية ، حتى سموا الشمس : عين الله ، والضوء : ابن الله ، كما أن الظلمة والجدب ونحوهما كائنات إلهية شريرة ملعونة .

عبدوا آلهة الخير وصلّوا لهـا وسبّحوا بحمدها وقدّموا الضحايا لها واستمدّوا العون منها ، ورأوا أن آلهة الخير فى نزاع دائم مع آلهة الشر ،

---

(١) الطبرى (٥٧٦/٢) وابن الأثير (١٥١/٢) والطبرى (١٤١/٣) وابن الأثير (٢٠٣/٢) .

(٢) الطبرى (١٥٦/٣) وابن الأثير (٢٠٥/٢) .

(٣) الطبرى (٥٨٦/٢ — ٥٧٤) وابن الأثير (١٤٩/٢ — ١٥٠) .

(٤) انظر الصديق أبو بكر — للدكتور هيكل ص (٣٨٦ — ٣٨٧) الطبعة الرابعة .

وأعمال الإنسان من صلاة ونحوها تعين هذه الآلهة في منازلتها آلهة الشر وقد اتخذوا النار رمزاً للضوء ؛ وبعبارة أخرى رمزاً لآلهة الخير : يشعلونها في معابدهم وينفخونها بإمدادهم ، حتى تقوى على آلهة الشر ، وتنتصر عليها .

وجاء (زرادشت) نبي الفرس فدعا إلى تعاليم جديدة أسست على الديانة القديمة بعد إصلاحها . ثم جاء (ماني) وكانت تعاليمه مزيجاً من الديانة النصرانية والزردشتية ، وعاش مذهبه إلى القرن السابع الهجري والثالث عشر الميلادي ، وكان له أتباع كثيرون . ثم جاء (مزدك) حوالي سنة ٤٨٧م وكان يقول أيضاً بالظلمة والنور وامتاز بتعاليمه الاشتراكية في المال والنساء ؛ وهكذا كانت الفرس تعيش موزعة بين (رمزية) زرادشت الذي مهد للمجوسية ، و(عدمية) ماني الذي حرّم الزواج استعجالاً للفناء ، و (وجودية) مزدك الذي جعل الناس شركة في الأموال والنساء[١] .

وكان الجيش الفارسي مرتكزاً على الحكم الإقطاعي فكان المرازبة والدهاقين يتولون قيادة الجيش ويتحكمون في الأراضي والعقارات الشاسعة للقيام بإعاشة رجالهم . ولم يكن لجيش فارس هدف يوحّد صفوفه ويسعى لتحقيقه غير الارتزاق ، كما كانت قيادته وراثية وقادته يعتمدون على حسبهم ونسبهم وحظوتهم لدى الأكاسرة لا على مواهبهم العسكرية وكفاءتهم في القتال[٢] .

لقد كانت علل الفناء قد اصطلحت على بنية الدولة الفارسية قبيل الإسلام وأيام الفتح الإسلامي .

---

(١) انظر فجر الإسلام — لأحمد أمين ص (١٢٢) الطبعة الثالثة .
(٢) انظر كتاب الرسول القائد ص (٤٧) الطبعة الثانية .

أما دولة الرومان الشرقية ، فقد كانت فى حال لا تفضل حال جارتها وعدوتها فى محنة العقيدة ومحنة النزاع على الملك والولاية .

فقد ضرب المثل بالجدل البيزنطى فى التاريخ القديم والحديث من جراء الخلاف على المذاهب الدينية فى الدولة الرومانية الشرقية ، وكان معظم أبناء النساطرة واليعاقبة يخالفون مذهب الدولة الرسمى ويمقتون رجاله ويرمونهم بالهرطقة والوثنية[1] ، فقد كان الروم حوالى القرن السادس الميلاد فى منتهى التضعضع : لتعدد الفرق وتشعب المذاهب — خصوصا فيما يتعلق بالطبيعة والطبيعتين والمشيئتين ، وأكثر اختلافهم على الألفاظ والجوهر واحد .

كان الإمبراطور وأهل دولته يقولون : إن للمسيح طبيعتين ومشيئتين ؛ وأما رعيته فى مصر والشام والجزيرة ، فكان أكثرهم يقولون بطبيعة واحدة ومشيئة واحدة وهم اليعاقبة . وفى زمن هرقل سعى بطريرك اليعاقبة فى (منبج) أن يوفق بين الطائفتين ، فاتصل بالامبراطور فى ذلك وذهب مذهباً متوسطاً بين القولين ، وهو أنَّ المسيح طبيعتين ومشيئة واحدة ؛ فوافقه الامبراطور ونشر بهذا المعتقد منشوراً فلم يقبل به كل رجال الدين ، فشق ذلك على الامبراطور وعمل على الانتقام من الذين لم يقبلوا بمنشوره وفيهم جانب عظيم من الروم ، فكان لهذه الانقسامات تأثير شديد فى السياسة لاختلاط السياسة عندهم بالدين ، حتى أدى ذلك أحياناً إلى خروج أمم بأسرها من حوزة الروم إلى الفرس ، كما حصل بالأرمن . إذ سلّموا بلادهم إلى الفرس ، وكما حصل بالقبط حين عاونوا عمرو بن العاص على فتح مصر[2] .

---

(١) انظر عبقرية خالد للعقاد ص (١٣٠ — ١٣٤) طبعة دار الهلال .

(٢) انظر تاريخ التمدن الإسلامى — جرجى زيدان (١/٤١ — ٤٢) الطبعة الثانية

ومَنْ كان من الرعية ذا دين غَيْر المسيحية ، فهو ساخط ناقم على الروم ، كاليهود والوثنيين ، إذ لم يكونوا موضع ثقة الدولة ، وقد اتّهموا غير مرة بالتواطؤ على فتح البلاد مع المغيرين عليها من الفرس والبرابرة ، فأثخن الروم فيهم قتلاً وتشريداً ، حتى قيل : إنهم كانوا يفتكون فى المذبحة الواحدة بعشرات الألوف من الرجال والنساء !

وابتذل عرش الملك بالقتل والاغتصاب ، فضعف الولاء له فى نفوس العلية وقواد الجيوش . وقد استقر الأمر زمناً للقيصر هِرَقْل الذى حضر عهد النبى صلى الله عليه وسلم ؛ ولكنه شقى بالفتن فى أُخريات عهده ، وركبته الوساوس فى شيخوخته ولا سيما بعد بنائه ببنت أخته ، فاعتقد أنه مغضوب عليه مستحق لعقاب السماء[1] .

وكان حكام الروم فى آخر أيامهم يعاملون شعوبهم معاملة ظالمة ، ويسومونهم أنواع العذاب ؛ مما أدى إلى تذمر شعوبهم من جورهم ، ومحاولتهم الخلاص من ربقة حكمهم الظالم المتعسف[2] .

وكان الجيش الرومانى مرتكزاً على الحكم الإقطاعى ، وذلك أن كل نبيل يُعدّ قائداً لجماعته ، وكان هؤلاء النبلاء يُمنحون الأراضى والعقارات الشاسعة للقيام بإعاشة أتباعهم . وقد أدى ذلك إلى حدوث حروب داخلية ، خاصة عندما تضعف الحكومة المركزية فى القسطنطينية ؛ فقد كان كل نبيل يطمع فى توسيع ملكه وسلطته على حساب غيره من النبلاء ، بل كان بعض النبلاء ينقضّون حتى على الحكومة المركزية فى بعض الأحيان . إن المسيطر

---

(١) انظر عبقرية خالد للعقاد ص (١٣٤ — ١٣٥) طبعة دار الهلال .

(٢) انظر تاريخ عمرو بن العاص ص (٤٧) للدكتور حسن إبراهيم حسن . الطبعة الأولى .

على الجيش الرومانى حينذاك هو الارتزاق ، وكثيراً ما كانت أعطيات الجند تتأخر عن مواعيدها لارتباك الحالة المالية للدولة ، فيتذمر الجنود . . . ولم يكن للجيش مثل أعلى يوحِّد صفوفه ويسعى لتحقيقه[1] .

لقد كانت عوامل الفناء قد اصطلحت على بناء الإمبراطورية الرومانية قبيل الإسلام وأيام الفتح الإسلامى .

— ٥ —

ولكن الأسباب التى قضت على الفرس والروم بالهزيمة ـ كائنة ما كانت ـ ليست هى الأسباب التى قضت للعرب بقيام دولة وانتشار عقيدة ؛ لأن استحقاق أناس للزوال ، لا يُنشىء لغيرهم حق الظهور والبقاء .

كذلك لم يكن انتصار العرب على الفرس والروم لأنهم عرب وكفى ، فقد كان فى أرض الدولتين عرب كثيرون يدينون لهما بالطاعة وينظرون إليهما نظرة الإكبار والمهابة ، وكان القادرون منهم على القتال أوفر من مقاتلة المسلمين عدداً وأمضى سلاحاً وأقرب إلى ساحات العراق والشام من أولئك النازحين إليها من الجزيرة العربية .

وقد كان هناك عرب كثيرون انهزموا أمام المسلمين وهم كذلك أوفر فى العدد والسلاح وأغنى بالخيل والإبل والأموال .

فهى نصرة عقيدة لا مراء ؛ ولكن القول بانتصار العقيدة هنا لا يغنى عن كل قول .

فالواقع أن الذين انتصروا بالعقيدة كانوا رجالاً أولى خبرة وقدرة يؤمنون بها ويعرفون كيف يتغلبون بها على أعدائهم .

---

(١) الرسول القائد ص (٤٦ — ٤٧) الطبعة الثانية .

إنها عقيدة منشئة يذود عنها حماة قادرون[1] .

لقد غرس الإسلام فى نفوس العرب حب الضبط والنظام ، وحبّب إليهم الاستشهاد نصراً دونه كل نصر . كما بعث فيهم الاعتزاز بالنفس والشعور بأن عليهم رسالة واجبة الأداء للعالم[2] .

فما الذى يسر للمسلمين الفتح ونشر سلطانهم فى المشرق والمغرب فى سنين قليلة ؟

الإيمان الذى ملأ قلوبهم فى مبدأ سيرهم ونهايته ، وصحبهم من (بدر) إلى بلاط الشهداء ، وحالفهم مشرّقين ومغرّبين وهازمين ومهزومين ؛ والثقة بوعد الله فى فتح الأرض ، والسيطرة عليها بالحق والعدل .

يسّر لهم الإيمان واليقين كل عسير ، وذلّل كل صعب ، وجمع كلمتهم وقلوبهم على الجهاد فى سبيل الله والصبر على ما يلقون ، ولقاء الموت راضين مستبشرين .

وكذلك يسّر لهم الفتح ، أنهم ساروا إلى الأمم على شريعة جامعة وقانون محكم ، لا يعتدون ولا يبغون ، ولا ينقضون العهد ولا يخفرون الذمة : تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم .

وأنهم جماعة نظام ، وجند طاعة فى السراء والضراء ، والشدة والرخاء ، والحرب والسلم .

وأنهم لم يسيروا فى الأرض ابتغاء الملك والسلطان والجبروت والمال ،

---

(١) عبقرية خالد — للعقاد ص (١٢٦ — ١٢٨) طبعة دار الهلال .
(٢) الصديق أبو بكر — للدكتور هيكل ص (١٨ — ١٩) .

ولـكن دعاة دين وشرع قويم وخلق كريم ، ورسل عدل ورحمة وأخوة ومواساة[1] .

تلك هي المبادىء الروحية والاجتماعية التي يسّرت للمسلمين الفتح ، أما الرجال الذين كانوا ذوي خبرة وقدرة يؤمنون بها ويعرفون كيف يتغلبون بها على أعدائهم ، فستقرأ عنهم في الـكتاب ما قلّ في التاريخ نظيره .

— ٦ —

إنّ معرفة الماضي هي وحدها تطوّع لنا تصوير المستقبل كما أسلفنا ، فالماضي والحاضر والمستقبل وحدة لاسبيل إلى انفصامها ، ومعرفة الماضي هي وسيلتنا لتشخيص الحاضر ولتنظيم المستقبل .

والحاضر الذي تمخّضت عنه الفتوحات الإسلامية يتناول بنوع عام كل المسلمين ، وبنوع خاص كل الشعب العربي . فلا عجب وماضي الفتح الإسلامي يربط على الزمان كافة الأمة الإسلامية والشعب العربي أن تـكون دراسة قادته وهم روح هذا الفتح — موضع عنايتها جميعا ، وأن يرى كل عربي وكل مسلم صورته إلى أربعمائة وألف سنة خلت ماثلة في هذه الدراسة ، وأن يتعرّف من طريقها الأسباب التي أدت إلى انتصار المسلمين وإلى تدهورهم بعد ذلك[2] .

فإلى العرب والمسلمين أتقدّم بهذه الصفحات من صحائف البطولة ،

---

(١) انظر مقال : سر الفوز العظيم في الفتوح الإسلامية — للدكتور عبد الوهاب عزام — مجلة الأزهر — الجزء الأول من المجلد الرابع والعشرين الصادر في غرة المحرم سنة ١٣٧٢ .

(٢) انظر الصديق أبو بكر — للدكتور هيكل ص (١٠ — ١١) .

وما أحوجنا أن تتذكر ونقتفى آثار رجالها ، ونعمل بهديهم ونتأسى بتضحياتهم ونغرس سيرة حياتهم العطرة فى نفوسنا جميعاً حكاماً ومحكومين وقادة وشعوبا .

— ٧ —

وبعد . فهذا هو الكتاب الأول عن : قادة فتح العراق والجزيرة أقدمه للعرب والمسلمين أقوى ما أكون أملًا فى أن يملأ فراغاً وأن يسد حاجة ، وقد اعتزمت بمشيئة الله أن أقدم الكتاب الثانى قريباً عن : فتح أرض الشام ومصر ؛ ولئن جعل الله فى العمر بقية وأمدنى بعون من عنده ، أخرجت كتباً متتالية عن كل قائد فاتح ضمّ بلداً إلى الدولة الإسلامية وحمل رايات الإسلام شرقاً وغرباً .

إن قصة حياة هؤلاء الأبطال تبهر العقول والأبصار ، فهل ستصمت الأصوات المنكرة التى عملت جاهدة لتهديم تاريخنا وتراثنا لتستورد تاريخاً وتراثاً من وراء الحدود ، أم على قلوب أقفالها ؟ !

أما الذين هداهم الله ، فسيقولون بفخر واعتزاز : أولئك آبائى فجئنى بمثلهم .

وأما الذين فى قلوبهم مرض ، من الذين ارتفعت أصواتهم المنكرة المريبة ، يدعون إلى رجال غير رجالنا ، وقادة غير قادتنا ، وأفكار غير أفكارنا ، ومعتقدات غير معتقداتنا ، فيجب أن تُخْرِس بطولاتُ وإيمان هؤلاء القادة ألسنتهم وتسكت أصواتهم إلى الأبد .

والحمد لله الذى يسّر لى التفرغ لدراسة تاريخ حياة قادة الفتح الإسلامى ، فله وحده الفضل والمنة ؛ وصلى الله على الرسول القائد سيد القادة ورائد الفتح الأول ؛ ورضى الله عن أصحابه : خريجى مدرسته ، ومعتنقى مبادئه ، وحاملى راياته .

القادة العامون

المثنى بن حارثة الشيباني

القائد الذي جرّأ العرب على مهاجمة الامبراطورية الفارسية ومهد لفتح العراق

« هذا رجل غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولا ذليل العماد . . هذا المثنى بن حارثة الشيباني » .
(قيس بن عاصم المنقري)

بنو شيبان :

كان بنو شيبان من هامات ربيعة[1] في الجاهلية وهم أبطال معركة (ذي قار)[2] ، وقد امتد بهم المجد في الإسلام . فكان منهم بيوتات سجل لها التاريخ صفحات خالدة .

وتكرّر أمثال يوم (ذي قار) بعد الإسلام بين الفرس وبني شيبان خاصة وبين الفرس وقبائل بني بكر عامة ، فكان بنو شيبان طلائع الفتح الإسلامي في العراق ، وكان المثنى بن حارثة الشيباني الذي كان من أشراف شيبان أول قائد عربي تجرأ على مهاجمة الإمبراطورية الفارسية في عقر دارها .

(١) بنو شيبان من بكر بن وائل ، وهؤلاء من ربيعة ، والمثنى من شيبان بن ثعلبة . انظر العقد الفريد (٢/٢٣٠) .

(٢) ذو قار : ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط ، وفي معركة ذي قار انتصف العرب من العجم لأول مرة في التاريخ . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٨/٨) وانظر الأغاني (٢٠/٣١٨ — ٣٢٦) عن معركة ذي قار . وكذلك انظر العقد الفريد (٣/٢٧٤ — ٢٧٩) عن معركة (ذي قار) أيضاً .

الصحابي :

وفد المثنى بن حارثة بن سلمة بن ضَمْضَم بن سعد بن مرة بن ذُهل بن شيبان على النبي صلى الله عليه وسلم سنة تسع مع وفد قومه[1] ، فأسلم . وهناك رواية توهم قدم إسلامه ، وهي قدوم النبي صلى الله عليه وسلم على جماعة من بني شيبان حين كان يعرض نفسه على القبائل العربية قبل الهجرة إلى المدينة المنورة ، فتلا الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم : « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ . . » الآية . . ثم تلا عليهم : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى) الآية ، فقال المثنى : « قد سمعت مقالتك واستحسنت قولك وأعجبني ما تكلمت به ، ولكن علينا عهد من كسرى : لا نحدث حدثاً ولا نؤوي محدثا ؛ ولعل هذا الأمر الذي تدعونا إليه مما يكرهه الملوك ، فإذا أردت أن ننصرك ونمنعك مما يلي بلاد العرب ، فعلنا ! » . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما أسأتم إذ أفصحتم بالصدق ! إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه بجميع جوانبه » ثم نهض النبي صلى الله عليه وسلم[2] . وهذا لا يدل على إسلام المثنى منذ ذلك الوقت ، كما توهم بعض من ترجم له[3] ؛ إذ لو كان قديم الإسلام لكان له ذكر في غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم نظراً لشجاعته الفائقة ومواهبه النادرة في قيادة الرجال .

لقد نال المثنى شرف الصحبة ، ولكنه لم ينل شرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد .

---

(١) أسد الغابة (٢٩٩/٤) والأصابة (٤١/٦) والاستيعاب (١٤٥٦/٤) . وقيل سنة عشر ، وانظر جمهرة أنساب العرب (٣٠٥) حول نسبه .

(٢) أسد الغابة (٤٠٩/٤) .

(٣) الاصابة (٤٢/٦) .

جهاده :

١ — فى حروب الردة :

عندما ارتدّت أكثر القبائل العربية — ومنهم ربيعة — التى كانت فى منطقة (البحرين)[١] ، ثبت المثنى على الإسلام مع من ثبت من قومه ؛ فكتب العلاء بن الحضرمى إلى من أقام على إسلامه من بكر بن وائل – ومنهم المثنى[٢] ، أن يعينوه على مكافحة المرتدين حتى يعودوا إلى الإسلام ؛ فكان المثنى على رأس الذين أعانوا العلاء بن الحضرمى فى مهمته الشاقة ، إذ ضيق الخناق على المرتدين وأخذ الطريق عليهم ؛ ولم يكتف بذلك ، بل تابع السير شمالاً على شاطىء الخليج العربى ليقاوم دسائس الفرس الذين شجعوا المسلمين فى منطقة الخليج العربى على الردة ويقضى على أنصارهم من القبائل ومن الأبناء[٣]

٢ — فى الفتح :

(١) التعرض التمهيدى :

تقدم المثنى بقواته شمالا من منطقة البحرين ، فقضى على الفرس وعمالهم ممن عاونوا المرتدين فى البحرين ، حتى وضع يده على (القطيف)[٤]

---

(١) البحرين : اسم جامع لبلاد على ساحل الخليج العربى بين البصرة شمالا وعمان جنوباً . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٢/٧٢) وآثار العباد للقزوينى ص (٢٧) .

(٢) الطبرى (٢/٥٢٦) .

(٣) الأبناء : قوم من العجم سكنوا البلاد العربية واختلطوا بالعرب بالمصاهرة فتعلموا لغتهم . قال السمعانى : كل من ولد باليمن من أبناء الفرس وليس من العرب .

(٤) القطيف : مدينة فى البحرين وهى قصبتها وأعظم مدنها . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٧/١٣١) .

و (هَجَرَ)[1] وحتى بلغ فى تقدمه مصب دجلة والفرات فى الخليج العربى .

وتساءل الناس عن هذا القائد الذى يسير من نصر إلى نصر ، وتساءل الصديق أبو بكر عنه قائلا : « من هذا الذى تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه ؟ »[2] فأجابه قيس بن عاصم المنقرى[3] : « هذا رجل غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولا ذليل العماد ، هذا المثنى بن حارثة الشيبانى[4] » .

وحضر المثنى بنفسه إلى المدينة ليتصل اتصالاً شخصياً بأبى بكر الصديق وليسأله أن يؤمِّره على رجاله ليهاجم بهم الفرس فى العراق ، قائلا : « يا خليفة رسول الله ! استعملنى عن قومى ، فإن فيهم إسلاماً ، أقاتل بهم أهل فارس ، وأكفيك أهل ناحيتى من العدو »[5] فكتب له أبو بكر الصديق بذلك عهداً[6] ، فهو الذى أطمع أبا بكر والمسلمين فى الفرس وهوّن أمر الفرس عندهم[7] .

واستمر المثنى على مهاجمة أهل السواد ، ثم بعث أخاه مسعودا إلى أبى بكر يسأله المدد ، فأمده بخالد بن الوليد المخزومى ، على أن يتولى خالد القيادة العليا

---

(١) هجر : مدينة فى البحرين ، وقيل : ناحية البحرين كلها هجر ، راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٨/٤٤٥) .

(٢) الإصابة (٦/٤١) .

(٣) قيس بن عاصم المنقرى : قدم فى وفد تميم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سنة تسع للهجرة ، فلما رآه النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : « هذا سيد أهل الوبر » وكان عاقلا حليما مشهوراً بالحلم . قيل للأحنف بن قيس : ممن تعلمت الحلم ؟ قال : « من قيس بن عاصم ! » راجع التفاصيل فى الاستيعاب (٣/١٢٩٥) وأسد الغابة (٤/٢١٩) والإصابة (٥/٢٥٨) .

(٤) أسد الغابة (٤/٢٩٩) والبلاذرى (ص ٢٤٢) .

(٥) الإصابة (٦/٤١) وأسد الغابة (٤/٢٩٩) .

(٦) البلاذرى (ص ٢٤٢) .

(٧) أسد الغابة (٤/٢٩٩) .

فى العراق وأن يكون المثنى بأمرته ؛ فسار خالد من (اليمامة) إلى العراق على رأس عشرة آلاف[1] من الجند ، وفى رواية أنه سار من المدينة إلى العراق[2] فلما وصل العراق كتب إلى المثنى ليأتيه ، وبعث إليه بكتاب أبى بكر الذى يأمره فيه بالسمع والطاعة لخالد ، (فانقض إليه جواداً حتى لحق به)[3] ، وهكذا تسارع الرجولة إلى الطاعة !

(ب) مع خالد :

قاتل المثنى تحت لواء خالد بن الوليد فى كل معاركه التى خاضها فى العراق : تارة تحت قيادة خالد المباشرة ، وتارة قائداً مستقلاً ؛ وكان خالد يقدِّر المثنى غاية التقدير ويعتمد عليه كل الاعتماد .

بعد معركة (الحفير)[4] التى انتصر فيها المسلمون على الفرس ، أمر خالد المثنى أن يطارد المنهزمين من الفرس ، فطاردهم المثنى مطاردة حاسمة كأنما يريد ألا يتركهم قبل أن يبلغ المدائن[5] ، ولكنه توقف عن المطاردة عندما جاءته الأنباء بأن جيشاً عظيما للفرس يعسكر فى (المذار)[6] ، فأيقن المثنى أن انفراد قواته بلقاء هذا الجيش الضخم قد يجر عليه الهزيمة ؛ لذلك اختار مكاناً مناسباً بالقرب من (المذار) وعسكر فيه .

---

(١) الطبرى (٢/٥٥٤) .
(٢) البلاذرى (ص/٢٤٢) .
(٣) الطبرى (٢/٥٥٢) .
(٤) الحفير : موضع قريب من الخليج العربى على حدود الصحراء قريب من ثغر كاظمة . راجع معجم البلدان (٣/٣٠٣) وكاظمة : موضع على البحر فى طريق البحرين من البصرة بينها وبين البصرة مرحلتان . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٧/٢٠٨) .
(٥) ابن الأثير (٢/١٤٨) .
(٦) المذار : كان المذار بين المواقع الذى انشئت فيه بعد ذلك واسط والموضع الذى أنشئت فيه بعد البصرة . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٧/٤٣٣) .

وتحشد المسلمون بقيادة خالد فى (المذار) ، وبدأ القتال بين الطرفين فانهزم الفرس بسفنهم ، وحال الماء بين المسلمين ومطاردة الفرس[1].

وبقى خالد يستعين بالمثنى إذا حضر ويستخلفه إذا غاب ، حتى فتح الله على المسلمين الحيرة ، والأنبار ، فأرسله خالد لمهاجمة (سوق بغداد) فأغار عليه وهزم المدافعين عنه[2]. ولما ورد أمر أبى بكر إلى خالد بالحركة إلى أرض الشام لمقاتلة الروم ، وأن يأخذ نصف الناس ويستخلف المثنى على العراق فى نصف الناس ، أحضر خالد أصحاب رسول الله صلى الله عليه الذين كانوا معه واستأثر بهم لنفسه تاركاً للمثنى مثل عددهم ممن لم يكن له مع الرسول صلى الله عليه وسلم صحبة ، واستأثر لنفسه أيضاً بمن كان قدم على النبى صلى الله عليه وسلم وافداً تاركاً للمثنى مثل عددهم من أهل القناعة ، ثم قسّم سائر الجند قسمين ؛ فلما رأى المثنى صنع خالد غضب وقال : « والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبى بكر ! وبالله ما أرجو النصر إلا بأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم » فلما رأى خالد ذلك ، أرضاه[3].

ودع المثنى خالداً حين سفره من العراق إلى الشام حتى تخوم البادية ، ولما آن لهما أن يفترقا ، قال خالد للمثنى : « ارجع رحمك الله إلى سلطانك غير مقصر ولا وان »[4].

(حـ) القائد العام :

كان الموقف العسكرى فى العراق عند مغادرة خالد له دقيقاً للغاية ،

---

(١) ابن الأثير (٢/١٤٨) .
(٢) البلاذرى (ص ٢٤٧) والطبرى (٢/٥٨٤) .
(٣) ابن الأثير (٢/١٥٦) والطبرى (٢/٦٠٠) واليعقوبى (٢/١١٢) .
(٤) البلاذرى (ص ٢٥٠) .

فقد كانت قوات المثنى قليلة بالنسبة لقوات الفرس، وكانت خطوط مواصلاته بعيدة بالنسبة لخطوط مواصلات الفرس ؛ أما المشاكل الداخلية فى بلاد الفرس فقد أصبحت أقل من السابق بعد اتفاق الفرس على رفع (شَهْر بَرَاز ابن أردشير)[1] إلى العرش ، فلما اطمأن الأمر له ، كان إجلاء المسلمين عن العراق أول ما استقرّ عليه عزمه ! ! .

ولعل شعور خالد بن الوليد بدقّة الموقف فى العراق هو الذى دفعه إلى ترحيل النساء والصبيان والضعفاء من الرجال إلى المدينة قبل سفره إلى الشام[2] .

وبلغ المثنى أنباء تحشّد القوات الفارسية لمهاجمة قواته ، فسار حتى بلغ أطلال (بابل)[3] ، وانتظر هناك عشرة آلاف مقاتل فارسى يقودهم (هرمز جاذوية) ؛ وإنه فى انتظاره لقاء العدو ، إذ وصلته رسالة كسرى يقول فيها : « إنى قد بعثت إليكم جنداً من وحش أهل فارس ، وإنما هم رعاة الدجاج والخنازير ولست أقاتلك إلا بهم » فكتب إليه المثنى : « إنما أنت أحد رجلين : إما باغ ، فذلك شر لك وخير لنا ؛ وإما كاذب ، فأعظم الكذابين عقوبة وفضيحة عند الله وعند الناس الملوك . وأما الذى يدلنا عليه الرأى ، فإنكم إنما اضطررتم إليهم ، فالحمد لله الذى ردّ كيدكم إلى رعاة الدجاج والخنازير[4] » .

والتقى الجيشان على أطلال مرتفعات (بابل) وكان يتقدم جيش (هرمز)

---

(١) الطبرى (٢/٦٠٥) وابن الأثير (٢/١٥٩) .

(٢) الطبرى (٢/٦٠٨) .

(٣) بابل : مدينة أثرية شمال مدينة الحلة وقريبة منها . وكان يطلق اسم بابل على ناحية بين الحلة والكوفة . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٢/١٨) وآثار العباد (٣٠٤) .

(٤) الطبرى (٢/٦٠٦) وابن الأثير (٢/١٦٠) .

فيل يفرّق بين الصفوف والكراديس ويوقع الرعب فيهم ، فأيقن المثنى أن انتصاره رهن بالقضاء على هذا الفيل ، فخرج على رأس جماعة من رجاله، وهاجموا الفيل وأصابوا منه مقتلاً ! فانهزم الفرس بعد قتال شديد ، فطاردهم المثنى إلى أبواب المدائن[1] .

ونزلت أنباء الهزيمة بكسرى نزول الصاعقة ، فحم ، فمات ! وبعد موته عاد الاضطراب إلى بلاط فارس ، فأراد المثنى انتهاز هذه الفرصة السانحة ، فكتب إلى أبي بكر يخبره بانتصاره ، ويستأذنه فى الاستعانة بمن ظهرت توبتهم من أهل الردة . . . .[2]

وانتظر ورود النجدات إليه لإكمال فتح العراق ، وما كان أبو بكر ليمده وجيوش المسلمين كلها فى الشام ؛ لذلك غادر المثنى العراق إلى المدينة ليخبر أبا بكر خبر المسلمين والفرس ، وليستأذنه فى الاستعانة بمن ظهرت توبته وندمه من أهل الردة ؛ فوجد أبا بكر مريضاً على فراش الموت ، ومع ذلك استقبله الخليفه وسمع إليه واقتنع برأيه ، وقال : « عليّ بعمر » وكان قد استخلفه . فلما جاء ، قال له : « اسمع يا عمر ما أقول لك ثم اعمل به . إنى لأرجو أن أموت من يومى هذا ، فإن أنا متّ فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ، ولا يشغلنكم مصيبة — وإن عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم! وقد رأيتنى متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعت ، ولم يصب الخلق بمثله . وبالله لو أنى أنِيْ عن أمر الله وأمر رسوله . . . لخذلنا ، ولعاقبنا ، فاضطرمت المدينة ناراً ، وإن فتح الله على أمراء أهل الشام ، فاردد أصحاب

---

(١) ابن الأثير (١٦٠/٢) والطبرى (٦٠٦/٢) .

(٢) الطبرى (٦٠٥/٢) .

خالد إلى العراق ، فإنهم أهله وولاة أمره وحده ، وهم أهـل الضراوة والجرأة عليهم »[1].

ووعد عمر أن ينفذ ذلك حرفيا .

(د) مع أبي عبيد الثقفي :

لما أصبح عمر من الليلة التي مات فيها أبو بكر ، كان أول ماعمله أن استنفر الناس للانضواء تحت لواء المثنى ؛ ولما بايعه الناس وبايعهم ، استنفرهم ثلاثة أيام متتالية دون مجيب ، ذلك لأن جبهة القتال الفارسية ، كانت من أكره الجبهات إليهم وأثقلها عليهم ، لشدة سلطان الفرس وعزهم وشوكتهم وقهرهم الأمم[2] فلما كان اليوم الرابع ، عاد فندب الناس إلى العراق ، فكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود الثقفي ، فولاه عمر منصب القيادة العامة في العراق[3] .

وتكلم المثنى يشجّع الناس ويهوّن عليهم أمر الفرس ، فقال : « يا أيها الناس ؛ لا يَعْظُمَنّ عليكم هذا الوجه ، فأنا قد تبجبجنا[4] ريف فارس وغلبناهم على خير شقي السواد وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ، ولها إن شاء الله ما بعدها »[5] ؛ فتوالى المتطوعون حتى بلغوا ألف رجل من أهل المدينة[6] فقط .

---

(١) الطبري (٢/٦٠٧) وابن الأثير (٢/١٦٠) .
(٢) الطبري (٢/٦٣١) وتاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص (٦٧) .
(٣) البلاذري (ص ٢٠١) وابن الأثير (٢/١٦٦) والاصابة (٤/٢٩٩) واليعقوبي (٣/١٢٠) .
(٤) تبجبج المكان : أي توسطه .
(٥) الطبري (٢/٦٣١) وابن الأثير (٢/١٦٦) .
(٦) البلاذري (ص/٢٠١) .

وأمر عمر المثنى أن يعود سريعاً إلى العراق وينتظر هناك إلى أن يقدم عليه رجاله ، وأمره باستنفار من حسن إسلامه من أهل الردة[1] ، فسار المثنى حتى قدم (الحيرة) ؛ ووصل أبو عبيد الثقفى بعده بشهر ؛ فلما وصلها المثنى علم أن الفرس شغلوا عن المسلمين أثناء غيبته باختلافهم على العرش مما أدى إلى نشوب معارك داخلية بين الطامعين بالعرش حتى استقر الملك بيد (بوران) يعاونها وزيرها المحنك (رستم) الذى عرف بجرأته وطموحه ، فعمل هذا على إثارة الرأى العام ضد المسلمين ، وأرسل جنداً لمصادمة المثنى ، وأرسل دعاته لإثارة أهل السواد ، فثارت أهل السواد من أعلاه إلى أسفله بالمسلمين ، لذلك قرر المثنى أن ينسحب بجيشه من الحيرة حتى لا يؤتى من خلفه ! فانسحب منها ونزل (خَفّان)[2] ، وأقام فيها حتى قدم عليه أبو عبيد[3] .

لبث أبو عبيد فى (خَفّان) أياماً يستريح هو وأصحابه ، فلما علم أن الفرس نزلوا (النمارق)[4] ، سار إليه بقوات المسلمين ، وجعل المثنى على الخيل ، فاقتتل الطرفان هناك قتالا شديدا ، انهزم الفرس على أثره أمام المسلمين ووقع قائدهم (جابان) أسيرا[5] .

والتقى المسلمون بالفرس فى معركة (السقاطية)[6] ، فانتصر المسلمون بعد

(١) ابن الأثير (٢/١٦٦) .
(٢) خفّان : موضع قرب الكوفة . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٣/٤٥١) .
(٣) ابن الأثير (٢/١٦٧) .
(٤) النمارق : موضع قرب الكوفة . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٨/٣١٦) .
(٥) الطبرى (٢/٦٣٤) .
(٦) السقاطية : ناحية قريبة من الموضع الذى أنشئت فيه بعد مدينة واسط . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٥/٩١) .

قتال شديد أيضاً ، فأقام أبو عبيد بناحية (كسكر)[1] ، وسرّح المثنى وغيره من القادة يغيرون على تلك النواحي ويخضعونها للمسلمين[2] .

والتقى الطرفان في معركة (الجالينوس) ، فانهزم الفرس أيضاً[3] فارتحل أبو عبيد وقدّم المثنى حتى قدم الحيرة[4] واستقر بها .

ولكن الفرس حشدوا جيشاً عظيما بقيادة (بَهْمَن جاذويه) ، فعبر إليه أبو عبيد بجيشه ، وقبل نشوب القتال بين الطرفين عيّن أبو عبيد الأمراء الذين يتولون قيادة المسلمين من بعده إذا استشهد ، وكان من بين الذين عينهم المثنى ، فلما استشهد أبو عبيد واستشهد الذين تعاقبوا على اللواء حسب وصيته من بعده ، تولى المثنى ، وكانت معنويات الناس حينذاك قد انهارت ، فارتد كثير منهم إلى (الجسر) يريدون النجاة بأنفسهم .

لم يكن المثنى يطمع حينذاك بأكثر من حماية انسحاب المسلمين حتى يقلّل من خسائرهم ، وبينما كان يفكر في خطة حكيمة لسحب المسلمين بأقل ما يمكن من خسائر ، إذ أقدم عبدالله بن مَرْثُد الثقفي على قطع الجسر هاتفا بأعلى صوته : « أيها الناس ! موتوا على ما مات عليه أمراؤكم ، أو نظفر ! .. » فضاعف هذا العمل الارتجالي مشاكل قيادة المثنى في هذا الموقف العصيب ! .

وخشي المثنى أن تعمّ الفوضى ويتفاقم الخطر ، فوقف واللواء بيده ينادي :

---

(١) كسكر : منطقة غنية بمنتوجاتها الزراعية والحيوانية ، قصبتها مدينة واسط . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٧/٢٥١) .

(٢) الطبري (٢/٦٣٧) وابن الأثير (٢/١٦٧) .

(٣) الطبري (٢/٦٣٨) وابن الأثير (٢/١٦٨) .

(٤) الطبري (٢/٦٣٩) .

«يا أيها الناس ! أنا دونكم ، فاعبروا على هينتكم[1] ولا تدهشوا فإنا لن نزايل حتى نراكم من ذلك الجانب ، ولا تغرقوا أنفسكم[2] ، فعبر الناس والمثنى يقاتل دونهم ويحول هو ورجاله بين الفرس وبينهم ، فأصابت المثنى وهو فى موقفه ذاك ضربة رمح جرحته وأثبتت فيه حلقا من درعه .

وبعد عبور المسلمين ، عبر المثنى آخر من عبر ، وبذلك استطاع المثنى أن يخلّص من الغرق والقتل من بقى من جند المسلمين ، إذ عبروا إلى الجانب الآخر والمثنى صامد دونهم لا يزعزعه شىء .. حتى الجرح البليغ الذى أصابه !!

وانسحب المثنى بقواته إلى الحيرة ، ثم إلى (أُلّيْس)[3] جنوباً ، ليفلت من مطاردة الفرس .

(هـ) القائد العام ثانية :

ارفضّ عن المثنى أهل المدينة حتى لحقوا بالمدينة ، وتركها بعضهم ونزلوا البوادى ، وبقى المثنى فى قلّة[4] ، فأرسل يطلب المدد من عمر ، وبعث إلى من يليه من القبائل العربية ، فتوافوا إليه فى جمع عظيم[5] . . .

وتتابعت على المثنى الإمدادات من المدينة ، فحشد المثنى جيش المسلمين فى (البُوَيْب)[6] ، وفيها التقى المسلمون بجيش الفرس بقيادة (مهران) .

(١) على هينتكم : متمهلون .
(٢) الطبرى (٢ / ٦٤٢) .
(٣) ألّيْس : قرية من قرى الأنبار . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٣٢٨/١) .
(٤) الطبرى (٦٤٢/٢) .
(٥) ابن الأثير (١٦٩/٢) والطبرى (٦٤٥/٢) .
(٦) البويب : نهر فى منطقة الكوفة يأخذ من الفرات . راجع معجم البلدان (٣١٠/٢) .

وبعث (مهران) إلى المثنى يقول : « إما أن تعبروا إلينا ، وإما أن نعبر إليكم » ، فقال المثنى : « اعبروا أنتم ، » فعبر (مهران) بجيشه[1] .

وعبأ المثنى أصحابه ، وكان الوقت رمضان ، فأمرهم بالإفطار ليقووا على عدوهم ، فأفطروا[2] ، وخرج على فرسه (الشموس) ، وكان لا يركبه إلا لقتال ، وطاف راكباً بين الصفوف : يحضهم ويحرضهم ويهزهم بأحسن ما فيهم ، فكان يقف عليهم راية راية ، ويقول : « إنى لأرجو ألا تؤتى العرب من قبلكم . والله ما يسرنى اليوم شيء لنفسى إلا وهو يسرنى لعامتكم »[3] .

وقال المثنى : « إنى مكبّر ثلاثاً ، فتهيئوا ، ثم احملوا مع الرابعة » ، ولكنه ما كاد يكبّر التكبيرة الأولى حتى أعجل الفرس المسلمين وعاجلوهم وشدّوا عليهم ، فاختلّت بعض صفوف المسلمين من بنى (عجل) ، فأرسل المثنى من يقول لهم : « إن الأمير يقرأ عليكم السلام ، ويقول لكم : لا تفضحوا المسلمين اليوم ! » ، فاعتدل بنو (عجل) وهاجموا مع المسلمين القوات الفارسية ، واشتبك الطرفان فى قتال مرير دام سجالاً بضع ساعات ، ففكر المثنى بأن يحمل بنفسه على قائد الفرس فيزيله عن مكانه أو يقتله . . . فحمل على (مهران) حملة صادقة حتى دخل ميمنته . ورأى الفرس ما حدث ، فاندفعوا لحماية قائدهم ، وعندما انكشف الغبار رأى المسلمون تراجع قلب الفرس ، فحملت ميمنة المسلمين وميسرتهم ، فسارع الفرس إلى التراجع نحو النهر خوفاً من التطويق يريدون النجاة بأنفسهم . . . !

---

(١) الطبرى (٢/٦٤٥) .
(٢) ابن الأثير (٢/١٦٩) .
(٣) الطبرى (٢/٦٤٨) وابن الأثير (٢/١٧٠) .

وحرّض المثنى جنده قائلا : « عاداتكم فى أمثالهم ! انصروا الله ينصركم »[1] ثم سابق المثنى الفرس المنسحبين إلى الجسر ، فسبقهم إليه وقطعه ، وبذلك قطع خط رجعتهم الوحيد وكبّدهم خسائر تقدر كما قيل بمائة ألف قتيل ؛ ولكن المثنى ترك فى ساحة المعركة أخاه مسعود بن حارثة شهيداً ، فقال المثنى : « أيها الناس ! لا يرعكم مصرع أخى ، فإن مصارع خياركم هكذا ... » وترك فى ساحة المعركة كثيرا من الشهداء . . .

وقال المثنى بعد المعركة : « قد قاتلت العرب والعجم فى الجاهلية . والله لمائة من العجم فى الجاهلية كانوا أشد على من ألف من العرب ، ولمائة اليوم من العرب أشد على من ألف من العجم . إن الله أذهب بأسهم ووهن كيدهم ، فلا يروعنكم زُهَاء ترونه ولا سَواد ولا قِسِىّ فُجٌ ولا نبال طوال ، فإنهم إذا أعجلوا عنها أو فقدوها كالبهائم ، أينما وجهتموها اتجهت[2] !

وذكر المثنى قطع الجسر على الفرس ، مما أدى إلى إفناء جيشهم من جهة وازدياد خسائر المسلمين بالأرواح من جهة أخرى ، فقال منكرا صنيع نفسه معترفاً بخطئه : « لقد عجزت عجزة وقى الله شرها بمسابقتى إياهم إلى الجسر حتى أحرجتهم ، فإنى غير عائد ، فلا تعودوا ولا تقتدوا بى أيها الناس ، فإنها كانت منى زله : لا ينبغى إحراج أحد إلا من لا يقوى على امتناع[3] ! ! » .

وهكذا بكل بساطة يعترف القائد المنتصر بخطئه بعد انتصاره العظيم مباشرة فى أول معركة حاسمة فى العراق بين الفرس والمسلمين .

---

(١) الطبرى (٢/٦٥٠) وابن الأثير (٢/١٧٠) ، ويراجع البلاذرى (ص ٢٥٤) حول كلام المثنى عن مصرع أخيه .

(٢) الطبرى (٢/٦٥٠—٦٥١) . وفى جمهرة انساب العرب (٣٠٥) : أن المثنى قتل (مهران) قائد الفرس .

(٣) الطبرى (٢/٦٥١) .

ووقف المثنى يؤبن الشهداء ومن بينهم أخوه مسعود بن حارثة الشيبانى بعد الصلاة عليهم ، فقال : والله إنه ليهوّن على وَجْدى أن شهدوا البويب أقدموا وصبروا ولم يجزعوا ولم ينكلوا ، وإن كان فى الشهادة كفارة لتجوّز الذنوب »[1] .

وأمر المثنى رجاله بالاندفاع فى مطاردة الفرس ، ففتحوا السواد كله حتى بلغوا (ساباط)[2] ، كما انطلق المثنى بدوره ، فغزا (الخَنافِس) و (الأنبار) ، وبلغ المسلمون على محور دجلة قرية (بغداد) ومدينة (تكريت)[3] .

وأخذت فارس بعد هزيمتها ، تعد جيشاً ضخماً لاستعادة العراق من المسلمين ، خاصة بعد اجتماع كلمتهم على تولية كسرى (يزدجرد بن شهريار) ، فثار أهل السواد بالمسلمين ، فلم يجد المثنى بداً من الانسحاب ثانية إلى تخوم شبه الجزيرة العربية ، فنزل (بذى قار) منتظرا الإمدادات التى كان قد طلبها من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب[4] .

---

(١) الطبرى (٢/٦٥١ — ٦٥٢) . وعندما صرع مسعود بن حارثة الشيبانى أخو المثنى ، تضعضع من معه ، فرأى مسعود ذلك وهو دنف فقال : « يامعشر بكر بن وائل ! ارفعوا رايتكم رفعكم الله ، لايهولنكم مصرعى » الطبرى (٢/٦٥٠) وابن الأثير (٢/١٧٠) . والخنافس : أرض للعرب قرب الأنبار . انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٣/٤٦٨) .

(٢) ساباط : مدينة قريبة من المدائن . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٥/٢) ، وراجع عن مطاردة المسلمين للفرس ماجاء فى الطبرى (٢/٦٥٣) .

(٣) الخنافس : أرض للعرب قرب الأنبار . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٣/٤٦٨) والأنبار : مدينة على الفرات غربى بغداد (الفلوجة حالياً) راجع التفاصيل فى معجم البلدان (١/٣٤٠) ، وكانت بغداد يومذاك قرية وتكريت مدينة . يراجع تفاصيل هذه المعارك فى الطبرى (٢/٦٥٥ — ٦٥٨) وابن الأثير (٢/١٧١ — ١٧٢) والبلاذرى (ص ٢٥٥) .

(٤) ابن الأثير (٢/١٧١) والطبرى (٢/٦٥٩) .

٣ — الشهيد :

لم يطل انتظار المثنى (بذى قار) طويلا لقدوم سعد بن أبى وقاص الزهرى القائد العام الجديد للعراق ، حتى نغر الجرح الذى كان أصابه فى معركة (الجسر) ، فمات شهيداً قبل وصول سعد وجيشه إلى أرض العراق[1] وذلك فى سنة أربع عشرة للهجرة ، ولكنه ترك وصية عسكرية لسعد تعتبر عصارة تجاربه وخبرته فى حرب الفرس ، يذكر فيها لسعد : « ألا يقاتل عدوه وعدوهم من أهل فارس إذا استجمع أمرهم وماؤهم فى عقر دارهم ، وأن يقاتلهم على حدود أرضهم ، على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مَدَرَة[2] من أرض العجم ، فإن يظهر الله المسلمين فلهم ما وراءهم ، وإن كانت الأخرى رجعوا إلى فئة يكونون أعلم بسبلهم وأجرأ على أرضهم إن يرد الله الكرة عليهم » فحمل هذه الوصية إلى سعد المُعَنَّى بن حارثة الشيبانى أخو المثنى وسلمى زوج المثنى ، فترحّم سعد ومن معه على المثنى وجعل المعنى على عمله وأوصى بأهل بيته خيرا[3].

لقد كان سعد يتمنى أن يعاونه المثنى فى مهمته الصعبة ، ولكن الأقدار حرمته من ذلك وحرمت المثنى من الاشتراك فى (القادسية) وعندما حمى الوطيس واستكلب الموت على الأبطال فى تلك المعركة الحاسمة ، هتفت سلمى زوج المثنى — وكان سعد تزوجها بعد المثنى — حين لم تجد المثنى يسوس الأجناد ويقود الجلاد ، قائلة : « وامثناه ! ولا مثنى اليوم للخيل ! ! ! »[4].

---

(١) ابن الأثير (١٧٣/٢) والطبرى (٧/٣) .

(٢) مدرة : بفتحتين ، واحدة (المدر) ، والعرب تسمى القرية (مدرة) . راجع مختار الصحاح (ص ٦١٩) .

(٣) الطبرى (١٠/٣) وابن الأثير ٢/١٧٤) .

(٤) الطبرى (٥١/٣) وابن الأثير (١٨٣/٢) . وفى أسد الغابة (٢٩٩/٤) جاء قول سلمى « وامثناه ! ولامثنى للمسلمين اليوم ! ! » وفى المعارف (١٠٠) أن سلمى قالت : « القوم أقران ولامثنى لهم » . انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٣١٦/٨) .

شعره :

هذه نماذج من أشعار المثنى التي يتغنى فيها ببعض فتوحاته، وهى تدل على أن المثنى كرّس كل شيء فى حياته — حتى شعره — للجهاد ، فهو بحق فارس الشعراء وشاعر الفرسان .

ولعل الكثير من شعره قد ضاع ، فلم تصل إلينا إلا بعض أشعاره . قال يذكر معركة (النمارق)[1]:

غَلَبنا على (خَفّانَ) بيداً مُشيحة   إلى النخَلاَتِ السُّمر فوق (النمارق)[2]
وإنا لنرجو أن تجول خيولنا   بشاطى الفرات بالسيوف البوارق

وقال يذكر يوم (الخنافس)[3]:

صبحنا (بالخنافس) جمع بَكْرٍ   وَحيًّا من قُضاعة غير مِيل
بفتيان الوغى من كل حى   تبارى فى الحوادث كل جيل
نسفنا سوقهم والخيـل رُوْدٌ   من التَّطْواف والشر البخيل[4]

ولعلك تلمس معى ، فى هذا الشعر ، آمال القائد المنتصر فى انتصار جديد ، وتلمس فيه صولة الفرسان الشجعان الذين لا مثيل لهم فى كل جيل ، حتى أصبحت خيولهم — وقد قطعت مسافات شاسعة وهى تحمل الفاتحين — لا تقوى على السير إلا بصعوبة .

---

(١) معجم البلدان (٨/٣١٦) .

(٢) (خفان) اسم موضع راجع التسلسل (٣٨) ، و (النمارق) اسم موضع قرب الكوفة من أرض العراق . انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٨/٣١٦) .

(٣) راجع معجم البلدان (٣/٤٦٨) .

(٤) الخنافس : اسم مكان راجع التسلسل (٦١) . غير ميل : أى غير مائلين من السروج . رود بوزن عود أى على مهل وتصغيره رويد . أى أن الخيل من التعب الشديد تسير على مهل .

إنها صور شعرية رائعة ، لا يقوى على الإتيان بمثلها إلا شاعر أصيل !

الشمائل :

كان المثنى شجاعاً مقداماً ، شهماً غيوراً ، وكان مأمون النقيبة حسن الرأى[1] ، وكان راسخ العقيدة ، قوى الإيمان شديد الثقة بنفسه ، بعيد النظر ، يؤثر المصلحة العامة على مصلحته الشخصية ، يعترف بخطئه عند الحاجة بكل صراحة ولا يصر عليه . وكان يشارك أصحابه فى السراء والضراء ؛ (أنصفهم من نفسه فى القول والفعل ، وخلط الناس فى المحبوب والمكروه ، فلم يقدر أحد أن يعيب له قولاً ولا فعلا)[1] .

لقد كان المثنى مثالاً للإنسان الكامل فى صفاته الإنسانية ومزاياه .

القائد :

يتضح لنا من دراسة أعمال المثنى العسكرية ؛ أنه كان يمتلك موهبة إعطاء القرارات الصحيحة السريعة ؛ وكان ذا إرادة قوية ثابتة ، يتحمل المسؤولية الكاملة فى أخطر الظروف والأحوال كما فعل فى معركة الجسر ؛ له نفسية لا تتبدل فى حالتى النصر والهزيمة ؛ يثق بقواته وتثق قواته به ثقة لا حدود لها ويحبهم ويحبونه حباً لا مزيد عليه ، ذا شخصية قوية نافذة ، فهو بحق كما يقول عنه عمر بن الخطاب : « مؤمر نفسه »[3] ، له قابلية بدنية فائقة تعينه على تحمل أعباء القتال ، وله ماض ناصع مجيد .

---

(١) الاصابة (٤/٤١) واسد الغابة (٩٩٢/٤) .
(٢) ابن الأثير (١٧٠/٢) .
(٣) أسد الغابة (٢٩٩/٤) .

وكان شجاعاً إلى أقصى حدود الشجاعة ، مقداماً إلى أقصى حدود الإقدام، فكان دائماً أول من يهجم وآخر من ينسحب ، وكان خبيراً بمناطق العراق ، جريئاً على الفرس، سريع الحركة ، واسع الحيلة ، وكان أول من اجترأ على الفرس بعد الإسلام وجرأ المسلمين عليهم : فقد (أبلى فى حروب العراق بلاء لم يبله أحد)[1].

وعند تطبيق مبادىء الحرب على أعمال المثنى العسكرية ، يتضح لنا أنه طبق أهم تلك المبادىء ، فقد كان يطبق مبدأ (اختيار المقصد وإدامته) ، متشبعاً بروح (التعرّض) ، يعمل بهمة وبدون كلل لإكمال (تحشيد قواته) قبل كل معركة يخوضها ، كما يطبق مبدأ (التعاون) بين مختلف تشكيلات وصنوف جيشه ويعمل على (إدامة معنويات) قطعاته قبل المعركة وفى أثنائها و بعدها .

ولقد كان كثير الحركة أثناء المعركة ، يتجول بنشاط لا يفتر بين أقسام جيشه ويقوّم بنفسه نقاط الضعف التى يجدها و يسد الثغرات التى يعثر عليها ، كما يبادر إلى توجيه القوات المناسبة إلى النقاط الضعيفة والثغرات التى يجدها بين صفوف عدوه . . . إنه مثال القائد الذى يؤمّن (الاستطلاع الشخصى) أثناء القتال .

وكان شديد الضبط مطيعا ، ينفّذ أوامر رؤسائه برحابة صدر ، فقد عمل بكل إخلاص بأمرة خالد بن الوليد فى عهد أبى بكر الصديق ، وبأمرة أبى عبيد الثقفى فى عهد الفاروق عمر ، كما لم يتذمر من تعيين سعد بن أبى وقاص قائدا

(١) الإصابة (٤/٤١) وأسد الغابة (٤/٢٩٩) .

عاما فى العراق ، ولو عاش لعمل بأمرة سعد أيضا غير مكترث أن يكون رئيسا أو مرؤوسا مادام هو لا يعمل لنفسه بل لإعلاء كلمة الله !

ما أشبه مزايا قيادة المثنى بمزايا قيادة خالد بن الوليد ، تلك المزايا التى جعلت هذين القائدين العظيمين لا يخسران معركة فى كل حياتهما العسكرية ، بل كان النصر حليفهما فى مختلف المعارك والحروب .

المثنى فى التاريخ :

يذكر التاريخ للمثنى جهاده مع العلاء بن الحضرمى للمرتدين ، مما أدى إلى إعادة سيطرة المسلمين على منطقة البحرين .

ويذكر له أنه كان أول مسلم هاجم الامبراطورية الفارسية فى عقر دارها[1] ، فحمل عن المسلمين عبئا لم يحمله غيره ، فهو الذى جرأ العرب على محاربة الفرس ، وهو الذى رفع معنويات العرب وحطّم معنويات الفرس ، فكانت أعماله العسكرية فى العراق فاتحة لفتحه فيما بعد ، وكانت معركة (البويب) تمهيدا لمعركة (القادسية) وإيذانا بانهيار الامبراطورية الفارسية وانتشار الإسلام فى ربوع بلادها .

وأخيرا جاد بروحه فى سبيل عقيدته ، فمات شهيدا متأثرا بجروحه التى أصيب بها فى معركة (الجسر) التى لولا قيادة المثنى فى أعقابها لكان مصير المقاتلين فيها من المسلمين الفناء .

إن المثنى كان نمطا فريدا بين القادة فى كل أدوار التاريخ ، فهو بحق مفخرة من أكبر مفاخر العرب والمسلمين فى كل مكان وبكل زمان .

رضى الله عن بطل الأبطال ورجل الرجال ، القائد الإنسان المثنى ابن حارثة الشيبانى .

---

(١) جمهرة أنساب العرب (٣٠٥) .

خالد بن الوليد المخزومي

سيف الله

« نعم عبد الله . هذا سيف من سيوف الله »

(محمد رسول الله)

مستهل

لاقت سيرة خالد عناية فائقة من المؤرخين ، إلا أننا لازلنا نفتقر إلى الدراسة الفنية لعبقرية خالد العسكرية من ناحية ، ولشخصيته إنساناً من ناحية أخرى .

وقد تقرأ مجلداً ضخماً عن خالد ، فتجد أن معظم ما فيه بحث عن معارك خالد بصورة تفصيلية ، مع أن هذه المعارك ليست من صنع خالد وحده بل هي من صنع رجاله كلهم ، فهم الذين نفّذوا خطة خالد وهم الذين تحمّلوا أعباء القتال ، ولو كان خالد وحده في ساحة المعركة لما استطاع أن يفعل شيئا . لذلك ذكرت من هذه المعارك ما يظهر أثر خالد الشخصي فقط في المعركة ، لكي استنتج من ذلك مزايا قيادة خالد بشكل واضح ملموس .

وحاولت جاهداً أن أعثر على ما يصوّر خالداً الإنسان : سمته وشكله وأخلاقه وتصرفاته وقابلياته . . . الخ ، إذ أن معرفة شخصيته إنساناً لا تقل فائدة عن معرفة شخصيته قائدا ؛ وكنت أطمع في دراستي لخالد الإنسان أن أقدم وصفاً يعين القارىء على تصوّره رجلاً بالذات أو رجلاً يشابهه إلى أقرب الحدود ، ويعين المصوّر على رسم لوحة فنية إن لم تكن تشابهه فهي قريبة الشبه به .

وحاولت أن أعطي فكرة كاملة للقارىء عن مزايا قيادة خالد ، حتى يعرف كيف ولماذا انتصر ، كما حاولت أن أبسّط بشكل يفهمه القارىء المدني والعسكري ، لذلك شرحت بعض المصطلحات العسكرية باختصار لتعين المدنيين على تفهّم النواحي الفنية من دراسة حياة خالدالعسكرية .

وكانت تصرّفات خالد فى بعض القضايا مثار خلاف فى الرأى بين الصحابة فى حياته وبين الباحثين فى سيرة حياته والمثقفين حتى اليوم ، لذلك أبديت الرأى بشكل جازم فى كل تصرفاته التى كانت ولا تزال موضع اختلاف الباحثين والمثقفين .

وقد أعاننى على البت فى تلك الاختلافات الخاصة بالناحية العسكرية تيسّر الخرائط التى لم تكن مَيسرة من قبل لمعرفة من أين بدأ خالد فتحه فى العراق ، أمن اتجاه الحيرة أم من اتجاه الأُبلّة ؟ وبكلام آخر ، هل بدأ فتحه من جنوب العراق من منطقة البصرة أم من وسطه من منطقة الكوفة ؟ إنّ معرفة مكان قوات خالد قبل المسير إلى العراق ودراسة الخريطة لمعرفة أقرب الطرق الممكن سلوكها إلى العراق ، وبحث المحاذير العسكرية لبدء الفتح من وسط العراق ، كل ذلك يجعلنا نقرّر بشكل جازم أنه بدأ فتحه فى جنوب العراق ، وبذلك نعطى نهاية لاختلاف المؤرخين حول هذا الموضوع .

كما أن الخرائط أعانتنى على البت فى الطريق الذى سلكه خالد من العراق إلى أرض الشام ، إذ هناك روايات متباينة عن الطريق الذى سلكه خالد للوصول إلى قوات المسلمين فى أرض الشام .

كما وضعت حداً للاختلافات القائمة عن بعض أعماله العسكرية أو التى لها صلة بأعماله العسكرية ، مثل قضية نقله من العراق إلى أرض الشام وأسباب هذا النقل والمصب الذى نقل إليه وعدد قواته التى صاحبته من العراق إلى أرض الشام ، وقضية عزله ولماذا أقدم عمر بن الخطاب على هذا العزل ، وقضية دخول خالد دمشق صلحاً أم قسرا . كما اجتهدت أن أضع حداً للاختلافات فى تصرّفات خالد فى بنى جذيمة فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وفى قضية قتله مالك بن نويرة فى عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

وليس من العجيب أن تبقى الاختلاف فى الرأى عن بعض تصرفات خالد وبعض ما يتصل بحياته العسكرية ، لأن الذين كتبوا عنه من القدامى كانوا غير مزوّدين بثقافة عسكرية أصيلة ، بل إن هذه الثقافة بعيدة عن ثقافتهم العامة كل البعد ، ولكن العجيب أن تبقى الاختلافات فى الرأى فى بعض تصرّفات خالد غير العسكرية .

على كل حال ، فقد بذلت أقصى ما أستطيعه من جهد لوضع حد نهائى لهذه الاختلافات ، فإن نجحت فى ذلك فلله الفضل والمنّة ، وإلا فإنما الأعمال بالنيات .

إن خالد بن الوليد كان غرّة فى جبين تاريخ الفتح الإسلامى ، ولا يزال الناس عرباً ومسلمين وأجانب يذكرونه ويذكرون عبقريته فى القيادة ، فهو أشهر قائد عربى عند العرب وغير العرب على حد سواء .

وعلى الرغم من أن دراستى لسيرته كانت آخر دراسة لسير قادة فتح العراق ، إلا أنّ سيرته استنفدت وقتاً وجهداً أكثر مما استنفده منى غيره من القادة ، مع أن الكتب التى تبحث فى سيرته أكثر بكثير من الكتب التى تبحث فى سيرة غيره من القادة — إن كان هناك كتب تبحث عن سيرتهم .

لقد وجدت أن خالداً كان مستقلًا فى رأيه فريداً فى تصرّفاته ، وكنت أريد أن أجمع سير قادة فتح العراق كلهم فى كتاب واحد ، ولكننى وجدت أن ما كتبته عن خالد وحده يكفى لإخراج كتاب مستقل عنه ، وكأنه أبى إلا أن يستقلّ بكتاب كما أبى إلا أن يستقلّ برأيه وأعماله ، وكأن شخصيته الطاغية التى كانت مسيطرة على الناس فى حياتها لا تزال تسيطر عليهم بعد وفاتها ، فهى أبداً مستقلة ، وهى أبداً أمة وحدها .

أسرته

« وَقَالُوا : لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيم »

(القرآن الكريم)

هو أبو سليمان خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمر بن مخزوم القرشي المخزومي[1]، كان أبوه الوليد بن المغيرة سيداً من سادات قريش وجواداً من أجوادها ، وكان يلقَّب بالوحيد : أرَّختْ قريش بوفاته لإعظامها إياه[2]، وهو الذي قال لقريش لما أجمعوا أمرهم في هدم الكعبة وبنائها : « يا معشر قريش لا تُدخلوا في بنائها من كسبكم إلّا طيّباً : لا يدخل فيه مهر بغيّ ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس »[3]. ولكنه وقف موقفاً عدائياً من دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم[4]، فذهب جماعة من المشركين كان الوليد من بينهم ، إلى أبي طالب يسألونه : « إمّا أن تكفّه عنا ، وإمّا أن تخليّ بيننا وبينه »[5] ومرّ النبي صلى الله عليه وسلم يوماً بالوليد وأمية

(١) طبقات ابن سعد (٧/٣٩٤) والإصابة (٢/٩٨) وأسد الغابة (٢/٩٣) والإستيعاب (٢/٢٣٨) ، وانظر ما جاء عن بني مخزوم في العقد الفريد (٢/٢٠٥) ، وانظر جمهرة أنساب العرب (١٤٧) .

(٢) الأغاني للأصبهاني (١٥/٢٥) .

(٣) سيرة ابن هشام (١/٢١٠) ، وفي لفظ « لا تجعلوا في نفقة هذا البيت شيئاً أصبتموه غصباً ولا قطعتم به رحماً ، ولا انتهكتم فية ذمة أحد بينكم وبين أحد من الناس » . وفي رواية أن الذي قال ذلك هو أبو وهب بن عمرو المخزومي .

(٤) انظر تفاصيل أسماء الذين جاهروا لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالأذى في جوامع السيرة لابن حزم ص (٥٢ — ٥٤) .

(٥) سيرة ابن هشام (١/٢٧٧) .

ابن خلف وأبي جهل بن هشام ، فغمزوه وهمزوه واستهزؤا به ، فغاظه ذلك ، فأنزل الله تعالى فى ذلك من أمرهم : « وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ، فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ»[1]، وفى الوليد نزل قوله تعالى : « ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (١١)وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً (١٢) وَبَنِينَ شُهُوداً (١٣)وَمَهَّدتُ لَهُ تَمْهِيداً (١٤) ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ (١٥) كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً (١٦)سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣)فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤). . . الآية »[2].

وسبب نزولها ، أن الوليد سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ : « حم . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ — إلى قوله المصير»[3] فلما فطن النبي صلى الله عليه وسلم لاستماع الوليد لقراءته ، أعاد قراءة الآية ؛ فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه بنى مخزوم ، فقال : « والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ؛ إنَّ له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر وأسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يُعلى » ثم انصرف إلى منزله ، فقالت قريش : صبأ والله الوليد ، والله لتصبأن قريش كلها ، وكان يقال

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٤٢٣) ، والآية الكريمة فى سورة الأنعام (٦ : ١٠)، وانظر تفسيرها في تفسير ابن كثير وبهامشه تفسير البغوى (٣/ ١٩٢) ، وفى تفسير الكشاف للزمخشري (٢/ ٤٤٤) ، وفى تفسير المنار (٧/ ٣٢٠) .

(٢) راجع تفسيرات ابن كثير وبهامشه تفسير البغوى (٩/ ٤٢ — ٤٨) ، وتفسير الكشاف للزمخشرى (٣/ ٢٣٠ — ٢٣١) ، وهذه الآيات الكريمة من سورة المدثر . وبسر : أى كلح وكره .

(٣) من سورة غافر (٤٠ : ١ — ٣) .

للوليد ريحانة قريش ، فقال لهم أبو جهل : « أنا أكفيكموه ! » ونجح فعلاً فى صدّ الوليد عن الإسلام[1].

وفى الوليد عظيم مكة ، نزل قوله تعالى : « وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ »[2] ، ومن أجله وأجل أمثاله من رجالات قريش نزلت الآية الكريمة : « عبس وتولى »[3].

وعندما فكّر الرسول صلى الله عليه وسلم فى مبادأة الحاج من مختلف القبائل بالدعوة إلى الله ، اجتمع نفر من قريش إلى الوليد يتشاورون : ماذا عسى أن يقولوا فى شأن محمد للعرب القادمين إلى موسم الحج ؟! حتى لا يختلف بعضهم على بعض ويكذّب بعضهم بعضا ؛ فاقترح بعضهم أن يقولوا ، إنه كاهن ؛ فقال الوليد : « ما هو بكاهن لقد رأينا الكهّان ، فما هو بزَمْزَمة الكاهن ولا سجعه »[4] ؛ واقترح آخرون أن يزعموا أن محمداً مجنون ؛ فقال الوليد : « لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه

---

(١) انظر تفسير البغوى على هامش تفسير ابن كثير (٩/٤٤ — ٤٥) وفيه تفاصيل الحديث الذى دار بين أبى جهل والوليد ، وبين الوليد وقريش .

(٢) انظر تفسير ابن كثير وبهامشه تفسير البغوى (٧/٣٩٥) : وهم يعنون الوليد ابن المغيرة من مكة وعروة بن مسعود من الطائف مع أقوال أخرى متشابهة . وانظر تفسير الكشاف للزمخشرى (٣/٧٨) والآية الكريمة من سورة الزخرف (٤٣ : ٣١) .

(٣) انظر تفسير الكشاف للزمخشرى (٣/٢٠١) وفيه : إن ابن أم مكتوم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده صناديد قريش : عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وأبو جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة وأمية بن خلف ، يدعوهم إلى الإسلام رجاء أن يسلم بإسلامهم غيرهم . وانظر سيرة ابن هشام (٢/٣٨٨) .

(٤) زمزمة الكاهن : كلام خفى لا يفهم . وسجعه : أن يجعل لكلامه المنثور نهايات الشعر .

ولا تخالجه وسوسته »[1] ، واقترح غيرهم أن يقولوا : إنه شاعر ، فقال الوليد : « ما هو بشاعر . لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ، ومقبوضه ومبسوطه ، فما هو بالشعر ! » . واقترح بعضهم أن يُتَّهم محمد بالسحر ، فقال الوليد : « ما هو بساحر ! لقد رأينا السحّار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ولا عقدهم »[2] . وبعد حوار طويل ، اقترح الوليد عليهم أن يقولوا للحاج من العرب عن محمد : إن هذا الرجل ساحر البيان ، وإن ما يقوله سحر يفرّق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته !! فتفرّقوا عن الوليد ، وجعلوا يجلسون بِسُبُل[3] الناس حين قدموا الموسم ، لا يمرّ بهم أحد إلا حذّروه إياه[4] ، وبذلك شهرت قريش على الرسول صلى الله عليه وسلم سلاح الدعاية ، وكان الوليد هو الدماغ المفكّر الموجّه لهذه الدعاية الظالمة .

لقد كانت للوليد مكانة مرموقة بين سادات قريش ، فهو عدلها يكسو الكعبة عاماً وتكسوها قريش بأجمعها عاماً آخر[5] لشرفه ورجاحة عقله واتزانه ، ومع ذلك ، كانت تقاليد الجاهلية بكل عيوبها مسيطرة عليه : يأمر بأخذ الثأر ولو كان أخذه ظلماً ، ويأمر بأخذ الربا ولو بعد موته[6] ... إلى غير ذلك

---

(١) الخنق : الاختناق الذى يصيب المجنون . والتخالج : اختلاج الأعضاء وتحركها فى غير إرادة . والوسوسة : ما يلقيه الشيطان فى نفس الإنسان .

(٢) نفثهم وعقدهم : إشارة إلى ما كان يفعل الساحر ، إذ كان يأخذ خيطاً فيعقده ثم ينفث عليه . ومن ذلك قوله تعالى : « ومن شر النفاثات فى العقد » أراد الساحرات .

(٣) السبل : طرق الناس ، وأحدها سبيل .

(٤) سيرة ابن هشام (١/٢٨٣ — ٢٨٤) .

(٥) السيرة الحلبية (١/٣٤٧) وأنساب الأشراف (١/٦٠) .

(٦) انظر وصيته لأولاده فى سيرة ابن هشام (٢/١٨ — ١٩) .

من التقاليد البالية ؛ ولكنّ خالداً أسقط ربا والده فى ثقيف لما أسلم أهل (الطائف)[١] .

وأم خالد اسمها عصماء ، وهى لبابة الصغرى بنت الحارث بن حزب ، وهى أخت أم الفضل بنت الحارث أم بنى العباس بن عبد المطلب[٢] وأخت ميمونة زوج النبى صلى الله عليه وسلم[٣] ، وفى (مرّة) يجتمع نسب الرسول ونسب بنى مخزوم[٤] .

وخالد من بنى مخزوم ، وهم بطن من عشرة أبطن[٥] من قريش انتهى إليها الشرف قبل الإسلام ؛ فكان فى بنى مخزوم القبة وأعنّة الخيل ؛ أما القبة

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٣) .

(٢) طبقات ابن سعد (٧/ ٣٩٤) ، وفى أسد الغابة (٢/ ١٠٣) : إنها لبابة بنت الحارث بن حزن الهلالية . وكذلك فى الإصابة (٢/ ٩٨) والاستيعاب (٢/ ٤٢٧) .

(٣) الإصابة (٢/ ٩٨) وأسد الغابة (٢/ ٩٣) والاستيعاب (٢/ ٤٢٧) وجوامع السيرة لابن حزم ص ٢١٩ لذلك فإن ميمونة أم المؤمنين هى خالة خالد بن الوليد وعبد الله بن العباس بن عبد المطلب .

(٤) جوامع السيرة لابن حزم ص ٣ ، وذلك لأن :

١ — محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن (مرة) بن كعب .

٢ — خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن (مرة) بن كعب .

وفى مرة يجتمع نسب الرسول صلى الله عليه وسلم ونسب خالد ونسب أبى بكر الصديق لأنه :

أبو بكر بن عثمان (أبى قحافة) بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب .

(٥) م : ١ — بنو هاشم . ٢ — بنو نوفل . ٣ — بنو أمية .
٤ — بنو عبد الدار ٥ — بنو تيم . ٦ — بنو أسد .
٧ — بنو مخزوم . ٨ — بنو عدى . ٩ — بنو جمح .
١٠ — بنو سهم . راجع سيرة ابن هشام (١/ ١٤٣ — ١٤٤) .

فكانوا يضربونها يجمعون فيها ما يجهّزون به الجيش ، وأما الأعنة فهى قيادة الفرسان فى الحروب[1] .

وتتجلى مكانة بنى مخزوم بين قريش ، أنهم بنوا وحدهم ربع الكعبة الذى بين الركنين الأسود واليمانى ، بينما بنت قريش كلّها ما بقى من الكعبة[2] .

لقد كان خالد شريفاً فى الجاهلية ، نشأ فى بيت شريف فى قبيلة شريفة هى قريش ، فى مكان شريف هو مكة المكرمة .

---

(١) أسد الغابة (٢/٩٣) والاستيعاب (٢/٤٢٧) .

(٢) سيرة ابن هشام (١/٢١١) .

فى الجاهلية

« وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُودًا ، وَبَنِينَ شُهُودا »
(قرآن كريم)

عمله :

تولى خالد عن بنى مخزوم القبّة والأعنّة ، فتفرغ للأمور العسكرية ، ولم يحترف حرفة تدرّ عليه أرباحاً مادية ، لأن والده كان من أغنى أغنياء قريش[1] وقد جاء فى القرآن الكريم عن والده : « وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُودا » مبسوطاً كثيراً ، قيل كان له الزرع والضرع والتجارة . وعن ابن عباس فى تفسيرها : هو ما كان له بين مكة والطائف من صنوف الأموال ، وقيل كان له بستان بالطائف لا ينقطع ثماره صيفاً ولا شتاء[2] . وجاء فى القرآن الكريم عن والده أيضاً : « وَبَنِينَ شُهُودًا » أى لوفورة نعمة أبيهم واستغنائهم عن التكسّب وطلب المعاش بأنفسهم[3] .

---

(١) السيرة الحلبية (٣٤٧/١) وقد كانت له بساتين كثيرة لا ينقطع ثمرها طول العام .

(٢) انظر تفسير الكشاف للزمخشرى (٢٣٠/٣) ، وفى تفسير ابن كثير(٤٣/٩) : أى واسعاً كثيراً ، قيل ألف دينار ، وقيل مائة ألف دينار ، وقيل أرضاً يستغلها . وانظر تفسير البغوى بهامش تفسير ابن كثير (٤٣/٩) والآية الكريمة من سورة المدثر (٧٤ : ١٢) .

(٣) انظر تفسير الكشاف للزمخشرى (٢٣٠/٣) وفى تفسير ابن كثير (٤٣/٩) قال مجاهد : لا يغيبون : أى حضوراً عنده لا يسافرون بالتجارات بل مواليهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم وهم قعود عند أبيهم يتمتع بهم . والآية الكريمة من سورة المدثر (٧٤ : ١٣) .

لقد كان عمل خالد مقتصراً على واجبه العسكرى : قيادة الرجال فى أيام الحرب ، والتدريب على الفروسية واستعمال السلاح فى أيام السلم ؛ فلا عجب أن يتفوّق على أقرانه فى تدريبه وقيادته .

فى أُحد :

كان خالد يقف موقف المعاداة الإسلام أسوة برجالات قريش ، فكان شديد الحرص على النكاية بالمسلمين فى معاركه التى خاضها مع كفّار مكة للقضاء على الدين الجديد .

وبرز اسم خالد لأول مرة قائداً من قادة المشركين فى غزوة (أحد) ، فقد جعلته قريش على ميمنتهم فى الخيل ، وجعلت على ميسرتهم عكرمة بن أبى جهل[1] .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذه الغزوة قد خصّص خمسين من الرماة على رأسهم عبدالله بن جبير[2] ، وأمرهم بحماية ظهور المسلمين خوفاً من أن يضربهم المشركون من الخلف ، وقال لهم : « قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظهورنا ، فإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تَشْرِكونا ، وإن رأيتمونا نُقتل

---

(١) جوامع السيرة لابن حزم ص (١٥٩) وسيرة ابن هشام (٣/١١) وسترد ترجمة عكرمة بن أبى جهل مع قادة الفتح الإسلامى .

(٢) عبد الله بن جبير الأنصارى : شهد بيعة العقبة مع السبعين من الأنصار ، وشهد بدراً وأحداً ، واستعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرماة لحماية ظهور للسلمين ، فلما اختلف الرماة وانسحب أكثرهم من مواضعهم لأخذ الغنائم من معسكر المشركين ، ثبت عبد الله فى مكانه مع نفر لا يبلغون العشرة وقاوم هجوم خالد بن الوليد حتى فنيت نبله ، ثم طاعن بالرمح حتى انكسر ، ثم كسر جفن سيفه ، فقاتل فرسان خالد حتى استشهد بطلا . راجع طبقات ابن سعد (٣/٥٧٥) والإصابة (٤/٤٥) وأسد الغابة (٣/١٣٠) والاستيعاب (٣/٨٧٧) .

فلا تنصرونا»[1]، ولكنّ هؤلاء الرماة الذين رأوا انتصار المسلمين فى الصفحة الأولى من معركة (أحد) ، اختلفوا فيما بينهم ؛ فانطلق أكثرهم ينتهبون معسكر المشركين ، وثبت قائدهم فى نفر يسير دون العشرة فى مواضعهم . ونظر خالد إلى خلاء الجبل الذى كان فيه الرماة وقلّة من فيه من المسلمين . فكرّ بالخيل وحمل على من بقى من الرماة ، فقتلهم[2]، وبذلك ضرب قوات المسلمين من الخلف على حين غرّة منهم ، ثم شنّت قريش هجوماً على المسلمين من من الأمام ، وبذلك طوّقت قوات المشركين قوات المسلمين من جميع الجهات .

والتجأ النبى صلى الله عليه وسلم بأصحابه إلى جبل (أحد) بعد قتال شديد ، ولكنّ خالداً أراد القضاء على المسلمين قضاءاً نهائياً ، فقاد فرسانه إلى الجبل ، غير أن المسلمين استقتلوا فى قتال فرسان خالد واضطروهم على الانسحاب[3] .

إن فضل انتصار المشركين على المسلمين فى (أحد) يعود إلى قيادة خالد[4] .

فى غزوة الخندق :

قصد نفر من يهود قريشاً فى مكة ، فدعوهم إلى حرب الرسول صلى الله

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/٤٠) . وفى سيرة ابن هشام (٣/١٠) أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لقائد الرماة : « انضح — أى ادفعهم عنا — الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا . إن كانت لنا أو علينا ، فثبت مكانك ، لا نؤتين من قبلك » . وانظر فتح البارى بشرح البخارى (٧/٢٦٩ — ٢٧٠) .

(٢) طبقات ابن سعد (٢/٤١ — ٤٢) و (٣/٤٧٥) واليعقوبى (٢/٣٦) .

(٣) سيرة ابن هشام (٣/٣٥) .

(٤) راجع تفاصيل دور خالد فى معركة (أحد) فى كتابنا (الرسول القائد) ص (١١٥ — ١١٦) الطبعة الثانية .

عليه وسلم ، ثم قصدوا غطفان وسُليماً وقبائل أخرى ، فاستطاعوا جمع عشرة آلاف مشرك حول المدينة[1] .

وقرّر المسلمون البقاء في المدينة وحفروا خندقاً عميقاً يحيط بشمالها لا يتمكن الأحزاب من اجتيازه ، ولكن خالداً كان من بين الذين حاولوا اختراقه ، فكان يصول ويجول بخيله ويناوش المسلمين ويقدّم رماته فيرمون ، ويحاول أن يجد مضيقاً في الخندق يقحم خيله ، فلما لم يفلح هو وأمثاله ، قالوا : « إنّ هذا لمكيدة ما كانت العرب تصنعها »[2] .

وهاجمت كتيبة من المشركين بقيادة خالد مواضع المسلمين يوماً كاملاً حتى حلول الليل ، وكان هجومهم بدرجة من الشدة بحيث أشغلوا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ولكن هجوم خالد هذا لم ينجح[3] .

وكرّ خالد في خيل من المشركين يطلبون غرّة من المسلمين ، فناوشوهم ساعة ، ولكن هجوم خالد الليلي لم ينجح أيضاً[4] وعند ذاك عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قبّته ، فأمر بلالاً[5] فأذن وأقام الظهر فصلى ، ثم أقام

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/٦٦) وهم أربعة آلاف من قريش وأحابيشهم ، وسبعمائة من بني سليم ، وألف من فزارة ، وأربعمائة من أشجع ، وأربعمائة من بني مرة ، وخرج معهم غيرهم .

(٢) طبقات ابن سعد (٢/٦٨) .

(٣) طبقات ابن سعد (٢/٦٨) .

(٤) طبقات ابن سعد (٢/٦٨) .

(٥) بلال بن رباح الحبشي : مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اشتراه أبو بكر الصديق من المشركين الذين كانوا يعذبونه على التوحيد ، فكان أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة لتوضع على صدره ، ثم يقول أمية : « لا يزال بلال على ذلك حتى يموت أو يكفر بمحمد » فيقول بلال وهو في ذلك : « أحد ! أحد ! » فمر به أبو بكر فاشتراه بعبد له أسود وأعتقه ، فلزم النبي صلى الله عليه وسلم وأذن له وشهد معه جميع المشاهد. ثم خرج بعد النبي صلى الله =

بعد كل صلاة إقامة ، وصلى هو وأصحابه ما فاتهم من الصلوات[١] .

ولما فشلت محاولات المشركين وكرّوا راجعين ، أقام عمرو بن العاص وخالد في مائتي فارس ساقة للمشركين مخافة الطلب[٢] ، وبذلك استطاع (الأحزاب) أن ينسحبوا من مواضعهم حول الخندق بأمان .

وهكذا أثبت خالد في هذه المعركة أنه يستأثر بالخطر دائماً : يهاجم ويديم زخم الهجوم في المعركة ، ويحمي انسحاب قواته بعدها .

في غزوة الحديبية :

قاد خالد خيل قريش في غزوة الحديبية ، وتقدّم إلى (كُرَاع الغَميم)[٣] ليحول بين المسلمين وبين مكة . ودنا خالد في خيله حتى نظر إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر عباد بن بشر[٤] فتقدم بخيله حتى وقف بأزاء خيل خالد[٥] .

=عليه وسلم إلى الشام مجاهداً ، فلم يزل بها حتى توفي . راجع طبقات ابن سعد (٣/٢٣٢) و (٧/٣٨٥) والإصابة (١/١٧٠) وأسد الغابة (١/٢٠٦) والاستيعاب (١/١٧٨) .

(١) طبقات ابن سعد (٢/٦٩) .

(٢) طبقات ابن سعد (٢/٦٩) والسيرة الحلبية (٢/٤٢٢) .

(٣) كراع الغميم : موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة ، وهو واد أمام عسفان بثمانية أميال : راجع معجم البلدان (٧/٢٢٦) .

(٤) عباد بن بشر الأنصاري : من بني عبد الأشهل . أسلم بالمدينة على يدي مصعب بن عمير مبكراً ، وشهد أحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعثه النبي على صدقات بعض القبائل وجعله على مقاسم (حنين) واستعمله على حرسه بتبوك من يوم قدم إلى أن رحل . وشهد يوم اليمامة وكان له يومئذ بلاء وغناء ومباشرة للقتال وطلب الشهادة ، حتى استشهد يومئذ سنة اثنتي عشرة وهو ابن خمس وأربعين سنة . راجع طبقات ابن سعد (٣/٤٤٠) والإصابة (٤/٢٢) وأسد الغابة (٣/١٠٠) والاستيعاب (٢/٨٠١) .

(٥) طبقات ابن سعد (٣/٩٥) وسيرة ابن هشام (٣/٣٠٦) .

وصلى الرسول صلى الله عليه وسلم بأصحابه ، فندم خالد على ألا يكون قد هاجمهم وقت صلاتهم واستعد لمباغتتهم متى قاموا لصلاةٍ أُخرى ، ولكنّ الرسول صلى بأصحابه صلاة الخوف[1] ، فكان المسلمون يتناوبون الحراسة والصلاة ، وبذلك فوّت الرسول القائد على خالد فرصته مباغتة المسلمين .

فى عمرة القضاء :

خرج خالد من مكة[2] ، كما خرج منها غيره من سادات قريش حين دخلها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فى عمرة القضاء ، مما يدل على أنه كان لا يزال مصراً على كرهه للإسلام والمسلمين .

لقد كان الإسلام يزحف بدون خالد ، وسيستمرّ فى زحفه بعد خالد ، والعقيدة تبقى والرجال لا يبقون .

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/٩٥) وعيون الأثر فى فنون المغازي والشمائل والسير (٢/١١٤)والسيرة الحلبية (٣/١٤) .

(٢) طبقات ابن سعد (٧/٢٩٤) والاستيعاب (٤/١٠٥٩) .

إسلامه

« ألقت إليكم مكة أفلاذ أكبادها »

(محمد رسول الله)

سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فى أيام عمرة القضاء الوليد ابن الوليد[1] أخا خالد قائلًا : « أين خالد ؟ » . فقال النبى : « مامثل خالد من جهل الإسلام ، ولو كان جعل نكايته وجدّه مع المسلمين على المشركين ، لكان خيراً له ولقدّمناه على غيره »[2] ، فكتب الوليد بذلك إلى خالد ، فكان ذلك سبب هجرته[3] .

---

(١) الوليد بن الوليد بن المغيرة المخزومى : وقع الوليد فى أسر المسلمين أثناء معركة (بدر) وكان حينذاك مشركا ، فقدم فى فدائه أخواه خالد وهشام ، فتمنع الذى الذى أسره وهو عبد الله بن جحش حتى أفتكاه بأربعة آلاف درهم ، وقيل أفتكاه بدرع أبيه وسيفه ، ثم خرجا به حتى بلغا به (ذا الحليفة) بين مكة والمدينة ، فأفلت منهما ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم وأعلن اسلامه ، فقال له خالد : « هلا كان ذلك قبل أن تفتدى ؟! » فقال : « ما كنت لأسلم حتى أفتدي بمثل ما افتدى به قومى ، ولا تقول قريش : إنما اتبع محمداً فراراً من الفدى » . ثم خرجا به إلى مكة ، إذ كانت شروط هدنة الحديبية حينذاك نافذة المفعول ، حيث لا يقبل المسلمون أحداً من قريش يلتجىء إليهم — فحبساه بمكة مع نفر من بنى مخزوم كانوا أقدم إسلاما منه ، ولكنه أفلت من الوثاق فقدم المدينة ، فأرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة لينقذ مسلمَيْن آخرَيْن من بنى مخزوم من السجن ، فاستطاع الوصول إلى السجينين وفروا جميعاً ، فلما دنوا من حرة المدينة ، قطعت إصبع الوليد ، فقال :

هل أنت إلا إصبع دميتِ وفى سبيل الله ما لاقيتِ

ومات بعد ذلك بالمدينة . راجع طبقات ابن سعد (٤/١٢١) والإصابة (٦/٣٠٣) والاستيعاب (٤/٥٥٨) .

(٢) طبقات ابن سعد (٣/٣٩٤) .

(٣) الإصابة (٦/٣٢٣) .

ولست أشك فى أن رسالة الوليد هذه إلى أخيه خالد كانت (حافزاً) له للهجرة إلى النبى صلى الله عليه وسلم أو سبباً مباشراً لذلك ، أى أنها (زادته رغبة فى الإسلام ونشّطته للخروج)[1] ، إذ أنه كان قد فكّر فى الإسلام واقتنع بمبادئه قبل هذه الرسالة بوقت طويل أو قصير ، يدّلنا على ذلك قول خالد يخاطب عمرو بن العاص حين رآه فى الطريق إلى المدينة : « والله لقد استقام المَنْسِم[2] . إن الرجل لنبي . أذهب والله أسلم ، فحتى متى »[3] ؟ !

قال خالد : « وطلبت مَن أصاحب ، فلقيت عثمان بن طلحة[4] فذكرت الذى أريد ، فأسرع الإجابة ؛ فخرجنا جميعاً ، فلما كنا (بالهَدّة)[5] إذا عمرو بن العاص . قال مرحباً بالقوم ! قلنا : وبك . قال : أين مسيركم ؟

(١) طبقات ابن سعد (٧/٣٩٤) .

(٢) لقد استقام المنسم : هذا مثـل ، معناه : لقد تبين الأمر ووضح ولم يعد فيه شك ولا لبس ، وأصل المَنْسِم — بفتح الميم وسكون النون وكسر السين — خف البعير . وفي بعض الروايات : لقد استقام الميسم ، والميسم الحديدة التى توسم بها الأبل وغيرها ، أى تعلم .

(٣) ابن الأثير (٢/٨٨) والطبرى (٢/٣١٤) قد استقام الميسم ، وفى سيرة ابن هشام (٣/٣١٩) قد استقام المنسم ، وقد اثبتنا ذلك ، لأنه أقرب للمعنى .

(٤) عثمان بن طلحة بن أبي طلحة القرشي العبدرى : قتل أبوه وعمه وأربعة من إخوته كفاراً يوم أحد ، ولـكنه عندما استبان له الحق هاجر إلى النبي صلى الله عليه وسلم بصحبة خالد بن الوليد ، فأسلم وأقام بالمدينة وشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم فتح مكة ، فدفع إليه وإلى ابن عمه مفتاح الـكعبة يوم الفتح ، وقال : « خذوها خالدة تالدة لاينزعها منـكم إلا ظالم » . وأقام عثمان بالمدينة ، فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم انتقل إلى مكة فأقام بها حتى مات سنه اثنين وأربعين ، وقيل إنه إستشهد يوم أجنادين . راجع التفاصيل فى الاصـابة (٤/٢٢٠) وأسد الغـابة (٣/٣٧٢) والاستيعاب (٣/١٠٣٤) .

(٥) الهدة : موضع بأعلى (مر الظهران) على طريق مكة — المدينة . راجع معجم البلدان (٨/٤٥٠) .

فأخبرناه وأخبرنا أيضاً أنه يريد النبي صلى الله عليه وسلم ، فاصطحبنا جميعاً حتى قدمنا المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم أول يوم من صفر سنة ثمان[1] فلما طلعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سلّمت عليه بالنبوة ، فردّ عليّ السلام بوجه طَلْق ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير . وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقلت : استغفر لى كل ما أوضَعْتُ فيه من صد عن سبيل الله ! فقال : إنّ الإسلام يجبّ ما كان قبله . قلت : يا رسول الله على ذلك ! قال : اللهم اغفر لخالد بن الوليد كلّما أوْضَع فيه من صد عن سبيلك . . . فوالله ما كان رسول صلى الله عليه وسلم يوم أسلمت يعدل بى أحداً من أصحابه فيما يُجْزِئه»[2] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم عندما رأى خالداً وصاحبيه : « ألقت إليكم مكة أفلاذ كبدها » يعنى أنهم وجوه الناس من أهل مكة[3] .

وأقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم خالداً موضع داره[4] ، فاستقر إلى جانب النبي صلى الله عليه وسلم فى المدينة المنوّرة ، وكان موضع ثقته ومن كتّابه .

لقد كان إسلام خالد كسباً عظيماً للمسلمين .

---

(١) راجع الطبرى (٣١٥/٢) وابن الأثير (٨٨/٢) وتاريخ أبى الفدا (١٤٢/١) وانظر قصة إسلامه فى صفة الصفوة (٢٦٨/١ — ٢٦٩) .

(٢) طبقات ابن سعد (٢٥٢/٤) و (٣٩٤/٧) وفى رواية : فيما كان حزبه ، وفى رواية عن عمرو بن العاص : فى أمر حربه .

(٣) أسد الغابة (٢٧٢/٣) والاستيعاب (١٠٣٤/٣) .

(٤) طبقات ابن سعد (٢٥٣/٤) .

جهاده مع الرسول القائد

« نعم عبد الله ! هذا سيف من سيوف الله »

محمد رسول الله

فى مُؤْتة[1] :

بعث النبى صلى الله عليه وسلم الحارث بن عمير الأزدى[2] إلى ملك (بُصرَى)[3]، فقتل فى (مؤتة) ولم يُقتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسول غيره . لذلك ندب الناس . فأسرعوا وعسكروا (بالجُرْف)[4] وهم ثلاثة آلاف ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمير الناس زيد بن حارثة[5]

---

(١) مؤتة : قرية من قرى البلقاء فى حدود الشام . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (١٩٠/٨) . وفى طبقات ابن سعد (١٢٨/٢) : أن مؤتة بأدنى البلقاء ، والبلقاء دون دمشق .

(٢) الحارث بن عمير الأزدى : أحد بنى لهب ، بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتابه إلى الشام إلى ملك (بُصرى) ، وقيل إلى ملك الروم ، فلما نزل (مؤتة) عرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى فقتله ، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر ، بعث البعث إلى (مؤتة) فى ثلاثة آلاف ، فلقيتهم الروم فى نحو مائة ألف . راجع الاصابة (٢٩٩/١) وأسد الغابة (٣٤١/١) والاستيعاب (٢٩٧/١) .

(٣) بصرى : مدينة من أعمال دمشق ، وهى قصبة كورة حوران ، مشهورة عند العرب قديماً وحديثاً . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٢٠٨/٢) .

(٤) الجرف : موضع على ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٨٧/٣) .

(٥) زيد بن حارثة الكلبى : هو أبو أسامة بن زيد ، كان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصابه سباء فى الجاهلية ، فاشتراه حكيم بن حزام لخديجة بنت خويلد ، فوهبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وحجّ ناس من (كلب) ، فرأوا زيداً ،=

فإن قتل فجعفر بن أبي طالب[1] ، فإن قتل فعبد الله بن رواحة[2] ،

= فعرفهم وعرفوه ، فانطلق الكلبيون وأعلموا أباه ، فخرج حارثة وأخوه كعب لفدائه ، وقدما مكة ، فسألا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقيل : هو في المسجد ، فدخلا عليه ، فقالا : جئناك في ابننا عندك ، فامنن علينا وأحسن إلينا في فدائه . قال : « ومن هو ؟ » . قالا : زيد بن حارثة . فقال : « فهلا غير ذلك ! » . قالا : وما هو ؟ . قال : « أدعوه فأخيره ، فإن اختاركم فهو لكم ، وإن اختارني ، فوالله ما أنا بالذي أختار على من أختارني أحداً » . قالا : قد زدتنا في النصف وأحسنت . فدعاه ، فقال : « هل تعرف هؤلاء ؟ » . قال : « هذا أبي وهذا عمي » . فقال : « فأنا من قد علمت ورأيت صحبتي لك ، فاخترني أو اخترهما ! » . قال زيد : « ما أنا بالذي أختار عليك أحداً . أنت مني مكان الأب والعم ! » .

أسلم مبكراً ، وشهد بدراً ، وزوجه النبي صلى الله عليه وسلم مولاته (أم أيمن) فولدت له أسامة ، وكان يقال لزيد : حب رسول الله . وقتل زيد في أرض الشام سنة ثمان من الهجرة وكان أميراً على تلك الغزوة . راجع طبقات ابن سعد (٣/ ٤٠) والاصابة (٣/ ٢٤) وأسد الغابة (٢/ ٢٢٤) والاستيعاب (٢/ ٥٤٢) .

(١) جعفر بن أبي طالب : أبو عبد الله ، أشبه الناس خلقاً وخلقاً برسول الله صلى الله عليه وسلم. كان أكبر من علي رضي الله عنهما بعشر سنين ، وكان عقيل أكبر من جعفر بعشر سنين . كان من المهاجرين الأولين ، هاجر إلى الحبشة وقدم منها على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فتح خيبر ، فتلقاه وأعتنقه وقال : « ما أدري بأيهما أنا أشد فرحاً ، أبقدوم جعفر أم بفتح خيبر ؟ ! » وكان قدوم جعفر وأصحابه من أرض الحبشة في السنة السابعة من الهجرة ، فاختط له رسول الله صلى الله عليه وسلم داراً إلى جنب المسجد ، ثم غزا غزوة (مؤتة) وذلك سنة ثمان من الهجرة فاستشهد فيها بعد أن قاتل حتى قطعت يداه جميعاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل أبدله بيديه جناحين يطير بهما في الجنة حيث شاء » فمن هنا قيل له : جعفر ذو الجناحين . وقد وجد في جسده تسعون طعنة مابين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح ، وكانت سنه يوم قتل إحدى وأربعين سنة . راجع طبقات ابن سعد (٤/ ٣٤) والاصابة (١/ ٢٤٨) وأسد الغابة (١/ ٢٨٦) والاستيعاب (١/ ٢٤٢) .

(٢) عبد الله بن رواحة الأنصاري الخزرجي : أبو محمد ، أحمد النقباء شهد العقبة وبدراً وأحداً والخندق والحديبية والمشاهد كلها حتى استشهد في (مؤتة) ، وكان أحد الأمراء في غزوة (مؤتة) وأحد الشعراء المحسنين الذين كانوا يردون الأذى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال أبو الدرداء : « لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره في اليوم الحار الشديد ، حتى إن الرجل ليضع من شدة الحر يده على =

فإن قتل فليرتضِ المسلمون بينهم رجلا فيجعلوه عليهم »[1] .

سار المسلمون ، حتى إذا كانوا بتخوم (البلقاء)[2] لقيتهم جموع الروم ، والتقى الطرفان فى (مؤتة) فقاتل زيد بن حارثة حتى شاط فى رماح الروم ، فأخذ الراية جعفر بن أبى طالب حتى إذا ألحمه القتال اقتحم عن فرسه فعقرها وقاتل حتى قتل . ثم أخذ الراية ابن رواحة ، فقاتل حتى قتل[3] .

فى هذا الموقف العصيب الذى كان المسلمون فيه يواجهون قوات معادية تتفوّق عليهم تفوّقاً ساحقاً بالعَدد والعُدد[4] ، أخذ الراية ثابت بن أقرم[5]

=رأسه ، وماق القوم صائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبد الله بن رواحة » . وتزلت فيه وفى صاحبيه حسان بن ثابت وكعب بن مالك الآية الكريمة : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً . . . الآية » ، وكان أول خارج إلى الغزو وآخر قافل .

وعندما كان يقاتل فى مؤتة كان يقول :

يا نفس إن لم تقتلى تموتى	هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنّيتِ فقــد أعطيتِ	إن تفعلى فعلهما هديتِ

يعنى صاحبيه زيداً وجعفراً ، فقاتل حتى قتل شهيداً رضى الله عنه . راجع طبقات ابن سعد (٣/٣٢٥) والاصابة (٤/٦٦) وأسد الغابة (٣/١٥٦) والاستيعاب (٣/٨٩٨) .

(١) طبقات ابن سعد (٢/١٢٨) والطبرى (٢/٣١٨—٣٢٣) وسيرة ابن هشام (٣/٤٣٣—٤٣٥) وجوامع السيرة ص (٢٢١) .

(٢) البلقاء : كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادى القرى ، قصبتها (عمان) وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة ، وبجودة حنطتها يضرب المثل . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٢/٢٧٧) .

(٣) طبقات ابن سعد (٢/١٢٨) والطبرى (٢/٣١٨—٣٢٣) وسيرة ابن هشام (٣/٤٣٣—٤٣٥) وجوامع السيرة ص (٢٢١) .

(٤) فى الطبرى (٣/٣١٩) وابن الأثير (٢/٨٩) : أن قوات الروم كانت بقيادة هرقل ، وكانت مؤلفة من مائة ألف من الروم انضمت إليها العرب المستعربة من لخم وجذام وبلقين وبهراء وبلى فى مائة ألف منهم .

(٥) ثابت بن أقرم البلوى : شهد بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم شهد غزوة (مؤتة) ، فدفعت إليه الراية بعد قتــل عبد الله=

أخو بني العجلان ، فقال : « يامعشر المسلمين ؟ اصطلحوا على رجل منكم » . قالوا : أنت ! . قال : « ما أنا بفاعل » . فاصطلح الناس على خالد بن الوليد ؛ فلما أخذ الراية ، دافع القوم وحاشى بهم ، ثم انحاز وانحيز عنهم ، حتى انصرف بالناس[1].

فكيف استطاع خالد النجاة بهذا الجيش من فناء أكيد ؟ ؟

لقد قاتل يومه قتالاً شديداً ، فلما أظلم الليل غيّر نظام جيشه ، فجعل مقدمته ساقة وساقته مقدمة ، وكذلك فعل بالميمنة والميسرة[2] أي أنه سحب جيشه من ساحة المعركة وأبقى ساقة تحمى الانسحاب : نشر هذه الساقة لتحتلّ مساحة شاسعة من الأرض ، وأمرهم أن يُحدثوا أصواتاً مرتفعة بما لديهم من أبواق وطبول وأدوات حربية ، وإثارة الغبار بالخيل تدور بسرعة في دوائر ضيّقة . . . كل ذلك جعل الروم لا يشعرون بانسحاب قوات القسم الأكبر من المسلمين ليلاً من جهة ، ويعتقدون أن إمدادات قويّة جاءتهم ليلاً ، لهذا لم يُقدم الروم على مطاردة المسلمين ، فسهّل ذلك على خالد مهمته في سحب رجاله من ساحة المعركة بأمان ودون أن ينقلب الانسحاب إلى هزيمة ، كما سهّل عليه مهمة سحب الساقة التي سترت انسحاب القسم الأكبر

= بن رواحة ، فدفعها إلى خالد بن الوليد ، وقال : «أنت أعلم بالقتال مني» وقد استشهد سنة إحدى عشرة في حرب أهل الردة ، قتله طليحة بن خويلد الأسدي هو وعكاشة ابن محصن في يوم واحد واشترك طليحة وأخوه في قتلهما جميعاً . راجع طبقات ابن سعد (٣/٤٦٦) والاصابة (١/١٩٢) وأسد الغابة (١/٢٢٠) والاستيعاب (١/١٩٩) .

(١) سيرة ابن هشام (٣/٤٣٥) والطبري (٣/٣٢٢) وابن الأثير (٢/٩٠) وجوامع السيرة ص (٢٢٢) وطبقات ابن سعد (٤/٢٥٣) والاصابة (٢/٩٨) والأغاني للاصفهاني (١٠/٢٥) واليعقوبي (٢/٤٩) .

(٢) سيرة ابن هشام (٣/٤٤٠) .

من قوات المسلمين . ومع ذلك لم يكن سحب الساقة سهلاً ، لأنها كانت بتماس شديد بالعدو من جهة ، ولأنها كانت تشغل منطقة واسعة من الأرض من جهة أخرى ؛ لذلك قاتلت الساقة وعلى رأسها خالد قتالاً بطولياً لكى تستطيع التخلّص من الاشتباك . قال خالد : « لقد اندقّت فى يدى يوم (مؤتة) تسعة أسياف ، فما ثبت فى يدى إلا صفيحة يمانية »[1] .

ولما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما حدث ، شقّ ذلك عليه ، ونعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال : « أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب — وعيناه تذرفان — حتى أخذها سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم »[2] .

وعاد خالد إلى المدينة يقود جَيْش المسلمين[3] ، بعد أن ترك هذا الجيش ثلاثة عشر شهيداً فى ساحة القتال[4] ، وهى خسائر طفيفة جداً بالنسبة إلى الخطر الداهم الذى أحدق بالمسلمين ، مما يُعدّ معجزة عسكرية ومفخرة خالدة لقيادة خالد . ولما دنا الجيش من المدينة تلقّاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون ولقيهم الصبيان يشتدّون ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « خذوا الصبيان فاحملوهم وأعطونى ابن جعفر » . وجعل الناس يحثون التراب على الجيش ويقولون : « يافرار فى سبيل الله » . فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليسوا بالفرار ولكنهم الكرّار إن شاء الله »[5] .

---

(١) طبقات ابن سعد (٣٩٥/٧) والاصابة (٩٩/٢) .
(٢) فتح البارى بشرح البخارى (٧٩/٧) و (٣٩٤/٧) .
(٣) سيرة ابن هشام (٤٤٠/٣) وتاريخ أبى الفدا (١٤٢/١) .
(٤) سيرة ابن هشام (٤٤٧/٣) وجوامع السيرة ص (٢٢٢) وعيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير (١٠٦/٢) .
(٥) الطبرى (٣٢٣/٢) وابن الأثير (٩٠/٢) .

ومن ذلك اليوم أطلق المسلمون على خالد لقب : سيف الله .

في غزوة فتح مكة :

كان خالد في غزوة فتح مكة على ميمنة قوات المسلمين ، وكانت الميمنة مؤلفة من : أسلم وغِفار ومُزَيْنَة وجهينة[1] ، وكان واجبه دخول مكة من أسفلها من (اللِيط)[2] ، وهو أول يوم أمرّ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم خالداً[3] .

كانت نوايا الرسول السلمية صريحة جداً ، فقد قال للزبير بن العوام وخالد : « لا تقاتلا إلا من قاتلكما[4] » ، إلا أنَّ بعض رجالات قريش[5] جمعوا ناساً (بالخَنْدَمة)[6] أسفل مكة ليقاتلوا المسلمين ويصدّوهم عن فتح مكة ، فقاتلهم خالد ، وقتل منهم ثمانية وعشرين رجلاً ثم انهزموا[7] واستشهد

---

(١) جوامع السيرة ص (٢٣١) وكان على الميسرة الزبير بن العوام ، وكان أبو عبيدة بن الجراح على المقدمة . وانظر شرح النووي على مسلم (٤/٢٣١) .

(٢) الليط . موضع بأسفل مكة . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٧/٣٤٦) وانظر عن دخول خالد من (الليط) ، الطبري (٢/٣٣٢) وابن الأثير (٢/٩٤) وسيرة ابن هشام (٤/٢٦) وتاريخ أبي الفدا (١/١٤٤) وطبقات ابن سعد (٢/١٣٦) .

(٣) الطبري (٢/٣٣٢) وابن الأثير (٢/٩٤) وسيرة ابن هشام (٤/٢٦)

(٤) الطبري (٢/٣٣٢) .

(٥) م : عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو . راجع ابن الأثير (٢/٩٤) .

(٦) الخندمة : جبل بأسفل مكة . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٣/٤٧٠)

(٧) تاريخ أبي الفدا (١/١٤٤) وطبقات ابن سعد (٢/١٣٦) والبلاذري ص (٥١ — ٥٢) أن قتلى المشركين أربعة وعشرون رجلا من قريش وأربعة نفر من هذيل . أما في الطبري (٢/٣٣٥) فيذكر أن عدد قتلى المشركين يبلغ من اثني عشر أو ثلاثة عشر ، وفي ابن الأثير (٢/٩٤) أن عدد قتلى المشركين ثلاثة عشر ، وكذلك في جوامع السيرة ص (٢٢١) .

من المسلمين رجلان[1] ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألم أَنْهَ عن القتال ؟ » . فقيل له : خالد قُوتِل فقاتل[2] .

لقد جاهد خالد لأول مرة تحت لواء الرسول القائد في غزوة الفتح ، ولا يصحّ له مشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الفتح[3] .

هدم العُزّى :

بعث النبي صلى الله عليه وسلم خالداً لخمس ليال بقين من رمضان — أي بعد خمسة أيام من فتح مكة — لهدم (العُزّى)[4] في ثلاثين فارساً من أصحابه[5] ، فلما سمع سادنها[6] ، بمسير خالد إليها ، علّق عليها سيفه والتجأ إلى الجبل الذي هي فيه ، وهو يقول :

أيا عُزّ شُدّي شدّة لا شَوَى لهـا
على خالد ، ألقي القناع وشمّري[7]
ويا عُزّ إن لم تقتلي اليوم خالداً
فبوئي بإثم عاجل ، أو تنصّري[8]

---

(١) فتح الباري بشرح البخاري (٨/٨) وطبقات ابن سعد (٢/١٣٦) وجوامع السيرة ص (٢٣١) .

(٢) طبقات ابن سعد (٢/١٣٦) وتاريخ أبي الفدا (١/١٤٤) .

(٣) أسد الغابة (٢/٩٤) والاستيعاب (٢/٤٢٨) .

(٤) العزى : أعظم الأصنام عند قريش وبني كنانة ، وكان سدنتها وحجابها بنو شيبان من سُليم حلفاء بني هاشم ، وكانت العرب وقريش تسمى بها : (عبد العزى) . والعزى كانت بيتاً يعظمه قريش وكنانة ومضر كلها . راجع سيرة ابن هشام (١/٨٧) و (٤/٦٤) والطبري (٢/٣٤٠) وابن الأثير (٢/٩٧) .

(٥) طبقات ابن سعد (٢/١٤٥) .

(٦) السادن : خادم بيت العبادة ، جمعه : سدنة .

(٧) لا شوى : أي لا تبقي على شيء .

(٨) بوئي : ارجعي .

فلما انتهى إليها خالد هدمها[1] وهو يقول :

يا عزّ كفرانك لا سبحانك   إنى رأيتُ الله قد أهانك[2]

وعاد خالد إلى النبى صلى الله عليه وسلم بعد انتهاء واجبه .

إنَّ تولى خالد واجب القائد فى غزوة الفتح دليل على ثقة الرسول بكفاءة قيادته ، وتوليه مهمة هدم (العزى) دليل على ثقة الرسول برسوخ عقيدته .

فى بنى جَذِيمة[3] :

لما رجع خالد من هدم (العُزّى) ورسول الله صلى الله عليه وسلم مقيم بمكة ، بعثه إلى بنى (جَذِيمة) داعياً إلى الإسلام ولم يبعثه مقاتلا[4] ، فدعاهم إلى الإسلام ، فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا ، فجعلوا يقولون : صبأنا ، صبأنا ! فجعل خالد يقتل منهم ويأسر ، ودفع إلى كل رجل أسيره ، حتى إذا كان يوم من الأيام ، أمر خالد بأن يقتل كل رجل أسيره ؛ فلما علم النبى صلى الله عليه وسلم بذلك قال مرتين : « اللّهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد »[5] .

وفى رواية أخرى ، أن خالداً خرج فى ثلاثمائة وخمسين رجلاً من المهاجرين

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/٦٤) .

(٢) أسد الغابة (٢/٩٤) والاستيعاب (٢/٤٢٨) .

(٣) بنو جذيمة : جذيمة بن عامر بن عبد مناه بن كنانة ، أى إنهم من كنانة ، وكانوا بأسفل مكة من ناحية (يملم) . راجع فتح البارى بشرح البخارى (٨/٤٥) وطبقات ابن سعد (٢/١٤٧) و (٧/٣٩٦) والطبرى (٨/٤٥) وجوامع السيرة ص(٢٠)

(٤) سيرة ابن هشام (٤/٥٣) و فتح البارى بشرح البخارى (٨/٤٥) وطبقات ابن سعد (٢/١٤٧).

(٥) فتح البارى بشرح البخارى (٨/٤٥ — ٤٦) . وصبأنا صبأنا : يعنون دخلنا دين محمد صلى الله عليه وسلم . يقال : صبأ الرجل إذا خرج من دين إلى دين . ومنه (الصابئون) لأنهم قد اتخذوا ديناً بين اليهودية والنصرانية .

والأنصار وبنى سُليم ، فلما انتهى إلى بنى جذيمة قال : « ما أنتم ؟ » . قالوا : مسلمون ، قد صلّينا وصدّقنا بمحمد وبنينا المساجد فى ساحاتنا وأذّنا فيها ! . قال : « فما بال السلاح عليكم ؟ » . فقالوا : إنّ بيننا وبين قوم من العرب عداوة ، فخفنا أن تكونوا هم ، فأخذنا السلاح ! قال : « فضعوا السلاح » ، فلما وضعوه قال لهم : « استأسروا » ، فاستأسر القوم ، فأمر بعضهم فكتّف بعضاً وفرّقهم فى أصحابه ؛ فلما كان فى السحر نادى خالد : « من كان معه أسير فَلْيُدَافّه ! » والمدّافة الإجهاز عليه بالسيف . فأما بنو سُليم فقتلوا من كان فى أيديهم ، وأما المهاجرون والأنصار ، فأرسلوا أساراهم ، فلما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم ما صنع خالد ، قال : « اللّهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد » . وبعث على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فودى لهم قتلاهم وما ذهب منهم[1] . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا على ! اخرج إلى هؤلاء القوم ، فانظر فى أمرهم واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » ، فخرج على حتى جاءهم ، فودى لهم الدماء وما أصيب لهم من الأموال حتى إنه ليَدِىَ لهم مِيلَغَةَ الكلب[2] ، حتى إذا لم يبق شىء من دم ولا مال إلا وداه ، بقيت معه بقيّة من المال ، فقال لهم حين فرغ منهم : « إنى أعطيكم هذه البقية من هذا المال احتياطاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم مما لا يعلم وتعلمون » . فلما رجع وأخبر الرسول بما فعل ، قال له : « أصبت وأحسنت »[3] .

ومن الواضح أن الرواية الأولى ، وهى الرواية التى رواها الإمام البخارى

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/١٤٧ — ١٤٨) وسيرة بن هشام (٤/٥٤)

(٢) ميلغة الكلب : خشبة تحفر ثم تتخذ ليلغ فيها الكلب .

(٣) سيرة ابن هشام (٤/٥٥) والطبرى (٢/٢٤٢) وجوامع السيرة ص (٢٣٥) وعيون الأثر (٢/١٨٦) .

فى صحيحه هى الصحيحة ، لأن صحيح البخارى أوثق المصادر فى روايته ، ولأنها أقرب للعقل والمنطق ، ولأن خالداً لو اقتنع بإسلامهم لما تجرأ مطلقاً على قتلهم .

لقد قال بنو جذيمة : صبأنا ، صبأنا ! فحمل خالد هذه اللفظة على ظاهرها ، أى أنهم خرجوا من دين إلى دين ، فلم يكتف خالد بذلك حتى يصرحوا بالإسلام[1] ، والدليل على ذلك أنه قال لهم : « ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا[2] » . وهذا دليل قاطع على أنه لم يقتنع بأن كلمة : صبأنا هى بمعنى : أسلمنا !

إنَّ خالداً أخطأ متأولاً لا عن قصد ولا تعمّد ، وليس أدلّ على أنّ ما فعله ليس إلا عن اجتهاد وتأويل من أنه ظل متمتعاً بثقة النبي صلى الله عليه وسلم ورضاه ؛ ولخطأ خالد هذا وداهم الرسول ، والدّية تعطى عن القتل خطأً لا عن القتل عمداً ؛ ولو أنه قتل بعض بنى جذيمة لمجرد التشفّى وثارات الجاهلية ، لاقتصّ منه الرسول صلى الله عليه وسلم وقاده حتماً بلا هوادة ، ولما اكتفى بالتبرؤ من فعله وتعويض خسائر بنى جذيمة بما بعثه مع على بن أبى طالب من مال . . . وإبقاء خالد قائداً يتمتّع بكل ثقة الرسول الكريم[3] .

---

(١) فتح البارى بشرح البخارى (٨/٤٦) .

(٢) سيرة ابن هشام (٤/٥٣) والطبرى (٢/٣٤١) وابن الأثير (٢/٩٧) وتاريخ أبى الفدا (١/١٤٥) .

(٣) لا عبرة فيما رواه الطبرى فى (٢/٣٣١) فيما يشتمّ منه منه رائحة : أن خالداً قتل بنى جذيمة أخذاً لثأره منهم ، حيث كانوا قد قتلوا عوف بن عبد عوف أبا عبدالرحمن بن عوف والفاكه بن المغيرة عم خالد . إن الطبرى مؤرخ يروى كل الروايات الواردة — وهذه أحداها — استكمالاً للبحث . ولا شك أن العقل والنقل لا يقفان إلى جانب هذه الرواية : فمن الناحية العقلية ، أن النبى صلى الله عليه وسلم بعث خالداً داعياً لاغازياً ، فإذا قتل الناس عمداً بدون مبرّر فقد خالف أوامر النبي الصريحه حول هذه الغزوة =

في يوم حُنَيْن[1] :

كان خالد على مقدمة المسلمين في مائة فرس هي خيل بني سُليم[2] عند التقدم من مكة إلى الطائف لقتال بني هوازن وثقيف الذين أجمعوا على حرب المسلمين[3] .

وكان مالك بن عوف[4] قد عبّأ رجاله في وادي (حنين) ليلاً وأمرهم أن يحملوا على المسلمين حملة واحدة . وعبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاله وصفهم صفوفاً ووضع الألوية والرايات في أهلها[5] .

وانحدر المسلمون في عماية الصبح في وادي (حنين) على تعبية وهو وادٍ

= وتعاليمه الصريحة في اجتناب قتل النفس إلا بحقّها ، وأقل عقوبة خالد عند ذاك نزعه من القيادة ، وهذا مالم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم ، والنبي لا تأخذه في الله لومة لائم ، فكيف يسكت عن قتل الأبرياء . إذا لم يقتنع بأن قتلهم كان خطأ ؟ !

ومن الناحية النقلية ، فهذه الرواية لم ترد في مصادر سنة النبي صلى الله عليه وسلم والذين ردّدوا هذه الرواية من المؤرخين فقط نقلها بعضهم عن بعض .

(١) حنين : واد قبل الطائف ، بينه وبين مكة ثلاث ليال . راجع معجم البلدان (٣/ ٣٠٤) .

(٢) طبقات ابن سعد (٢/١٥٠) والسيرة الحلبية (٣/١٦٣ — ١٦٥) والأغاني (١٠/٢٥) .

(٣) طبقات بن سعد(١/١٤٩) والطبري (٢/٣٤٤) وسيرة بن هشام (٣/٦٨)

(٤) مالك بن عوف النصري : من هوازن ، كان قائد المشركين يوم حنين ، فنجح في مباغتة قوات المسلمين في وادي حنين وأوقع فيهم خسائر فادحة . وبعد انهزام المشركين لحق بالطائف . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لو أتاني مالك مسلماً لرددت إليه أهله وماله » ، فبلغه ذلك ، فلحق بالمسلمين في (الجعرانة) فأسلم ، فأعطاه النبي أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل ، كما أعطت سائر المؤلفة قلوبهم وكان معدودا منهم ثم حسن إسلامه ، فاستعمله الرسول صلى الله عليه وسلم على من أسلم من قومه ومن قبائل قيس عيلان وأمره بمغاورة ثقيف ، ففعل وضيّق عليهم ، وشهد بعد ذلك فتح دمشق وشهد القادسية أيضاً . راجع التفاصيل في الإصابة (٦/٣١) وأسد الغابة (٤/٢٨٩) والاستيعاب (٣/١٣٥٦) .

(٥) طبقات بن سعد (٢/ ١٥٠) .

من أودية (تهامَة) أجوف حَطُوط[1] ينحدر انحداراً[2] ، فهاجمهم المشركون من كل جانب ، فانكشفت خيل بنى سُلَيم مولّية وتبعهم أهل مكة وتبعهم الناس منهزمين ؛ ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم ثبت وثبت معه نفر قليل من أصحابه وأهل بيته[3] ، فتجمع المسلمون حوله وشنوا هجوماً مقابلاً على المشركين انهزموا على أثره لا يلوى أحد منهم على أحد[4] ، وكان خالد أحد الذين تجمعوا حول النبى صلى الله عليه وسلم وقاتلوا معه قتالاً شديداً ، فجرح وعاده الرسول[5] .

إن واجب المقدمة ، هو حماية القسم الأكبر والحصول على المعلومات عن العدو ، حتى لا تباغت قوات القسم الأكبر[6] .

إن مقدمة المسلمين بقيادة خالد ، لم تنجز هذا الواجب أبداً يوم حنين ، فهى لم تستطع معرفة مواضع المشركين التى احتلوها فى وادي حنين واندفعت إلى الأمام بسرعة قبل أن تعرف حقيقة موقف العدو فى وادى حنين ، فكان

---

(١) تهامة : ما انخفض من ارض الحجاز . وأجوف : أى متّسع . وحطوط : أى منحدر .

(٢) سيرة بن هشام (٤/٧١) والطبرى (٢/٣٤٧) .

(٣) طبقات بن سعد (٢/١٥١) ، وأسماء الذين ثبتوا معه وهم قائمة الشرف هم : ١ — العباس بن عبد المطلب ٢ — على بن أبى طالب ٣ — الفضل بن العباس ابن عبد المطلب ٤ — أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ٥ — ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ٦ — أبو بكر الصديق ٧ — عمر بن الخطاب ٨ — أسامة بن زيد ابن حارثة ٩ — أيمن بن عبيد وهو أيمن بن أم أيمن راجع الطبرى (٢/٣٤٧) وابن الأثير (٢/١٠٠) وسيرة بن هشام (٤/٧٢) .

(٤) طبقات بن سعد (٢/١٥١)والطبرى (٢/٣٤٨)وسيرة بن هشام (٤/٧٥) .

(٥) أسد الغابة (٢/٩٥) والاستيعاب (٢/٤٢٨) والأغانى (١٥/٢٠) .

(٦) القسم الأكبر : تعبير عسكرى ، معناه كافة القطعات عدا قطعات الحماية أى عدا المقدمة والجنبات والمؤخرة . والقسم الأكبر يعتبر القوة الضاربة الأصلية ، وقطعات الحماية مسؤولة عن حماية القسم الأكبر من مباغتة العدو .

اندفاعها هذا على غير هدى وبصيرة. أما قوات القسم الأكبر فاندفعت وراء المقدمة لاعتقادها أن اندفاعها هذا أمين وغير خطر .

إنّ من أهم أسباب هزيمة المسلمين فى ابتداء معركة (حنين) هو عدم قيام مقدّمتهم بواجبها ، إذ لم تحصل على المعلومات عن مواضع العدو ، ولم تمنع مباغتة العدو للقسم الأكبر ؛ وبذلك فشلت مقدّمة المسلمين يوم حنين فى أداء واجبها فشلًا ذريعاً ، على الرغم من أنها كانت بقيادة خالد[1] .

فى غزوة الطائف :

لم تمنع خالد جراحاته من أن يعود لقيادة المقدمة ، إذ لم يزل على مقدمة المسلمين حتى وردوا (الجعرانة)[2] فى طريق عودتهم إلى المدينة[3] .

وفى طريقه إلى (الطائف)[4] قاتل فلول المشركين وكان بين قتلى المشركين امرأة ، فقد مرّ النبي صلى الله عليه وسلم فى طريقه بامرأة مقتولة ، فقال : « من قتلها ؟! » فقالوا : خالد بن الوليد ، فقال لبعض مَن معه : « أدرك خالدًا وقل له : إن رسول الله ينهاك أن تقتل امرأة أو وليداً أو عسيفا »[5] ؛ ولما حاصر المسلمون الطائف ، كان خالد ينادى : « هل من مبارز ؟ » فلا يجيبه أحد[6] !

---

(١) الرسول القائد — الطبعة الثانية ص (٢٥٩) .

(٢) الجعرانة : ماء بين الطائف ومكة ، وإلى مكة أقرب راجع معجم البلدان (١٠٩/٣) .

(٣) طبقات بن سعد (١٥٨/٢) .

(٤) الطائف : بلد مشهور بينها وبين مكة إثنا عشر فرسخاً من جهة المشرق ، وهى ذات مزارع ونخل وأعناب ومياه غزيرة وطيبة الهواء . راجع معجم البلدان (١٠/٦) .

(٥) ابن الأثير (١٠١/٢) ، والعسيف : هو الاجير .

(٦) السيرة الحلبية (١٦٣/٣) .

ولما وصل المسلمون (الجعرانة) حيث قسّم الرسول الغنائم ، قال رجل من المنافقين : « ما أريد بهذه القسمة وجه الله ! » فقال عمر « ألا نقتله ؟ » وقال خالد : « ألا أضرب عنقه ؟ » وقال النبي : « لا . لعلّه يصلى »[1] .

مع بني المُصْطَلِق[2] :

بعث النبي صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة بن أبي مُعيط[3] إلى بني (المُصْطَلِق) مصدِّقاً في أوائل السنة التاسعة للهجرة ، أى بعد إسلامهم بعامين[4] ، فلما رأوه أقبلوا نحوه فهابهم ، فرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره أنهم قد ارتدّوا عن الإسلام ؛ فبعث النبي صلى الله عليه وسلم خالداً وأمره أن يتثبّت ولا يعجل ؛ فانطلق خالد حتى أتاهم ليلاً ، وبعث عيونه ، فأخبروه بأن القوم متمسّكون بالإسلام وسمعوا أذانهم وصلاتهم ؛ فلما أصبحوا أتاهم خالد ، فرأى ما يعجبه ، فرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر ، فنزل قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ

---

(١) السيرة الحلبية (٣/١٧١ — ١٧٢) .

(٢) المصطلق : هو لقب جذيمة بن سعد بن عمرو بن ربيعة بن حارثة ، بطن من خزاعة . راجع فتح البارى بشرح البخارى (٧/٣٣٢) .

(٣) الوليد بن عقبة بن أبي معيط الأموى : أخو عثمان بن عفان رضى الله عنه لأمّه ، أسلم يوم فتح مكة . ولاه عثمان الكوفة وعزله عنها سعد بن أبي وقاص ، وله أخبار في الكوفة فيها نكارة وشناعة . كان من رجال قريش ظرفاً وحلماً وشجاعة وأدباً ، وكان من الشعراء المطبوعين . سكن المدينة ثم نزل الكوفة ، فلما قتل عثمان نزل البصرة ثم خرج إلى الرقة ونزلها واعتزل علياً ومعاوية . مات بالرقة وبها قبره — راجع طبقات ابن سعد (٦/٢٤) والإصابة (٦/٣٢١) والاستيعاب (٤/١٥٥٢) .

(٤) السيرة الحلبية (٢/٣٦٤) .

بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ، فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ »
نزلت فى الوليد بن عقبة[1] .

لقد كان موقف خالد فى هذه القضية رائعاً حقاً : أرسل عيونه ليروا عمل القوم فى غفلة منهم ، فلما جاءته عيونه بأخبارهم ، أتاهم هو بنفسه ، فوجد أنّ أخبار الوليد بن عقبة عنهم غير صحيحة ، وبذلك حقن خالد دماء بنى المصطلق ووضعهم فى موضعهم الذى يستحقونه .

هدم وَدّ[2] :

بعث النبي صلى الله عليه وسلم خالداً لهدم (وَدّ) فى دُومَة (الجندل)[3] وقد بعثه من غزوة (تبوك) ، فحالت بنو عبد ود وغيرهم بينه وبين هدمه ، فقاتلهم خالد . وبعد دحرهم هدمه وكسّره جذاذا[4] .

فى دُومة الجندل :

فى أثناء مقام النبي صلى الله عليه وسلم فى (تبوك) أرسل خالداً فى أربعمائة

---

(١) الأغانى (٤/٣٠٦ — ٣٥٧) وتفسير ابن كثير (٨/٣١ — ١٢) وبهامشه تفسير البغوى (٨/١٠) وتفسير الزمخشرى (٣/١٢١) والآية الكريمة من سورة الحجرات (٤٩/٦) انظر الاستيعاب (٣٤) (١٠) والاصابة (٦/٣٢١) وأسد الغابة (٥/٩١) والمعارف ص (٣١٩) وسير بن هشام (٤/٣٤٠ — ٣٤١)

(٢) وَدّ : تمثال رجل كبير الجسم ، عبده بنو كلب بن وَبرة من قضاعة بدومة الجندل . راجع الأصنام لابن الكلبيّ (٥٥ — ٥٦) وسيرة ابن هشام (١/٨٣) وتفسير الكشاف للزمخشرى (٣/٢٢٠) وتفسير ابن كثير وبهامشه تفسير البغوى (٩/٧ — ٨) وتفسير البيضاوي (٥/١٥٣) .

(٣) دومة الجندل : (حصن على سبع مراحل من دمشق) تقع بين دمشق والمدينة . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٤/١٠٦) .

(٤) خالد بن الوليد — أبو زيد شلبي (٨٦ — ٨٧) .

وعشرين فارساً[1] إلى أكيدر بن عبدالملك ثم السكوني[2] صاحب (دُومة الجندل) ، وكان أكيدر قد خرج من حصنه في ليلة مقمرة إلى بقر الوحش يطارده هو وأخوه حسّان ، فهاجمته خيل خالد ، فاستأثر أكيدر وامتنع أخوه وقاتل حتى قتل ، ثم هرب من كان معهما !.

وأجار خالد أكيدر من القتل حتى يأتي به رسول صلى الله عليه وسلم ، على أن يفتح له دومة الجندل ، فدخلها المسلمون .

وصالحه خالد على ألفي بعير وثمانمائة رأس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح ، ثم خرج خالد بأكيدر وأخيه (مصاد) الذي كان في الحصن وبما صالحه عليه قافلاً إلى المدينة ، وهناك صالحه النبي صلى الله عليه وسلم على الجزية وحقن دمه ودم أخيه وخلّى سبيلهما ، وكتب له كتاباً فيه أمانهم وما صالحهم عليه وختمه يومئذ بظفره[3] .

---

(١) طبقات ابن سعد (١٦٦/٢) والسيرة الحلبية (٢٨٦/٣) .

(٢) اكيدر بن عبدالملك الكندي : كتب إليه النبي صلى الله عليه وسلم وأرسل سرية مع خالد بن الوليد . ذكر البلاذري ص (٧٢) أنه أسلم ، والصحيح أنه أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يُسلم بل بقي نصرانياً (ولما صالحه الرسول عاد إلى حصنه وبقي فيه . ثم إن خالداً أسره لما حاصر دومة الجندل أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه فقتله نصرانياً . وذكر البلاذري في ص (٧٣) : (أنه أسلم ، فلما مات النبي صلى الله عليه وسلم منع الصدقة ونقض العهد وخرج من دومة الجندل فلحق (الحيرة) ، بينما جاء في الطبري (٥٧٨/٢) وابن الأثير (١٥٢/٢) : (أن خالداً أسره وقتله) وهذا مانرجحه لموافقته لمصادر أهل الحديث ، لذلك فقد قتل نصرانياً ولا يعتبر صحابياً . راجع الإصابة (١٢٩/١) وأسد الغابة (١١٣/١) وفتوح البلدان للبلاذري (٧٢ — ٧٣) والطبري (٥٧٨/٢) وابن الأثير (١٥٢/٢) .

(٣) طبقات ابن سعد (١٦٦/٢) وجوامع السيرة ص (٢٥٣) وسيرة ابن هشام (١٨١/٤) وأسد الغابة (٩٤/٢) والاستيعاب (٤٢٨/٢) والطبري (٣٧٢/٢) ، مع اختلافات في الروايات ، وما ذكرته هو نص ما جاء في طبقات ابن سعد .

في نجران

بعث النبي صلى الله عليه وسلم خالداً إلى بني الحارث بن كعب بن مَذْحج (بنَجْران)[1] في أربعمائة من المسلمين ، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثاً ، فإن استجابوا له قبل منهم وأقام فيهم وعلّمهم كتاب الله وسنة نبيّه ومعالم الإسلام ، وإن لم يستجيبوا قاتلهم .

وخرج خالد حتى قدم عليهم ، وبعث الركبان يضربون في كل وجه ويدعون إلى الإسلام ويقولون : « أيها الناس ! اسلموا تسلموا » . فأسلم الناس ودخلوا فيما دُعوا إليه ؛ فأقام فيهم خالد يعلّمهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيّه ، وكتب بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكتب إليه النبي أن يُقبل إلى المدينة ومعه وفدهم ، فأقبل خالد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه وفد بني الحارث ، فأسلموا . وسألهم النبي فيما سألهم : « بِمَ كنتم تغلبون مَن قاتلكم في الجاهلية ؟ » . قالوا : « كنا نغلب مَن قاتلنا يا رسول الله ، أنا كنا نجتمع ولا نتفرق ، ولا نبدأ أحداً بظلم » . قال : « صدقتم »[2] .

---

(١) نجران : من مخاليف اليمن من ناحية مكة . راجع معجم البلدان (٨ / ٢٥٨) وآثار البلاد وأخبار العباد للقزويني ص (١٢٦) .

(٢) سيرة ابن هشام (٤ / ٢٦٢ — ٢٦٦) والطبري (٢ / ٣٨٥ — ٣٨٨) وابن الأثير (٢ / ١١٢) ، وهذا نص كتاب خالد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم . لمحمد النبي رسول الله صلى الله صلى الله عليه وسلم ، من خالد ابن الوليد . السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته . فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد . يا رسول الله صلى الله عليك ، فإنك بعثتني إلى بني الحارث ابن كعب وأمرتني إذا أتيتهم ألا أقاتلهم ثلاثة أيام وأن أدعوهم إلى الإسلام ، فإن أسلموا قبلت منهم ، وعلمتهم معالم الإسلام ، وكتاب الله وسنة نبيه ، وإن لم يسلموا قاتلتهم . وإني قدمت عليهم ، فدعوتهم إلى الإسلام ثلاثة أيام ، كما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعثت فيهم ركباناً : يا بني الحارث ! اسلموا تسلموا ، فأسلموا ولم يقاتلوا ، وأنا مقيم بين أظهرهم ، وآمرهم بما أمرهم الله به ، وأنهاهم عما نهاهم الله عنه ، وأعلمهم =

في اليمن :

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالداً إلى اليمن يدعوهم إلى الإسلام ، فلم يجيبوه ، فأرسل على بن أبي طالب ، فأسلمت (همدان) كلها في يوم واحد[1] .

وفي رواية ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ، بعث خالداً إلى اليمن ثم بعث عليًا إلى خالد ليقبض الخمس[2] .

وفي رواية ، أن النبي بعث عليًا في جند وبعث خالداً في جند آخر ، وقال : « إن التقيتما فالأمير على بن أبي طالب »[3] .

والرواية القريبة من العقل ، هي أن الرسول بعث خالداً ثم بعث عليًا ليقبض الخمس ، لأنها الرواية التي اعتمدها البخاري في صحيحه ، ولأنها أقرب إلى الواقع والمنطق ، إذ كيف تستعصى همدان على الإسلام ستة أشهر ثم تعلن إسلامها في يوم واحد ؟ ومع ذلك فالرواية الأخيرة منطقية أيضًا ، إذ من

= معالم الإسلام ، وسنة النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى يكتب إلى رسول الله . والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته .

فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد النبي رسول الله ، إلى خالد بن الوليد . سلام عليك ، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو . أما بعد ، فإن كتابك جاءني مع رسلك تخبر أن بني الحارث قد أسلموا قبل أن تقاتلهم ، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام ، وشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وأن قد هداهم بهداه ، فبشرهم وأنذرهم ، وأقبل وليقبل معك وفدهم ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

(١) الطبرى (٢ / ٣٨٩) وابن الأثير (٢ / ١١٥) .

(٢) فتح البارى بشرح البخارى (٨ / ٥٢) .

(٣) سيرة ابن هشام (٤ / ٣١٩) .

الجائز أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم مع كل من على وخالد جنداً للقتال عند الحاجة ، وللمعاونة فى القضايا الإدارية كجمع الصدقات و نشر الدعوة وتعليم الناس القرآن والسنن ... إلخ .

سيف الله

أنجز خالد فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم أعمالاً باهرة فى القتال والسلم على حد سواء . والذى يمحّص أعماله الجليلة منذ إسلامه حتى التحق الرسول بالرفيق الأعلى — وهى فترة قصيرة من عمر الزمن ، لا بدّ أن يتساءل : كيف استطاع خالد أن يحقّق كل هذه المنجزات خلال هذا الوقت القصير ؟؟

والحق ، أن هذا التساؤل وارد ، إذ أن فترة إسلامه التى قضاها إلى جانب الرسول لا تتجاوز أربع سنوات ، بينما قاتل شمالاً على حدود أرض الشام — الحجاز ، وقاتل جنوباً فى اليمن ، وشهد أحد عشر مشهداً ، قاتل فى ثلاثة منها تحت لواء الرسول القائد ، وقاتل فى ثلاثة منها قائداً مستقلاً ، ولم يقاتل فى خمسة مشاهد منها بل أنجز واجبه سلماً ، فمن أين له الوقت الكافى لتحقيق هذه الأعمال ؟

وللاطلاع على توقيت أعماله — راجع الملحق (أ) وفيه الوقت الذى أنجز فيه أعماله الكبيرة ، التى تدل على أنه كان موضع ثقة الرسول الكاملة من جهة ، وأنه كانت له قابليات نادرة فى القيادة العسكرية خاصة ، لا يجود بها الزمان إلا نادراً .

لقد كان له أثر أى أثر فى نصرة دين الله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى نشر رايات الإسلام شمالاً وجنوباً ، فلا عجب أن يقول الرسول

القائد عن خالد : « نعم عبد الله وأخو العشيرة وسيف من سيوف الله سلّه الله على الكفار والمنافقين »[1] .

الملحق (١)

جدول توقيت أعمال خالد بعد إسلامه في عهد النبي صلى الله عليه وسلم (٢) .

التسلسل	الأعمال	الشهر الهجري	السنة الهجرية	السنة الميلادية	الملحوظات
١	إسلامه	صفر	٨	٦٢٩	
٢	غزوة مؤتة	جمادى الأولى	٨	٦٢٩	
٣	فتح مكة	رمضان	٨	٦٢٩	
٤	هدم العزى	رمضان	٨	٦٢٩	بعد خمسة أيام من فتح مكة
٥	في بني جذيمة	شوال	٨	٦٢٩	
٦	يوم حنين	شوال	٨	٦٢٩	
٧	غزوة الطائف	شوال	٨	٦٢٩	
٨	مع بني المصطلق	رجب	٩	٦٣٠	
٩	في تبوك	رجب	٩	٦٣٠	في أوائل السنة أثناء غزوة تبوك
٩	هدم ود	رجب	٩	٦٣٠	
١٠	في دومة الجندل	رجب	٩	٦٣٠	
١١	في نجران	ربيع الآخر	١٠	٦٣١	
١٢	في اليمن	رمضان	١٠	٦٣١	

(١) الاستيعاب (٢ / ٤٢٩) .

(٢) اعتمدنا في إعداد توقيت هذا الجدول على ما جاء في الطبري .

في حرب أهل الردة

« لا أشيم سيفا سله الله على الكافرين »
(الصديق ابو بكر)

الواجب :

ارتدّت العرب إما عامة أو خاصة من كل قبيلة ، وظهر النفاق ، واشرأبّت يهود والنصارى ، وبقي المسلمون كالغنم في الليلة المطيرة لفقد نبيّهم وقلّتهم وكثرة عدوّهم[1] . في ذلك الموقف العصيب ، أصرّ أبو بكر الصديق على إنفاذ جيش أسامة بن زيد[2] ، وكان في إنفاذه أعظم النفع للمسلمين ، فقد قال العرب المرتدّون : لو لم يكن بهم قوّة ، لما أرسلوا هذا الجيش ؛ لذلك كفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوا[3] . فلما عاد جيش أسامة من واجبه ، وجّه أبو بكر قوات المسلمين لقتال أهل الردّة ، الذين لم يرض منهم إلا بالخطة المخزية أو الحرب المجلية[4] ، وقال أبو بكر قولته المشهورة : « والله لو منعوني عقالاً لجاهدتهم عليه »[5] .

---

(١) الطبري (٢ / ٤٦١) وابن الأثير (٢ / ١٢٧) .
(٢) الطبري (٢ / ٤٦٢) وابن الأثير (٢ / ١٢٧) .
(٣) ابن الأثير (٢ / ١٢٨) .
(٤) ابن الأثير (٢ / ١٢٨) أما الخطة المخزية ، فأن يقروا بأن من قتل منهم في النار ومن قتل منا في الجنة ، وأن يدوا قتلانا ، ونغنم ما أخذنا منهم ، وأن ما أخذوه منا مردود علينا . وأما الحرب المجلية ، فأن يخرجوا من ديارهم . وفي البلاذري ص(١٠٤) ورد : الحرب المجلية والسلم المخزية ، فقالوا : قد عرفنا الحرب المجلية ، فما السلم المخزية ؟ قال : أن ننزع منكم الحلقة والكراع ، ونغنم ما أصبنا منكم ، وتردوا إلينا ما أصبتم منا ، وتدوا قتلانا ويكون قتلاكم في النار ...
(٥) الطبري (٢ / ٤٧٦) والبلاذري (١٠٣) والأمامة والسياسة لابن قتيبة (١ / ٢٧) .

وتنفيذاً لخطته فى مقاتلة أهل الردة ، عقد أحد عشر لواء لأحد عشر قائداً ، وكان واجب خالد هو قتال طليحة بن خويلد الأسدى ، فإذا فرغ منه قصد مالك بن نويرة[1] .

مع طليحة :

أمر أبو بكر خالداً أن يبدأ بطيء ، ومنهم يسير إلى (بُزاخة)[2] ثم يثلّث (بالبُطاح) ولا يبرح إذا فرغ من قوم حتى يأذن له ؛ وأظهر أبو بكر أنه خارج إلى (خيبر)[3] بجيش حتى يلاقى خالداً يرهب العدو بذلك[4] ، فقعّد ذلك طيئاً وبطأ عن طليحة بن خويلد الأسدى[5] .

وكان أبو بكر قد بعث عدى بن حاتم الطائى إلى طيئ قبل مسير خالد

---

(١) انظر التفاصيل فى الطبرى (٢ / ٤٨٠) وابن الأثير (٢ / ١٣٢) .

(٢) بزاخة : ماء لطيء بأرض نجد ، وقيل ماء لبنى أسد . راجع معجم البلدان (٢ / ١٦١) .

(٣) خيبر : ناحية على ثمانية برد من المدينة لمن يريد الشام ، يطلق هذا الاسم على الولاية ، وتشتمل هذه الولاية على سبعة حصون ومزارع ونخل كثير . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٣ / ٤٩٥) .

(٤) الطبرى (٢ / ٤٨٣) وابن الأثير (٢/١٣٢) وجوامع السيرة ص (٣٣٩) والاصابة (٢ / ٩٩) .

(٥) طليحة بن خويلد الأسدى : قدم مع وفد أسد بن خزيمة على النبى صلى الله عليه وسلم سنة تسع للهجرة ، فأسلم . فلما رجع ورجعوا تنبأ طليحة فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، فأرسل إليه النبى صلى الله عليه وسلم ضرار بن الأزور الأسدى ليقاتله . فلما توفى الرسول عظم أمر طليحة وأطاعه الحليفان أسد وغطفان ، وكان يزعم أنه يأتيه جبريل بالوحى ، فأرسل إليه أبو بكر خالد بن الوليد فقاتله وقضى على فتنته ، فانهزم طليحة إلى الشام وبقى هناك حتى توفى أبو بكر ، ثم خرج محرماً فى خلافة عمر بن الخطاب وأسلم إسلاماً صحيحاً ، وجاهد الفرس فى القادسية وغيرها جهاد الأبطال المغاوير . لقد كان طليحة من أشجع العرب وكان يعد بألف فارس .

راجع الإصابة (٣ / ٢٩٦) وأسد الغابة (٣ / ٦٥) والاستيعاب (٢ ٧٧٣) .

إليهم ، فدغاهم عدى وخوّفهم ، فقالوا له : استقبل خالداً فنهنه عنا ثلاثاً حتى تستخرج من لحق بالبزاخة منا ، فإنا إن خالفنا طليحة وهم في يده قتلهم أو ارتهنهم . فاستقبل عدى خالداً وهو (بالسُّنْح)[1] ، وقال له « أمسك عنى ثلاثا يجتمع لك خمسمائة مقاتل تضرب بهم عدوّك » ففعل خالد . وأرسلت طيئ إلى إخوانهم ، فعادوا من بزاخة كالمدد لهم ، ولولا ذلك لم يُتركوا ؛ وبذلك عادت طيئ إلى الإسلام[2] .

وتوجّه خالد ومن انضم إليه من طيئ وعددهم ألف راكب تلقاء بزاخة ، وأرسل عكاشة بن محصن[3] وثابت بن أقرم طليعة لقواته ، فقتلا أحد أخوة طليحة ، فلما بلغه مصرع أخيه خرج ومعه أخوه سلمة ، فقتلا عكاشة وثابتا ثم رجعا . ومرّ خالد في طريقه إلى بزاخة بعكاشة وثابت قتيلين[4] .

وعبّأ خالد جيشه للقتال ، فقالتْ له (طيئ) : نحن نكفيك (قيساً) ، فإن بني أسد حلفاؤنا ! فقال : « قاتلوا أيّ الطائفتين شئتم » . فقال عدى : « لو نزل هذا على الذين هم أسرتي الأدنى فالأدنى لجاهدتهم عليه . لا أمتنع عن جهاد بني أسد لحلفهم » : فقال له خالد : « إن جهاد الفريقين جهاد . لا تخالف رأى

---

(١) السنح : موضع بنجد قرب جبل طيئ ، نزله خالد في حرب الردة ، فجاءه عدى بن حاتم بإسلام طيء وحسن طاعتهم . راجع معجم البلدان (٥ / ١٤٩) .

(٢) الطبرى (٢ / ٤٨٣) وابن الأثير (٢ / ١٣٢) .

(٣) عكاشة بن محصن الأسدى : من فضلاء الصحابة وساداتهم ، هاجر إلى المدينة وشهد بدراً وأبلى فيها بلاء حسنا وانكسر في يده سيف ، وشهد أحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقتله طليحة الأسدى ، وكان عكاشة يوم توفى رسول الله صلى عليه وسلم ابن أربع وأربعين سنة ، وقتل بعد ذلك بسنة ، وكان من أجمل الرجال ، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه بعض الصحابة . راجع طبقات ابن سعد (٣ / ٩٢) والإصابة (٤ / ٢٥٦) وأسد الغابة (٤ / ٢) والاستيعاب (٣ / ١٠٨) .

(٤) الطبرى (٢ / ٤٨٤) وابن الأثير (٢ / ١٣٢) والبلاذرى ص (١٠٥) .

أصحابك وامض بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط » . ثم سار خالد بجيشه ، والتقى بطليحة ورجاله على بزاخة ، فقاتل الطرفان قتالاً شديداً ، ولما رأى أنّ كفّة المسلمين رجحت على كفّة أتباعه ،ركب فرسه وحمل امرأته ثم نجا بها ، وقال : « يا معشر فزارة ! من استطاع أن يفعل هكذا وينجو بامرأته ، فليفعل »[1] ، وبذلك قضى خالد على فتنة طليحة وأعاد الإسلام إلى منطقته والمنطقة المجاورة لها .

لقد حطّم انتصار خالد معنويات أسد وغطفان وأحلافهما الأقوياء ومعنويات القبائل الأخرى التي تعيش فى تلك المنطقة ، فأقبل بنوعامر وسُليم وهوازن وهم يقولون : ندخل فيما خرجنا منه ونؤمن بالله ورسوله ونسلّم لحكمه فى أموالنا وأنفسنا[2] ؛ ذلك لأن القبائل البدوية تكون دائماً مع القوى ، فبايعت خالداً ، وكانت بيعته : « عليكم عهد الله وميثاقه لتؤمنّن بالله ورسوله ولتقيمن الصلاة ولتؤتنّ الزكاة ، وتبايعون على ذلك أبناءكم ونساءكم » ، ولم يقبل من أحد من أسد وغطفان وعامر وطيئ وسليم إلا أن يأتوه بالذين حرّقوا ومثّلوا وعدوا على الإسلام فى حال ردّتهم ، فأتوه بهم ، فمثّل بهم وحرّقهم ورضخهم بالحجارة ورمى بهم من الجبال ونكسهم فى الآبار[3] .

فما أسباب انتصار خالد الساحق السريع ؟ ؟

يمكن إجمال أسباب انتصاره ، بأن المسلمين كانوا يقاتلون مدفوعين بعقيدة راسخة واثقين بنصر الله ، وكان لانضمام طيئ أثر فى تقوية المسلمين

---

(١) الطبرى (٢ / ٤٨٥) وابن الأثير (٢ / ١٣٣) والبلاذرى ص (١٠٥) .
(٢) الطبرى (٣ / ٤٨٦) وكان بين أسد وغطفان وطيئ حلف فى الجاهلية راجع الطبرى (٢ / ٤٨٦) .
(٣) ابن الأثير (٢ / ١٣٣) .

وإضعاف أعدائهم ، كما كان لتورية أبى بكر تأثير على طيئ فى عدم التعاون مع خلفائها وبقائها فى مواضعها الأصلية . وكان قتل الصحابيين الجليلين قد أحفظ قلوب المسلمين وحرّضهم على قتال أعدائهم .

كما أنّ إفساح المجال لطيئ كى تقاتل قيساً كما أرادت شجّعها على الاستقلال فى الحرب ، إذا لو أصرّ خالد على أن يقاتلوا حلفاءهم فى بنى أسد كما أراد عدى بن حاتم ، لقصّرت طيئ فى حربها أى تقصير !

وربما كان هناك من ينتقد خالداً على إهماله فى مطاردة عدوّه بعد انتصاره عليه فى بزاخة ، ولكنّ ذلك غير وارد بالنسبة لقتال القبائل فى الصحراء ، لأن القبائل تترك حيّها وتلجأ إلى الأحياء القريبة أو البعيدة وتنهزم إلى جهات مختلفة ، مما يجعل مطاردتها أسوة بمطاردة القوات النظامية غير ممكن إلا فى حدود معيّنة.

مع مالك بن نويرة :

حين فرغ خالد من طليحة ومَن معه ، سار يريد مالك بن نويرة[1] فى

---

(١) مالك بن نويرة التميمى : بعث النبى صلى الله عليه وسلم مالك بن نويرة على بعض صدقات بنى تميم ، وكان قد أسلم هو وأخوه متمم. قتل خالد بن الوليد مالكا واختلف فيه : هل قتله مسلماً أو مرتداً . والأكثر على أنه قتله خطأ ، وأما أخوه متمم فلاشك فى إسلامه . قال متمم يرثى أخاه :

وكنا كندمانى جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدّعا
فلما تفرّقنا كأنى ومالكا ... لطول افتراق لم نبت ليلة معا

وقال يرثيه :

تطاول هذا الليل ما كاد ينجلى ... كليل تمام ما يريد صراما
سأبكى أخى ما دام صوت حمامة ... تؤرّق فى وادى (البُطاح) حماما
وأبعث أنواحاً عليه بسُحْرةٍ ... وتذرف عيناى الدموع سجاما

وقيل لمتمم : ما بلغ من حزنك على أخيك ؟ فقال : « أصبت بعينى فما قطرت منها قطرة عشرين سنة ، فلما قتل أخى استهلّت فما ترقأ » . راجع الإصابة (٦ / ٣٦) و (٦ / ٤٠) وأسد الغابة (٤ / ٢٩٥) والاستيعاب (٣ / ١٣٦٢) ومعجم البلدان (٢ / ٢١٥).

(البُطاح)[1] ، ولـكنّ الأنصار فى قوات خالد تخلفوا عنه ، وقالوا : ما هذا بعهد الخليفة إلينا ! إذ الخليفة عهد إلينا إن نحن فرغنا من البزاخة واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا ، فقال خالد: « إن يك عهد إليكم هذا ، فقد عهد إلىّ أن أمضى ؛ وأنا الأمير وإلىّ تنتهى الأخبار ! ولو أنه لم يأتنى له كتاب ولا أمر ، ثم رأيت فرصة ، فكنت إن أعلمته فاتتنى ، لم أعلمه حتى أنتهزها . وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس منه عهد إلينا فيه ، لم ندع أن نرى أفضل ما بحضرتنا ، ثم نعمل به . وهذا مالك بن نويرة بحيالنا ، وأنا قاصد إليه ومَن معى من المهاجرين والتابعين بإحسان ، ولست أكرهكم » . ومضى خالد ، فندمت الأنصار وأجمعوا اللحاق به[2] .

وصل خالد (البُطاح) فلم يجد بها أحداً ، لأن مالك بن نويرة فرّقهم ونهاهم عن الاجتماع ؛ فبثّ خالد السرايا وأمرهم بداعية الإسلام وأن يأتوه بكل مَن لم يجب داعى الحق ، فإذا امتنعَ قتلوه ؛ وكان أبو بكر قد أوصاهم : « أن يؤذّنوا إذا نزلوا منزلا ، فإن أذّن القوم فكفّوا عنهم ، وإن لم يؤذّنوا ، فاقتلوا وانهبوا ، فإذا أجابوكم إلى داعية الإسلام ، فسائلوهم عن الزكاة ، فإن أقرّوا فاقبلوا منهم وأن أبوا فقاتلوهم » . فجاءته الخيل بمالك بن نويرة فى نفر معه من بنى ثعلبه بن يربوع ؛ واختلفت السرية فيهم وكان أبو قتاده الحارث بن ربعى الأنصارى[3] فيمن شهدوا أنهم أقاموا وصلوا ؛ فلما اختلفوا فيهم ،

---

(١) البطاح : ماء فى ديار بنى خزيمة . راجع معجم البلدان (٣ / ١١٤) .

(٢) الطبرى (٢ / ٥٠١ — ٥٠٢) وابن الأثير (٣ / ١٢٦)

(٣) أبو قتادة الحارث بن ربعى الأنصارى : هكذا ورد اسمه فى الطبري (٢ / ٥٠٣) . اختلف فى شهوده (بدراً) واتفقوا على أنه شهد (أحداً) وما بعدها ، وكان يقال له : فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم . شهد مع على بن أبى طالب مشاهده كلها ومات بالكوفة فصلى عليه على بن أبى طالب وفى رواية أنه مات بالمدينة سنة أربع وخمسين للهجرة وهو ابن سبعين سنة . راجع طبقات ابن سعد (٦ / ١٥) والإصابة (٧ / ١٥٦) والاستيعاب (٤ / ١٧٣١) .

أمر خالد بهم فحبسوا فى ليلة باردة ، وأمر خالد منادياً فنـادى : « أدفئوا أسراكم » وهى فى لغة كنانة القتل ، فظن القوم أنه أراد القتل ولم يرد الدفء ، فقتلوهم وقتل ضرار بن الأزور[1] مالك بن نويرة[2].

وفى رواية ، أنّ خالداً بثّ السرايا فى بنى تميم ، وكان منها سرية عليها ضرار بن الأزور الأسدى ، فلقى ضرار مالـكاً ، فاقتتلوا ، وأسره وجماعة معـه ، فأتى بهم خالداً ، فأمر بهم فضربت أعناقهم ، وتولى ضرار ضرب عنق مالك[3].

وفى رواية ، أن السرية عندما جاءت بمالك وصحبه ، قال لخالد : « أنا آتى بالصلاة دون الزكاة ! ... » فقال خالد : « أما علمت أن الصلاة والزكاة معاً ، لا تقبل الواحدة دون الأخرى ؟ » . فقال مالك : « قد كان صاحبكم يقول ذلك ! » . فقال خالد : « أو ما تراه لك صاحبا ؟ ! والله لقد هممت أن أضرب عنقك » . . . ثم تجادلا فى الـكلام ، فقال خالد : « إنى قاتلك ! » . فقال مالك : « أو بذلك أمرك صاحبك ؟ » . قال : « وهذه بعد تلك ؟ ! » . ثم أمر بقتله[4].

---

(١) ضرار بن الأزور الأسدى : قدم على النبى صلى الله عليه وسلم فأسلم ، فبعثه إلى بنى الصيداء وبنى الديل ، وهو الذى قتل مالك بن نويرة بأمر خالدبن الوليد ، استشهد يوم اليمامة ، وقيل مكث فى اليمامة مجروحا ثم مات قبل أن يرتحل خالد بيوم . وكان قد قاتل يوم اليمامة قتالا شديداً حتى قطعت ساقاه جميعا ، فجعل يحبو على ركبتيه ويقاتل وتطؤه الخيل ، حتى غلبه الموت . وقيل إنه قتل يوم أجنادين وقيل إنه توفى بالـكوفة فى خلافة عمر ، ولـكن الراجح أنه قتل باليمامة . راجع طبقات ابن سعد (٦ / ٣٩) والإصابة (٣ / ٢٦٩) وأسد الغابة (٣ / ٣٩) والاستيعاب (٢ / ٧٤٩) .

(٢) الطبرى (٢ / ٥٠٢) وابن الأثير (٢ / ١٣٦ — ١٣٧) والأغانى (١٤ / ١٥٣) .

(٣) البلاذرى ص (١٠٧) .

(٤) الطبرى (٢ / ٥٠٤) وتاريخ أبى الفدا (١ / ١٥٧ — ١٥٨) .

ومضى أبو قتادة الأنصارى حتى أتى أبا بكر ، فقصّ عليه أمر خالد وقتله ما لكاً وزواجه من ليلى زوج مالك ، وأضاف أنه أقسم ألا يقاتل تحت لواء خالداً أبداً ، لكن أبا بكر غضب عليه حتى كلّمه عمر بن الخطاب ، فلم يرض إلا أن يرجع أبو قتادة إلى خالد ؛ فرجع إليه حتى قدم معه المدينة[1] .

وكان عمر من بين الذين اقتنعوا بوجهة نظر أبى قتادة ، فقال لأبى بكر . « إن فى سيف خالد رهقاً[2] فإن يكن هذا حقاً حق عليه أن تقيده » وأكثر عليه فى ذلك ، فلم يسع أبا بكر إزاء ثورة عمر إلا أن يستقدم خالداً ليسأله عن حقيقة ما صنع . وأقبل خالد من ساحة الميدان إلى المدينة ومعه أبو قتادة دخل المسجد فى عدّة الحرب ، وقد غرز فى عمامته أسهماً ؛ فقام إليه عمر ونزع الأسهم من رأسه وحطّمها وهو يقول : « قتلت إمرأ مسلماً ثم نزوت على إمرأته !! والله لأرجمنّك بأحجارك ... »وأمسك خالد فلم يعترض ولم يقل شيئاً ، لأنه ظنّ أن رأى أبى بكر على مثل رأى عمر ؛ حتى دخل على أبى بكر ، فأخبره الخبر اليقين ، وقدّم له معاذيره ؛ فعذره أبو بكر وتجاوز عنه . ولما خرج خالد كان عمر لا يزال جالساً فى المسجد ، فقال خالد يخاطب عمر : « هلمّ إلىّ يا ابن أم شملة ! ! » ، فعرف عمر أن أبا بكر قد رضى عنه ، فلم يكلّم خالداً ، ودخل بيته[3] .

لقد كان رأى عمر ، أن يعزل أبو بكر خالداً ، ولكن رأى أبى بكر كان كما قال لعمر : «هَبْهُ ياعمر تأول فأخطأ ، فارفع لسانك عن خالد» ثم قال

---

(١) الطبرى (٢ / ٥٠٢) .
(٢) الرهق : السفه والخفّة وركوب الشر والظلم وغشيان المحارم .
(٣) الطبرى (٢ / ٥٠٣ — ٥٠٤) وابن الأبتر (٢ / ١٣٧) .

له : « يا عمر ! ما كنت لأشيم[1] سيفاً سلّه الله على الكافرين »[2] .

لقد نسجت الروايات لهذا الحادث من بعدُ صوراً هى أدنى إلى فنون الأدب منها إلى وقائع التاريخ ، ولست أشك فى أن الروايات الموثوق بصحّتها تبرّر إلى حد بعيد قتل مالك ونفر من أصحابه وتبرّئ خالداً من دمائهم .

لنتذكّر ماضى مالك بن نويرة القريب ، ماضيه بعد وفاة النبى ﷺ ، فقد منع الزكاة بعد وفاة النبى[3] ، وأغار على إبل الصدقه ، وفرّق ما كان بيده منها ، وأنشد الشعر الذى يظهر فيه الردة عن الإسلام[4] ، ووادع سجاح بنت الحارث التى ادّعت النبوّة[5] ، — كل ذلك يدلّ على أنه ارتدّ عن الإسلام .

أما حاضره الذى يبدأ من تهديد قوات خالد له ، فلم يكن مشجّعاً أيضاً ، فقد فرّق مالك قومه ونهاهم عن الاجتماع[6] ، ولم يتركهم على وضعهم الطبيعى الذى كانوا يعيشونه يوم كانوا مسلمين ؛ فلمّا جاءت الخيل بمالك فى نفر معه من قومه سواء كان ذلك لقتال أو بدونه ، اختلفت السرية فيهم ، وكان أبو قتادة ممن شهدوا أنهم أذنوا وأقاموا وصلّوا ، واختلافهم هذا دليل على أن مالكاً لم يكن صريحاً فى إعلان إسلامه وأنه أظهر الإسلام — إن كان

---

(1) أشيم : أغمده والشيم يستعمل فى السلّ والأغماد .

(2) الطبرى (٢ / ٥٠٣) وابن الأثير (٢ / ١٣٧) وتاريخ أبى الفدا (١/ ١٥٨) والأغانى (١٤ / ١٥٢) والبدء والتاريخ (٥ / ١٦٠) .

(3) الطبرى (٢/ ٤٩٥) وابن الاثير (٢/ ١٣٥) وتاريخ أبى الفدا (١/ ١٥٧).

(4) قال مالك كما جاء فى الاغانى (١٤ / ١٥٣) .

فقلت خذوا أموالكم غير خائف ... ولا ناظر مما يجىء به الغد

فإن قام بالامر المخوّف قائم ... منعنا وقلنا : الدين دين محمد

(5) الطبرى (٢ / ٤٩٦) وابن الاثير (٢ / ١٣٥) والاغانى (١٤/ ١٤٨) .

(6) الطبرى (٢ / ٥٠٢) وابن الاثير (٢/ ١٣٥) .

أظهره — عندما تهدّده الخطر وأحدق به ، إذ لم يختلف أحد فى إسلام أخيه متمم بن نويرة[1] ، كما أن خالداً قبل توبة وكيع بن مالك[2] الذى ارعوى عن غيّه وندم وتحيّر فى أمره وعرف قبح ما أتى ، فرجع رجوعاً حسناً ولم يتجبّر وأخرج الصدقات واستقبل بها خالداً[3] ؛ مع أن موقف وكيع يشابه موقف مالك بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، إذا جتمع وكيع ومالك وسجاح فوادع بعضهم بعضاً واجتمعوا على قتال الناس الذين ثبتوا على الإسلام[4]، وهذا دليل على توبة وكيع وإصرار مالك على ضلاله .

إن ماضى مالك القريب وحاضره يلقيان شكوكاً كثيرة على صحّة إسلامه، وقد كان خالد من بين الذين اقتنعوا بأن مالكاً بقى مرتداً عن الإسلام ، لذلك أقدم على قتله . أما زواجه من أم تميم زوج مالك فقد جرى بعد إكمالها عدّتها[5] ؛ ولست أشك أن أبا بكر لو اقتنع بأن خالداً قتل مسلماً عمداً ونزا

---

(١) متمم بن نويرة التميمى : أسلم هو وأخوه مالك فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم فارتدّ أخوه بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم ، واختلف كثير من الصحابة وغيرهم فيه . هل قتل مرتداً أم مسلما . أما متمم فلم يختلف فى إسلامه . كان شاعراً محسناً لم يقل أحد مثل شعره فى المراثى . راجع الإصابة (٦ / ٤٠) وأسد الغابة (٤ / ٢٩٨) والاغانى (١٤ / ١٤٧ — ١٦١) .

(٢) وكيع بن مالك التيمى : استعمله النبى صلى الله عليه وسلمهو ومالك ابن نويرة على صدقات بنى حنظلة وبنى يربوع ، وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما كذلك ، ثم ارتدّ عن الاسلام ووافق سجاح بنت الحارث التى ادّعت النبوة ، ولكنه عندما علم بقدوم خالد على رأس جيش من المسلمين استقبله بصدقات قومه واعتذر إليه وأسلم وحسن إسلامه . راجع الاصابة (٦ / ٣٢٠) .

(٣) الطبرى (٢ / ٥٠١) وابن الاثير (٢ / ١٣٦) .

(٤) الطبرى (٢ / ٤٩٦ — ٤٩٧) وابن الاثير (٢ / ١٣٥) .

(٥) الطبرى (٢/ ٥٠٣) وتاريخ أبى الفدا (١ / ١٥٨) والاغانى (١٤ / ١٥٠) .

على امرأته ، لأقام عليه الحد الشرعي[1] ، ولما ودى مالكاً من بيت المال دفعاً للشبهات على اعتبار أن خالداً : (تأوّل فأخطأ) كما قال أبو بكر عن خالد لعمر بن الخطاب .

لقد قال متمم : « إذ أخاه لم يستشهد »[2] ، فقد سمع عمر بعض شعر متمم فى رثاء أخيه مالك ، فقال: « هذا والله التأبين ،ولوددت أنى أحسن الشعر فأرثى أخى زيداً بمثل ما رثيت به أخاك » ، فقال متمم : « لو أنّ أخى مات على ما مات عليه أخوك ، ما رثيته »، وكان زيد بن الخطاب قد قتل شهيداً باليمامة ، فقال عمر : « ما عزَّانى أحد عن أخى بمثل ما عزَّانى به متمم[3] ! » .

ترى ! هل كان لشعر متمم فى رثاء مالك — ذلك الشعر المهموس الذى لا نزال حتى اليوم نحس بحرقته وتأثيره على النفوس والعقول معاً — هل كان لهذا الشعر أثر عاطفى على الناس استدرّ شفقتهم على مالك ، فأخذوا يختلقون له المعاذير ليظهروه بمظهر المقتول ظلماً وعدواناً ؟ وهل أفاد الشعوبيون من هذا الشعر العاطفى بالذات ليلهبوا شعور الناس على خالد باعتباره أحد قادة العرب ورجالات الإسلام الذين صدّعوا أركان الإمبراطوريتين الفارسية والرومانية ؟ لعل شعر متمم وحقد الشعوبيين هما اللذان أثارا الشكوك حول تصرّف خالد من جهة وألهب شعور الناس حول مقتل مالك من جهة أخرى ، ولكن هيهات أن تصمد نوازع الهوى أمام حقائق التاريخ !

---

(١) التشريع الجنائى الاسلامى — عبد القادر عودة (٢/ ٧٢٠ — ٧٢٥) وعقوبة الردة هى القتل .

(٢) الاغانى (١٤ / ١٥٤) .

(٣) الأغانى (١٤ / ١٥٧) والاستيعاب (٢ / ٥٥٣) وطبقات ابن سعد (٣ / ٣٧٨) .

في اليمامة :

وفد بنو حنيفة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيهم مسيلمة بن حبيب الكذاب ، فلما أرادوا الرجوع ، أمر لهم الرسول صلى الله عليه وسلم بجوائزهم ، فقالوا : يا رسول الله ! إنّا قد خلّفنا صاحباً منا فى رحالنا يُبْصِرُها لنا ، وفى ركابنا يحفظها علينا ! فأمر له رسول الله صلى الله عليه وسلم بمثل ما أمر به لأصحابه ، وقال : « ليس بشرّكم مكاناً ، لحفظه ركابكم ورحالكم » . فقيل ذلك لمسيلمة ، فقال : « عرف أنّ الأمر إلىّ من بعده ! » وادّعى مسيلمة النبوّة ، فافتتن الناس به[1] .

سار خالد من (البُطاح) للقضاء على مسيلمة فى (اليمامة)[2] ، بعد أن فشل عكرمة بن أبي جهل وشرحبيل بن حسنة بالتعاقب فى القضاء عليه[3] . وفى طريقه اتّفَقَ مع بعض القبائل ليقوموا بحماية قواته من الخلف ، كما أمدّه أبو بكر بسليط بن قيس الأنصارى[4] ليكون ردءاً له من أن يأتيه أحد من خلفه ، فلما دنا سليط من خالد وجد خيول الأعراب التى اتّفق معها خالد قد تركت مواضعها هاربة ، فأخذ سليط على عاتقه حماية مؤخرة قوات خالد[5] ، حتى يحول بين العدو وبين تطويق جيش خالد من الخلف ، وحتى يؤمّن خطوط انسحاب خالد إلى قواعده عند الحاجة .

---

(١) طبقات ابن سعد (٢ / ٣١٦ — ٣١٧) ؛

(٢) اليمامة : منقول من إسم طائر يقال له اليمام ، واحدته يمامة ، بين اليمامة والبحرين عشرة أيام ، وهى معدودة من نجد . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٨ / ٩٥) .

(٣) الطبرى (٢ / ٥٠٤ — ٥٠٥) وابن الاثير (٢ / ١٣٧ — ١٣٨) .

(٤) سليط بن قيس الأنصارى الخزرجى : من بنى النجار ، شهد (بدراً) وما بعدها من المشاهد ، وقتل يوم الجسر فى العراق مع أبي عبيد مسعود الثقفى . راجع طبقات ابن سعد (٣/٥١٢) والاصابة (٣ / ١٢٣) وأسد الغابة (٢ / ٣٤٥) والاستيعاب (٢ / ٦٤٦) .

(٥) الطبري (٢ / ٥٠٥) وابن الاثير (٢ / ١٣٨) .

وفى مسير الاقتراب كان خالد بنفسه على المقدمة ومعه شرحبيل بن حسنة، وعلى المجنبتين زيد بن الخطاب[1] وأبو حذيفة[2] ، فلما كان على بعد ليلة فى معسكر مسيلمة ، هجم على مفرزة من بنى حنيفة بإمرة مجاعة ابن مرارة الحنفى[3] قوتها بين ثلاثين أو أربعين فارساً ، فأسرهم وقتل

---

(١) زيد بن الخطاب القرشى الفهرى : أخو عمر بن الخطاب لأبيه ، يكنى أبا عبد الرحمن وكان أسنّ من عمر ومن المهاجرين الأولين . أسلم قبل عمر وشهد (بدراً وأحداً والخندق) وما بعدها من المشاهد ، وشهد بيعة الرضوان بالحديبية . قال عمر لزيد يوم أحد : « خذ درعى » . فقال زيد : « إنى أريد من الشهادة ما تريد » ، فتركاها جميعاً .

وقتل زيد باليمامة شهيداً سنة اثنى عشرة للهجرة فحزن عليه عمر حزناً شديداً . قال عمر : « ما هبّت الصبا إلا وأنا أجد منها ريح زيد » . ولما نعى زيد إلى عمر ، قال : « رحم الله أخى ! سبقنى إلى الحسنيين : أسلم قبلى ، واستشهد قبلى » . راجع التفاصيل فى طبقات ابن سعد (٣ / ٣٧٦) والإصابة (٣ / ٢٧) وأسد الغابة (٢ / ٢٢٨) والاستيعاب (٢ / ٥٥٠) .

(٢) أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة القرشى . كان من فضلاء الصحابة ومن المهاجرين الأولين ، جمع الله له الشرف والفضل : صلى القبلتين ، وهاجر الهجرتين جميعاً . وكان إسلامه قبل دخول النبى صلى الله عليه وسلم دار الأرقم للدعاء فيها إلى الإسلام ، وهاجر إلى الحبشة ، ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة فأقام بها حتى هاجر إلى المدينة . شهد (بدراً) ودعا أباه عتبة بن ربيعة إلى البراز ، وشهد (أحداً) و (الخندق) و (الحديبية) والمشاهد كلها ، وقتل يوم اليمامة شهيداً ، وهو ابن ثلاث أو أربع وخمسين سنة ، وكان رضى الله عنه رجلا طوالا حسن الوجه أحول أثعل (الأثعل هو الذى له سن زائدة) . راجع التفاصيل فى طبقات ابن سعد (٣ / ٨٤) والإصابة (٧ / ٤٢) والاستيعاب (٤ / ١٦٣١) .

(٣) مجاعة بن مرارة الحنفى : وفد هو وأبوه على النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان من رؤساء بنى حنيفة . أسره خالد واستحياه ، إذ جاد أصحابه بأنفسهم دونه وقالوا لخالد : إن كنت تريد بأهل اليمامة غداً خيراً أو شراً ، فاستبق هذا ولا تقتله ، فحبسه خالد عنده كالرهينة . ولما قهر خالد مسيلمة ، صالح مجاعة خالداً عن قومه بنى حنيفة فى الحصون على المال وربع السبى ، فلما فتحت الحصون لم يجد خالد فيها غير النساء والصبيان ، فقال خالد لمجاعة : « ويحك خدعتنى » فقال مجاعة : « إنهم قومى ولم أستطع إلا ما صنعت » . راجع التفاصيل فى الطبرى (٢ / ٥٠٨ — ٥١٧) وابن الأثير (٢ / ١٣٧ — ١٤٠) وأسد الغابة (٤ / ٣٠٠) .

أصحاب مجاعة واستحياه رهينة لديه لشرفه فى بنى حنيفة[1] .

والتقى الطرفان (بعقرباء)[2] ، وكانت راية المهاجرين مع سالم مولى أبى حذيفة[3] ، وكانت راية الأنصار مع ثابت بن شماس[4] ، وكانت العرب على رايتها . واشتد القتال بشكل لم يسبق له مثيل عند المسلمين ، فانهزم المسلمون حتى دخل بنو حنيفة فسطاط خالد[5] ، ولكن المسلمين استقتلوا فى كفاحهم ، فكانت الحرب يومئذ سجالاً : تكون مرة على المسلمين ومرة على المشركين ، فقال خالد : « أيها الناس : امتازوا لنعلم بلاء كل حىّ ، ولنعلم من أين نُؤْتى » ، فامتاز أهل القرى والبوادى ، وامتازت القبائل من أهل البادية وأهل الحاضر ، فوقف بنو كل أب على رايتهم ، ولكن مسيلمة ثبت ، فعرف خالد أن الحرب لا تركد إلا بقتل مسيلمة[6] ، فحمل عليه قائلاً لحماته « لا أوتينّ من خلفى »

---

(١) الطبرى (٣ / ٥٠٨) وابن الأثير (٢ / ١٠٩) .

(٢) عقرباء : منزل من أرض اليمامة . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٦ / ١٩٤)

(٣) سالم مولى أبى حذيفة : فارسى من أهل اصطخر ، كان من فضلاء الصحابة ، وكان يوم المهاجرين بقباء فيهم عمر بن الخطاب قبل أن يقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة . هاجر مع عمر بن الخطاب ونفر من الصحابة إلى المدينة ، وكان يؤمهم إذا سافر معهم ، لأنه كان أكثرهم قرآناً ، وكان عمر يفرط فى الثناء عليه . شهد (بدراً) وقتل شهيداً يوم اليمامة سنة اثنتى عشرة للهجرة . راجع التفاصيل فى طبقات ابن سعد (٣/٨٥) والإصابة (٣ / ٥٦) وأسد الغابة (٢ / ٢٤٥) والاستيعاب (٢ / ٥٦٧) .

(٤) ثابت بن شماس الخزرجى الأنصارى : كان خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما كان حسان بن ثابت شاعره . شهد (أحداً) وما بعدها من المشاهد ، وقتل يوم اليمامة شهيداً . قال أنس بن مالك : « لما انكشف الناس يوم اليمامة ، قلت لثابت : ألا ترى يا عم ! ووجدته قد حسر عن فخذيه وهو يتحنّط ، فقال : ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بئس ما عوّدتم أقرانكم ، وبئس ما عوّدتكم أنفسكم . اللهم إنى أبرأ إليك مما يصنع هؤلاء ، ثم قاتل حتى قتل رضى الله عنه » . راجع الاصابة (١ / ٢٠٣) وأسد الغابة (١ / ٢٢٩) والاستيعاب (١/ ٢٠٠) .

(٥) الطبرى (٢ / ٥٠٩) وابن الأثير (٢ / ١٣٩) .

(٦) الطبرى (٢ / ٥١٣) وابن الأثير (٢ / ١٣٩) .

حتى كان بحيال مسيلمة يطلب الفرصة ويرقب مسيلمة[1] ، فلما دنا منه ودعاه وعرض عليه أشياء مما يشتهي ، وجد فرصته مناسبة فهاجمه هجوماً شديداً ، فأدبر مسيلمة وأدبر رجاله معه ، فصاح خالد في الناس ، فركبوا المشركين وكانوا بتماس شديد معهم ، حتى اضطروهم على الفرار[2] . والتجأ بنو حنيفة إلى حديقة الموت ، فدخلوها وأغلقوا عليهم ، فصرخ البراء بن مالك[3] : « احملوني على الجدار حتى تطرحوني عليه » . فلما وضعوه على الحائط . اقتحم عليهم فقاتلهم على الباب حتى فتحه للمسلمين ، فدخلوه واقتتلوا قتالاً مريراً داخل الحديقة لم يروا مثله ، فأبادوا مَنْ بالحديقة من المشركين ، وكان من بين القتلى مسيلمة الكذاب[4] .

---

(١) الطبري (٢ / ٥١٢) .

(٢) الطبري (٢ / ٥١٤) وابن الاثير (٢ / ١٣٩) .

(٣) البراء بن مالك الانصاري : أخو أنس بن مالك ، شهد أحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان شجاعاً مقداماً ، ولشجاعته كان عمر يكتب لقادة جيوشه : « لا تستعملوا البراء على جيش من جيوش المسلمين ، فإنه مهلكة من المهالك يقدم بهم » . ولما كان يوم اليمامة واشتد قتال بني حنيفة على الحديقة التي فيها مسيلمة ، قال البراء : « يا معشر المسلمين القوني عليهم » فاحتمله المسلمون حتى إذا أشرف على الجدار اقتحم ، فقاتلهم على باب الحديقة حتى فتحه للمسلمين ، ولكنه جرح يومئذ بضعاً وثمانين جراحة ما بين رمية وضربة ، فأقام عليه خالد بن الوليد شهراً حتى برأ من جراحه . قال النبي صلى الله عليه وسلم : « رُبَّ أشعث أغبر لا يؤبه له ، لو أقسم على الله عزّ وجل لأبرّه ، منهم البراء بن مالك » ، فلما كان يوم (تستر) من بلاد الفرس ، انكشف الناس ، فقال له المسلمون : يا براء ! أقسم على ربك ! فقال : « أقسم عليك يارب لما منحتنا أكتافهم وألحقتني بنبيّك » ، فحمل وحمل الناس معه ، فقتل البراء شهيداً. وكان رضي الله عنه حسن الصوت يحدو بالنبي صلى الله عليه وسلم في أسفاره ، فكان هو حادي الرجال ، وقد قتل على (تستر) مائة رجل مبارزة سوى من شرك في قتله . راجع طبقات ابن سعد (٧ / ١٦) والاصابة (١ / ١٤٧) وأسد الغابة (١ / ١٧٢) والاستيعاب (١ / ١٥٤) وجوامع السيرة ص (٣٤١) .

(٤) الطبري (٥١٤/٢) وابن الأثير (١٣٩/٣) وأسد الغابة (١٧٢/١) والاستيعاب (١٥٤/١) وجوامع السيرة ص (٣٤١) .

وبثّ خالد بعد المعركة مباشرة خيوله تطارد فلول المشركين وتلتقط مَن ليس فى الحصون، ثم نادى بالرحيل لينزل على الحصون[1]، فقال له مجاعة: «إنه والله ما جاءك إلا سرعان الخيل، وإنّ الحصون لمملوءة رجالاً، فهلمّ إلى الصلح على ما ورائى»، فصالحه خالد على كل شيء دون النفوس، ثم قال مجاعة: «أنطلقُ إليهم وننظر فى هذا الأمر، ثم أرجع إليك»، فدخل مجاعة الحصون وليس فيها إلا النساء والصبيان ومشيخة فانية ورجال ضعفى، فألبسهم الحديد، وأمر النساء أن ينشرن شعورهنّ ويشرفن على الحصون، ثم رجع إلى خالد فقال: «قد أبوا أن يجيزوا ما صنعت»؛ فرأى خالد الحصون مملوءة، وقد نهكت المسلمين الحربُ وطال اللقاء وأحبوا أن يرجعوا على الظفر، ولم يدروا ماذا يحدث لو كان فيها رجال وقتال، لذلك صالح خالد مجاعة على الفضة والذهب والسلاح ونصف السبى، وقيل ربعه، فلما فتحت الحصون لم يكن فيها إلا النساء والصبيان والضعفاء، فقال خالد لمجاعة: «ويحك خدعتنى!»، فقال: «هم قومى ولم أستطع إلا ما صنعت». ثم وصل بعد إبرام الصلح كتاب أبى بكر إلى خالد: «أن يَقتل كل محتلم»، ولكن خالداً وفىَ لهم ولم يغدر[2].

لقد كان عدد قوات المسلمين حوالى ثلاثة عشر ألف مقاتل، وكان عدد رجال مسيلمة حوالى أربعين ألف مقاتل أو أكثر[3]، أى أن المشركين كانوا متفوقين تفوقاً عدديا ساحقا على المسلمين؛ ومع ذلك فقد استشهد من

---

(١) الطبرى (٢/٥١٥).

(٢) الطبرى (٢/٥١٦ — ٥١٨) وابن الأثير (٢/١٣٩ — ١٤٠).

(٣) جاء فى كتاب فضائل القرآن لابن كثير ص (١٢) ملحق بالجزء التاسع من تفسير ابن كثير ما يلى: «التف حول مسيلمة من المرتدين قريب من مائة ألف، فجهّز الصديق أبو بكر لقتاله خالد بن الوليد فى قريب من ثلاثة عشر ألفاً».

المسلمين ثلاثمائة وستون من المهاجرين والأنصار من سكان المدينة وحدها، وثلاثمائة من المهاجرين من غير أهل المدينة، وثلاثمائة من التابعين[1]، مع شهداء آخرين، فكان جملة من قتل من المسلمين ألف ومائتي شهيد[2]، منهم خمسمائة من القراء[3]، ولهذا أشار عمر بن الخطاب على أبي بكر أن يجمع القرآن لئلا يذهب منه بسبب موت من يحفظه[4].

أما بنو حنيفة، فقد قتل منهم في معركة اليمامة أربعة عشر ألفا وقتل منهم في الطلب سبعة آلاف[5]، أي أن نسبة شهداء المسلمين إلى قتلى المشركين تعادل ستة بالمائة (٦ ٪) فقط، وهذا يُعدّ من أروع الانتصارات.

فما أسباب انتصار خالد في هذه المعركة الحاسمة، التي تُعدّ من أقسى وأعنف معارك حروب أهل الردّة ؟

إن مجمل الأسباب هي : أمر خالد الذي أصدره لرجاله بأن يمتازوا، ووقوف خالد بين الصفوف يطلب المبارزة مما رفع معنويات رجاله ودفعهم للاقتداء بإقدامه، وتحيّن خالد للفرصة السانحة للقضاء على مسيلمة، واستقتال أهل النجدة والعقيدة الراسخة من المهاجرين والأنصار خاصة القراء الذين قتل منهم خمسمائة شهيد.

لقد أبلى خالد في قتال أهل الردة بلاءً عظيما[6].

---

(١) الطبري (٥١٦/٢) وابن الأثير (١٤٠/٢).
(٢) الطبري (٥١٩/٢).
(٣) الطبري (٥١٦/٢) وابن الأثير (١٤٠/٢).
(٤) فضائل القرآن لابن كثير — ص (١٢) — ملحق بالجزء التاسع في تفسير ابن كثير.
(٥) الطبري (٥١٦/٢) وابن الأثير (١٤٠/٢).
(٦) الاصابة (٩٨/٢) وأسد الغابة (٩٥/٢).

هازم الفرس في العراق

« عجزت النساء أن يلدن مثل خالد »
(الصديق أبو بكر)

إلى العراق :

أرسل أبو بكر إلى خالد وهو باليمامة ، يأمره بالمسير إلى العراق ، وقيل بل قدم المدينة من اليمامة ، فسيّره أبو بكر إلى العراق [١] . وهناك من يؤكد أن خالداً قدم المدينة من اليمامة ، ثم خرج منها إلى العراق [٢] ؛ وهذا مانرجحه ، لأنّ تكليف خالد بمهمة شاقة كفتح العراق ، لابدّ وأن يحتاج إلى الاتصال الشخصى بينه وبين أبى بكر بالمدينة للمذاكرة حول هذه المهمة وتأمين كل متطلباتها العسكرية والإدارية .

سار خالد إلى العراق فى ألفى رجل ، وانضمّت إليه ثمانية آلاف من ربيعة ومضر تحشّدت فى مناطقها والتحقت به فى طريقه إلى العراق ، كما انضم إليه ثمانية آلاف كانوا مع المثنى بن حارثة الشيبانى والقادة الآخرين فى العراق ، فكان مجموع جيش خالد الذى لقى به العدو فى أول معركة ثمانية عشر ألفا [٣] .

---

(١) الطبرى (٢/٥٥١) وابن الأثير (٢/ب١٤) والبلاذرى ص (٢٤٢) .
(٢) البلاذرى ص (٢٤٣) والخراج ص (١٦٩) .
(٣) الطبرى (٢/٥٥٤) وابن الأثير (٢/ب١٤) .

سلك خالد طريق (فَيْد)[1] و (الثعلبية)[2] حتى نزل (بباتقيا)[3] و (بارُوسْما)[4] وغيرها من المدن والقرى فى منطقة الحيرة[5] ؛ وقيل : لما قدم خالد بن الوليد من (اليمامة) دخل على أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، وخرج فأقام أياماً ، ثم قال له أبو بكر : « تهيأ حتى تخرج إلى العراق » ، فوجهه أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه إلى العراق ، فخرج فى ألفين ومعه من الأتباع مثلهم ، فمرّ بفايد (هى فيد ، وقد وردت هنا : فايد خطأ) فخرج معه خمسمائة من طيئ ومعهم مثلهم فانتهى إلى (شراف) ومعه خمسة آلاف أو أقل أو أكثر ، فتعجب أهل شراف من خالد ومن معه ووغولهم فى أرض العجم ، فانتهوا إلى المغيثة (هى ما بين القادسية والعذيب) فإذا طلائع خيل العجم ، فنظروا إليهم ورجعوا ، فانتهوا إلى حصنهم ودخلوه ، فأقبل خالد ومن معه إلى الحصن فحاصرهم وفتح الحصن وقتل من فيه من المقاتلة وسبي النساء والذرارى وأخذ جميع ما فيه من السلاح والمتاع والدواب وهدم الحصن .

ثم انتهى إلى (العذيب) وفيه حصن فيه مسلحة لكسرى فواقعهم

---

(١) فيد : بليدة فى نصف طريق مكة من الكوفة . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٦/٤٠٨) .

(٢) الثعلبية : من منازل طرق مكة فى الكوفة ، أسفل منها ماء راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٣/١٤) .

(٣) بانقيا : ناحية من نواحى الكوفة . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٢/١٥٠) .

(٤) باروسما : ناحيتان من سواد بغداد . راجع التفاصل فى معجم البلدان (٢/٣٤) .

(٥) الطبرى (٢ / ٥٥١) وابن الأثير (٢ / ١٤٧) وفى الخراج ص (١٦٩ — ١٧٠) .

خالد فقتلهم وأخذ ما كان فى الحصن من متاع وسلاح ودواب وهدم الحصن وضرب أعناق الرجال وسبي النساء والذرارى وعزل الخمس . . . فلما رأى ذلك أهل القادسية طلبوا الصلح وأعطوه الجزية .

ومضى خالد من القادسية حتى نزل النجف وبه حصن حصين لكسرى فيه رجال من أهل فارس مقاتلة ، فحاصرهم وافتتح الحصن . . . ثم بعث طليعة إلى أهل (أليس) وفيها حصن فيه رجال ومسلحة لكسرى فحاصرهم وفتح الحصن . . . ثم مضى إلى الحيرة . . . إلخ . .

أقول : وهذه الرواية تؤيد دخول خالد من اتجاه الحيرة أيضاً ، وقد رجحنا دخول خالد من جنوب العراق .

أمره أبو بكر أن يبدأ (بالأبلّة)[1] أى من منطقة البصرة حالياً[2] ، ونرجح أنه بدأ من منطقة البصرة ، لأن قوات المثنى بن حارثه كانت تقاتل فى تلك المنطقة ، وهى القوة الرئيسية التى تقاتل فى العراق ، ولأن قوات خالد الأصلية فى اليمامة وهى أقرب إلى منطقه البصرة ، ولأن أبا بكر أمر خالداً أن يبدأ بالأبلّة وأمر عياض بن غنم أن يبدأ (بالمُصَيَّخ) أى أن خالداً يهاجم العراق من جنوبه وأن عياضاً يهاجمه من شماله[3] ، وهذا قرار صحيح من الناحية العسكرية : لتفريق قوات العدو من جهة ولتضليل الفرس عن اتجاه التعرض الرئيس لقوات المسلمين فى جهة أخرى .

---

(١) الأبلّة : مدينة كانت مرفأ السفن القادمة من الصين . راجع الطبرى (٣ — ٩٣) وهى واقعة جنوب البصرة القديمة بمسافة خمسة عشر ميلاً وجنوب مدينة الخصيب بنحو ميلين . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (١/٨٩) .

(٢) الطبرى (٢/٥٥٤) وابن الأثير (٢/ب١٤) . وأنظر طبقات ابن سعد (٧/٧٦) والاستيعاب (٤/١٤٥٧)

(٣) الطبرى (٢/٥٥٣) .

كما أنه لا يمكن البدء من (الحيرة) وترك قوات معادية فى الجنوب ، وذلك لاحتمال تطويق قوات المسلمين وتهديد سلامة تقدمها إلى أهدافها بعد الحيرة باتجاه الشرق أو الشمال أو الجنوب .

فى منطقة البصرة :

لما قدم خالد (الأبلّة) فرّق جنده ثلاث فرق ولم يحملهم على طريق واحدة ، وكان على مقدمته المثنى بن حارثه الشيبانى ، وبعده عدى بن حاتم الطائى ، وجاء خالد بعدهما وواعدهم (الحفير)[1] وهو من أقوى مناطق الفرس وأشدّها شوكة ، وكان صاحبه (هرمز) من أبرز قادة الفرس يحارب العرب براً وبحراً[2] .

وتعجّل هرمز إلى (الكواظم)[3] بقواته الخفيفة ، فسمع أن المسلمين تواعدوا (الحفير) فسبقهم إليه ونزل به واتّخذ تشكيلات القتال ، واقترن رجاله بالسلاسل لئلا يفرّوا ، فلما علم خالد بأخبار الفرس مال بالناس إلى (كاظمة) فسبقه (هرمز) إليها . وجاء خالد ونزل على غير ماء ، وقال لأصحابه : « ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين »[4] .

وبعد اصطدام الطرفين ، خرج (هرمز) فدعا خالداً للمبارزة مبيتاً الخيانة ، ونزل خالد فالتقيا واختلفا ضربتين ، فاحتضنه خالد ، ولكن حامية (هرمز)

---

(١) الحفير : أول منزل من البصرة لمن يريد مكة . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٣/٣٠٣) .

(٢) الطبرى (٢/٢/٥٥٤ — ٥٥٥) وابن الأثير (٢/١٤٨) .

(٣) الكواظم : وهى كاظمة ، جو على سيف البحر فى طريق البحرين من البصرة ، بينها وبين البصرة مرحلتان . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٧/٢٠٨) .

(٤) الطبرى (٢/٥٥٥) وابن الأثير (٢/١٤٨) .

حملت غدراً على خالد ، فما شغله ذلك عن قتل (هرمز) ، فانهزم أهل فارس ، فطاردهم المسلمون إلى الليل[1] .

في المذار[2] :

كتب (هرمز) إلى كسرى (أردشير) بخبر خالد ، فأمدّه (بقارن) فخرج من (المدائن)[3] حتى انتهى إلى (المذار) ، وفيها بلغه مقتل (هرمز) واندحار جيشه ، فضمّ (قارون) فلول جيش (هرمز) إلى قواته وعسكر (بالمذار) واتّخذ تشكيلات القتال ؛ فلما نزل خالد (المذار) التقى الطرفان هناك ، فاقتتلوا على حنق وحفيظة . وخرج (قارن) يدعو للبراز ، فبرز له خالد وأبيض الركبان مَعْقِل بن الأعشى بن النبّاش[4] ، فسبقه إليه معقل وقتله ، وقتلوا من الفرس مقتلة عظيمة[5] ، قدّرها بعض المؤرخين بثلاثين ألفاً سوى مَن غرق ، ولولا المياه التي منعت المسلمين من طلبهم لما أفلت من الموت منهم أحد[6] .

---

(١) الطبري (٢/٥٥٦) وابن الأثير (٢/١٤٨) .

(٢) المذار : في منطقة (ميسان) بين واسط والبصرة ، وهي قصبة (ميسان) بينها وبين البصرة مقدار أربعة أيام . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٧/٤٣٣) .

(٣) المدائن : عاصمة كسرى تقع على نهر دجلة في موضع (سلمان باك) حالياً ، واسمها القديم (توسفون) وعرّبوه على (الطيسفون) . راجع معجم البلدان (٧/٤١٣) .

(٤) معقل بن الأعشى بن النباش : كان يعرف بأبيض الركبان ، وكان ذكياً مدركاً وله مشاهد مشهورة في قتال الفرس ، وكان مع خالد بن الوليد من سنة اثنتي عشرة وما بعدها . راجع الاصابة (٦/١٧٩) .

(٥) الطبري (٢/٥٥٧) وابن الأثير (٢/١٤٨) .

(٦) الطبري (٢/٥٥٨) وابن الأثير (٢/١٤٨) .

في الولجة[1]:

وصلت أنباء اندحار الفرس في (المذار) إلى (أردشير) فبعث (الأَنْدَرْزَغَر) وكان فارسياً من مولدي السواد ، وأرسل (بَهْمَن جاذَوَيْه) في أثره على رأس جيش فارسي ، فسار (الاندرزغر) حتى أتى (كَسْكَر)[2] ثم جاوزها إلى (الولجة) ، وخرج (بهمن جاذويه) في أثره وأخذ غير طريقه ، فسلك وسط السواد ، وقد حشر بعض العرب الساكنين ما بين الحيرة وكسكر ؛ فلما أكمل الفرس تحشّد قواتهم في (الولجة) أجمع قائدهم السير إلى خالد ، ولكنّ خالداً سار من المذار إلى الولجة وخلّف سويد بن مقرن المزني[3] وأمره بلزوم (الحفير) ، وتقدّم إلى مَن خلّف في أسفل دجلة ، وأمرهم بالحذر وقلّة الغفلة وترك الغرور جانباً .

وصلت قوات خالد (الولجة) فنشب القتال واقتتلوا قتالاً شديداً حتى ظنّ الطرفان أنّ الصبر قد أفرغ ، وكان خالد قد وضع لهم كميناً في ناحيتين ؛ فاستبطأ خالد كمينه ، ولكنّ الكمين خرج من وجهين ، وبذلك أصبح الفرس مطوّقين من كافة الجهات: قوات خالد من الأمام والكمين من الخلف ، مما أدى إلى انهيار مقاومة الفرس ، فهرب قائدهم ومات عطشا[4].

(١) الولجة : موضع مما يلي البر بأرض كسكر . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٤٣٣/٨) .

(٢) كسكر : كورة واسعة قصبتها مدينة واسط ، وهي بين البصرة والكوفة . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٢٥٢/٧) .

(٣) سترد ترجمته مع قادة الفتح الإسلامي ، إذ هو أحد القادة الفاتحين .

(٤) الطبري (٥٥٨/٢ — ٥٥٩) وابن الأثير (١٤٨/٢) ، وقد قام خالد في الناس خطيباً وقال : « ألا ترون إلى الطعام كرفغ (رفغ : الأرض الكثيرة التراب) التراب ، وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء إلى الله عزّ وجل ، ولم يكن إلا المعاش ، لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف ، حتى نكون أولى به ، ونولي الجوع والاقلال من تولاه ممن أثّاقل عما أنتم عليه » . ثم بذل الأمان للفلاحين وسبي ذراري المقاتلة ومن أعانهم. راجع الطبري (٥٥٩/٢) وابن الأثير (١٤٨/٢)

فى أُلَّيْس[1]:

أصاب خالد يوم (الولجة) من نصارى بكر بن وائل الذين أعانوا أهل فارس ، فغضب لهم نصارى قومهم واجتمعوا إلى (أُلَّيْس) . وبلغ ذلك (أردشير) ، فكتب إلى (بهمن جاذويه) « أن سر حتى تقدم (أُلَّيْس) بجيشك إلى من اجتمع بها من فارس ونصارى العرب». فقدّم (بهمن جاذويه) أمامه (جابان) ؛ فلما نزل (أُلَّيْس) اجتمعت إليه المسالح[2] التى كانت بإزاء العرب ، انضم إليه النصارى من بكر الذين كاتبوا الأعاجم .

وصلت قوات خالد ، فوجدت القوات الفارسية تتناول طعامها ، فما كادت تحط قواته أثقالها حتى عاجل الفرس بالقتال . وبرز خالد أمام الصف وهو ينادى قادة العرب النصارى للبراز ، وما كاد يخرج إليه أحدهم إلا وقتله بسرعة خاطفة ، فترك الأعاجم طعامهم وصبروا للمسلمين على أمل ورود المدد إليهم : ورأى خالد صبرهم وقوة تجلّدهم ، فتوجه إلى ربه يستنصره ويقول : «اللهم إنّ لك علىّ إن منحتنا أكتافهم ، ألا أستبقى منهم أحداً قدرنا عليه ، حتى أجرى نهرهم بدمائهم ! » .

وضيّق خالد الخناق على الفرس حتى انهزموا ، فأمر خالد مناديه فنادى فى الناس : « الأسر ! الأسر . . . لاتقتلوا إلا من امتنع » فأقبلت الخيول بهم أفواجاً مستأسرين يساقون سوق النعم ، فوكل بهم رجالاً يضربون أعناقهم فى النهر ، واستمر هؤلاء يوماً وليلة دون أن يجرى النهر دماً ، فقال له بعض أصحابه : « لو أنك قتلت أهل الأرض لم تجر دماؤهم ! . إن الدماء لاتزيد

(١) أليس : موضع فى أول أرض العراق من ناحية البادية ، وهى قرية من قرى الأنبار . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (١/٣٢٨) .

(٢) المسالح : جمع مسلحة ، والمسلحة : القوم ذو سلاح ، وقد تطلق على الثغر .

على أن تترقرق منذ نهيت عن السيلان ونهيت الأرض عن نشف الدماء ، فأرسل عليها الماء تبرّ بيمينك » ، وقد كان صدّ الماء عن النهر ، فأعاده ، فجرى دماً عبيطاً[1] ، فسمى : نهر الدم[2] .

ولم يترك خالد فرصة لتحشد العدو ، بل أتى (أمَغِيشيَا)[3] ، فأصاب المسلمون فيها مالم يُصيبوا مثله ، لأن أهلها أعجلهم المسلمون أن ينقلوا أموالهم وأثاثهم وكراعهم وغير ذلك ، فلما بلغ أبا بكر أخبار انتصارات خالد ، قال : « عجزت النساء أن يلدن مثل خالد ؟ »[4] .

في الحيرة[5] :

قدّر صاحب (الحيرة) أن خالداً لن يتركه وأنه سيركب إليه النهر ، فقدّم ابنه وأمره أن يسدّ قناطر الفرات يعوّق بذلك سير السفن ، ثم خرج في أثره وعسكر خارج الحيرة .

---

(١) عبيطاً : طرياً .

(٢) لما هزم الفرس وأجلوا عن عسكرهم ، ورجع المسلمون من طلبهم ، وقف خالد على الطعام الذي كان للفرس ، فقال لجيشه : « قد نفلتكموه ، فهو لكم » فقعد عليه المسلمون لعشائهم بالليل ، وجعل مَن لم يعرف الرقاق يقول : ما هذه الرقاق البيض ؟ ! وجعل مَن عرفها يقول . لهم مازحاً : هل سمعتم برقيق العيش ؟ فيقولون : نعم ! فيقولون هذا هو ! . راجع الطبري (٢/٥٦٠ — ٥٦٢) وابن الأثير (٢/١٤٩) .

(٣) أمغيشيا . كانت مصراً كالحيرة ،وكانت (أليس) من مسالحها . الطبري . (٢/٥٦٣) . وهي موضع كان بالعراق ، أمر خالد بهدمها ، وكانت مصراً كالحيرة . راجع التفاصيل في معجم البلدان (١/٣٣٦) .

(٤) ابن الأثير (٢/١٤٩) . وفي الطبري (٢/٥٦٣) جاء نص هذه العبارة كما يلي : قال أبو بكر رحمه الله حين بلغه انتصار خالد : « يامعشر قريش ! عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله . وأعجزت النساء أن يُنشئوا مثل خالد ! » .

(٥) الحيرة : مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة ، على موضع يقال له النجف راجع التفاصيل في معجم البلدان (٣/٣٨٦) .

وحمل خالد رجاله فى السفن وسار شمالا باتجاه الحيرة ، فلم يفجأ المسلمين إلا السفن جوانح ، فقال الفلاحون : إنّ الفرس قد فجّروا الأنهار فسلك الماء غير طريقه ! . فتعجّل خالد فى جريدة من الخيل نحو ابن صاحب الحيرة ، فباغت خيله على فم (العتيق)[1] وهم آمنون من الغارة فى تلك الساعة ، فاقتتلوا بموضع (المَقْر)[2] حتى هزمهم بعد أن قتل ابن صاحب الحيرة ، وأعاد الماء يجرى فى النهر ، فعادت سفن المسلمين إلى المسير .

وقصد خالد الحيرة ، فوجد أهلها متحصّنين داخلها ، وقد فرّ صاحبها بعد ما علم بموت (أردشير) وقتل ابنه ، فعسكر خالد بين (الغَرِيّين)[3] والقصر الأبيض وأجال خيله فى عرصاتهم[4] ، ووكل لكل قصر قائداً يحاصر مَن فيه ويقاتلهم ، وعهد إلى أولئك القادة : أن يدعوهم ، فإن لم يقبلوا أجّلوهم يوماً ثم يناجزونهم .

وبعد قتال افتتح المسلمون الدور والدَّيرات وأكثروا القتل ، فنادى القسيسون والرهبان : يا أهل القصور ، مايقتلنا غيركم ! فنادى أهل القصور : يامعشر العرب ! قد قبلنا واحدة من ثلاث ، فكفّوا عنا حتى تبلغونا خالداً ؛ فكفّوا عنهم وأرسلوهم إلى خالد .

وخلا خالد بأهل كل حصن على حدة ولامهم[5] ، وقال : « اختاروا

(١) العتيق : يقصد به مصب الفرات الأصلى فى بعض الفروع ، والموضع قريب من مدينة الكوفة .

(٢) المقر : (فم العتيق) ، موضع قرب فرات بادقلى من ناحية البرمن جهة الحيرة .

(٣) الغريبان : بناءان كالصومعتين بظاهر الكوفة قرب قبر على بن أبى طالب رضى الله عنه . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٦/ ٢٨١) .

(٤) عرصات جمع عَرْصة وهى كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء .

(٥) قال خالد فى لومه لهم : « ويحكم ، ما أنتم ؟ ! أعرب فما تنقمون من العرب ؟ ! أو عجم ؟ فما تنقمون العدل والإنصاف ؟ ! » راجع الطبرى (٢/ ٥٦٥) .

واحدة من ثلاث: أن تدخلوا فى ديننا فلكم مالنا وعليكم ماعلينا ، والجزية، أو المنابذة[١] والمناجزة » فقالوا له : بل نعطيك الجزية ! فقال خالد : «تبالكم ! ويحكم ! إن الكفر فلاة[٢] مضلة فأحمق العرب منَ سلكها ، فلقيه دليلان ، أحدهما عربى فتركه واستدلّ[٣] الأعجمى ! » .

وعقد خالد معاهدة صلح[٤] بينه وبين أهل الحيرة ، وبذلك فتحت الحيرة أبوابها للمسلمين[٥] .

ولما استقرّ خالد فى الحيرة ، صالحه صاحب (قُسّ الناطف)[٦]

---

(١) المنابذة : تحيّز كل من الفريقين للحرب .

(٢) الفلاة : الصحراء .

(٣) استدلّ : طلب منه أن يدلّه .

(٤) نص المعاهدة : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عدياً وعَمْراً بن عدى ، وعمرو بن عبد المسيح ، وألياس بن قبيصة ، وجبرى بن أكال ، وهم نقباء أهل الحيرة ، ورضى بذلك أهل الحيرة وأمروهم به . عاهدهم على مائة ألف وتسعين ألف درهم ، تُقبل فى كل سنة جزاء عن أيديهم فى الدنيا ، رهبانهم وقسيسيهم ، إلا من كان منهم على غير ذى يد ، حبيساً عن الدنيا ، تاركاً لها ؛ وعلى المنعة ، فأن لم يمنعهم فلا شىء عليهم حتى يمنعهم ؛ وإن غدروا بفعل أو قول ، فالذمة منهم بريئة . راجع الطبرى (٥٦٧/٢) . وأنظر كتاب الخراج — للقاضى أبى يوسف — ص (١٧١) نص كتاب خالد إلى أهل الحيرة الذى أعلن فيه التأمين الاجتماعى ضد الشيخوخة والمرض والفقر : « وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ما أقاموا بدار الإسلام » .

(٥) الطبرى (٥٦٣/٢ — ٥٦٧) وابن الأثير (١٤٩/٢ — ١٥٠) والبلاذرى ص (٢٤٥) .

(٦) قس الناطف : موضع قريب من الكوفة على شاطىء الفرات الشرقى . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٨٨/٧) .

ودهاقين[1] البلاد على قرى السواد إلى (هُرمُزْ جرِد)[2] ، وجعل خالد الحيرة مقراً لقيادته[3] .

فى الأنبار[4] :

سار خالد فى تعبية إلى (الأنبار) وعلى مقدمته الأقرع بن حابس[5] ، فلما بلغها طاف بها ، فرأى أهلها قد تحصّنوا وخندقوا عليها وأشرفوا من حصونهم ، فأنشب خالد القتال وكان قليل الصبر عنه . وتقدّم إلى رماته ، فأوصاهم قائلا : « إنى أرى أقواماً لا علم لهم بالحرب ، فارموا عيونهم ولا توخّوا غيرها » فرموهم ففقئوا ألف عين يومئذٍ ، فسميت تلك الوقعة باسم : وقعة ذات العيون !

ولما رأى صاحب الأنبار — وهو فارسى — ذلك ، راسل خالداً فى الصلح على أمر لم يرضه خالد ، فردّ رسله ونحر من الإبل كل ضعيف وألقاه فى خندقهم ، ثم اقتحم الخندق ! فأرسل قائد الأنبار الفارسى إلى خالد وبذل

(١) دهاقين : جمع دهقان — بكسر الدال وضمها — وهو زعيم فلاحى العجم ورئيس الإقليم .

(٢) هرمز جرد : ناحية كانت بأطراف العراق . راجع معجم البلدان (٨/٤٦٠) .

(٣) راجع الطبرى (٢/٥٦٨ — ٥٨٤) وابن الأثير (٢/١٥١ — ١٥٢) .

(٤) الأنبار : مدينة على الفرات فى غربى بغداد ، بينها عشر فراسخ . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (١ / ٣٤٠) وهى فى منطقة مدينة الفلوجة حالياً .

(٥) الأقرع بن حابس التميمى كان حكماً فى الجاهلية ، ثم قدم على النبى صلى الله عليه وسلم فى أشراف بنى تميم بعد فتح مكة ، وكان قد شهد معه فتح مكة وحنيناً والطائف ، فلما قدم وفد بنى تميم كان معهم . وكان من رجالات العرب الذين يتألفهم الرسول صلى الله عليه وسلم وكان شريفاً فى الجاهلية والإسلام . شهد مع خالد اليمامة وحرب العراق وفتح الأنبار ومات شهيداً فى أرض خراسان فى زمن عثمان بن عفان ، وقيل قتل باليرموك . راجع طبقات ابن سعد (٧/٣٧) والاصابة (١/٥٨) وأسد الغابة (١/١٠٧) والاستيعاب (١/١٠٣) .

ما أراده ، فقبل منه على أن يخلّيه ويلحقه بمأمن فى جريدة[1] خيل ليس معهم من المتاع والأموال شيء .

وبعد أن استقرّ خالد فى الأنبار ، صالح مَن حولها ، فاطمأن له الأمر فى تلك المناطق[2] .

فى عين التمر[3] :

كان على (عين التمر) يومئذ (مهران بن بهدام جوبين) الفارسى فى جمع عظيم من العجم والعرب ، وكان على العرب عقة بن أبى عقة فى جمع عظيم من العرب ، وحين سمعوا بمسير خالد إليهم ، قال عقّة لمهران : « إنّ العرب أعلم بقتال العرب ، فدعنا وخالداً » . قال : « صدقت ، لعمرى أنتم أعلم بقتال العرب ، وإنكم لمثلنا فى قتال العجم » ، فخدعه وورّطه واتّقى به وقال : « دونكموهم ، وإن احتجتم إلينا أعنّاكم ! » .

وكانت قوات عقّة فى العراء ، وكانت قوات مهران فى (الحصن)[4] حين قدم خالد على تعبية ، فقال لمجنبتيه : « اكفونى ما عنده فإنى حامل عليه » ، ووكل بنفسه حوامى ، ثم حمل على عقّة وهو يعدّل صفوفه ، فاحتضنه وأخذه أسيراً ؛ فانهزم جنده وطاردهم المسلمون وأمعنوا فى أسرهم .

ولما جاء الخبر إلى (مهران) هرب فى جنده وترك الحصن . وانتهت

---

(١) جريدة : خيل لا رجالة فيها .

(٢) الطبرى (٣/٥٧٤ — ٥٧٦) وابن الأثير (٢/١٥١) .

(٣) عين التمر (بلدة قريبة من الأنبار ، غربى الكوفة بقربها موضع يقال له (شفاثا) . راجع معجم البلدان (٦/٢٥٣) .

(٤) الحصن : لا تزال أطلال هذا الحصن باقية حتى اليوم ، ويسمى قصر الأخيضر ، أطلق عليه هذا الاسم بعد الإسلام ، بينما كان بناء الحصن نفسه قبل الإسلام .

فلول عقة إلى الحصن فاقتحموه واعتصموا به . ونزل خالد على الحصن وحاصره ، وكانوا يتوقعون أن يكون خالد كغيره ممن كان يغير عليهم من العرب لا يلبث أن يتركهم متى ظفر بالغنائم والأموال ، فلما رأوه غير تاركهم طلبوا الأمان ، فأبى إلا أن ينزلوا على حكمه ، فأجابوه إلى ما طلب وفتحوا له باب الحصن ، فاعتقلهم وقتلهم جميعاً[1] .

فى دُوْمَة الجندل [2] :

كان خالد قد أرسل الوليد بن عقبة بفتح عين التمر وبالأخماس إلى أبى بكر الصديق ، فوجهه أبو بكر مدداً لعياض بن غنم[3] ، فقدم عليه وهو محاصر (دُوْمَة الجندل) وأهلها محاصروه وقد أخذوا عليه الطريق ، فقال الوليد لعياض : « الرأى فى بعض الحالات خير من كثيف الجند ! ابعث إلى خالد فاستمدّه » ، ففعل عياض .

وقدم رسول عياض على خالد بعد وقعة عين التمر مستغيثاً ، فعجّل خالد إلى عياض بكتابه : « من خالد ، إلى عياض · إياك أريد »

« لبّث قليلاً تأتك الحلائب يحملن آساداً عليها القاشب
كتائب تتبعها كتائب »

وخرج خالد على تعبية يسرع السير جهده ، فلما بلغ أهل دُومة مسير خالد إليهم بُهتوا ، ثم اختلف زعماؤهم فيما يصنعون ، وكان عليهم رئيسان : أكيدر بن عبد الملك والجودى بن ربيعة ، فقال أكيدر : « أنا أعلم الناس

---

(١) الطبرى (٢/٥٧٦ — ٥٧٨) وابن الأثير (٢/١٥١) .
(٢) دومه الجندل : راجع التسلسل (١٢٧) .
(٣) عياض بن غنم : سترد ترجمته مع قادة الفتح الإسلامى .

بخالد ! لا أحد أيمن طائراً منه ، ولا يرى قوم وجه خالد قلّوا أو كثروا إلا انهزموا عنه ، فأطيعونى وصالحوا القوم » . . . فأبوا !

ولمـا نزل خالد دومة ، جعلها بينه وبين عسكر عياض ، فخرجت إليه بعض قوات الحصن ، فهزمهم خالد وأخذ الجودى أخذا .

وانهزم المشركون إلى الحصن ، فلما امتلأ أغلق مَن فيه أبوابه دون أصحابهم وتركوهم عرضة للمسلمين يقتلونهم ويأسرون منهم مَن يشاءون .

وأطاف خالد بباب الحصن فأمر به فاقتلع . واقتحم المسلمون على من فيه ، فقتلوا كافة المقاتلة إلا أسارى بنى كلب ، فإن عاصم بن عمر والتميمى والأقرع بن حابس التميمى وبنى تميم ، قالوا : قد أمّناهم ! فأطلقهم خالد وقال : « مالى ولـكم ! أتحفظون أمر الجاهلية وتضيّعون أمر الإسلام ؟ ! » .

وأقام خالد بدومة الجندل وردّ الأقرع بن حابس إلى الأنبار[1] ، فـكانت إقامته مدعاة لطمع الأعاجم وظنهم به الظنون ، وكذلك ظنها عرب الجزيرة[2] فرصة سانحة ، فـكاتبوا الأعاجم ليكونوا معهم على خالد غضباً لعقّة بن أبى عقّة الذى لم ينسوا مصرعه بعـد ؛ فبعث خالد القعقاع بن عمرو التميمى إلى (الحصيد)[3] ، فقضى على قوات الفرس وحلفائهم فيها ، وبعث أبا ليلى

---

(١) الطبرى (٢/٥٧٨ — ٥٨٠) وابن الأثير (٢/١٥٢) .

(٢) الجزيرة : وهى التى بين دجلة والفرات مجاورة أرض الشام ، وتشمل على ديار مضر وديار بكر . سميت الجزيرة لأنها بين دجلة والفرات . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٣/٩٦) .

(٣) الحصيد : موضع فى أطراف العراق من جهة الجزيرة . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٣/ ٢٨٨) .

ابن فدكى[1] إلى (الخنافس)[2] ، فهربت من هناك قوات الفرس وحلفاؤهم[3] .

فى المُصَيِّخ[4] :

لما انتهى الخبر إلى خالد بمصاب أهل (الحصيد) كتب إلى قادته وواعدهم ليلة وساعة يجتمعون فيها إلى (المُصَيِّخ) ، فتوافوا إليها فى موعدهم وبيّتوا عدوّهم من ثلاثة اتجاهات وهم نائمون ، مما أدى إلى قتل أكثرهم وفرار أقلّهم[5] .

فى الثّنِى والزُّمَيْل :

علم خالد بتحشّد بعض بنى تغلب فى (الثِّنِى)[6] و (الزُّمَيْل)[7]

---

(١) أبو ليلى بن فدكى : قال :

وقالوا ما تريد فقلت أرمى	جموعاً بالخنافس بالخيول
فدونكمو الخيول فألجموها	إلى قوم بأسفل ذى أنول
فلما أن أحسّوا ما تولوا	ولم يغررهمو ضَبْحُ الفيول
وفيتا بالخنافس باقيات	لمهبوذان فى جنح الأصيل

راجع معجم البلدان (٣/٤٦٨) .

(٢) الخنافس : أرض للعرب فى طرف العراق قرب الأنبار . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٣/٤٦٨) .

(٣) الطبرى (٢/٥٨٠) وابن الأثير (٢/١٥٢) .

(٤) المصيخ : ورد إسمها فى الطبرى (٢/٥٨٠) وابن الأثير (٢/١٥٢) : (المُضَيِّح) بينما وردت فى معجم البلدان (المصيخ) وهى بين حوران والقلت . راجع معجم البلدان (٨/٧٩) .

(٥) الطبرى (٢/٥٨٠ — ٥٨٢) .

(٦) الثنى : موضع بالجزيرة قرب الرصافة . راجع معجم البلدان (٣/٢٦) وهذه الرصافة هى رصافة هشام التى بناها غربى الرقة . راجع معجم البلدان (٤/٢٥٥) .

(٧) الزميل : موضع فى ديار بكر وهى عند (البشر) بالجزيرة شرق الرصافة . راجع معجم البلدان (٤/٤٠٥) .

استعداداً لقتال المسلمين غضباً لعقّة بن أبى عقّة ، لذلك أمر خالد القعقاع وأبا ليلى أن يرتحلا أمامه وواعدهم ليلة ليغيروا على بنى تغلب من ثلاثة اتجاهات كما فعل فى معركة (المصيخ) ؛ ثم خرج فبدأ (بالثنى) واجتمع بأصحابه فبيتوا بنى تغلب ، فلم يفلت منهم مخبر .

ولما انتهى خالد من (الثنى) قصد (الزميل) فباغتهم من ثلاثة اتجاهات أيضاً ، وقتل منهم مقتلة عظيمة لم يقتلوا من قبل مثلها ، ثم هاجم (الرضاب)[1] وبها هلال بن عقّة ، فارفضّ عنه أصحابه حين سمعوا بدنو خالد منهم ، لهذا لم يلق خالد بها كيداً[2] .

فى الفراض[3] :

سار خالد من (الرضاب) إلى (الفِراض) ، وهى تخوم الشام والعراق والجزيرة ، وأفطر بها رمضان لاتصال الغزوات ، فلما اجتمع المسلمون بالفراض حشدّ الروم قواتهم واستعانوا بمن يليهم من مسالح الفرس فأعانوهم ، واجتمع معهم تغلب وإياد والنمر وساروا جميعاً إلى خالد ، فلما بلغوا الفرات ، قالوا له : إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم ! . فقال خالد : « اعبروا » ، فقالوا : تنح عن طريقنا حتى نعبر ، فقال : « لا أفعل ! ولكن اعبروا أسفل منا » فعبروا أسفل من خالد وعظم فى أعينهم .

وقالت الروم : امتازوا حتى نعرف اليوم مَن يثبت ممن يولى : ففعلوا .

---

(١) الرضاب : موضع الرصافة قبل بناء هشام إياها . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٢٥٩/٤) وهذه الرصافة هى التى تدعى (رصافة الشام) وهى غربى الرقة بناها هشام. راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٢٥٥/٤) و (٢٥٩/٤) .

(٢) الطبرى (٥٨٢/٢) وابن الأثير (١٥٣/٢) .

(٣) الفراض: موضع على تخوم الشام والعراق والجزيرة فى شرقى الفرات . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٣٥٠/٦) .

ونشب القتال بشدّة وعنف ، فانهزم الروم ومَن معهم ، فأمر خالد ألا يرفهوا عنهم ؛ فقتل منهم فى المعركة والطلب حوالى مائة ألف . وأقام خالد بالفراض عشرة أيام ، ثم أذن بالرجوع إلى الحيرة[1] ، وأظهر أنه فى الساقة ، ولكنه ترك العراق سراً إلى الحجاز ليؤدى فريضة الحج ، فأتى مكة وحجّ ورجع ، فما توافى جنده بالخبر حتى وافاهم مع صاحب الساقة ؛ ولم يعلم بحجه غير مَن أعلمهم هو به ، ولم يعلم أبو بكر به إلا بعد رجوعه ، فعتب عليه وأمره ألا يعود لمثلها أبدا[2] .

(١) الطبرى (٥٨٢/٢ — ٥٨٣) وابن الأثير (١٥٣/٢) .
(٢) الطبرى (٥٨٣/٢ — ٥٨٤) وابن الأثير (١٥٣/٢) .

هازم الروم في أرض الشام

« والله لأنسيَنّ الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد »
(أبو بكر الصديق)

إلى أرض الشام :

١ — أسباب نقله :

كتب أبو بكر إلى خالد : « سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك ، فإنهم قد شَجوا وأشجوا[١] ، وإياك أن تعود لمثل ما فعلت[٢] ، فإنه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجاك ، ولم ينزع الشجا من الناس نزعك . فليهنك أبا سليمان النيّة والحظوة ، فأتمم يتمم الله لك ، ولا يدخلنّك عجب فتخسر وتُخذل ، وإياك أن تدلّ بعمل ، فإن الله عزّ وجل له المنّ وهو وليّ الجزاء[٣] » .

ومن الواضح ، أن أبا بكر الصديق ، أراد : أن المسلمين ضاقوا بعدوّهم وضيّقوا عليه ، حتى كان بعضهم لبعض كالشجا في الحلق ، وأن خالداً هو القائد المناسب للقضاء على وساوس الروم وحشودهم .

وهناك مَن يرى أنّ صرف خالد من العراق إلى الشام كان عقوبة له على تركه جيشه وذهابه إلى الحج بدون علم وموافقة أبي بكر[٤] ؛ وأرى أن

---

(١) الشجا هنا : الغصص .
(٢) يريد : لا تعود لمخالفة الأوامر كالذهاب إلى الحج بدون علم الخليفة وموافقته .
(٣) الطبري (٢/٥٨٤) .
(٤) الطبري (٢/٥٨٤) وابن الأثير (٢/١٥٣) .

نقله كان اعتماداً على قيادته الحكيمة المتفوقة ، بعد أن حشّد الروم قوات كبيرة لصد المسلمين عن فتح أرض الشام ، وبعد أن عجز قادة جيوش المسلمين فى أرض الشام عن معالجة الموقف ؛ يؤيّد ذلك ، أنه لما نزل المسلمون اليرموك استمّدوا أبا بكر ، فقال : « خالد لها » فبعث إليه بالعراق ، وعزم عليه واستحثّه فى السير[1] ، وقال أبو بكر : « والله لأنسيّن الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد »[2] .

لقد أصبح الروم خطراً داهماً على المسلمين فى أرض الشام ، فهابهم المسلمون ، وفزعوا جميعاً بالرسل والكتب يستمدون أبا بكر[3] ، فمن غير خالد يستطيع بيسر وكفاءة معالجة مثل هذا الموقف العصيب ؟

٢ — منصبه :

هناك من يرى أنّ صرف خالد من العراق إلى الشام كان مدداً لجيوش المسلمين وقائداً على أهل العراق فقط ، وأنه عرض على القادة بعد وصوله أن يقود كل واحد منهم يوماً واحداً : « فلنتعاور الإمارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غداً والآخر بعد غد حتى يتأمّر كلّكم[4] » . وهناك من يرى أن أبا بكر أرسله قائداً عاماً على جيوش المسلمين فى أرض الشام: « إنى قد وليتك على جيوش المسلمين وأمرتك بقتال الروم[5] » .

---

(١) الطبري (٥٩٠/٢) .
(٢) الطبرى (٦٠٢/٢) .
(٣) الطبرى (٥٩٠/٢ — ٥٩١) .
(٤) الطبرى(٥٩٣/٢) وابن الأثير (١٥٨/٢) وطبقات ابن سعد (٣٩٧/٧) .
(٥) انظر نص كتاب أبى بكر إلى خالد فى فتوح الشام للواقدى (١٤/١) وانظر الأغانى (٢٦/١٤) ، وفى البلاذرى ص (١١٧) أن أبا بكر جعله أمير الأمراء فى الشام .

لقد كانت خطة أبي بكر فى توليته القادة ، أن يبعث قائداً على رأس جيش إلى منطقة معينة ، كما فعل عند إرسال القادة لفتح أرض الشام بالذات[1] ، وهذا إجراء منطقى وضرورى من الناحية العسكرية حتى يكون كل قائد حراً فى معالجة موقفه الراهن مستقلاً فى تصريف أموره ضمن واجبه ؛ ولكنّ خطة أبى بكر أيضاً أن يوحّد القيادة عندما يجتمع جيشان أو أكثر فى منطقة واحدة كما فعل فى حروب الردة مثلاً[2] ، وهذا إجراء منطقى وضرورى للغاية من الناحية العسكرية أيضاً ، حتى يسيطر قائد واحد على توجيه جيوشه إلى أهدافها دون معارضة أو تردّد أحد مهما تكن أسباب المعارضة والتردّد ؛ لذلك أرجّح أن أبا بكر بعث خالداً إلى أرض الشام بعد اجتماع جيوش المسلمين فى اليرموك قائداً عاماً لا قائداً على أهل العراق فقط .

والحق ، أن العقل لايكاد يستسيغ ، كيف تجتمع جيوش المسلمين ولاتوحّد قيادتها ، وكيف يمكن أن يتعاور القيادة بضعة قادة فيما بينهم ، فيقود جيوش المسلمين واحد منهم هذا اليوم ثم يقودها غيره غداً ! !

إن خالداً نقل من منصب القائد العام فى العراق إلى منصب القائد العام فى أرض الشام .

٣ — فى الطريق :

كان موقف المسلمين حرجاً فى أرض الشام ، وكان عامل الوقت بجانب الروم أفادوا منه فى زيادة تحشد قواتهم وإكمال تزويدها بالمعدات ، لذلك كانت

---

(١) الطبرى (٥٨٥/٢) وابن الأثير (١٥٤/٢) وفتوح الشام للواقدي (١٤/١) والبلاذرى .

(٢) الطبرى (٥٢٩/٢) وابن الأثير (١٤٣/٢) .

أوامر أبى بكر التى أصدرها لخالد تنص بصراحة على سرعة التحاقه بجيوش المسلمين فى اليرموك — لهذا كله سلك أقصر طريق أمين من ناحية عدم وجود مقاومة معادية كبيرة فيه ، ذلك هو طريق : الحيرة — دُومة الجَندل — وادى سرحان ، حتى إذا بلغ (قراقر)[1] أغار على أهلها من بنى كلب ، وهناك استشار أصحابه قائلا : « كيف لى بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم ، فإنى إن استقبلتها حبستنى من غياث المسلمين!؟ » ، فأجابوه: لا نعرف إلا طريقاً لا يحمل الجيوش ، إنما يأخذه الفذّ الراكب ، فأياك أن تغرر بالمسلمين » ، فعزم عليه فلم يجبه إلى ذلك غير رافع بن عميرة الطائى[2] على تهيب شديد ، فقام خالد فى أصحابه وقال : « لا يختلفنّ هديكم ولا يضعفنّ يقينكم ، واعلموا أن المعونة تأتى على قدر النيّة ، والأجر على قدر الحِسْبة ، وأن المسلم لا ينبغى له أن يكترث بشىء يقع فيه مع معونة الله له » ، فكان ردّ أصحابه عليه : « أنت رجل قد جمع الله لك الخير ، فشأنك »[3] .

---

(١) قراقر : ماء لبنى كلب . راجع ابن الأثير (٢/١٥٦) .

(٢) رافع بن عميرة الطائى : يكنى أبا الحسن ، له صحبة وصحب أبا بكر الصديق ، وكان دليل خالد بن الوليد لما سار من العراق إلى الشام ، فسلك به البر وقطع هذه المسافة بخمسة أيام ، فلما كان اليوم الخامس نادى خالد دليله : « ويحك يارافع ، ما عندك ؟ ! » وكان رافع ارمد ، فأدار رأسه يمنة ويسرة ، ثم قال : « أيها الناس ! انظروا علمين كأنهما ثديان » فلما أتوهما وقف رافع عليهما وقال : « انظروا ، هل ترون شجيرة من عوسج كقعدة الرجل ؟ » . قالوا : ما نراها ! فأمرهم بالتفتيش عليها ، فلما وجدوها كبّروا وكبّر رافع ، ثم قال : « احفروا فى أصلها » فحفروا فنبع الماء من عين ، فشرب الناس حتى رووا ، فقال رافع : والله ما وردت هذا الماء قط إلا مرة واحدة مع أبى وأنا غلام » . توفى رحمه الله سنة ثلاث وعشرين هجرية . راجع أسد الغابة (٢/١٥٥) والاستيعاب (٢/٤٨٢) والطبرى (٢/٦٠٣ — ٦٠٤) وابن الأثير (٢/١٥٦) وفتوح الشام للواقدى (٢/١٤) .

(٣) الطبرى (٢/٦٠٣) وابن الأثير (٢/١٥٦) .

وقال خالد لدليله رافع : « انطلق بالناس » ، فقال رافع : إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال ، والله إنّ الراكب المفرد يخشى فيها على نفسه . إنها لخمس ليال لا يصاب فيها ماء » ، فأمر خالد أصحابه أن يستكثروا من الماء وأمر صاحب كل خيل أن يعدّ لها الماء بقدر ما يسقيها ، وجمع عدداً من الإبل السمان ظمأها حتى إذا أجهدها عطشاً أوردها الماء عللاً بعد نهل[1]، فلما امتلأت صرّ آذانها وشدّ مشافرها لئلا تجترّ[2].

وانطلق خالد بالجيش : ينزلون كل يوم ، فيأكل الرجال ويشربون مما معهم من الماء ، ثم يشقون بطون عشرة من الإبل ويخرجون الماء منها ويسقونه الخيل ، حتى أدركوا الري بعد خمسة أيام فدخل خالد (سوى)[3] قبيل الصبح ، فأغار على أهلها من بهراء فأذعنوا ، إذ لم يكونوا يتوقعون ظهور جيش المسلمين من هذا الاتجاه في هذا الوقت[4]، كما سلّم أهل

(١) العلل : الشربة الثانية . والنهل الشربة الأولى .

(٢) الطبرى (٢/٦٠٣) وابن الأثير (٢/١٥٦) وفتوح الشام للواقدى (١/١٤) .

(٣) سوى : ماء لبنى بهراء .

(٤) الطبرى (٢/٦٠٤) وابن الأثير (٢/٦٥) وفى الخراج ص (١٧٤ — ١٧٥) وكان خالد أراد أن يتخذ الحيرة داراً يقيم بها ، فأتاه كتاب أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، يأمره بالمسير إلى الشام مدداً لأبى عبيدة والمسلمين . . . فكتب إليه أبو بكر) « أن الحق بأبى عبيدة — حين أتاه كتاب أبى عبيدة يستمدّه — » فتوجّه خالد من الحيرة مع الأدلاء منها ومن عين التمر حتى قطع المفاوز ، فلما قطعها وقع فى بلاد بنى تغلب ، ومضى أدلاء منها حتى أتى النُّقَيب والكواثل (النقيب بين تبوك ومعان على طريق الحاج . والكواثل موضع فى أطراف الشام) فلقى جمعاً كثيراً لم ير مثله إلا فى أهل اليمامة ، فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى قتل خالد عدة بيده وأغار على ماحولها من القرى فأخذ أموالهم وحاصرهم ؛ فلما اشتد الحصار عليهم طلبوا الصلح على مثل ماصالح عليه أهل عانات .

ثم مضى حتى أتى (قرقيسياء) (وهى بلد فى ملتقى خابور الفرات بنهر الفرات)=

= فأغار على ما حولها فاخذ الأموال وسبى النساء . . . وحاصرهم أياماً ، ثم إنهم بعثوا يطلبون الصلح فأجابهم إلى ذلك وأعطاهم ما أعطى أهل عانات . . . انتهى باختصار .

أقول : والظاهر أن أبا يوسف يرى أن خالداً سلك إلى أرض الشام طريق الفرات الأعلى وهى الطريق التقليدية التى سلكها الفاتحون منذ أقدم العصور . وقد أخذ بهذا الرأى كاتيانى ومن شايعه من المستشرقين ، ثم ردد هذا الرأى بعض المؤرخين المحدثين من العرب .

ولست بصدد تفنيد هذا الرأى فى هذا المكان ، لأن مكان هذا الرد هو فى كتابى : (الفتح الإسلامى) ، ولكننى أذكر هنا رأيى باختصار شديد وهو يتلخص :

١ — إن مهمة خالد هى : أن يسارع إلى أرض الشام مدداً للمسلمين الذين تكاثر عليهم الروم هناك . فمن المفروض أن يسلك خالد لإنجاز مهمته هذه بالذات أقصر الطرق وأكثرها أمناً . وهذه الطريق ليست قصيرة باعتبار أنه سار من الحيرة حتى أوغل فى الصحراء جنوباً ثم سار شمالاً حتى وصل قرقيسياء ، كما أن هذه الطريق ليست أمينه لوجود قوات معادية لا بد من القضاء عليها للمرور من هذه الطريق كل ذلك يعرقل وصول المدد إلى هدفه بسرعة . كما أن الاحتفاظ بقوة المدد سليمة للافادة منه فى الوقت والمكان الحاسمين ضرورى للغاية ، وهذا يحتم على القائد أن يتجنب القتال فى طريقه إلى هدفه — وهذا مالا يقدر عليه عند سلوكه هذه الطريق .

٢ — إن القتال — أى قتال — يكون غالباً غير معروف النتائج ، فقد يكون النصر إلى جانب خالد وقد لا يكون ، لذلك لا بد له أن يتجنب القتال حتى تبقى قواته سليمة ، وحتى لا يبعثر جهوده ووقته عبثاً فى عمل غير مضمون النتيجة ، وسلوكه هذه الطريق ، يحتم عليه خوض معارك لامبرر لها فى مثل ظروف خالد تلك .

٣ — إن هذه الطريق — طريق الفرات ، آمن طريق يؤدى إلى أرض الشام فى أوقات السلم نظراً لتيسر الماء فيها ولانها مطروقة معروفة لا يضل سالكها . أما فى الحرب فلا قيمة لهذه المزايا ، إذ أن أمان الطريق هو فى خلوها من العدو لا فى تيسر الماء والكلأ فيها .

٤ — كان بإمكان خالد أن يسلك هذه الطريق فى غير أيام السلم ، وذلك عند خوض معارك التطهير أو استثمار الفوز التى تكون معه المعارك الفاصلة . أما أن يسلكها قبل أن يخوض المسلمون معركة فاصلة فأمر بعيد للغاية من الناحية العسكرية

٥ — إذا اقتنع كاتيانى وغيره من الغربيين أن خالداً فضّل هذه الطريق على طريق الصحراء ، فلا مبرر أن يشايعهم بعض العرب فى هذا الاعتقاد وهم يعلمون جيداً ، أن العرب يقطعون الصحراء بيسر وسهولة قد لا يتصورها الغربيون .

لذلك أرى أن خالداً من يسلك هذه الطريق وهو فى ظروفه التى تقضى عليه أن يسرع بقواته للالتحاق بقوات المسلمين فى أرض الشام فى أقرب وقت ممكن ومن أقصر طريق ممكنة .

(تدمر)[1] بعد مقاومة لا تذكر ؛ ثم سالك طريق (حُوّارين)[2] حتى إذا أتى (قصم)[3] صالح أهلها من قضاعة ومنها انحدر إلى (أذْرِعات)[4] وأغار على غسّان بمرج راهط[5] ، ثم سار حتى نزل على قناة (بُصرى)[6] ، ثم سار إلى اليرموك ، حيث تحشّدت جيوش المسلمين هناك[7].

فالطريق الذى قطعه خالد إذاً هو : الحيرة — دومة الجندل — وادى سرحان — قراقر — سوى — تدمر — حوارين — قصم — أذرعات — بصرى — اليرموك .

٤ — عدد قواته :

فما عدد قوات العراق التى سار على رأسها خالد إلى أرض الشام ؟

كان أمر أبى بكر أن يستصحب خالد معه نصْف الناس فى العراق

---

(١) تدمر : مدينة قديمة مشهورة فى بريّة الشام بينها وبين حلب خمسة أيام . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٢/٣٦٩) .

(٢) حوارين : من قرى حلب . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٣/٣٥٧) .

(٣) قصم : موضع بالبادية قرب الشام .

(٤) أذرعات : بلد بأطراف الشام يجاور أرض البلقاء . راجع معجم البلدان (١/١٦٢) .

(٥) مرج راهط : موضع فى الغوطة من دمشق فى شرقيه . راجع معجم البلدان (٤/٢١٧) و (٨/١٦) .

(٦) بصرى : مدينة فى أرض الشام ، وهى كورة حوران ، مشهورة عندالعرب قديماً وحديثاً . راجع معجم البلدان (٢/٢٠٨) .

(٧) الطبرى (٢/٦٠٤ — ٦٠٥) وابن الأثير (٢/١٥٦) والبلاذرى ص (١١٨) ، وهناك رواية ثانية عن الطريق التى سلكها خالد هى : الحيرة — حدوداء — المصيخ — الحصيد — سوى — ... ألخ ، راجع ابن الأثير (٢/١٥٦) والظاهر أن أصحاب هذه الرواية قد خلطوا بين تفوز خالد وبين معاركه التطهيرية التى أجراها على الضفة الغربية من الفرات ضد قبيلة تغلب ، لذلك أثبتنا الأول وعليها إجماع المؤرخين تقريباً .

ويستخلف على النصف الباقي المثنى بن حارثة الشيباني ، فسار من العراق بثمانمائة جندي وقيل في ستمائة وقيل في خمسمائة[1] ، وهذا غير معقول، لأن قوات العراق لم تكن في وقت من الأوقات ضعف هذا العدد . وذكر بعضهم أنه سار في تسعة آلاف[2] وقيل في عشرة آلاف[3] ، وترجّح أن قوّة خالد كانت بين تسعة آلاف وعشرة آلاف ، يؤيّد ذلك أن خالداً قدم العراق ومعه عشرة آلاف مقاتل وكان مع المثنى وأصحابه ثمانية آلاف مقاتل ، فلقي (هرمز) في أول معركة خاضها وهي معركة (ذات السلاسل) في ثمانية عشر ألفاً[4] ، كما أن أهل العراق عندما عادوا من الشام إلى العراق كانت مقدمتهم فقط ألف رجل[5] ، فلابد أن يكون عدد رجال القسم الأكبر أضعاف ذلك[6] .

في اليرموك[7] :

اجتمع المسلمون (باليرموك) وعليهم أبو عبيدة بن الجراح وشُرحبيل

---

(١) ابن الأثير (٢/١٠٦) .

(٢) الطبري (٢/٥٩١) وابن الأثير (٢/١٠٦) .

(٣) الطبري (٢/٥٩٢) وابن الأثير (٢/١٠٦) ، وفي فتوح الشام للواقدي (١/١٠٥) أنهم كانوا أربعة آلاف .

(٤) الطبري (٢/٥٥٤) وابن الأثير (٢/١٤٧) .

(٥) الطبري (٣/٥٢) وابن الأثير (٢/١٨٣) ، والقوة التي عادت ستة آلاف . والظاهر أنها تركت خسائر في أرض الشام وبقي بعض الرجال هناك .

(٦) انظر الطبري (٢/٥٩٣) وفيه يعدد بعض كراديس أهل العراق في معركة القادسية ، وكل كردوس منها بقوة ألف رجل .

(٧) اليرموك : وادٍ بناحية الشام في طرف الغور يصبّ في نهر الأردن . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٨/٥٠٤) .

بن حسنة وعكرمة بن أبي جهل ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص[1]، فلما طلع عليهم خالد، فرح المسلمون[2] وارتفعت معنوياتهم.

وبدأ خالد يعدّ جيشه للقتال، فخرج في تعبية لم تعبها العرب من قبل[3]، إذ نظّم جيشه في ستة وثلاثين كردوساً[4] إلى الأربعين، وقال: إنّ عدوّكم قد كثر وطغى، وليس من التعبية تعبية أكثر في رأى العين من الكراديس» ثم جعل القلب كراديس، وأقام فيه أبا عبيدة بن الجراح، وجعل الميمنة كراديس وجعل عليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة، وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان[5]. وكان القاضي أبو الدرداء[6]

---

(١) الطبرى (٢/٥٩٠) وهؤلاء كلهم من قادة الفتح، وسترد تراجمهم مع قادة الفتح الإسلامى.

(٢) الطبرى (٢/٥٩١).

(٣) الطبرى (٢/٥٩٣) وابن الأثير (٢/١٥٨).

(٤) كراديس: مفردها كردوس، وهو كتلة من الجنود يتألف من ألف مقاتل، وينقسم الكردوس إلى أجزاء عشرية: العريف يقود عشرة رجال، وآمر الأعشار يقود مائة رجل، ولكل كردوس قائد له راية. ولعل كلمة كردوس معربة عن كلمة (كورتيس) الرومانية. راجع كتاب (الجندية في الدولة العباسية للمرحوم الرئيس الركن نعمان ثابت في ص (٢٥٤) وكان عدد المسلمين في اليرموك ستة وثلاثين ألفاً كما جاء في الطبرى (٢/٥٩١) وهذا يؤيد أن الكردوس يتألف من ألف رجل، لأن خالدا قسّم المسلمين إلى ستة وثلاثين كردوساً إلى أربعين كردوساً).

(٥) الطبرى (٢/٥٩٣) وابن الأثير (٢/١٥٨).

(٦) أبو الدرداء الأنصارى (هو عويمر بن عامر من الخزرج، تأخرّ إسلامه قليلاً وكان آخر أهل داره إسلاماً، وحسن إسلامه، وكان فقيهاً عالماً حكيماً، شهد ما بعد (أحد) من المشاهد، واختلف في شهوده (أحداً) وجعله عمر ابن الخطاب على قضاء الشام ومات بدمشق قبل عثمان بن عفان بسنتين. راجع طبقات ابن سعد (٧/٣٩١) والإصابة (٥/٤٦) وأسد الغابة (٤/١٥٩) والاستيعاب (٤/١٦٤٦).

وكان القاص أبو سفيان بن حرب[1]، وكان على الأقباض عبد الله بن مسعود[2]، وكان القارئ المقداد بن الأسود الكندي[3]، إذ كان من السنة التي سنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد (بدر) أن يقرأ سورة الجهاد عند اللقاء، وهي سورة الأنفال[4].

---

(١) أبو سفيان بن حرب الأموي القرشي . والد معاوية ويزيد وعتبة ، ولد قبل عام الفيل بعشر سنين ، وكان من أشراف قريش وعقلائها وقادتها وإليه راية قريش وكان من أفضلها رأياً في الجاهلية . أسلم يوم الفتح وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حنيناً ، وقد حسن إسلامه على أصحّ وأوثق الروايات وبشهادة سعيد بن المسيّب العالم الزاهد ، فقد قال عن أبي سفيان : « فقدت الأصوات يوم اليرموك إلا رجل واحد يقول : يا نصر الله اقترب ، والمسلمون يقتتلون هم والروم . فذهبت أنظر ، فإذا هو أبو سفيان تحت راية ابنه يزيد » . فقئت عينه يوم الطائف وفقئت عينه الأخرى يوم اليرموك ومات في خلافة عثمان سنة ثلاث وثلاثين ودفن بالبقيع ، وهو ابن ثمانٍ وثمانين سنة ، وقيل ابن بضع وتسعين . وكان قصيراً سميناً ذا هامة عظيمة . راجع الاصابة (٣/٢٣٧) وأسد الغابة (٣/١٢) والاستيعاب (٤/١٦٨٧) .

(٢) عبد الله بن مسعود الهذلي . من حلفاء بني زهرة ، أسلم وهو غلام وأخذ من النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة سبعين سورة من القرآن الكريم ، وكان إسلامه قبل دخول النبي صلى الله عليه وسلم دار الأرقم . هاجر إلى الحبشة الهجرتين ، وقيل الهجرة الثانية فقط ، ثم هاجر إلى المدينة وشهد (بدراً) والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أعلم الصحابة بالقرآن . أرسله عمر مع عمار بن ياسر إلى الكوفة : أرسل عماراً اميراً وعبد الله معلماً ووزيراً ، وبقي على بيت المال في عهد عثمان حتى عزله ، وتوفي بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين هجرية وهو ابن بضع وستين سنة ودفن بالبقيع . راجع طبقات ابن سعد (٣/١٥٠) و (٦/١٣) والاصابة (٤/١٢٩) وأسد الغابة (٣/٢٥٦) والاستيعاب (٣/٩٨٧) .

(٣) المقداد بن الأسود الكندي : هو المقداد بن عمرو ، صحابي جليل كان قديم الإسلام ، من الفضلاء النجباء الكبار الخيار من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم .

وكان موضع ثقة الرسول صلى الله عليه وسلم وتقديره ، وقد شهد فتح مصر ومات وهو ابن سبعين ودفن بالمدينة . راجع طبقات ابن سعد (٣/١٦١) والاصابة (٦/١٣٣) وأسد الغابة (٤/٤٠٩) والاستيعاب (٤/١٤٨٠) .

(٤) الطبري (٢/٥٩٣ — ٥٠٤) وابن الأثير (٢/١٥٨) ، وفي الطبري تفاصيل قادة الكراديس أيضاً .

وقال رجل لخالد : « ما أكثر الروم وأقلّ المسلمين ! » ، فقال خالد : « ما أقلّ الروم وأكثر المسلمين ! إنما تكثر الجنود بالنصر وتقلّ بالخذلان لا بعدد الرجال !! والله لوددت أنّ الأشقر براء من توجّيه[1] ، وإنهم أضعفوا ضعفهم[2] » .

وأمر خالد مجنبتي القلب — وكان فيهما عكرمة بن أبي جهل والقعقاع ابن عمرو أن ينشبا القتال ، والتحم الطرفان ، وإنهم على ذلك ، إذ قدم صاحب البريد من المدينة ، فأخذته الخيول وسألوه الخبر ، فلم يخبرهم عن شيء ذي بال وأخبرهم عن قرب وصول الإمدادات إليهم ، وكان قد جاء بموت أبي بكر وتأمير أبي عبيدة وعزل خالد[3] ؛ فأبلغوه خالداً ، فأخبره خبر أبي بكر وأسره إليه ، وأخبره بالذي أخبر به الجند ، فقال له : « أحسنت ! » . وأخذ كتاب عزله وتأمير أبي عبيدة وجعله في كنانته ، إذ خاف إن هو أظهره[4] أن يؤثر إظهاره على معنويات الجند تأثيراً سيئا وهم في أحرج مواقف القتال .

وخرج أحد أبطال الروم[5] ونادى ، ليخرج إليّ خالد ، فأقام خالد

---

(١) الأشقر : اسم فرس خالد . الوجى : أن يشتكي الفرس من باطن حافره . يريد بذلك ، أنهم لو زادوا إلى ضعفهم لما اكترثت بهم اكتراثي بشكوى الأشقر من حافره ! .

(٢) الطبري (٢/٥٩٤) وابن الأثير (٢/٥٨) .

(٣) عزل خالد وتأمير أبي عبيدة مكانه ، دليل قاطع على أن خالداً كان قائداً عاماً ، وإلا فلا معنى لعزله وتأمير أبي عبيدة الذي كان قائداً بالفعل على قسم من جيش المسلمين لا قائدا عاماً . راجع الطبري (٢/٥٩٥) .

(٤) الطبري (٢/٥٩٥) وابن الأثير (٢/٨٥) .

(٥) البطل الرومي هو جرجة كما يسميه العرب ، وجورج كما هو اسمه .

أبا عبيدة مكانه وخرج لمنازلة الرومى ، فاستطاع خالد أن يقهر خصمه هذا بلسانه لا بسنانه[1] .

وحملت الروم فأزالوا المسلمين عن مواقفهم ، فقاتل خالد قتالا شديداً ، ونهد للروم بالقلب حتى كان بين خيلهم ورجلهم ، وأفسح المجال لخيل الروم ، فخرجت تشتدّ بهم فى الصحراء وتركوا مشاتهم يقاومون وحدهم زخم هجوم المسلمين ، مما سهل على المسلمين القضاء عليهم[2] ، فهزم الله الروم مع الليل[3] ، فأصبح خالد من تلك الليلة وهو فى رواق (تذارق) قائد الروم[4] .

وانتهت معركة اليرموك الحاسمة التى فتحت أبواب أرض الشام للمسلمين ، فانتصر رهبان الليل فرسان النهار[5] على الروم وطاردوهم حتى أبواب (دمشق) ، ثم عادوا من المطاردة فأصبح أبو عبيدة قائدهم العام ، حيث بقى فى موضعه لا يبرح حتى يأتيه رأى عمر وأمره ، فلما أتاه هذا الأمر رحل بالمسلمين حتى نزلوا على (دمشق)[6] .

فى دمشق :

كان خالد على المقدمة حين تقدّمت جيوش المسلمين إلى (دمشق)[7] ،

---

(١) انظر مناقشة جورجة لخالد وإسلامه ، فى الطبرى (٢/٥٩٥) وابن الأثير (٢/١٥٨) . ومناقشتهما تدل على تضلّع خالد بالدين الحنيف وقوة منطقه وحجته .

(٢) الطبرى (٢/٥٩٦) وابن الأثير م ٢/١٥٨ .

(٣) الطبرى (٢/٥٩٩) .

(٤) الطبرى (٢/٥٩٧) .

(٥) فى الطبرى (٢/٦١٠) ، أن قائد الروم بعث رجلاً عربياً من قضاعة فقال : « أدخل فى هؤلاء القوم فأقم فيهم يوماً وليلة ثم ائتنى بخبرهم » . فدخل فى الناس ثم أتاه ، فقال له : ما وراءك ؟ . . . فقال : « بالليل رهبان وبالنهار فرسان ، ولو سرق ابن ملكهم قطعوا يده ، ولو زنى رجم ، لإقامة الحد فيهم ! » . فقال القائد الرومى : « لئن كنت صدقتنى لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها » .

(٦) الطبرى (٢/٥٩٩) .

(٧) الطبرى (٢/٦٦٢) .

وفى حصارها ، نزل أبو عبيدة من على ناحية وخالد على ناحية من جهة الباب الشرقى[1] ، وعمرو بن العاص من ناحية ، فحاصروا أهل دمشق نحواً من سبعين ليلة حصاراً شديداً بالزحوف والترامى والمجانيق ، وهم معتصمون بالمدينة ينتظرون إمدادات (هرقل) الذى كان منهم قريباً وقد استمدّوه ؛ ولكن المسلمين صدوا إمداداته ، فأيقن أهل دمشق أنّ الإمدادات لن تصل إليهم[2] .

كان خالد لا ينام ولا يُنيم ولا يبيت إلا على تعبية ولا يخفى عليه من أمر عدوه شىء : عيونه ذكية ، وهو مَعْنِى بمن يليهم[3] ، فبلغه أنه ولد لبطريقهم[4] مولود وأنه صنع طعاماً ودعى القوم يأكلون ويشربون وهم غافلون عن مواقعهم . وكان خالد قد اتّخذ أوهاقاً وأحبالاً كهيئة السلالم ، فلما أمسى ذلك اليوم انتهز هذه الفرصة ، ونهض فيمن معه من جنده الذى قدم بهم من العراق ، وتقدّمهم هو والقعقاع بن عمرو التميمى ومذعور بن عدى[5] وأمثاله ، وقالوا : إذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا إلينا واقصدوا الباب . فلما وصل هو وأصحابه إلى السور ألقوا الحبال فعلق بالشُرف منها حبلان ، فصعد فيهما القعقاع ومذعور وأثبتا الحبال بالشُرف ، وكان ذلك المكان

---

(١) البلاذرى (١٢٧) .

(٢) الطبرى (٢/٦٢٦) وابن الأثير (٩/١٦٤) .

(٣) الطبري (٢/٦٢٦) .

(٤) فى البلاذرى (١٢٨) : أن أسقف دمشق كان صديقاً لخالد ، وفى ليلة من الليالى ، أتاه بعض أصحاب هذا الأسقف ، فأعلمه أنها ليلة عيد لأهل المدينة وأنهم فى شغل ، وأن الباب الشرقى قد ردم بالحجارة وتُرك ، وأشار إليه أن يلتمس سلّماً . . . ألخ .

(٥) مذعور بن عدى العجلى : صحابى جليل ، وفد على النبى صلى الله عليه وسلم شهد اليرموك فى فتوح الشام ، كما شهد فتوح العراق : وكان على كردوس فى اليرموك ، وقاتل تحت لواء خالد قائداً لأربعة آلاف من بكر بن وائل . راجع التفاصيل فى الاصابة (٦/٧٥) وأسد الغابة (٤/٣٤٣) .

أحصن موضع بدمشق وأكثره ماء ، فصعد المسلمون ، ثم انحدر خالد وأصحابه إلى داخل المدينة تاركا على السور من يحميه من المسلمين وأمرهم بالتكبير ، فكبّروا ، فأتاهم المسلمون إلى الباب وإلى الحبال . وانتهى خالد إلى من يليه فقتلهم ، وقصَد الباب فقتل البوابين . وثار أهل المدينة وفزع الناس ، فأخذوا مواقفهم وهم لا يدرون عن الموقف الراهن شيئاً . فلما رأى الروم دخول المسلمين دمشق قصدوا أبا عبيدة وبذلوا له الصلح ، فقبل منهم ، ففتحوا له الباب وقالوا له : ادخل وامنعنا من أهل ذلك الجانب ، فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ، ودخل خالد عنوة ، فالتقى خالد بالقواد الآخرين في وسط المدينة : هذا قتالا وانتهابا ، وهذا صلحاً وتسكينا ، فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح أيضاً[1] .

في فِحْل[2] :

سار أبو عبيدة إلى (فِحْل) وعلى مقدمته خالد وعلى الناس شرحبيل ابن حسنة ، وكان أهل (فحل) قد قصدوا (بيسان)[3] وفجروا مياه المنطقة فأصبحت مغمورة بالمياه موحلة ، وبعد حصار دام طويلا هجموا على المسلمين

---

(١) الطبري (٦٢٦ — ٦٢٧) وابن الأثير (٢/١٦٤ — ١٦٥) وطبقات ابن سعد (٧/٣٩٧) . أما البلاذري ص (١٢٩) فيذكر : أن أسقف دمشق لما رأى أبا عبيدة قد قارب دخول المدينة ، بدر إلى خالد فصالحه وفتح له الباب الشرقي ، فدخل معه . فقال بعض المسلمين : « والله ما خالد بأمير ، فكيف يجوز صلحه ؟ » . فقال أبو عبيدة : « إنه يجير على المسلمين أدناهم » وأجاز صلحه وأمضاه .

وأكثر الروايات على ما ذكرناه في المتن أعلاه ، لذلك رجحناه خاصة وأنه أقرب لطبيعة القائدين : طبيعة خالد الحربية وطبيعة أبي عبيدة السلمية ، لذلك نرجح دخول خالد دمشق من الباب الشرقي قسراً ، ودخول أبي عبيدة من باب الجابية سلماً .

(٢) فحل : إسم موضع بالشام في ناحية الأردن راجع معجم البلدان (٦/٣٤٠) .

(٣) بيسان : مدينة بالأردن بالغور الشامي . راجع معجم البلدان (٢/٣٣١) . وهي من غور فلسطين غربي الأردن ضمن الأرض المحتلة من أرض فلسطين .

فاقتتلوا أشد قتال ليلتهم ويومهم إلى الليل، فلما جن الليل انهزموا وظلوا الطريق وأسلمتهم هزيمتهم إلى الوحل، فلم يفلت منهم إلا الشريد[1].

في مرج الروم :

سار أبو عبيدة وخالد من (فحل) قاصدين (حمص) فأرسل (هرقل) إلى المسلمين جيشاً بقيادة (توذر) البطريق، وأردفه بجيش آخر عليه (شنس) الرومي مدداً له وردءاً لأهل (حمص).

كان خالد بإزاء (توذر) الذي تحرّك بجيشه نحو دمشق للقضاء على حاميتها من المسلمين، ولكن خالداً اقتفى أثره، فلما نشبت المعركة بين جيش (توذر) من جهة وبين جيش يزيد بن أبي سفيان من جهة أخرى، كان خالد قد لحق جيش الروم وطلع عليهم من خلفهم، فكانوا يقاتلون في معركة يائسة : من أمامهم يزيد ومن خلفهم خالد . لذلك لم ينج منهم إلا القليل[2].

في (حِمْص)[3]:

قصد أبو عبيدة (حِمْص) وأرسل خالداً إلى (البِقَاع)[4]، فسار إليها

---

(١) الطبرى (٢/٦٢٨ — ٦٣٠) وابن الأثير (٢/١٦٥).
(٢) الطبرى (٣/٩٦) وابن الأثير (٢/١٨٩ — ١٩٠).
(٣) حمص : بلد مشهور قديم كبير مسور، وهي بين دمشق وحلب في نصف الطريق. راجع التفاصيل في معجم البلدان (٣/٣٣٩). وهي مدينة في مستوٍ خصبة جداً، من أصح بلدان الشام تربة، في أهلها جمال مفرط راجع المسالك والممالك للاصطخرى ص (٤٦).
(٤) البقاع : جمع بقعه، موضع يقال له : بقاع حلب قريب من دمشق، وهو أرض واسعة بين بعلبك وحمص ودمشق، فيها قرى كثيرة ومياه غزيرة . راجع معجم البلدان (٢/٢٥٠).

خالد وافتتحها . وسار أبو عبيدة حتى نزل (حمص) وجاء بعده خالد فنزل عليها . وحاصرها المسلمون وشدّدوا عليها الحصار ، فلما ذهب الشتاء ، طلب أهل (حمص) الصلح ، فصالحهم المسلمون[1] .

في قِنّسْرِين[2] :

أرسل أبو عبيدة خالداً إلى (قِنّسْرِين) فلما نزل (الحاضر)[3] التقى بجيش رومى عليه (ميناس) وهو أعظم قادتهم بعد (هرقل) ، فقاتلهم خالد قتالاً شديداً وقتل (ميناس) بعد أن دافع عنه الروم دفاعاً مستميتاً . أما أهل (الحاضر) فأرسلوا إلى خالد : إنهم عرب وإنهم حشروا كرهاً ولم يكن من رأيهم حربه ، فقبل منهم وتركهم .

فلما بلغ عمر بن الخطاب أعمال خالد فى الشام ، قال : « أمر خالد نفسه ! يرحم الله أبا بكر ، هو كان أعلم بالرجال منى »[4] .

وسار خالد من (الحاضر) حتى نزل على (قنسرين) فتحصّن أهلها منه ، فقال لهم : « لو كنتم فى السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا » فنظروا فى أمرهم وذكروا ما لقى أهل (حمص) وغيرها من البلدان ، فطلبوا الصلح على مثل (صلح حمص) ولكن خالداً أبى إلا على خراب المدينة ، فكان له ما أراد[5] .

---

(١) الطبرى (٩٦/٣ — ٩٨) وابن الأثير (١٩٠/٢ — ١٩١) والبلاذرى ص (١٣٦) .

(٢) قنسرين : بلد فى أرض الشام جنوب حلب . راجع معجم البلدان (١٦٨/٧) . وهى مدينة تنسب الكورة إليها ، وهى من أصغر المدن بها . راجع المسالك والممالك ص (٤٦) .

(٣) الحاضر : خلاف البادي ، وهو بقرب حلب . رجع معجم البلدان (١٩٩/٣) .

(٤) الطبرى (٩٨/٣) وابن الأثير (١٩١/٢) .

(٥) الطبرى (٩٨/٣) وابن الأثير (١٩١/٢) .

وكان (هرقل) قد غادر (حمص) إلى (الرهاء)[1]، فلما أباد خالد الروم (بالحاضر) وأخرب (قنسرين) يئس هرقل من بقاء الشام تحت حكمه، فودّع سورية بقوله : « عليك السلام يا سورية سلاماً لا اجتماع بعده ولا يعود إليك رومي إلا خائفا[2]».

في مَرْعَش[3] :

بعد فتح (قنسرين)وجّه أبو عبيدة وهو (بَمَنْبِج)[4] خالداً إلى (مَرْعش) ففتحها وأجلى أهلها وأخربها، مما يدل على أن أهلها قاوموه فقهرهم بالقتال كما أنه فتح حصن الحَدَث[5].

---

(١) الرُّهاء : مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام . راجع معجم البلدان (٤/٣٤٠)
(٢) ابن الأثير (٢/١٩١) .
(٣) مرعش : مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم لها سوران وخندق وفي وسطها حصن عليه سور . راجع معجم البلدان (٨/٢٥) .
(٤) منبج : بلد قديم كبيرة واسعة ، ذات خيرات كثيرة وأرزاق واسعة في فضاء من الأرض ، كان عليها سور مبني بالحجارة محكم ، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ وبينها وبين حلب عشرة فراسخ . راجع معجم البلدان (٨/١٦٩) .
(٥) الحدث : قلعة حصينة بين ملطية وسُمَيْسَاط ومَرعش ، من الثغور يقال لها : الحمراء ، وقلعتها على جبل يقال له الاحيدب . راجع معجم البلدان (٣/٢٣١) وانظر عن فتح مرعش وحصن الحدث تاريخ أبي الفدا (١/١٦٠) .

عزله

« أمّر خالد نفسه ! يرحم الله أبا بكر ، هو كان أعلم بالرجال منى »

« الفاروق عمر »

كان خالد قائداً عاماً بالشام فى خلافة أبى بكر كما أسلفنا ، فلما تولى الخلافة عمر بن الخطاب ، عزل خالداً عما كان عليه وولى أبا عبيدة بن الجراح[1] مكانه فقد كتب عمر إلى أبى عبيدة بعقده وولايته على الشام مكان خالد ، وصيّر خالداً موضع أبى عبيدة[2] ، أى أنّ خالداً أصبح قائداً مرؤوساً فى أرض الشام للقائد العام أبى عبيدة بن الجراح ، استمر خالد على قيادة الرجال بإمرة أبى عبيدة ، وكان له بلاء وغناء وإقدام حتى توفى[3] . فما سبب إقدام عمر على عزل خالد من منصب القائد العام وهو فى أوج انتصاراته ومجده ؟ ؟

هناك من يزعم ، أن هناك عداوة شخصية بين عمر وخالد ، سببها تصارعهما وهما غلامان ، فكسر خالد ساق عمر ، وأن هذه العداوة بينهما بقيت فى حنايا عمر حتى تولى الخلافة ، فعزل خالداً[4] استجابة لذلك !!

ولعل هذا السبب تافه بدرجة لا يؤثر على شخصية اعتيادية متزنة ، فكيف يؤثر على سلوك شخصية فذة مثل شخصية عمر ؟ ؟

(١) طبقات ابن سعد (٣٩٧/٨) .

(٢) اليعقوبى (١١٧/٢) ، أى أن خالداً لم يصبح جندياً بسيطاً بعد عزله كما هو الشائع ، وإلا فكيف فتح ما فتح بعد عزله من القيادة العامة ؟ ! .

(٣) طبقات ابن سعد (٣٩٧/٨) واليعقوبى (١١٨/٢ — ١٢٠) . فى الاستيعاب (٧٩٤/٢) أن عمر ولاه دمشق .

(٤) ابن عساكر ص (٧١٠) والسيرة الحلبية (٢٧٦/٣) .

وهناك من يزعم ، أن سبب عزل خالد ، هو قتله مالك بن نويرة وتزوجه بامرأته[1] ، لأن عمرا كان مقتنعاً كل الاقتناع بتقصير خالد فى هذه القضية بالذات[2] ، لذلك ألح على أبى بكر بعد علمه بهذا الحادث أن يعزل خالداً[3] ولكن أبا بكر لم يقتنع بتقصير خالد ولا بصحّة رأى عمر فى حينه[4] ، فلما توفى أبو بكر ، قال عمر : ما صدقت الله إن كنت أشرت على أبى بكر بأمر ، فلم أنفذّه[5] ، فعزله غير مكترث بماضيه المشرّف فى خدمة الإسلام ولا فى صلة القربى بينه وبين خالد[6] ، إذ كان عمر إذا اقتنع بأمر أمضاه .

وقد يكون هذا السبب سبباً وجيهاً عند عمر لعزل خالد ، ولكنه لم يكن السبب الأول والأخير لعزله ، بل لم يكن السبب المهم الذى قرّر مصير خالد .

لقد كان أبو بكر فى حكمه يعطى حرّية كاملة لعماله وقادة جيوشه ، وكان لا يخفى عليه شيء من عمله[7] ، لذلك كان بإمكان خالد وأمثاله من الذين يتحملون المسؤولية كاملة ويقرّرون قرارات حاسمة ويبتّون بأهم الأمور وأخطرها على مسؤولياتهم ويتمتعون بمزية الإبداع الذاتى — أن يعملوا بسهولة مع أبى بكر الذى يفسح لهم المجال واسعاً للعمل ، ولكنّهم لا يستطيعون العمل مع عمر الذى يريد أن يعلموه بكل شيء قبل الإقدام على إعطاء قرار ما — خاصة فى قضايا القتال والمال — ولا يبتّون فى الأمور قبل أخذ رأيه .

---

(١) الطبرى (٢/٥٠٢) .

(٢) الطبرى (٢/٥٠٤) وأسد الغابة (٢/٩٥) .

(٣) الطبرى (٢/٥٠٤) وتاريخ أبى الفدا (١/١٥٨) .

(٤) الطبرى (٢/٥٠٤) وتاريخ أبى الفدا (١/١٥٨) وابن الأثير (٢/١٣٧)

(٥) الإصابة (٢/١٠٠) .

(٦) خالد كان ابن خال عمر . راجع اليعقوبى (٢/١١٧) لأن أم عمر هى : حنتمة بنت هاشم بن المغيرة .

(٧) ابن الأثير (٢/٢٠٧) .

لقد انتظر أبو عبيدة فى موضع اليرموك بعد انتهاء المعركة لا يبرحه حتى يأتيه أمر عمر[1] ، وانتظر سعد بن أبى وقاص فى موضع القادسية بعد انتهاء المعركة لا يبرحه شهرين حتى يأتيه أمر عمر[2] ، ولو كان خالد هو القائد العام فى هاتين المعركتين الحاسمتين ، لاستثمر الفوز فوراً دون انتظار الأمر ، ولفعل كما فعل بعد انتهائه من طليحة ومن معه ، فسار إلى مالك ابن نويرة على مسؤوليته الشخصية[3] ، مما أدى إلى اعتراض الأنصار على مسيره[4] . ولكنه مضى قُدماً إلى مالك بن نويرة غير مكترث باعتراض المعترضين !

والظاهر أن نشأة خالد ونسبه الرفيع مع قابلياته العسكرية ، كونت عنده استقلالا فى الرأى ، والحق أن طبيعة الحركات العسكرية حينذاك : بعد المسافة بين العاصمة وساحة القتال — وعدم تيسّر وسائط مواصلات سريعة وتبدّل مواقف المعركة بسرعة ، تجعل من الضرورى أن يكون القائد مستقلا فى رأيه له الحرية الكاملة للبت فى الأمور العسكرية دون مراجعة أحد ، وإلا ضاعت عليه فرص كثيرة من دون مبرر .

قال عمر لأبى بكر : « اكتب إلى خالد لا يعطى شيئاً إلا بأمرك » ، فكتب إليه بذلك ، فأجابه خالد : « إما أن تدعنى وعملى ، وإلا فشأنك وعملك » ، فأشار عليه عمر بعزله ، فقال أبو بكر : « فمن يجزى عنى جزاء

---

(١) الطبرى (٢/٥٩٩) .
(٢) ابن الأثير (٢/١٩٦) .
(٣) الطبرى (٢/٥٠١) وابن الأثير (٢/١٣٦) .
(٤) الطبرى (٢/٥٠١) وابن الأثير (٢/١٣٦) .

خالد[1] » ، إذ كان خالد إذا صار إليه المال قسّمه فى أهل الغنائم ولم يرفع إلى أبى بكر حساباً[2] .

لقد سمع عمر راجزاً يذكر خالداً بعد موته ، فقال : « رحم الله خالداً » ، فقالوا له : لماذا عزلته ؟ ؟ فقال : « إنى ما عتبت على خالد إلا فى تقدّمه وما كان يصنع فى المال[3] » .

لقد كانت فتوحات خالد ملء السمع والبصر ، لذلك افتتن الناس به وأصبحوا يثقون به ثقة لا حدود لها ويفرحون بالقتال تحت رايته[4] ، فخاف عمر أن يوكل الناس إليه ، فعزله ليعلموا أن الله ينصر دينه بخالد وبغيره ، وكتب إلى الأمصار : « إنى لم أعزل خالداً عن سخط ولا عن خيانة ، ولكن الناس فخموه وفتنوا به ، فخفت أن يوكلوا إليه ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وأن لا يكونوا بعرض فتنة[5] » .

لقد كان عمر يدعو خالداً إلى أن يعمل — وذلك بعد عزله — فيأبى إلاّ أن يخلّيه يفعل ما شاء ، فيأبى عمر ذلك[6] ، وكيف يرضى خالد أن يعمل بإمرة عمر المباشرة ، إذا كان يعرف سلفاً أنه سيكون مقيّداً فى تصرّفاته ، وأنه سيحاسب حساباً عسيراً عن كل عمل يعمله بدون أمر عمر وموافقته ،

(١) الإصابة (٢/٩٩) .
(٢) الإصابة (٢/٩٩) .
(٣) الإصابة (٢/١٠٠) ، ويقصد عمر : (إلا فى تقدمه) أى : مبالغة خالد فى تحمل المسؤليه دون الإلتفاف إلى مرجعه الأعلى .
(٤) الطبرى (٢/٥٩١) .
(٥) ابن الأثير (٢/٢٠٧ — ٢٠٨) وفى الاستيعاب (٢/٧٩٤) : قال عمر : « والله لأنزعنّ خالداً حتى يعلم أن الله ينصر دينه » .
(٦) الإصابة (٢/١٠٠) .

وخالد لا يستطيع ألا أن يقرّر ويبتّ بالأمور دون انتظار رأى أحد ، ومادام خالد يعمل للمصلحة العامة لا لمصلحته الشخصية أو لمصلحة شخص آخر ، وما دام يجاهد من أجل الإسلام لا من أجل عمر ، فلا فرق عنده بتاتاً أن يجاهد ويعمل رئيساً أو مرؤوسا .

ولكن عزل خالد ترك أثراً سيئاً فى نفوس الناس ، فقد خطب عمر مرة واعتذر عن عزل خالد ، فقال أحد بنى المغيرة[1] : « عزلت عاملا استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووضعت لواء رفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم » فقال عمر : « إنك قريب القرابة ، حديث السن ، مغضباً لابن عمك[2] » ومع ذلك لم يترك عزله فى نفسه هو أثراً سيئاً فى علاقته الشخصية بعمر ، لأنهما كانا يعملان للمصلحة العامة لا لنفسيهما ولو أن أساليبهما فى العمل مختلفة ، لذلك أوصى خالد لعمر عندما حضرته الوفاة[3] وحزن عمر لموت خالد وقال عندما حضرته الوفاة: « إنه لو أدرك خالداً لولاه الخلافة من بعده »[4] .

أما أبو عبيدة فلم يخبر خالداً بعزله إكراماً له وإجلالاً[5] — استناداً إلى رواية : أن أبا عبيدة علم بعزل خالد قبل أن يعلم خالد بذلك — ؛ ولما علم خالد بعزله واستعمال أبى عبيدة مكانه قال للناس عن أبى عبيدة : « بعث عليكم أمين هذه الأمة » ، وقال أبو عبيدة للناس عن خالد : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : خالد سيف من سيوف الله ، نعم فتى العشيرة »[6] .

---

(١) هو أبو عمر بن حفص بن المغيرة . راجع الإصابة (٢/٩٨) .
(٢) الإصابة (٢/٩٨) .
(٣) الإصابة (٢/١٠٠) وطبقات ابن سعد (٧/٣٩٨) .
(٤) الامامة والسياسة لابن قتية (١/٢٤) .
(٥) ابن الأثير (٢/٢٠٧) .
(٦) الإصابة (٢/٩٩) وأسد الغابة (٣/٨٥) والاستيعاب (٢/٧٩٤) .

تلك دروس قيّمة من السلف الصالح : قائد كان له فى حرب الروم والفرس أثر شديد[1] ، يعزله الخليفة ، فلا يحقد أحدهما على الآخر حقداً مستديماً ، ولا يحقد هذا القائد على خلفه ، ولا يحقد خلفه عليه ، بل لا يزداد خلفه إلا تقديراً وإعزازاً لسلفه المعزول ، ثم يتقارض كل هؤلاء الثناء العاطر بحق : يثنى أحدهما على أخويه بما يستحقه ، ويبدى إعجابه بهما ، وكأن شيئاً من أمور الدنيا لم يحدث بينهم ! !

تلك هى بعض آثار العقيدة الإسلامية التى وجدت أرضاً خصبة فى نفوس العرب ، فتغلغلت فى أعماقهم ، وآتت أُكلها ضعفين .

(١) الإصابة (٢/٩٨) وأسد الغابة (٧/٩٥) .

الإنسان

« كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يُسْلِمَك إلا إلى خير » .

(محمد رسول الله)

كان خالد أحد أشراف قريش فى الجاهلية[1] وأحد أشراف المسلمين بعد إسلامه، وكان راجح العقل[2] ذكياً ألمعياً متزناً. أسلم قبل فتح مكة[3]، وحسن إسلامه وأصبح موضع ثقة الرسول صلى الله عليه وسلم[4] يكلّفه بما يكلّف به المؤمنين الصادقين كهدم آلهة المشركين[5] ويبعثه داعياً إلى الله[6] وقد قال عنه: « نعم أخو العشيرة خالد بن الوليد، سيف من سيوف الله »[7].

وكان خطيباً مفوهاً فصيحاً[8]، وكان كاتباً قارئاً[9] وشاعراً بليغاً.

قال فى هدم العزى[10]:

(١) الإصابة (٢/٩٨) وأسد الغابة (٢/٩٣) والاستيعاب (٢/٤٢٧) .
(٢) طبقات ابن سعد (٧/٣٩٥) .
(٣) طبقات ابن سعد (٧/٣٩٤) والإصابة (٢/٩٨) .
(٤) طبقات ابن سعد (٧/٣٩٥) .
(٥) أسد الغابة (٢/٩٤) والاستيعاب (٢/٤٢٨) .
(٦) فتح الباري بشرح البخارى (٨/٤٥) وطبقات ابن سعد (٢/١٤٧) .
(٧) الإصابة (٢/٩٩) وأسد الغابة (٢/٩٤) .
(٨) انظر مثلاً خطابه الذى ألقاه على رجاله من أهل العراق عندما اخترق بهم الصحراء فى الطبرى (٢/١٥٦)
(٩) السيرة الحلبية (٣/٣٦٤) .
(١٠) أسد الغابة (٢/٩٤) والاستيعاب (٢/٤٢٨) وعن معرفته القراءة والكتابة .

يا عز كفرانك لا سبحانك إنى رأيت الله قد أهانك

وقال يصف انحدار أهل (الرضاب)[1]

طلبنا بالرضاب بنى زهير وبالأكناف أكناف الجبال
فلم تزل الرضاب لهم مقاماً ولم يؤنسهم عند الرمال
فإن تثقف أسنّتنا زهيراً لِيكفّ شريدهم أخرى الليالى

وقال يصف معركة مرج الروم[2]:

نحن قتلنا تؤذرا وشوذرا وقبله ما قد قتلنا حيدرا
نحن أزرنا الغيضة الأكيدرا

هذه النماذج القليلة من شعره، تدلّ على تمتّعه بقابلية شعرية، سخّرها هى الأخرى لإشباع هوايته المفضّلة لأعماله الحربية!... تلك الهواية التى كرّس لها خالد كل حياته، فكادت تشغله عن كل شىء غيرها.

وكان مضيافاً كريماً جداً، فقد قصده الأشعث بن قيس[3]، فأجازه بعشرة آلاف، فسمع بذلك عمر، فكتب إلى أبى عبيدة بن الجراح:

---

(١) راجع معجم البلدان (٤/٥٩).

(٢) الطبرى (٣/٩٦).

(٣) الأشعث بن قيس الكندى: وفد على النبى صلى الله عليه وسلم سنة عشر من الهجرة فى وفد كندة، وكانوا ستين راكباً، فأسلم. وبعد إسلامه خطب فروة أخت أبى بكر الصديق، فأجيب إلى ذلك. وعاد إلى اليمن، وارتد عن الإسلام بعد النبى صلى الله عليه وسلم، فسيّر أبو بكر الجنود إلى اليمن، فأخذوا الأشعث أسيراً وأحضر بين يدى أبى بكر فقال له: «استبقنى لحربك وزوجنى بأختك» فأطلقه أبو بكر وزوّجه بأخته وهى أم محمد بن الأشعث. شهد اليرموك ففقئت عينه، ثم سار إلى العراق، فشهد القادسية والمدائن وجلولاء ونهاوند وسكن الكوفة. استعمله عثمان بن عفان على آذربيجان، وشهد صفين مع على بن أبى طالب، وكان ممن ألزم علياً بالتحكيم، وشهد الحكمين بدومة الجندل وتوفى سنة اثنتين وأربعين بالكوفة وله من العمر ثلاث وستون سنة. راجع طبقات ابن سعد (٦/٢٢) والإصابة (١/٥٠) وأسد الغابة (١/٩٧) والاستيعاب (١/١٣٣).

« أن يقيم خالداً ويعقله بعمامته وينزع عنه قلنسوته ، حتى يعلمكم من أين أجاز الأشعث . أمن ماله من أم مال أصابها ، فإن زعم أنه فرّقه من إصابة أصابها ، فقد أقرّ بخيانته ، وإن زعم أنه من ماله ، فقد أسرف ؛ واعزله على كل حال واضمم إليك عمله »، فكتب أبو عبيدة إلى خالد ، فقدم عليه ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر ، فقام صاحب البريد فسأل خالداً : من أين أجاز الأشعث ؟ فلم يجبه وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئاً ! فقام بلال بن رباح الحبشي مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال « إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا » ونزع عمامته ، فلم يمنعه خالد سمعاً وطاعة ، ووضع قلنسوته ، ثم أقامه فعقله بعمامته ، وقال « من أين أجزت الأشعث ؟ من مالك أجزت أم من إصابة أصبتها ؟ » قال : « بل من مالي ! » ، فأطلقه وأعاد قلنسوته ثم عمّمه بيده وقال : « نسمع ونطيع لولاتنا ، ونفخّم ونخدم موالينا » ثم كتب عمر إلى خالد بالإقبال إليه ، فقال له عمر : « من أين لك هذا الثراء ؟ ! » فقال خالد : « من الأنفال والسهمان ، ما زاد على ستين ألفاً فلك[1] » فلما مات خالد قال عمر : « يرحم الله أبا سليمان ! لقد كنا نظن به أموراً ما كانت ! » إذ لم يترك إلا فرسه وسلاحه وغلامه[2] وقد حبس فرسه وسلاحه في سبيل الله[3] ، وكان باستطاعته أن يجمع الأموال الطائلة من فتوحاته الكثيرة ولكنه أنفقها كلها فمات فقيراً .

وكان عزيز النفس يغضب لكرامته ، فيه حدّة[4]، وكانت قسوته على

---

(١) ابن الأثير (٢/٢٠٧) .
(٢) طبقات ابن سعد (٧/٣٩٨) .
(٣) الإصابة (٢/١٠٠) .
(٤) أسد الغابة (٢/٩٤) والاستيعاب (٢/٤٣٠) .

الذين يستحقونها من المقاتلين فقط[1]، أما غير المقاتلين فلاخوف عليهم منه[2] روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ثمانية عشر حديثاً[3]، وكان من أصحاب الفتيا من صحابة رسول الله عليه وسلم[4]، مع أن الجهاد أشغله عن تعلّم كثير من القرآن[5] والتفقّه فى الدين.

لقد كان خالد طويلا ضخماً بعيد ما بين المنكبين واسع الهيكل عريض اللحية فى وجهه أثر جدرى[6]، وكان أشبه الناس خلقاً بعمر[7]، وكان مزواجاً[8]، وقد توفى فى حمص سنة إحدى وعشرين للهجرة[9] (٦٤١ م) وقبره بها[10] وكان له بضع وأربعون سنة، فولده حول خمس وعشرين قبل

---

(١) الطبرى (٢/٥٦١) وابن الأثير (٢/١٤٩).

(٢) الطبرى (٢/٥٦٧) والخراج لأبى يوسف ص (١٧١) فقد ضمن للضعفاء وغير المقاتلين حقوقاً لا مثيل لها حتى فى العصر الحديث، عصر حقوق الإنسان كما يطلقون عليه كذباً.

(٣) انظر أسماء الصحابة الرواة وما لكل واحد من العدد — ملحق بجوامع السيرة لابن حزم — ص (٢٨٣) وقد ذكر فى ص (٢٨٩) من نفس المصدر أنه روى خمسة أحاديث، وأنظر ما رواه الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه فى مسنده (٤/٨٨).

(٤) أصحاب الفتيا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم على مراتبهم فى كثرة الفتيا — ملحق بجوامع السيرة ص (٣٢١).

(٥) الإصابة (٢/٩٩).

(٦) فتوح الشام للواقدى (١/١٥).

(٧) الأغانى (١٥/٢٦).

(٨) الطبرى (٢/٥٠٢) و (٢/٥١٩) وابن الأثير (٢/١٣٧).

(٩) طبقات ابن سعد (٧/٣٩٧) والإصابة (٢/١٠٠) وأسد الغابة (٢/٩٦) والاستيعاب (٢/٤٣٠) وتاريخ أبى الفدا (١/١٦٤).

(١٠) رحلة ابن جبير ص (٢٠٩) ومعجم البلدان (٣/٣٤٠) وفيه أيضاً رواية أن خالداً مات بالمدينة.

الهجرة (٥٩٧ م) أو اثنى عشرة قبل البعثة[1] وأوصى إلى عمر بن الخطاب[2] . وقال عند موته : « ما كان فى الأرض من ليلة أحبّ إلىّ من ليلة شديدة الجليد ، فى سرية من المهاجرين أصبّح بهم العدو ، فعليكم بالجهاد[3] » ، ثم قال : « شهدت مائة زحف أو زهاءها ، وما فى جسدى موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية ، ثم ها أنا ذا أموت على فراشى كما يموت العير ، فلا نامت أعين الجبناء[4] » .

لقد ترك موت خالد أثراً عميقاً فى النفوس من الحزن والأسى ، فاجتمعت نسوة من نساء بنى المغيرة فى دار يبكين خالداً ، فقال عمر : « وما عليهن أن يبكين أباسليمان ما لم يكن نقع أو لقلقة[5] » . وقيل لم تبق امرأة من بنى المغيرة إلا وضعت لمّتها[6] على قبره . وقال فيه عمر عندما بلغه موته : « قد ثلم فى الإسلام ثلمة لا ترتق » وقال أيضاً فيه : « كان والله سداداً لنحور العدو ، ميمون النقيبة[7] » . ولما أحسّ عمر بالموت قال : « لو أدركت خالد بن الوليد لولّيته ، فإذا قدمت على ربى فسألنى : مَنْ ولّيت على أُمة محمد ؟ قلت : إى ربى ، سمعت عبدك ونبيك يقول : خالد سيف من سيوف الله ، سلّه الله على المشركين[8] » .

---

(١) ذكر ذلك القسطلانى — نقلاً عن مقال بعنوان (خالد بن الوليد) للمرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام — مجلة الرسالة العدد (٤٢) السنة الثانية ص (٦٧١) الصادر فى ٩ محرم الحرام (١٣٥٣ هـ) المصادف ٢٣ نيسان (١٩٣٤ م) .

(٢) طبقات ابن سعد (٣٩٧/٧) والإصابة (١٠٠/٢) وأسد الغابة (٩٦/٢)

(٣) الإصابة (٩٩/٢) .

(٤) أسد الغابة (٩٥/٢) والاستيعاب (٤٣٠/٢) .

(٥) النقع : رفع الصوت ، وقيل : أراد شقّ الجيوب . واللقلقة : الجلبة ، كأنه حكاية الأصوات إذا كثرت ، واللقلق : اللسان .

(٦) وضعت لمتها : أى حلقت رأسها . انظر أسد الغابة (٩٦/٢) والاستيعاب (٤٣٠/٢) والإصابة (١٠٠/٢) والأغانى (٢٦/١٥) .

(٧) ابن عساكر ص (٧١٤) .

(٨) الإمامة والسياسة لابن قتيبة (٢٤/١) .

القائد

« ما ليلة يُهدى إلىّ فيها عروس أنا لها
محب ، أو أبشَّر فيها بغلام ، أحب إلىّ من ليلة
شديدة الجليد ، فى سرية من المهاجرين ،
أصبِّح بهم العدو ؛ فعليكم بالجهاد »

« خالد بن الوليد »

أثر قيادته

فى الجاهلية :

انتصر المسلمون على المشركين فى الصفحة الأولى من معركة (أحد) ، ولكن قيادة خالد لفرسان المشركين وانتباهه الشديد إلى حركات المسلمين ، جعله يشعر بانسحاب رماة المسلمين من مواضعهم ؛ فانتهز هذه الفرصة السانحة ، والتفّ بخيالته وضرب صفوف المسلمين من الخلف فى وقت لا يتوقعونه كانت صفوفهم فيه مبعثرة لجمع الغنائم ؛ فأدى ذلك إلى هزيمة المسلمين وانتصار المشركين بفضل قيادة خالد .

وفى غزوة (الخندق) ، أدام خالد زخم الهجوم على المسلمين حتى حلول الظلام ، وكان هجومه هذا بدرجة من الشدّة والخطورة بحيث أشغل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء !

وفى غزوة (الحديبية) أراد خالد أن ينشب القتال ، وأراد أيضاً أن يباغت المسلمين أثناء صلاتهم ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم فوّت عليه هذه الفرصة ، وذلك بالانحراف عن الطريق المؤدية إلى الاصطدام بخيالة خالد ، وبتشديد الحراسة وإقامة صلاة الخوف .

لقد ظهرت بوادر قيادة خالد الفذة فى تلك المعارك على الرغم من شبابه المبكر — إذ كان عمره فى غزوة (أحد) حوالى ثمان وعشرين سنة ، وكان عمره فى غزوة (الخندق) حوالى ثلاثين سنة ، وكان عمره فى غزوة (الحديبية) إحدى وثلاثين سنة[١] — بادرة قيامه بالاستطلاع الشخصى

(١) ولد خالد قبل الهجرة بخمس وعشرين سنة ، وقد وقعت غزوة (أحد) فى السنة =

وانتباهه الشديد لحركات عدوه وسكناته ، وذلك لمعرفة نقاط ضعفه وانتهاز الفرصة للقضاء عليه ؛ وبادرة تشبّعه بروح (التعرّض) ومحاولة إدامة زخم الهجوم بشدة وعنف واستمرار ؛ وبادرة تشبّعه بروح (المباغتة) لضرب عدوه فى وقت ومن مكان لا يتوقعهما ؛ وبمعنى آخر ، ظهرت فى قيادة خالد بادرتان مهمتان : بادرة تشبّعه بروح (المباغتة) ، وبادرة تشبّعه بروح (التعرّض) وهما مبدآن من أهم مبادىء الحرب .

فلماذا — إذاً — لم تؤثر قيادة خالد تأثيراً حاسماً على المسلمين ؟ ؟ !

لقد اصطدمت قيادة خالد الفذّة وهو يقود رجالاً تنقصهم العقيدة الراسخة والضبط المتين ، بقيادة الرسول القائد وهو يقود رجالاً تغمر قلوبهم عقيدة راسخة ويشيع فى نفوسهم ضبط متين ؛ أى أن خالداً بقيادته الممتازة وبجنود غير ممتازين اصطدم بقيادة ممتازة هى قيادة النبى صلى الله عليه وسلم وبجنود ممتازين هم المسلمون ؛ لذلك أثّرت قيادة خالد تأثيراً تعبوياً فقط على المسلمين، بينما كان المتوقع لمثل قيادته النادرة أن تؤثر تأثيراً سوقياً عليهم ، فأيقن بفطرته العسكرية وبعقليته الراجحة ، بأن مكانه قائداً لامعاً ليس هنا بين صفوف المشركين ، بل هناك بين صفوف المسلمين ، فكان ذلك من أسباب إسلامه .

لقد فكّر خالد وأدار فى ذهنه ، وتساءل : من أين لمحمد ذلك النصر المبين ؟

من أين له تلك المهابة التى تردّ عنه الأعين والأيدى من قريب ؟

من أين له ذلك العون الذى يدركه ، وقد أحاطت به الهزيمة من كل فج ،

=الثالثة للهجرة ، وغزوة (الخندق) فى السنة الخامسة للهجرة وغزوة (الحديبية) فى السنة السادسة للهجرة . راجع الملحق (جـ) من كتاب الرسول القائد .

فإذا هو ناصل منها ، وإذا هو الطارد الظافر وقد خيّل إليهم أنه الطريد المخذول؟

ومن أين للمسلمين ذلك الأدب وذلك الخشوع ؟ ومن أين للنبي بينهم ذلك السلطان الصادع والصوت المسموع ؟

لقد كان إسلام خالد ضرباً من التسليم[1] ، إذ وجد بالإضافة إلى كل ذلك – أن قتال المشركين المسلمين ليس مصاولة بين رجال ورجال ، بل مبارزة بين إرادة البشر وإرادة الله !

مع النبي :

وجد خالد بعد إسلامه مكانه الصحيح بين جنود المسلمين ، إذ كان لقاؤه بهم لقاء القائد الممتاز بالجنود الممتازين .

ولكن كفاءة خالد العسكرية وحدها لم تكن كافية لتوليه منصب القيادة بعد إسلامه مباشرة على رجال عقائديين من الطراز الأول ، كما أن الرسول القائد كان لا يولى القيادة إلا لمن تتوفّر فيه كفاءة القيادة وكفاءة العقيدة أيضاً ؛ وقد كانت مزايا قيادة خالد معروفة ، ولكنّه تأخّر في إسلامه عن السابقين الأولين من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ابتدأ خالد بجهاده بين صفوف المسلمين جندياً بسيطاً في معركة (مؤتة) . ولكن ، ما كادت رحى هذه المعركة تدور على المسلمين ويستشهد قادتهم الثلاثة بالتعاقب ، إلا وأمّر المسلمون عليهم خالداً ليقودهم إلى شاطيء السلامة في معركة انسحابية تعاني زخم قوات تتفوق تفوّقاً ساحقاً على قوات المسلمين !

لقد ذهب خالد إلى معركة (مؤتة) جندياً بسيطاً ، ولكنه عاد منها قائداً

---

(١) عبقرية خالد – للعقاد – ص (٤٨) طبعة دار الهلال .

منتخباً أمّره رجاله وأمّرته كفاءته، ومن يومها أصبح قائداً من قادة المسلمين، قدّمته كفاءته الممتازة ورسوخ عقيدته أيضاً على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار.

وكان أحد أربعة قادة كانوا على رأس قوات المسلمين فى غزوة فتح مكة، ولكنه كان القائد الوحيد الذى لاقى مقاومة من قريش عند دخوله مكة المكرّمة، وسرعان ما قضى على تلك المقاومة والجأ دعاتها إلى الفرار.

وكما قاتل خالد تحت لواء الرسول القائد فى يوم فتح مكة، قاتل تحت لوائه أيضاً يوم حنين قائداً لمقدّمة المسلمين، تلك المقدّمة التى لم تقم بواجبها يومذاك، وكاد إهمالها أن يؤدى إلى اندحار المسلمين.

لقد تولى خالد القيادة فى أعقاب (مؤتة) تلك المعركة التى كان لقيادته أثر عظيم فى إنقاذ جيش المسلمين من الفناء، فقاتل خالد بعد (مؤتة) قائداً مرؤوساً تارة وقائداً مستقلا تارة، وداعياً إلى الله تارة أخرى.

وعلى الرغم من نجاحه فى قيادته وفى دعوته للإسلام، مما كان له نتائج باهرة ملموسة فى توطيد أركان الدعوة الإسلامية وفى إعلاء كلمة الله، وعلى الرغم من بروز سمات مزايا قيادته الأصلية فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم، إلا أن قيادته فى تلك الفترة لم تخل من هنات، كان سببها تسرّع خالد فى قراراته وفى تنفيذها، ذلك التسرّع الذى كاد يؤدى إلى نتائج خطرة للغاية لولا حكمة وسداد قيادة الرسول القائد؛ فقد كاد يؤدى اندفاع مقدمة المسلمين يوم (حنين) إلى وقوع المسلمين فى تهلكه لولا ثبات الرسول صلى الله عليه وسلم ومحاولته المستحيل فى سبيل صد تيار فرار المسلمين وفى سبيل محاولته إعادة تجميع قواتهم وإعادة الهجوم المقابل على المشركين بعد

كل ذلك ! ! كما تسرّع خالد فى قتله بعض بنى جذيمة ، فودى النبى صلى الله عليه وسلم لهم الدماء وعوضهم عما أصيب لهم من الأموال — تداركاً لخطأ خالد فى تسرعه هذا !

لقد نجح خالد فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم قائداً وداعياً ، ولكنّ نجاحه هذا كانت تشوبه بعض الشوائب من جراء اندفاعه الشديد تلافاها الرسول صلى الله عليه وسلم بشجاعته وحكمته ، تلك الشجاعة والحكمة التى بدّلت الاندحار يوم (حنين) إلى نصر ، وغيّرت من احتمال تفرّق الصفوف والقلوب فى بنى جذيمة خاصة إلى جمع الصفوف والقلوب فى المسلمين عامة !

فى حروب الردة :

وقفت المدينة المنوّرة ومكة المكرّمة وجيرتهما وحدها فى وجه البادية العربية بأسرها ، ومن وراء البادية دولتان كبيرتان هما الامبراطورية الفارسية والامبراطورية الرومية تناصران البادية للقضاء على الدين الجديد .

لقد قام خالد وحده بأوفر قسط من حروب الردة ، فله فى قتالهم الأثر العظيم[1] ، فقد قمع أخطر الفتن فى الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها : قمع فتنة بنى أسد وحلفائهم ، وخطرها أنها كانت أقرب الفتن إلى المدينة ومكة . وقمع فتنة بنى حنيفة ، وخطرها أنها كانت فتنة القبيلة الأقوى والعديد الأكثر بين العرب قاطبة ؛ فكان نصيب خالد من وقاية الإسلام فى أرضه أوفى نصيب .

وعلى الرغم من نجاحه الباهر فى حروب أهل الردّة ، إلا أن قيادته فى

---

(١) أسد الغابة (٢/٩٤) .

تلك الفترة أيضاً ، كانت لا تزال تعانى من تسرّعه الشديد فى الأمور ؛ ولعلّ من نتائج هذا التسرّع إقدامه على قتل مالك بن نويرة وأصحابه ، مما جعل أبا بكر يتلافى ذلك ، فودى مالكاً من بيت المال ! ولعل من نتائج هذا التسرّع أيضاً إقدامه على الزواج من زوج مالك بعد معركة (البُطاح) مباشرة ، ومن بنت مجاعة بعد معركة (اليمامة) مباشرة أيضاً ، مما جعل أبا بكر يعنفه تعنيفاً شديداً[1] ، لأن العرب كانت تكره الزواج فى ميادين القتال[2] ؛ ولكن ما قيمة كل ذلك ، إذا قيس بما أسداه خالد فى حروب الردة من خدمات للإسلام والمسلمين ؟ ؟

فى العراق :

أقام خالد فى العراق سنة وشهرين فقط من المحرم سنة اثنتى عشرة إلى صفر ، قاتل خلالها القوات الفارسية وحلفاءها خمس عشرة معركة ، لم ينهزم ولم يخطىء ولم يفشل قط فى واحدة منها ، وذلك لأنه كان ينجز كافة استحضارات القتال قبل المعركة ولا يسير بجيشه إلا على تعبية كاملة ليقاتل عدوّه حيث لقيه فى شجاعة ويقظة وخبرة وسرعة واستعداد .

لقد خرج خالد وعياض بن غنم لفتح العراق من اتجاهين مختلفين ؛ فسار خالد من نصر إلى نصر ، ولبث عياض يدور فى حلقة مفرغة عند أول موضع معادى لاقى فيه مقاومة معادية — حتى أدركه خالد بالمعونة ، فقضى

(١) فى الطبرى (٢/٥١٩) : أن خالداً قال لمجاعة : « زوّجنى ابنتك » ، فقال له مجاعة : « مهلا ! إنك قاطع ظهرى وظهرك معى عند صاحبك » فقال خالد : « أيها الرجل زوّجنى ! » فزوجه ، فبلغ ذلك أبا بكر فكتب إليه كتاباً يقطر الدم : « لعمرى يا ابن أم خالد ! إنك لفارغ ، تنكح النساء وبفناء بيتك دم ألف ومائتى رجل من المسلمين لم يجفف بعد » .

(٢) الطبرى (٢/٥٠٣) وابن الأثير (٢/١٣٢) .

على مقاومة العدو بسرعة خاطفة ، وفتح دومة الجندل ؛ وهذا دليل على أثر خالد الشخصي في فتح العراق .

وعلى الرغم من انحسار مد الفتح الإسلامي بعد خالد عن أكثر أرض العراق ، إذا انسحب المثنى بن حارثة الشيباني تحت ضغط ضخامة تحشد القوات الفارسية إلى (ذي قار)[1]، تاركاً ما فتحه المسلمون من أرض العراق[2]، إلا أن نتائج فتوح خالد والمثنى في العراق بقيت ظاهرة للعيان .

من تلك النتائج ، رفع معنويات الجيش الإسلامي وثقته بأن في مقدوره التغلب على جيوش الفرس ، وكانوا من قبلُ يعتقدون أن مجرد التفكير في مثل ذلك من المستحيلات .

وإذا كانت معنويات العرب المسلمين قد ارتفعت ، فإن معنويات عدوّهم في العراق قد هوت إلى الحضيض ، وبذلك أصبحت الأمة العربية مهابة الجانب من الفرس وحلفائهم ؛ فقد كان الفرس في السابق يعتقدون أن العرب لا يحسنون غير حرب الغارات وحرب العصابات ، تحت عوامل اقتصادية بحتة ، وأنهم سرعان ما يعودون إلى باديتهم بعد الحصول على شيء من الغنائم والأسلاب ؛ ولكن الفرس بعد معارك المثنى وخالد تيقّنوا أن العرب جاءوا فاتحين لا غزاة ، وأنهم أصبحوا دولة عظمى في مصاف الدول العظمى في تلك الأيام .

هذه النتائج المعنوية ، تتفوق بكثير على النتائج المادية . أما نتائج فتوح خالد المادية ، فهي حصول المسلمين على خبرة عملية في التدريب على قتال

---

(١) ذوقار : ماء لبكر بن وائل قريب من الكوفة بينها وبين واسط وفيه كانت الوقعة المشهورة بين بكر بن وائل والفرس . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٨/٧) .

(٢) الطبري (٦٠٩/٢) .

القوات النظامية بأساليب متطورة وعدم بقائهم على أساليبهم البدوية القديمة في القتال ، كما كان للغنائم الكثيرة التي غنمها الجيش الإسلامي أثر في رفع مستوى المعيشة داخل الجزيرة العربية ويسر المال لتدعيم الجيوش الإسلامية الفاتحة بالرجال والسلاح والعتاد .

إنّ معارك خالد والمثنى في العراق ، فتحت قلوب أهله على مصراعيها للفتح الإسلامي ، بينما فتحت معركة (القادسية) الحاسمة أبواب العراق وقلوب أهله للفاتحين .

لقد كانت قيادة خالد في هذه الفترة قيادة عبقرية حقاً ، وما أصدق عمرو بن العاص عندما وصفها قائلاً عن خالد : « له أناة القطاة ووثوب الأسد[1] » ، وقد كان لخالد وثوب الأسد من قبل ، فجمع في أيام فتح العراق أناة القطاة ووثوب الأسد ، وبذلك جمع مزيّتَيْن من أبرز مزايا القيادة العبقرية .

في أرض الشام :

إذا كانت معارك خالد في العراق ، قد فتحت قلوب أهله فقط ؛ فقد فتحت معارك خالد في أرض الشام وعلى رأسها معركة (اليرموك) الحاسمة ، قلوب أهل الشام وأبواب أرض الشام للمسلمين الفاتحين .

ولعلّ أثر خالد الشخصي في أرض الشام أكثر وضوحاً من أثره في العراق ، إذ أنه وصل الشام في أعقاب نكسة جيش خالد بن سعيد[2] ، ومضايقة

(١) اليعقوبي (٢/١٠٨) .

(٢) خالد بن سعيد بن العاص بن أمية القرشي الأموي : أسلم قديماً ، يقال إنه أسلم بعد أبي بكر ، فعلم أبوه بإسلامه فأرسل في طلبه ، فلما أتوا به سبّه أباه وبكّته وضربه بعصا في يده حتى كسرها على رأسه وطرده من بيته ومنعه القوت ومنع إخوته من كلامه ، فانصرف خالد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان يلزمه ويعيش=

المسلمين فى اليرموك بمدد الروم الزاخر[1]، فلما وصل خالد فرح المسلمون بمقدمه[2] ، وتغلبوا على قوات الروم المتفوقة على قواتهم تفوقاً ساحقاً بالعدَد والعُدَد .

إن نتائج فتوح خالد فى أرض الشام لا تزال باقية حتى اليوم ؛ وبالإضافة إلى ذلك ، فقد ترك خالد آثاراً مشابهة لما تركه فى العراق : رَفْعُ معنويات العرب المسلمين وسحق معنويات الروم ، وتدريب جيوش المسلمين على فنون القتال ضد جيوش نظامية كثيفة ، ورفع المستوى المعاشى للعرب داخل الجزيرة العربية من جراء الغنائم التى حصلوا عليها ، وتلك آثار كافية لتخليد عدد كبير من القادة ، فكيف وهى من صنع رجل واحد هو خالد بن الوليد ؟

لقد بلغت قيادة خالد فى أرض الشام حد الروعه والذروة ، فكان خالد هناك بحق : قائد القادة ومطمح الأنظار ومعقد الآمال سواء كان قائداً عاماً أو قائداً مرءوساً أو جندياً بسيطاً أو قابعاً فى داره بين عشيرته وأهله .

ذلك هو مقام الذروة الذى بلغه خالد بجدّه وجهاده . . . المقام الذى

= معه . هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية ، وقدم على النبي صلى الله عليه وسلم بخيبر مع جعفر ابن أبى طالب . وشهد مع النبي عمرة القضاء وفتح مكة وحنيناً والطائف وتبوك ، وبعثه النبي صلى الله عليه وسلم عاملاً على صدقات اليمن وقيل على صدقات مذحج وصنعاء . وتأخر خالد عن بيعة أبى بكر وقال لبنى هاشم : « إنكم لطوال الشجر طيبو الثمر ، ونحن تبع لكم » . فلما بايع بنو هاشم أبا بكر بايعه خالد أيضاً . استعمله أبو بكر على جيش من جيوش المسلمين حين بعثهم إلى أرض الشام فقتل بمرج الصفر فى خلافة أبى بكر ، وقيل بل كان قتله فى واقعة (إجنادين) بالشام قبل وفاة أبى بكر بأربع وعشرين ليلة . راجع طبقات ابن سعد (٤/٩٤) والإصابة (٢/٩١) وأسد الغابة (٢/٨٣) والاستيعاب (٢/٤٢٠) وانظر قصة اندحار جيشه أمام الروم في الطبرى (٢/٥٧٥) وابن الأثير (٢/١٥٤) .

(١) الطبرى (٢/٥٥٢) .

(٢) الطبرى (٢/٥٩١) .

أصبح فيه فوق المناصب والرتب وفوق الأهواء والنزعات . . . لقد أصبح أمة فى رجل ، لأنه أصبح يحمل مجد أمة وبطولة جيل !

لقد أصبح لا يمثل نفسه فحسب ، بل يمثل مجداً وفكرة : مجد عبقرية العرب فى القيادة ، وفكرة الفتح الإسلامى ؛ وما أعظم وأروع عبقرية القيادة العربية فى الحروب ، وما أشرف وأنصع فكرة الفتح الإسلامى فى التاريخ ! ! .

مزاياه العسكرية

عسكرى ممتاز :

كان خالد يهوى مهنة الجندية ويفضلها على كل مهنة أخرى ، وكان عسكرياً بالفطرة من أخمص قدمه إلى قمة رأسه ، وما أصدقه حين وصف هواه بالجندية بقوله : « ما ليلة يُهدى إلىّ فيها عروس أنا لها محب ، أو أبشرّ فيها بغلام ، أحبّ إلىّ من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين أصبّح بهم العدو ، فعليكم بالجهاد[1] » .

لقد نصّ خالد بكلمته هذه على : سرية من المهاجرين ، ذلك لأنهم كانوا أقدم المسلمين إسلاما فهم أرسخ المسلمين عقيدة وأشدهم ضبطا وطاعة ؛ لذلك آثرهم خالد بالذكر على غيرهم ؛ فهو يصف بقولته هذه هواه العميق بالجندية من ناحية ، ورغبته الملحّة فى قيادة جنود عمتازين من ناحية أخرى ، إذ أن القيادة الممتازة بدون جنود ممتازين مضيعة للجهود فى أكثر الأحيان .

لقد كان خالد عسكرياً ممتازاً بكل معنى الكلمة ، وهب للعسكرية

---

(١) الإصابة (٢/٩٩)

كل حياته وأعز ما يملك من روح ومال وجهد ووقت ، لذلك أصبح جندياً ممتازاً وقائداً ممتازاً فى وقت واحد ، فحقق بطبعه الموهوب الذى فطره الله عليه ، وبعلمه المكتسب وخبرته الطويلة فى حياته ، معجزات عسكرية ، كانت ولا تزال وستبقى فى أوج الأمثلة الرائعة الخالدة لما يمكن أن يحققه أعاظم قادة التاريخ فى كل زمان ومكان .

وقد يكرّس العسكرى كل حياته لخدمة واجبه العسكرى بكل أمانة وإخلاص فيحصل على معلومات ثمينة وخبرة طويلة ، ولكنه لن يكون عسكرياً ممتازاً إلا إذا خلق بطبيعته يهوى الأعمال العسكرية ويندمج بمتطلباتها كلياً بشوق ولهفة .

لقد جمع خالد الطبع الموهوب والعلم المكتسب ، فجمع بذلك كل عوامل تكوين العسكرى الممتاز ، فما هى مزاياه جندياً ممتازاً و قائداً ممتازاً ؟؟

جندى ممتاز :

١ — مزايا الجندى الممتاز :

تتلخّص مزايا الجندى الممتاز بما يلى[1] :

عقيدة راسخة — ضبط متين — عقلية متّزنة — شجاعة شخصية — تدريب جيّد — قابلية بدنية — معنويات عالية .

فهل يتحلى خالد بهذه المزايا المعنوية والمادية للجندى الممتاز ؟ ؟

(١) راجع المجلد الرابع — التعبية : فوج المشاة فى المعركة ص (٢١) بمطبعة الجيش العراقى سنة ١٩٥٥ — وهو كتاب رسمى خاص بالجيش .

٢ — تفصيل المزايا :

(أ) عقيدة راسخة

وجد خالد قومه يعبدون الأوثان فى الجاهلية فاقتدى بآثارهم فى عبادتها ، فلما بعث الله رسوله هادياً ومبشراً ونذيراً ، قاتله خالد دفاعاً عن قومه قريش وعن عقائدها ؛ ولكنه أعلن إسلامه بعد أن ظهر له الحق واضحاً جلياً ، فكان إسلامه ضرباً من التسليم : تسليم القائد فى معركة نفسية بدأت منذ غزوة الحديبية ، يوم أراد أن يغير على المسلمين ، وقد وصف خالد ذلك ، فقال: « همنا أن نُغير عليه ، ثم لم يعزم لنا ، وكان فيه خيرة — يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم — فاطّلع على ما فى أنفسنا من الهجوم به ، فصلى بأصحابه صلاة الخوف ، فوقع فى ذلك منى موقعاً ، وقلت : الرجل ممنوعٌ »[1]، وانتهت هذه المعركة النفسية بتسليمه نهائياً يوم أعلن إسلامه .

وبعثه الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك غازيا وهاديا ؛ وعلى الرغم من أهمية توليه قيادة المسلمين فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم فى إثبات رسوخ عقيدته ، إلا أنّ إثبات ذلك يبدو أكثر وضوحاً فى توليه هدم (العزى) و (وُد) وإرساله داعياً إلى بعض قبائل اليمن ؛ إذ لا يمكن أن يقوم بمثل هذه الواجبات غير ذوى العقائد الراسخة .

عند فتح (الحيرة) وجد خالد عند أحد قادتها ، وهو عمرو بن عبد المسيح سماً ناقعاً ، فلما سأله خالد عنه ، أجابه عمرو : « خشيت أن تكونوا على غير ما رأيت ، وقد أتيت على أجلى ، والموت أحب إلىّ من مكروه أُدخله على

---

(١) السيرة الحلبية (٣/١٤) .

قومى وأهل قريتى » . فقال خالد : « إنها لن تموت نفس حتى تأتى على أجلها » ثم قال : « بسم الله خير الأسماء ، رب الأرض ورب السماء الذى ليس يضرّ مع اسمه داء ، الرحمن الرحيم » ثم ابتلع السم ، فقال عمرو : « والله يا معشر العرب ! لتملكنّ ما أردتم ما دام منكم أحد أيها القرن[1] » .

ولما قال بنو تميم وعلى رأسهم عاصم بن عمرو التميمى والأقرع بن حابس التميمى بعد انتصار خالد فى دومة الجندل ـ عن أسارى بنى كلب: «قد أمّناهم» قال لهم خالد : « مالى ولكم ! أتحفظون أمر الجاهلية وتضيّعون أمر الإسلام![2] » فهو لا يكترث بحليف أو قريب أو نسيب إلى جانب سلامة وأمن تعاليم الدين الحنيف .

ولما تردّد رجاله خوفاً من عبور الصحراء من طريق صعب غير مطروق ، قال لهم : « إن المسلم لا ينبغى له أن يكترث بشىء يقع فيه مع معونة الله له[3] » فهو يثق بالله ثقة لا حدود لها ويؤمن به إيماناً راسخاً .

وكانت ثقته بنصر الله ثقة لا حدود لها أيضاً ، وهو الذى قال لأهل (قنسرين) : « إنكم لو كنتم فى السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم الله إلينا[4] » .

وفى يوم اليرموك فقد خالد قلنسوته ، فقال : « اطلبوها » فلم يجدوها ، فلم يزل حتى وجدوها ، فإذا هى خلقة ، فسئل عن ذلك، فقال: « اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحلق رأسه ، فابتدر الناس شعره ، فسبقتهم إلى ناصيته

---

(١) الطبرى (٥٦٧/٢) .
(٢) الطبرى (٥٧٩/٢) وابن الأثير (١٥٢/٢) .
(٣) الطبرى (٦٠٣/٢) وابن الأثير (١٥٦/٢) .
(٤) الطبري (٩٨/٣) .

فجعلتها فى هذه القلنسوة ، فلم أشهد قتالاً وهى معى إلا تبيّن لى النصر » وقال فى آخره : « فما وُجّهت فى وجه إلا فتح لى[1] » .

ذلك مبلغ عقيدته بالله وبرسوله ، تلك العقيدة الراسخة التى دفعته أن يطلب الموت فى مظانه فلم يقدّر له[2] ، وبذل ماله فى سبيل الله ، فمات فقيراً معدماً وحبس فرسه وسلاحه فى سبيل الله[3] .

لقد جاهد خالد بنفسه وماله فى سبيل الله

(ب) ضبط متين

كان خالد يتمتّع بضبط مثالى متين لا يزال مضرب الأمثال حتى اليوم ، فقد رأيت كيف نزع بلال الحبشى عمامة خالد فلم يمنعه سمعاً وطاعة ، ثم أقامه وعقله بعمامته[4] — كل ذلك جرى وخالد فى أوج مجده وانتصاراته ! ثم رأيت كيف عزله عمر بن الخطاب دون أن يترك عزله فى نفسه أثراً سيئاً ، بل استمرّ فى الجهـاد — لا فرق عنده أن يكون قائداً عاماً أو قائداً مرؤوساً أو رجلاً من المسلمين .

ولما قاسمه أبو عبيدة بن الجراح بأمر عمر بن الخطاب أمواله ، قال خالد : « ما أنا بالذى يعصى أمير المؤمنين »[5] . . . ! وهذا ضبط مثالى يندر وجوده حتى فى نفوس رجال أعرق الجيوش فى العالم قديماً وحديثاً .

أما إقدام خالد على مخالفة أوامر الخليفة فى بعض الأحيان ، فذلك

---

(١) الإصابة (٢/٩٩) .
(٢) الإصابة (٢/١٠٠) .
(٣) أسد الغابة (٢/٩٦) والإصابة (٢/١٠٠) .
(٤) ابن الأثير (٢/٢٠٧) .
(٥) الطبرى (٢/٦٢٥) .

لا يعنى الإخلال بالضبط بل يعنى تحمّل المسؤولية الكاملة ضمن نطاق إمكان مخالفة الأوامر فى بعض الظروف عندما لا يكون المرجع الذى أصدر الأمر حاضراً .

إن الإخلال بالضبط سبّة على الجندى ، وتحمّل المسؤولية مفخرة له ؛ ولا تزال تعاليم الجيوش حتى اليوم تنصّ بصراحة على إمكان مخالفة الأوامر ـ مع تحمّل نتائج تلك المخالفة ـ فى حالة وجود الآمر الذى أصدر الأمر بعيداً ، بحيث لا يمكن مشاورته لتبديل أوامره وعند الاقتناع من أنه لو كان حاضراً لخالفها هو بنفسه رضوخاً للموقف الراهن الذى لم يطلّع على تفاصيله ، وقد أوضح ذلك خالد للأنصار عند معارضتهم لمسيره إلى مالك بن نويرة بعد فراغه فى أمر طليحة فقال لهم : « أنا الأمير وإلى تنتهى الأخبار ! ولو أنه لم يأتنى له كتاب ولا أمر ، ثم رأيت فرصة ، فكنت إن أعلمته فاتتنى ، لم أعلمه حتى أنتهزها . وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس منه عهد إلينا فيه ، لم ندع أن نرى أفضل ما بحضرتنا ، ثم نعمل به . . . [1] » .

إن ما ذكره خالد بصدد مخالفة الأوامر عند الضرورة ، يطابق أحدث تعاليم الجيوش الحديثة حول ذلك .

(حـ) عقلية متزنة :

كان خالد معروفاً بين قريش بعقليته المتزنة ، لذلك صارت إليه الأعنة والقبّة من بين كل رجال بنى مخزوم فى الجاهلية على الرغم من شبابه المبكر حين تولى هذين المنصبين الخطيرين .

وقد شهد له النبى صلى الله عليه وسلم بالعقل الراجح ، فقال عنه : « قد

(١) الطبرى (٢/١٠٥) وابن الأثير (٢/١٣٦) .

كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير[1] » ، وقال عنه : « ما مثل خالد من جهل الإسلام[2] » ، وحسبه شهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم برجاحة عقله .

والذى يدرس رسائله إلى قادة الفرس والروم ، ومناقشاته المنطقية لهم ، وأوامره التى أصدرها لرجاله ، وأعماله الحربية والسلمية وتصرفاته ، يلمس بوضوح عقلية خالد المبدعة الخلاقة ، ويكفى أن نعرف إنجازاته الخالدة لنطمئن إلى أن مثلها أو قسماً قليلاً منها ، لا يمكن تحقيقه إلا بتفكير متزن جبار .

(د) شجاعة شخصية :

لعلّ الحديث عن شجاعة خالد يعتبر حديثاً معاداً لا لزوم له ، ويكفى أن نتذكر أنه كان دائماً فى الأمام أثناء القتال قريباً من مواطن الخطر : فى مسير الاقتراب كثيراً ما يقود المقدّمة ، وفى الهجوم يبادر إلى المبارزة وإلى مهاجمة قائد العدو والقضاء عليه ، وفى الانسحاب يقود المؤخرة ثم يبقى مع الساقة ، ثم لا ينسحب إلا بعد انسحاب رجال الساقة وبعد أن يتأكد أن جيشه كلّه أصبح بأمان .

وكمثال فقط ، فإنه بارز يوم (الولجة) رجلاً من أهل فارس يعدل ألف رجل فقتله ! فلما فرغ منه اتكأ عليه ودعا بغدائه[3] .

إن آثار شجاعة خالد الشخصية ، ملموسة بوضوح فى كل معاركه التى

---

(١) طبقات ابن سعد (٤/٢٥٢) و (٧/٣٩٤) .
(٢) طبقات ابن سعد (٧/٣٩٤) .
(٣) الطبرى (٣/٥٦٠) .

خاضها، وملموسة أيضاً في بدنه الذى ليس فيه موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية[1].

لقد كان خالد مثالاً شخصياً رائعاً فى الشجاعة والإقدام لرجاله فى كل معاركه، لذلك كان رجاله الذين يقاتلون تحت رايته يحتذون حذوه، فيصنع ويصنعون فى ميدان القتال خوارق معجزات الشجاعة والإقدام.

(هـ) تدريب جيّد:

أتاح لخالد ثراء والده العريض ونشأته فى بيت له القبّة والأعنّة، أن يتفرّغ منذ نعومة أظفاره للتدريب على مختلف الأسلحة وعلى الفروسية؛ لا لكى يجيد استعمالها فحسب، بل لكى يبزّ أقرانه فى تدريبه عليهما.

ولم تكن الشجاعة وحدها — خاصة فى قتال المبارزة — كافية لقهر الخصم، بل إنّ الشجاعة الشخصية والتدريب الجيد على استعمال السيف والرمح والرمى بالنبال والمهارة فى امتطاء الخيل، هما العنصران الأساسيان للنصر.

إنّ المهارة فى استخدام الأسلحة هى نتيجة حتمية للتدريب الجيد عليها، وهذا يجعلك تقتل عدوّك قبل أن يقتلك، وكانت هذه القاعدة صحيحة فى الحرب القديمة ولا تزال صحيحة حتى اليوم.

لقد كان خالد قائد فرسان قريش فى الجاهلية، ومعنى ذلك أنه كان من أبرز فرسانها شجاعة وتدريباً، لأن الوراثة وحدها على اعتبار أنه مخزومى غير كافية لتولى هذا المنصب الخطير، خاصة وأن بنى مخزوم كثيرون؛ مع أن فرسان قريش كانوا فى طليعة فرسان العرب فى الجاهلية وفى صدر الإسلام

(١) أسد الغابة (٢/٩٥).

أيضاً ، وكان تدريب خالد على استعمال السيف والرمح ورمى النبال مضرب الأمثال بين رجال قريش فى الجاهلية ، فأصبح مضرب الأمثال بين العرب كلهم بعد الإسلام .

ولكنّ التدريب على الأسلحة وعلى الفروسية ، لا تكفى للجندى الممتاز ، بل يحتاج إلى التدريب على تحمل أقسى الظروف المعاشية ، فيأكل عند الحاجة أخشن الطعام ويلبس أخشن اللباس ، ويصوم عن الطعام عند عدم تيسّره ، ويصبر على الجوع والعطش ، ويكتفى بالمتيسّر من الطعام والشراب . كما يحتاج إلى التدريب على تحمّل أقسى الظروف الجوية ، فينام فى العراء يفترش الثرى صابراً على البرد والجليد والمطر شتاء وعلى الحر الشديد صيفاً . . . إلى غير ذلك من صنوف التدريب العنيف !

لقد كان خالد غنياً – بل من الأغنياء المعدودين فى قريش ، وكان بإمكانه أن يعيش مترفاً فى بحبوحة من العيش الرغيد ، ولكن روحه العسكرية أبت عليه إلا أن يتناول كل طعام يقدّم إليه حتى فى أوقات السلم وفى المدينة المنورة بين أهله وماله ، فقد ذكر خالد : أنه دخل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت ميمونة أم المؤمنين[1] ، فأتى بضب محنوذ ، فأهوى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يأكل منه ، فقالوا : يا رسول الله ، هو ضب ! فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده ، فقلت : أحرام هو ؟ قال : لا ، ولكنه

---

(١) ميمونة بنت الحارث الهلالية : زوج النبى صلى الله عليه وسلم وخالة خالد ابن الوليد ، لأنها أخت لبابة الصغرى بنت الحارث أم خالد . فيها نزل قوله تعالى : « وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى » راجع التفاصيل فى طبقات ابن سعد (١٣٢/٨) والإصابة (١٩١/٨) والاستيعاب (١٩٤١/٤) .

لم يكن بأرض قومى ، فأجدنى أعافه ! قال خالد : فاحترزته فأكلته ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر[1]».

وقد اجتاز الصحراء بين العراق وأرض الشام من أصعب مسالكها وأشدها خطراً ، متحملاً الجهد والعطش ؛ وتحمّل التقلبات الجوية فى الصحراء وفى العراق والشام فى مختلف ظروف السنة وفى مختلف ظروف القتال.. كل ذلك يدلّ على أنه كان مدرباً تدريباً ممتازاً ليس على استعمال السلاح وركوب الخيل ، بل على شظف العيش وقسوة الجو فى مختلف الظروف والأحوال .

(و) قابليته البدنية :

ترتكز القابلية البدنية على عوامل أساسية كثيرة ، أهمها : طبيعة بنية المرء : هل ولد قوى البنية أم ضعيفها ، وعلى تدريبه الرياضى ، وعلى عدم إصابته بأمراض مقعدة فى حياته ، وعلى عمره شاباً أم كهلاً أم شيخا .

لقد ولد خالد متكامل الخلقة قوياً ، فقد عرفنا من أوصافه البدنية ، أنَّه كان طويلا ضخماً بعيد مابين المنكبين واسع الهيكل ، وكل هذه الأوصاف تدلّ على متانة بنية بدنه .

وقد عرفنا أيضاً ، أنّه كان متفرغاً للتدريب ، مما يقوى قابليته البدنية على تحّمل المشاق العسكرية ؛ كما أننا لا نعرف أنه أصيب بأمراض تقعده عن العمل أو تضعف قابليته البدنية ؛ وكان فى ريعان شبابه حين تولى قيادة فرسان المشركين فى الجاهلية ، وفى شبابه حين تولى قيادة المسلمين فى أيام النبى صلى الله عليه وسلم وعهد أبى بكر وعمر بن الخطاب ؛ ولما مات

---

(١) أسد الغابة (٢/٩٥) .

كان فى أوج قوته ، إذ كان له من العمر بضع وأربعون سنة كما أسلفنا .

كل ذلك يدل بوضوح على تمتع خالد بقسط وافر من القابلية البدنية فى كل حياته العسكرية ، مما جعله قوياً جداً بحيث يحتضن خصمه عند البراز فيقضى عليه[1]، ويغلب من يخرج لمبارزته من الأبطال[2]، ويتحمل المشاق العسكرية بسهولة ويسر ، وكمثال على تحمله المشاق العسكرية ، قطعه الطريق من (الفراض) إلى مكة المكرمة للحج : (فسار طريقاً من طرق أهل الجزيرة ، لم يُر طريق أعجب منه ولا أشد على صعوبته منه ، فكانت غيبته عن الجند يسيرة ، فما توافى إلى الحيرة آخرهم ، حتى وافاهم مع صاحب الساقة)[3].

طريق صعبة فى الصحراء ، قطعها بسرعة خاطفة . . . ذلك دليل قاطع على قابليته البدنية الفائقة التى أعانته على تحمل المشاق العسكرية .

(ز) معنويات عالية :

كان خالد كتلة ضخمة من المعنويات العالية ، لا يحلّ فى مكان إلا رفع معنويات رجاله وحطّم معنويات خصومه .

ولا يتمتع المرء بالمعنويات العالية جزافاً ، بل هناك عوامل كثيرة لتمتعه بها ، من هذه العوامل : العقيدة الراسخة ، والضبط المتين ، والشجاعة الشخصية ، والقابلية البدنية والتدريب الجيد ، والماضى المجيد .

---

(١) الطبرى (٢/٥٧٧) وابن الأثير (٢/١٥١) والطبرى (٢/٥٥٦) وابن الأثير (٢/١٤٨) .
(٢) الطبرى (٢/٥٦١) وابن الأثير (٢/١٤٩) .
(٣) الطبرى (٢/٥٥٤) .

وقد رأيت أن خالداً يتمتع بكل هذه المقومات ، أما ماضيه المجيد فحدّث عن البحر ولا حرج !

فليس غريباً — إذاً — أن يكون خالد كتلة ضخمة من المعنويات العالية كما أسلفنا ، ولكن الغريب ألاّ يكون كذلك .

أطلق الرسول القائد على خالد لقب : سيف الله ، ولما انهارت معنويات المسلمين بعد هزيمة عكرمة بن أبي جهل وشرحبيل بن حسنة في اليمامة ، بعث أبو بكر خالداً إليها ، فانتصر .

وفي العراق كتب خالد إلى هرمز قائد الفرس قبل أن يخوض المعركة الأولى : « أما بعد : فاسلم تسلم ، أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة وأقرر بالجزية ، وإلا فلا تلومنّ إلا نفسك ، فقد جئتك بقوم يحبّون الموت كما تحبّون الحياة[1] » .

وكتب خالد إلى عياض بن غنم بعد أن مكث طويلاً في دومة الجندل دون جدوى : « إياك أريد[2] » ، فلما بلغ أهل دومة الجندل دنوّ خالد اختلفوا فقال أكيدر بن عبد الملك أبرز رؤساء دومة : « أنا أعلم الناس بخالد ! لا أحد أيمن طائراً منه ولا أحدّ في حرب ، ولا يرى وجه خالد قوم أبداً قلّوا أو كثروا إلا انهزموا عنه ، فأطيعوني وصالحوا القوم[3] » .

ولما تردّى موقف المسلمين في الشام ، هتف أبو بكر من أعماق قلبه : « خالد لها[4] » ، فأنسى الروم بخالد وساوس الشيطان[5] ، ففرح المسلمون بقدومه[6] واطمأنوا .

---

(١) الطبري (٢/٥٥٤) .
(٢) الطبري (٢/٥٧٨) .
(٣) الطبري (٢/٥٧٨) .
(٤) الطبري (٢/٥٩١) .
(٥) الطبري (٢/٦٠٢) .
(٦) الطبري (٢/٥٩١) .

وفى ابتداء معركة اليرموك ، خرج (جرجة) أحد قادة الروم ، ونادى : « ليخرج خالد » ، فخرج إليه خالد ، فسأله جرجة : « هل أنزل الله على نبيّكم سيفاً من السماء ، فأعطاكه ، فلا تسلّه على قوم إلا هزمتهم[1] » .

وفى اليرموك بالذات هتف أحد المسلمين : « ما أكثر الروم وأقلّ المسلمين ! ! » ، فأجابه خالد فوراً : « ما أقلّ الروم وأكثر المسلمين ! إنما تكثر الجنود بالنصر وتقلّ بالخذلان[2] » .

لقد كان خالد يعتمد على إثارة نوازع الإيمان فى نفوس رجاله ، فيتعهد جيشه بالعظات وبقراءة سورة الجهاد قبل القتال وفى أثنائه وبعده ، ويعيّن مسؤولاً عن قراءة سورة الجهاد عند اللقاء ، كما فعل فى (اليرموك) مثلا[3] .

وكان من جملة الأسباب التى برّر بها عمر عزل خالد : أن الناس قد فتنوا به[4] .

إن خالد بن الوليد ، مثل رائع المعنويات العالية : ينصر بها المسلمين ويخذل بها أعداءه . . . فقد اجتازت شهرته الحدود ، وأصبح معروفاً عنه أنه لا يغلب أبداً ، وبذلك انتصر على أعدائه بالرعب من مسيرة شهر ، بل من مسيرة أشهر فى تلك الأيام .

قائد ممتاز :

(ا) مزايا القائد الممتاز[5] :

تتلخّص مزايا القائد الممتاز بما يلى :

---

(١) الطبرى (٢/٥٩٥) .
(٢) الطبرى (٢/٥٩٤) .
(٣) الطبرى (٢/٥٩٤) وابن الأثير (٢/١٥٨) .
(٤) ابن الأثير (٢/٢٠٧) .
(٥) مقتبسة من الكتب العسكرية الرسمية ومن محاضرات كلية الأركان ومدرسة الأقدمين فى انكلترا .

عقيدة راسخة — ضبط متين — عقلية متّزنة — شجاعة شخصية — تدريب جيّد — قابلية بدنية — معنويات عالية .

وبالإضافة إلى هذه المزايا التى سبق ذكرها فى مزايا الجندى الممتاز ، لابدّ أن تتوفر فى القائد الممتاز المزايا الأخرى التالية :

إعطاء القرارات السريعة الصحيحة — الإرادة القوية الثابتة — تحمّل المسؤولية بلا تردّد — نفسية لا تتبدّل فى حالتى النصر والاندحار — سبق النظر — معرفة نفسيات مرؤسيه وقابلياتهم — ثقة قطعاته به وثقته بقطعاته — المحبّة المتبادلة بينه وبين قواته — شخصية قوية نافذة — ماضٍ ناصع مجيد — معرفة بمبادىء الحرب .

فهل يتحلّى خالد بمزايا القائد الممتاز بالإضافة إلى مزايا الجندى الممتاز ؟

٢ — تفصيل المزايا :

(ا) قرار سريع صحيح :

لابدّ للقائد من إعطاء قرارات سريعة صحيحة فى آن واحد ، يعالج بها المواقف الطارئة المتبدلة بسرعة فى الحرب ؛ إذ أن القرارات البطيئة قد لا تكون ذات فائدة ، لأن وقتها يكون قد فات ؛ كما أن القرارات الخاطئة تضرّ ولا تفيد ، أى أنها تكون فى جانب مصلحة العدو .

إن القرارات السريعة الصحيحة تستند على عاملين مهمين : القابلية العقلية للقائد ، والحصول على المعلومات عن العدو وعن أرض المعركة .

لقد مرّ بنا ذكر مزية خالد العقلية ، فعرفنا أنه يتمتع بعقلية متزنة خلاقة ، أما الحصول على المعلومات ، فقد كان خالد حريصا غاية الحرص على

استطلاع حالة العدو المادية والمعنوية ، فكان لا تخفى عليه خافية من حركاته وسكناته ، لأنه كان دائماً بتماس شديد بالعدو لوجوده دائماً أمام رجاله ، ولأنه كان (لا ينام ولا ينيم ولا يبيت إلاَّ على تعبية ولا يخفى عليه من أمر عدوّه شيء[1]).

لقد كان يحصل على المعلومات عن عدوّه بدوريات القتال ودوريات الاستطلاع وبالعيون وباستنطاق الأسرى وبالاستطلاع الشخصى ، وباستشارة ذوى الرأى والخبرة من رجاله ورجال عدوه الذين يقعون فى قبضته ، وكانت كل معاركه مثالاً يحتذى به فى الحصول على المعلومات ، وحسبنا أن نتذكر ، كيف عرف أن المدافعين عن أسوار دمشق قد تركوا مواضعهم ، فانتهز هذه الفرصة السانحة وقرر مهاجمتهم فوراً ، ففتح هذه المدينة بعد حصار طويل .

لقد كان خالد منتبهاً كل الانتباه لكل حركة من حركات عدوّه ، ولم يتهاون لحظة واحدة عن جميع المعلومات ؛ كما أنه كان غير متردّد ، يتحمّل المسئولية ولا ينتظر وصول الأوامر إليه مما يؤدى إلى ضياع الوقت عبثاً ؛ فلا عجب إذا كانت قراراته صحيحة سريعة جازمة حاسمة ، وكانت نتائجها باهرة جداً .

(ب) إرادة قوية ثابتة :

كان لخالد إرادة فولاذية لا تزعزعها الخطوب والأحداث .

لقد كان إقدامه على محاربة جيوش الامبراطورية الفارسية بحد ذاته مجازفة خارقة تدل على إرادته القوية الثابتة ، وحسبنا أن نتذكر أنّ عدد رجاله فى أول معركة خاضها ضد الفرس وهى معركة (ذات السلاسل) فى منطقة

---

(١) الطبرى (٢/٦٢٦) وابن الأثير (٢/١٦٤) .

البصرة ثمانية عشر ألفاً فقط[1]، يقاتلون أضعاف أضعافهم من الفرس .

وفى اليرموك كان عدد قوات المسلمين ستة وأربعين ألفاً[2]، بينما كان الروم فى مائتين وأربعين ألف مقاتل[3].

لقد كان التفوق العددى وفى التسليح وفى تيسّر القضايا الإدارية دائماً إلى جانب الفرس فى العراق وإلى جانب الروم فى أرض الشام، وكان هذا التفوق تفوقاً ساحقاً فى كل معركة خاضها خالد، ومع ذلك انتصر خالد، وكان لإرادته القوية الثابتة أثر بالغ فى انتصاراته الباهرة .

لقد كان يفكر ويقدّر الموقف ويقرر خطة مناسبة، ثم ينفّذ خطته بعد أن يقتنع بصحتها دون أن يلتفت إلى الوراء .

(حـ) تحمّل المسؤولية :

من أبرز مزايا خالد، أنه كان يتحمّل المسؤولية إلى أبعد الحدود، فإذا اقتنع بشىء أصدر قراره الحاسم للبت فى الأمر دون انتظار وصول الأوامر والتوجيهات والوصايا من مرجعه الأعلى .

لقد كان خالد قائداً (مبتدعاً) : يرى الموقف بعينه، ويفكّر فيه بعقله، ولا يدّخر وسعا فى تكوين قرار يناسب ذلك الموقف ويتفق والمصلحة العامة . . . وحينذاك يقدم على تنفيذ قراره بعزم وإصرار .

والقائد المبتدع ينجح نجاحا يناسب كفاءته إذا كان مرجعه الأعلى

---

(١) الطبرى (٢/٥٥٤) وابن الأثير (١٤٧/٢) .

(٢) الطبرى ٥٩٢/٢) وابن الأثير (١٥٧/٢) وهذا العدد هو أعلى تقدير لعدد قوات المسلمين .

(٣) ابن الأثير (١٥٧/٢) .

لا يميل إلى السيطرة المركزية بل يعطى كامل الحرية لمرؤوسيه ، كما نجح خالد فى عمله مع أبى بكر الصديق مثلا ؛ ولكن القائد المبتدع لا يستطيع العمل بتاتاً إذا كان مرجعه الأعلى مركزى السيطرة مثل عمر بن الخطاب ؛ ولعلّ أسباب تقدّم خالد عند أبى بكر هى نفس أسباب عزله عند عمر .

من أمثلة تحمّله المسئولية ، سيره حين فرغ من بنى أسد إلى مالك ابن نويرة فى (البُطاح) ، فتمسّك الأنصار بحرفية أوامر الخليفة ، ولكن خالداً أصّر على المسير[1] .

وفى أعقاب يوم (اليمامة) بعد إبرام الصلح بين خالد وبنى حنيفة ، ورد كتاب أبى بكر إلى خالد أن يقتل كل محتلم ، ولكن خالداً وفى بعهده ولم يغدر[2] ، متحملاً بذلك المسؤولية على عاتقه واثقاً أن أبا بكر الصديق كان يعمل نفس عمله لو كان فى نفس موقفه .

ولعلّه أغرق كثيراً فى تحّمل المسؤولية عندما ترك جيشه فى العراق بعد انتصاره على الروم وحلفائهم فى معركة (الفراض) ، ليؤدى فريضة الحج دون أن يأخذ موافقة أبى بكر ، لذلك عاتبه أبو بكر على هذه المخالفة الصريحة[3] ؛ ولكنّ عذر خالد ، هو أنه ذهب للحج سراً ، وأظهر أنه مع ساقة جيشه فى طريقها من (الفراض) إلى (الحيرة) وفعلا وصل خالد (الحيرة) بعد عودته من الحج مع صاحب الساقة[4] ، ولم يتأخر لحظة واحدة عن موعد وصول الساقة إلى (الحيرة) ، لذلك لم يترك غيابه عن جيشه أثراً سيئاً على الموقف العسكرى .

---

(١) الطبرى (٢/٥٠١) وابن الأثير (٢/١٣٦) .
(٢) الطبرى (٢/٥١٨) وابن الأثير (٢/١٤٠) .
(٣) الطبرى (٢/٥٨٤) وابن الأثير (٢/١٥٣) .
(٤) الطبرى (٢/٥٨٣) وهو اعتيادا كما هو دأبه يسير دائما مع الساقة عند العودة وفى المقدمة عند التقدم .

ولم يكن خالد يتحمل المسؤولية كاملة فى أمور القتال فحسب ، بل كان يتحمّلها فى أمور المال أيضاً ، فلما كتب إليه أبو بكر بذلك ، أجابه خالد : « إما أن تدعنى وعملى ، وإلا فشأنك وعملك »[1]. ولما تولى عمر ، كتب إلى خالد : « ألا تعطى شاة ولا بعيراً إلا بأمرى » فكتب إليه خالد ما كتب إلى أبى بكر ، فقال عمر : « ما صدقت الله إن كنت أشرت على أبى بكر بأمر فلم أنفذه » فعزله ؟ ثم كان يدعوه إلى العمل فيأبى إلا أن يخليه يفعل ما يشاء[2]، فيأبى عمر .

إن تحمّل خالد المسؤولية الكاملة حال بينه وبين الاشتغال بإمرة عمر المباشرة ، ولكنه اشتغل بإمرة أبى عبيدة بن الجراح الذى كان كأبى بكر يعطى لمرؤوسيه الحرية الكاملة ، وبذلك فضّل خالد أن يعمل قائداً مرؤوساً وله ملء الحرية فى تحمّل مسئوليته كاملة ، على أن يعمل قائداً عاماً ولا حرّية له فى تحمّل المسؤولية ! !

(ى) نفسيّة لا تتبدل :

كثير من الذين يظهرون بمظهر العزم والقوّة فى أوقات الرخاء والدعة ، ينهارون انهياراً عجيباً فى أوقات الشدة والعسر ؛ فهم جبابرة عتاة عند النصر ضعفاء مساكين عند الاندحار ؛ فهؤلاء يمتلكون نفسيات تتبدّل بين الانهيار فى حاله الهزيمة والطغيان فى حالة الفوز .

إن نفسية خالد لا تتبدّل فى حالتى الاندحار والنصر ، إذ كان مسيطراً

---

(١) الإصابة (٢/٩٩) .
(٢) الإصابة (٢/١٠٠) .

على أعصابه سيطرة تامة فى أشد المواقف حرجاً من جهة وفى أكثر الأوقات تفاؤلاً من جهة أخرى .

لم يكن سهلاً موقف خالد عند اندحار مقدّمة المسلمين التى كان يقودها يوم (حنين)[1]، ولكنه ضبط أعصابه ، فعاد وعاد رجاله إلى القتال بعد صمود النبى صلى الله عليه وسلم يواجه تيار المشركين الجارف ، فكان النصر النهائى للمسلمين .

ولم يكن سهلاً موقفه فى أعقاب معركة (مؤتة)[2] بعد مقتل قادة المسلمين واستشهاد كثير من رجاله ، ولكنه قاد المسلمين إلى ساحة النجاة ليعود بهم ثانية إلى ساحات النصر فى اليرموك .

لقد سيطر على أعصابه حين استقدمه أبو بكر إلى المدينة المنورة ليحاسبه عن قضية مقتل مالك بن نويرة وحين استفزّه عمر بن الخطاب بكلمات قاسية عند دخوله المسجد لمواجهته أبى بكر ، أمسك خالد ولم يعترض ؛ فلما تجاوز عنه أبو بكر آن له أن يردّ على عمر ؛ ولكن عمر فى هذه المرة أمسك ولم يقل شيئا[3] .

وقد سيطر على أعصابه حين قدم صاحب البريد ليخبره بموت أبى بكر وعزله عن القيادة العامة وتولية أبى عبيدة ابن الجراح مكانه ، وكان ذلك فى أحرج أوقات معركة (اليرموك) الحاسمة[4]، إذ قاد المعركة حتى نهايتها الموفقة وكأنّ شيئا لم يحدث !

---

(١) طبقات ابن سعد (٢/ ١٥٠) والأغانى (١٥/ ٢٥) .

(٢) سيرة ابن هاشم (٣/ ٤٣٥) وجوامع السيرة ص (٢٢٢) وطبقات ابن سعد (٤/ ٢٥٣) .

(٣) الطبرى (٢/ ٥٠٤) وابن الأثير (٢/ ١٣٧) .

(٤) الطبرى (٢/ ٥٩٥) .

لم تتبدّل نفسيته في حالة الاندحار ، ولم تتبدّل نفسيته في حالة النصر ، وبقيت نفسيته لا تتبدّل بعد عزله ، إذ كان يعتبر نفسه دائماً أصغر من جندى وأكبر من قائد ، فهى هى نفسه لا تتبدّل فى السراء ولا فى الضراء ولا تبدلها المناصب والرتب ، لأنها أقوى من الأحداث وأرفع من الرتب .

(هـ) سبق النظر :

كان خالد يفكّر فى الاحتمالات القريبة والبعيدة التى يمكن أن ينفّذها العدو ، ويدخل فى حسابه أسوأ الاحتمالات التى يمكن أن يصادفها قبل القتال وفى أثنائه وبعده ، ويعدّ سلفاً الخطط المناسبة لكل ما يتوقّعه من أعمال عدّوه ، حتى يمكن وضع تلك الخطط — عند الحاجة — فى موضع التنفيذ دون تردد ولا ارتباك .

كان خالد لا يسير إلا فى تعبية ولا يبيت إلا على تعبية ، لأنه يدخل فى حسابه دائماً احتمال مصادمة العدو لقواته ، وعند ذاك تكون قطعاته على استعداد لخوض المعركة ، من غير أن تخشى مباغتة العدو لها ومن غير أن تضيّع الوقت سدى .

وصلت قوات خالد (أُلّيْس) ، فوجدت القوات الفارسية تتناول طعامها ، فعاجلت الفرس بالقتال وانتصرت عليهم ، وكان الفضل فى انتصار المسلمين سبق نظر خالد فى مسيره دائما على تعبية ، فهو دائماً حاضر للقتال .

وفى معركة (الفراض) قال قائد الروم لخالد : « إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم » . فقال خالد : « اعبروا »[1] ... ذلك لأنه سبق النظر

(١) الطبرى (٢/٥٨٢) وابن الأثير (٢/١٥٣) .

وقدّر ما يحتمل أن يؤدى إليه عبوره من محاذير ، ولم يفسح المجال « للعاطفة » أن تتدخّل فى القضايا العسكرية الذى يؤدى الأهمال فى تقدير نتائجها إلى الاندحار وإلى إزهاق الأرواح دون جدوى .

لقد كان خالد يتمتّع بمزية سبق النظر بشكل مدهش حقاً ، وما أصدق عمرو ابن العاص حين وصفه بقوله : « له أناة القطاة ووثوب الأسد »[1] .

(و) معرفة النفسيات والقابليات :

كان خالد يعرف نفسيات رجاله وقابلياتهم ، لأنه كان يقضى بينهم أكثر أوقاته ويعيش معهم أكثر مما يعيش مع عائلته ، ولأنه جرّبهم فى المعارك وعرف كل فرد منهم على حقيقته بالأعمال لا بالأقوال .

لقد كان يتمنى أن يقاتل مع سرية من المهاجرين[2] ، لأنه يعرف أنهم يقاتلون حريصين على الشهادة حرص غيرهم على الحياة ؛ وكان يريد أن يستأثر بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم على المثنى بن حارثة الشيبانى حين جاءه كتاب أبى بكر بالخروج من العراق إلى أرض الشام لولا إصرار المثنى على إنفاذ أمر أبى بكر بقسمة قوات المسلمين بالتساوى بينهما[3] ، ذلك لأن خالداً عرف بتجربته أن الصحابة كانوا يقاتلون عن عقيدة وإيمان راسخين ، وأن أمثالهم من العقائديين فى الحروب هم السند القوى الأمين لكل قائد حريص على إحراز النصر المبين .

وفى معركة اليرموك ، اختار خالد مائة من أبطال المسلمين[4] ، ليكونوا

(١) اليعقوبى (٢/١٠٨) .
(٢) الإصابة (٢/٩٩) .
(٣) الطبرى (٢/٦٠٥) .
(٤) فتوح الشام للواقدى (١/١٢٠) .

الفدائيين أو القوة الضاربة الأولى التى تصادم الروم ، ولم يكن اختيارهم إلا عن معرفةٍ تامة بنفسياتهم وقابلياتهم .

وفى معركة فتح (دمشق) اختار خالد جماعة من المغاوير من بين رجاله ، وألقى على عواتقهم مهمة تسلّق سور المدينة والقضاء على حراس أبوابها وفتح تلك الأبواب للمسلمين[1] ، ولم يكن من السهل تكليف أى رجل بمثل هذا الواجب البطولى .

لقد كان خالد يعرف نفسيات رجاله وقابلياتهم عن خبرة عملية طويلة ، كما كان رجاله يعرفون نفسيته وقابلياته عن خبرة مماثلة أيضاً ، إذ ليس كالشدائد محك لاختبار الرجال .

(ز) الثقة المتبـادلة :

كان خالد موضع ثقة النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر وأبى عبيدة ابن الجراح ، وهؤلاء هم الذين عمل خالد بإمرتهم بعد إسلامه . ولعل هناك مَن يظنّ أن خالداً لم يكن موضع ثقة عمر ، ولـكن الحقيقة هى أنّ عمر كان لا يشك أبداً فى كفاءة قيادة خالد ، ولـكنّه عزله لمبالغة الناس بالثقة به ، ومبالغة خالد بالثقة بنفسه ، وحسبنا أن نتذكّر قولة عمر فى خالد حين بلغه أعمال خالد فى (قنسرين) : « أمّرَ خالد نفسه ! يرحم الله أبا بكر ، هو كان أعلم بالرجال منى »[2] .

وكان خالد من جانبه يبادل مرجعه الأعلى ثقة بثقة ، فقد كان يثق بالرسول صلى الله عليه وسلم رسولاً وقائداً ثقة لا مزيد عليها ، وكان يثق بأبى بـكر

---

(١) الطبرى (٢/٦٢٧) وابن الأثير (٢/١٦٥) .

(٢) الطبرى (٣/٩٨ وابن الأثير (٢/١٩١) .

الصديق ويثق بعمر . قال خالد لأبي الدرداء عن عمر : « والله يا أبا الدرداء ، لئن مات عمر لترنّ أموراً تنكرها »[1] ، ولما حضرت خالد الوفاة جعل وصيته وتركته وإنفاذ عهده إلى عمر[2] ، وكان خالد يقول عن أبي عبيدة : بعث عليكم أمين هذه الأمة[3] .

وكان خالد يثق بنفسه ويثق برجاله ثقة لا حدود لها ، وقد بلغ من ثقته بنفسه وبرجاله أنه نزل على غير ماء في معركة (كاظمة) ثم أمر مناديه فنادى : « جالدوهم على الماء ، فلعمري ليصيرنّ الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين »[4] .

لقد اصطلح الناس عليه في أعقاب معركة (مؤتة)[5] وكان بينهم بعض كبار المهاجرين والأنصار ، ولما عزم على التفويز برجاله عبر الصحراء ، قالوا له : « أنت رجل قد جمع الله لك الخير ، فشأنك »[6] .

وليس من السهل أن يثق الرجال بقائدهم ، وليس من السهل أن يستحوذ القائد على ثقة رجاله به . فالرجال يريدون من قائدهم : أن يدافع عنهم ويحميهم من الأخطار ، وألا يستأثر بالراحة والدعة والمال دونهم ، وألا يوقعهم في المهالك دون مبرر ، وأن يتحمّل المسؤولية كاملة ولا يتملّص منها ويلقيها على عواتق الآخرين ، وأن يكون شجاعاً مقداماً يبزهم شجاعة وإقداماً في الحرب ، رؤوفاً رحيماً يغمرهم بشفقته وحنانه في السلم .

---

(١) ابن عساكر ص (٧١٢) .

(٢) طبقات ابن سعد (٣٩٧/٧) والإصابة (١٠٠/٢) وأسد الغابة (٩٦/٢) .

(٣) الإصابة (٩٩/٢) .

(٤) الطبري (٥٥٥/٢) .

(٥) سيرة ابن هشام (٤٣٥/٣) واليعقوبي (٤٩/٢) .

(٦) الطبري (٦٠٣/٢) وابن الأثير (١٥٦/٢) .

لقد وجد رجال خالد فى قائدهم كل هذه المزايا وأكثر ، فلا عجب أن يولوه ثقتهم حتى يخاف عمر أن يفتتن به الناس[1]، وأن يفرحوا بالقتال تحت رايته[2].

وليس من السهل أن يثق القائد برجاله ، فالقائد يريد من رجاله أن يطيعوه وينفّذوا أوامره برحابة صدر ، وأن يجتازوا العقبات والأخطار بلا تردّد ولا خوف ، وأن يبذلوا كل جهودهم لتحقيق النصر ، وأن يُقدموا بشجاعة وتضحية وعزم لنيل الظفر .

لقد وجد خالد فى رجاله كل هذه المزايا وأكثر ، فلا عجب أن يبادلهم ثقة بثقة ، فيصفهم فى كتابه إلى (هرمز) قائد كسرى بقوله « ... فقد جئتك بقوم يحبّون الموت كما تحبّون الحياة[3]» .

لقد كان خالد يبادل مرجعه الأعلى ثقة بثقة : يثقون به ويثق بهم ، كما كان يثق بنفسه ويثق برجاله ويثق رجاله به .

لقد كان موضع ثقة الجميع ، لأنه كان أهلا للثقة .

(ح) المحبّة المتبادلة :

هناك فرق ظاهر بين الثقة والمحبة ، فقد تثق بكفاءة إنسان وقابليته على إنجاز واجب ما ، ولكنك لاتحبّه .

وقد تحبّ إنساناً ما ولكنك لاتثق بكفاءته أو لاتثق به من كافة النواحى.

فإذا اجتمعت الثقة والمحبة فى إنسان ، فكان موضع ثقة الناس ومحبّتهم

(١) ابن الأثير (٢/٢٠٧) .
(٢) الطبرى (٢/٥٩١) .
(٣) الطبرى (٢/٥٥٤) .

فإن نجاح هذا الإنسان فى الأعمال العامة ومنها الأعمال العسكرية مضمون إلى حد بعيد .

لقد كانت المحبّة متبادلة بين خالد ورجاله ، وقدظهرت هذه المحبة فى معارك خالد . ويكفى أن نتذكر كيف بادر القعقاع بن عمرو التميمى وجماعته إلى إنقاذ خالد من غدر (هرمز) وجماعته فى معركة (ذات السلاسل)[1] ،وكيف كان أصحاب خالد يسارعون إلى تنفيذ أوامره بكل حرص وإقدام .

كما ظهر حب الناس لخالد وتقديرهم له بعد موته حيث لم يبق له سلطة ولا نفوذ ليخشاه الناس ويرجوه ؛ فرثاه عمر بقوله : « قد ثلم فى الإسلام ثلمة لا ترتق[2] » ، كما رثاه كثير من الصحابة وكثير من الشعراء .

أما حبّ خالد لرجاله ، فيكفى أن نذكر أنه كان يستأثر دونهم بالمخاطر، ويؤثرهم بالخير والأمان ، ويحب لهم ما يحبّه لنفسه ؛ ولكنّ حبّه لهم كان حب القائد لرجاله فحسب : إذ لا نعرف أنه بكى لمصرع شهيد ولا التاع لمقتل مجاهد ، لأن البكاء واللوعة لا يجديان شيئاً !

لقد كان حبّه لرجاله يزداد كلما ازداد إقدامهم وبلاؤهم ، فالشجاع المقدام، هو الذى يحظى بحبّ خالد ورعايته ولو كان أبعد الأبعدين عنه قرابة ونسبا ؛ والجبان الرعديد لا مكان له فى قلب خالد ، ولو كان أقرب الأقربين إليه قرابة ونسباً ؛ لذلك اختصّ خالد ببعض الرجال صاحبوه فى حروب أهل الردة ورافقوه إلى العراق ، وقاتلوا معه فى الشام ، فلما عادوا إلى العراق ، نسوا الفخر إلا فخرهم بأيامهم مع خالد[3] .

---

(١) الطبرى (٢/٥٥٥) .

(٢) ابن عساكر ص (٧١٤) .

(٣) الطبرى (٢/٥٨٤) حول فخر أهل الأيام من أهل الكوفة بأيامهم مع خالد وعدم ذكر غيرها من الأيام احتقاراً لها واستصغاراً لشأنها .

لقد كان خالد يحرص كل الحرص على بقائهم إلى جانبه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، وأكثر هؤلاء أصبحوا معارفه وأحبابه فى ساحات القتال ، فكانت محبتهم المتبادلة محبة رفقاء السلاح فى الضراء لا محبة رفقاء اللهو فى السراء .

(ط) الشخصية القوية النافذة :

لم تكن شخصية خالد قوية نافذة فحسب ، بل كانت شخصية مستحوذة كاسحة أيضاً .

لقد ذهب خالد من المدينة إلى (مؤتة) جندياً بسيطاً ، ولكنه عاد إلى المدينة قائداً منتخباً ؛ وليس من شك أن قوة شخصية خالد كانت من عوامل تسليمه مقاليد قيادة جيش المسلمين فى (مؤتة) .

ولما كتب عمر إلى أبى عبيدة يأمره أن يقيم خالداً ويعقله بعمامته ويعزله عن عمله ، لم يستطع أبو عبيدة أن ينفذ أمر عمر فى خالد بنفسه ، فجلس على المنبر ساكتاً لا يقول شيئاً ، مع أن أبا عبيدة يومها كان قائداً عاماً فى الشام وكان خالد وغير خالد فى أرض الشام بإمرته ، وما كان إقدام بلال بن رباح مؤذن رسول الله صلى الله عليه على تنفيذ أمر الخليفة دون غيره ، إلا لأنه كان موضع ثقة الناس واحترامهم وإجلالهم لموضعه من النبى صلى الله عليه وسلم ولماضيه المجيد فى خدمة الإسلام .

وبقى خالد متحيراً بعد هذا الحادث ، لا يدرى أمعزول هو أم غير معزول ، ولا يعلمه أبو عبيدة بعزله تكرمة وتفخمة[1] ، فكتب إليه عمر

(١) ابن الأثير (٢/٢٠٧) وفى البلاذرى ص (١٢٢) : « أن ولاية أبى عبيدة الشام أتته والناس محاصرون دمشق ، فكتمها خالداً أياماً لأن خالداً كان أمير الناس فى الحرب . . . »

(٢) ابن الأثير (٢/٢٠٧) .

بالإقبال إليه ، فلما قدم على عمر شكاه وقال له : « قد شكوتك إلى المسلمين فبالله إنك فى أمرى لغير مجمل » فقال له عمر : « يا خالد ! والله إنك علىّ لكريم ، وإنك إلىّ لحبيب » .

فأى شخصية نافذة قوية ، تلك التى يقدّرها أبو عبيدة بن الجراح كل هذا التقدير ويحترمها كل هذا الاحترام .

وأية شخصية مستحوذة كاسحة تلك التى يقول صاحبها لمثل عمر القوى المهاب : « قد شكوتك إلى المسلمين . . ! ! » فلا يجد عمر الذى لم يترك له الحق صديقاً ، كما يقول هو عن نفسه ، أمامه إلا أن يسترضيه بأسلوب هيّن ليّن رقيق .

تلك هى شخصية سيف الله خالد بن الوليد .

(ى) الماضى المجيد :

عرفنا نسب خالد ، وعرفنا أنه من أشرف بطون قريش وابن عظيم مكة المكرّمة ، وأمه أخت ميمونة أم المؤمنين ؛ فماضيه من هذه الناحية مشرّف جداً .

وقد ترعرع فى بيت كريم ، له تقاليده الكريمة فى تربية أولاده على الصدق والاستقامة والرجولة ، فنشأ بعيداً عن الفحشاء والمنكر والبغى ، متفرغاً لإشباع هوايته المفضّلة فى التدريب العسكرى وممارسة قيادة الفرسان ؛ فتولى الأعنة والقبة وهو لا يزال فى عنفوان شبابه متقدماً على الكثيرين من بنى مخزوم : من إخوته وبنى عمومته ، وكثير منهم أكبر سناً من خالد — وللسنّ عند العرب قيمة كبيرة فى تولى المناصب المهمة — وذلك لحسن سيرته وسمعته بين الناس بالإضافة إلى كفاءته العسكرية .

ولو لم يكن ماضيه قبل الإسلام مشرفاً ، لما خصّه النبي بالسؤال عنه حين كان النبي صلى الله عليه وسلم بمكة أيام عمرة القضاء ، فقال : « أين خالد ؟ . . ماممثل خالد من جهل الإسلام . . . إلخ[1] » ، فلما أسلم أصبحت مكانته مرموقة بين المسلمين وعند الرسول صلوات الله وتسليمه عليه : « ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أسلمت يعدل بى أحداً من أصحابه فيما يحزنه[2] » كما ذكر خالد عن نفسه ، وكما نلمسه فعلاً فى التاريخ .

ذلك يدل بوضوح على أن ماضيه كان ناصعاً مجيداً فى أيامه الأولى قبل الإسلام وفى أيامه الأولى بعد الإسلام .

وابتدأ خالد يضيف إلى هذا الماضى النظيف لبنة بعد لبنة من انتصاراته العسكرية ، حتى أصبح ماضيه يعلو ولا يزال يعلو كل يوم ، حتى بلغ درجة من الرفعة والسمو يضطر معها الذى يريد أن يرى قمتها — إذا كان حديد البصر — أن يضع يديه على غطاء رأسه من شدة علو قمة ذلك البناء .

يكفى أن نذكر بعض ماضيه العسكرى فقط ، فقد شهد فى الجاهلية ثلاث معارك ضد المسلمين ، وشهد فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم اثنتى عشرة معركة ، وشهد فى حروب أهل الردّة ثلاث معارك هى أهم وأخطر وأكبر معارك أهل الردّة ، وقاتل الفرس وحلفاءهم فى خمس عشرة معركة ، وخاض فى طريقه من العراق إلى أرض الشام غمار أربع معارك ، وقاد سبع معارك فى أرض الشام ، فكان عدد ماشهده من معارك فى حياته العسكرية أربعة وأربعين مشهداً ، كانت نتائجها باهرة جداً فى تاريخ الإسلام وفى تاريخ العرب المسلمين .

---

(١) طبقات ابن سعد (٧/٣٩٤) .

(٢) طبقات ابن سعد (٤/٢٥٢) و (٧/٣٩٤) .

فأى قائد قديم أو حديث شهد هذا العدد الضخم من المعارك ، فى فترة قصيرة جداً من عمر الزمن وعمر الرجال ، دون أن يُهزم له لواء أو تنكص له راية ؟ وأى قائد قديم أو حديث بقيت آثار فتوحاته من اليمن جنوباً إلى أرض العراق والشام شمالا كل هذه القرون الطوال ؟

ذلك هو ماضى خالد ، يزداد كل يوم علواً : لقد جمع المجد من أطرافه : مجد المنبت الطيب ، ومجد النشأة الكريمة ، ومجد التاريخ ، فلا عجب أن يكون من أكبر مفاخر أصحاب الأيام ، أن يكتفوا بقولهم : قاتلنا تحت لواء خالد ؛ ليعرف الناس أنهم أبلوا فى خدمة الإسلام وفى خدمة الفتح الإسلامى أعظم البلاء .

(ك) معرفة وتطبيق مبادىء الحرب[1] :

أولا : اختيار المقصد وإدامته[2] :

كان خالد يختار مقصده بعد تفكير عميق ، ويعمل جاهداً فى سبيل تنفيذه ، ولا يفكر أبداً فى التحوّل عنه قبل الحصول عليه .

---

(١) مبادىء الحرب : هى الجوهر الذى ينشىء فى القائد (السجية) الصحيحة فى تصرّفاته فى الحرب ، وهى العنصر الذى يتكوّن منه مسلك القائد فى أعماله بصورة طبيعية وغير متكلّفة .

وكان خالد يعرف هذه المبادىء بالفطرة السليمة التى تدلّ على استعداده الفطرى الممتاز للقيادة . وقد طبّق خالد هذه المبادىء فى معاركه كلها ، مما كان له أثر حاسم فى انتصاراته .

(٢) اختيار المقصد وإدامته : فى كل حركة حربية من اللازم اختيار المقصد وتعريفه بوضوح . إنّ المقصد النهائى هو تحطيم إرادة العدو على القتال ، ويجب أن توجّه كل صفحة من الحرب وكل صفحة منفردة نحو هذا المقصد الأعلى ، ولكن لكل من هذه الصفحات مقصد محدود يجب أن يعرف بوضوح .

كان مقصده فى غزوة (أحد) تحطيم رماة المسلمين الذين يحمون ظهور المسلمين ، ليستطيع بعد تحطيمهم ضرب مؤخرة المسلمين وتطويقهم وإفناء قواتهم من بعد ذلك . لذلك راقب بيقظة بالغة حركات وسكنات هؤلاء الرماة ، فلما انسحب بعضهم خلافاً لأوامر الرسول صلى الله عليه وسلم فى ضرورة ثباتهم فى مواضعهم حتى انتهاء المعركة ، انتهز خالد هذه الفرصة السانحة ، فحقق مقصده فى القضاء على الرماة وضرب المسلمين من الخلف ، مما هدد المسلمين فى (أحد) بالفناء لولا عبقرية قيادة الرسول القائد .

وكان مقصده فى كل معاركه أن يقضى على قائد عدوه ، حتى يبقى رجاله كالقطيع بدون راع ، فيفرون أو يستسلمون . لقد استطاع خالد فعلاً فى أكثر معاركه أن يقضى على قائد القوات المعادية له : إما بالمبارزة أو بإدامة زخم الهجوم على مقره حتى يقتل أو يضطر إلى الفرار .

وفى معركة اليرموك الحاسمة ، كان مقصد خالد ، أن يحرم مشاة الروم من إسناد فرسانهم ، لذلك هجم بالقلب متوخياً فصل خيل الروم عن مشاتهم ، ثم أفسح المجال لخيل الروم للخروج من مكانها الذى تقاتل فيه بعد التضييق بشدة عليها ، فخرجت تلك الخيل تشتد فى الصحراء . فى ذلك الوقت بقى المشاة وحدهم فسهل على خالد القضاء عليهم .

تلك أمثلة قليلة عن اختيار المقصد وإدامته ، ولعل مقصد خالد فى كل معركة خاضها يظهر بوضوح للعيان ، لذلك كان النصر حليف خالد فى كل حروبه .

ثانياً التعرّض [1] :

كانت معارك خالد كلها تعرّضية ، إذ لم يتّخذ فى كل حياته العسكرية خطّة

(١) التعرض : هو الهجوم على العدو لسحقه ولا يتم الحصول على النصر إلا بالتعرّض وحده .

دفاعية واحدة ولم يخض معركة دفاعية واحدة ، فكان بحق قائداً تعرّضياً مشبعاً بروح التعرّض .

ومن النادر جداً أن نجد في كل أدوار التاريخ قائداً لم تضطره الظروف في وقت من الأوقات أن يمارس خطة دفاعية ثم يستأنف التعرّض من بعدها . أما خالد فكان دائماً في تعرض مستمر ، وكان لعبقريته في القيادة أثر حاسم على اتخاذه هذا الموقف دائماً ؛ ولست أشك أن غير خالد ما كان ليُقْدِم على التعرّض في مثل تفوق العدو بالعَدَد والعُدد تفوقاً ساحقاً على قوات خالد . إذ كان لابدّ له أن يتخذ موقف المدافع في كثير من تلك المعارك انتظاراً للإمدادات ؛ ولكن خالداً لم يفكر أبداً ، حتى مجرّد التفكير ، في اتّخاذ موقف المدافع .

لقد كان لتعرّض خالد أثر في القضاء المبرم على فتنة بني حنيفة في اليمامة ، بعد أن فشل قائدان من قبله في القضاء عليها ، بل بعد أن نكبت بنو حنيفة هذين القائدين [1] ، وبذلك ارتفعت معنوياتها فزادت قوتها قوة .

وكان لتعرض خالد أثر في إنهاء فتح دومة الجندل بعد أن استعصت على عياض بن غنم ، فأشجى أهلها عياضاً وشجوا به [2] مدة طويلة كانت كافية ليفتح خالد خلالها من جنوب البصرة إلى شمال الفلوجة من أرض العراق .

وكان لتعرض خالد أثر في انتصار المسلمين على الروم في (اليرموك) ، بعد أن كان المسلمون متضايقين هناك [3] .

---

(١) الطبري (٢/٥٠٥) .

(٢) الطبري (٢/٥٧٨) .

(٣) الطبري (٥٩٢) وانظر الطبري (٣/١٥٣) وابن الأثير (٢/٢٩٥) فعندما تحشد الروم لاستعادة (حمص) من أيدي المسلمين أقبل خالد من قنسرين إلى أبي عبيدة ، فاستشاره أبو عبيدة فأشار بالتعرض وأشار غيره بالتحصين ومكاتبة عمر ، فأطاعهم وعصى خالد . ثم أشار عليه ثانية بالخروج إلى الروم ، فلما فعل أبو عبيدة فتح الله عليه .

وكان لتعرض خالد أثر فى فتح الشام ، إذ لولا يقظة خالد وتحفّزه لقاومت تلك المدينة المحاصرة أمداً طويلا .

لقد كان خالد يحمل طاقة تعرضيّة لا تنضب ، وكان مجرّد وجوده فى جيش من جيوش المسلمين يجعل ذلك الجيش متحفزاً أبداً للتعرض ، ولم يكن خالد يحرص كل الحرص على التقدم والمبيت فى تعبية كاملة — على الرغم من صعوبة حركة القطعات وهى متخذة تشكيلات القتال — إلا ليكون حاضراً باستمرار للتعرض بعدوّه فى كل وقت وبكل مكان .

ثالثاً : المباغتة [1] :

كان خالد مشبعاً بروح المباغتة كما كان مشبعاً بروح التعرض ، وليس فى التاريخ قائد برز بين القادة فى إنجازاته العسكرية وفى انتصاراته إلا وهو مشبع بروح المباغتة وبروح التعرض ، لأن هذين المبدأين هما أهم مبادئ الحرب كلها وهما أهم أسباب الانتصار فى الحروب .

---

(١) المباغتة : المباغتة أقوى العوامل وأبعدها أثراً فى الحرب ، وتأثيرها المعنوى عظيم جداً ، وتأثيرها من الناحية النفسية يكمن فيما تحدثه من شلل متوقع فى تفكير القائد الخصم .

وفيما يلى بعض الوسائل التى يمكن الحصول بها على المباغتة :

١ — بكتمان الاستعدادات للخطط الحربية وبكتمان جسامة القوات الاحتياطية .

٢ — بالتنقل السريع للقطعات من نقطة إلى أخرى ، تمهيداً لإنزال الضربة على موضع لا يتوقعه العدو .

٣ — باستخدام الأرض الشديدة أو بعبور الموانع التى تعتبر غير قابلة للعبور .

٤ — باستخدام أسلحة جديدة غير متوقعة أو أساليب تعبوية جديدة .

فما هى المباغتة ؟

المباغتة هى إحداث موقف لا يكون العدو مستعداً له ، والكتمان من أهم الوسائل التى تؤدى للمباغتة .

والسرعة فى التنقل لإنزال ضربة لا يتوقعها العدو : فى زمان لا يتوقعه أو فى مكان لا يتوقعه ؛ واستخدام الأرض الصعبة وعبور الأراضى الصعبة ، واستخدام أسلحة جديدة غير متوقعة أو أساليب تعبوية جديدة غير متوقعة؛ كلها وسائل تؤدى للمباغتة أيضاً .

لقد طبّق خالد فى حروبه كل هذه الوسائل فباغت عدوه فى كل معركة خاضها تقريباً بوسيلة أو أكثر من هذه الوسائل ، فكان ذلك من أهم أسباب انتصاراته ، حتى ليمكن اعتبار معاركه نماذج رائعة لتطبيق وسائل المباغتة .

لقد كتم استعداداته للهجوم على رماة المسلمين فى (مؤتة) ، فلما حانت له له الفرصة المناسبة اهتبلها بسرعة خاطفة ، فضرب الرماة وضرب المسلمين من الخلف ، وبذلك جعل النصر ينتقل من صفوف المسلمين إلى صفوف المشركين.

وفى غزوة (مؤتة) كتم استعداداته للانسحاب ، وأظهر ساقة المسلمين بمظهر القوة الجسيمة وذلك بنشرها فى ساحة كبيرة من الأرض وبما أحدثته من جلبة وأصوات ؛ فلما أنجز انسحاب القسم الأكبر من قوات المسلمين وأصبحت فى مأمن من مطاردة الروم لها ، سحب الساقة بسرعة خاطفة أيضاً إلى منطقة أمينة ، وبذلك خلّص المسلمين من خطر الفناء .

ولما تحرّك نحو (طليحة) أظهر أنه اتّجه إلى منطقة (طيء) لا إلى (بزاخة) منطقة (طليحة) ، وبذلك جعل (طيء) تنفصل عن (أسد) قوم (طليحة) وتسرع إلى منطقتها ، وبهذا ضعف (طليحة) وسهل على خالد القضاء عليه .

تلك أمثلة قليلة عن كتمان خالد لاستعداداته العسكرية ونواياه .

أما سرعة تنقّل قطعاته من نقطة إلى أخرى ومن مكان إلى آخر ، تمهيداً لإنزال الضربة على موضع لا يتوقّعه العدو ، فقد كانت كلّ تنقلات خالد في كل معاركه تتسم بالسرعة الفائقة . فقد أقام خالد في العراق — مثلاً — سنة وشهرين فقط ، فتح خلالها من جنوب البصرة إلى (الفراض) على تخوم الشام والعراق وأنقذ خلالها عياضاً في (دومة الجندل) ، ولا يمكن أن يتمّ كل ذلك في مثل هذا الوقت القصير تجاه مقاومة جيوش نظامية لامبراطورية عريقة في المجد كالامبراطورية الفارسية ، إلا بسرعة التنقل من مكان إلى مكان .

وهنا لا بد أن نذكر كيف قطع الصحراء من (قراقر) إلى (سوى) في خمس ليال ، مما جعل حاميات المدن والمواقع التي صادفته في طريقه بين العراق وأرض الشام تستسلم لقواته بعد قتال طفيف أو بدون قتال ، لأنها لم تكن تتوقّع أبدا أن تلاقي قوة جسيمة من المسلمين تظهر عليهم من هذا الاتجاه في هذا الوقت بالذات .

وعبور خالد للصحراء من الطريق الخطر الذي اختاره مباغتة فذّة في التاريخ العسكري لا أعرف لها مثيلا ؛ ولست أعتقد أن عبور (هانيبال) للالب [1] وعبور (نابليون) للألب أيضاً ، ولا تفويز نابليون من صحراء سيناء أو قطع الجيش البريطاني لهذه الصحراء في الحرب العالمية الأولى ، يمكن أن تعتبر شيئاً إلى جانب مغامرة خالد ، لأن عبور الجبال أسهل بكثير من عبور الصحراء لتيسر الماء في الجبال وعدم تيسره في الصحراء ، ولأن صحراء سيناء فيها كثير من الآبار والأماكن المأهولة وعدم تيسر ذلك في الصحراء التي قطعها خالد ، فكان نجاح خالد في عبور الصحراء مباغتة كاملة للروم لم يكونوا يتوقعونها بتاتا .

---

(١) انظر التفاصيل في كتاب : هنيبعل لجورج مصروعة (١/ ٢٩٠ — ٣٠١) .

أما استخدام خالد أساليب تعبوية جديدة، فقد اشتهر خالد بأن فكرته التعبوية متطورة باستمرار، فهو لا يكاد يقاتل بأسلوب تعبوي واحد في معركتين بل هو يبدّل أساليبه التعبوية في معاركه، فيحيّر عدوّه ولا يدع له مجالاً لمعرفة ما يطبقه في المعارك من أساليب.

قاتل المسلمين في معركة (أحد) بأسلوب الكر والفر[1]، وقاتل يوم (الخندق) بأسلوب الصفوف[2]، وقاتل أهل الردة بأسلوب (النظام الخماسي)[3]، وقاتل الفرس بأساليب متعددة: بأسلوب النظام الخماسي تارة وبأسلوب وضع الكمائن بالإضافة إلى النظام الخماسي، وبأسلوب التقدم بأرتال متعدّدة تجتمع في مكان معيّن وفي وقت معيّن لضرب العدو من جميع الجهات وبأسلوب التقدم برتل واحد . . . الخ . وقاتل في (اليرموك) بأسلوب الكراديس[4] بتعبية لم تعهدها العرب من قبل[5]، وهكذا فله كل يوم في كل

---

(١) أسلوب الكر والفر: هو أن يهجم المقاتلون بكل قوّتهم على العدو، فإن صمد لهم العدو أو أحسّوا بالضعف نكصوا ثم أعادوا تنظيمهم وكرّوا، وهكذا يكرّون ويفرّون حتى يكتب لهم النصر أو الفشل. راجع الرسول القائد ص(٨١) الطبعة الثانية.

(٢) القتال بأسلوب الصفوف: يكون بترتيب المقاتلين صفين أو أكثر على حسب عددهم، وتكون الصفوف الأمامية من المسلحين بالرماح لصد هجمات الفرسان، وتكون الصفوف المتعاقبة الأخرى من المسلّحين بالنبال لتسديدها على المهاجمين من الأعداء. راجع الرسول القائد ص (٨١) الطبعة الثانية.

(٣) النظام الخماسي: ترتيب القوات لتكون محمية من الجهات الأربعة، وذلك بترتيب: ميمنة وميسرة ومقدمة وساقة، ثم جعل القلب في الوسط. راجع كتاب الجندية في الدولة العباسية للمرحوم الرئيس الركن نعمان ثابت ص (٢٣٨).

(٤) أسلوب الكراديس: مشابه للنظام الخماسي، عدا أن تشكيلات النظام الخماسي وهي: (الميمنة والميسرة والمقدمة والساقة والقلب) يتألف كل منها من عدد من الكراديس (الكتائب). راجع مقال (جيش المسلمين في عهد بني أمية) في ص (٦٤٢) من العدد الثاني المجلد الرابع من مجلة المجمع العلمي العراقي الصادرة بتاريخ (١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ م).

(٥) الطبري (٢/٥٩٣) وابن الأثير (٢/١٥٨).

معركة أسلوب جديد ... وهو أول من قاتل بأسلوب الكراديس في الإسلام[1] والحق أن خالداً كان ماهراً جداً في تعبية الجيوش وتأمين حمايتها وزجّها في المعركة واستخدام أجزائها المختلفة بتعاون وثيق في المحل اللازم في الوقت اللازم، وبذلك انتصر بفئته القليلة على الفئة الكثيرة بإذن الله.

لقد استخدم خالد كافة أساليب القتال التي يمكن الحصول بها على المباغتة، وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان متيقظاً منتبهاً إلى حركات العدو ونواياه حريصاً غاية الحرص على سلامة رجاله، لذلك استطاع أن يباغت عدوه دائماً ولم يستطع عدوّه أن يباغته أبداً.

رابعاً: تحشيد القوة[2]

كان خالد يُعير مبدأ (تحشيد القوة) اهتمامه الكبير، لأنه كان يعلم أنّ عدد القوة وعُدَدها له أثر كبير في إحراز النصر.

لقد عمل جاهداً على فصل (طيء) عن (أسد) قبل مهاجمته (طليحة) وعمل على ضم هذه القبيلة إلى قواته، فكان لها أثر ملموس في قتال (قيس) حلفاء (طليحة)[3].

وقد ضمّ إليه رجال شرحبيل بن حسنة والمدد الذي قدم من المدينة قبل أن يقاتل مسيلمة الكذاب في (اليمامة) وبذلك أكمل تحشيد قوته قبل البدء بالقتال[4].

---

(١) ذكر ابن خلدون في مقدمته ص (٢٧٣) أن أول من أبطل الصف وصار إلى التعبية كراديس هو مروان بن الحكم. وهذا خطأ والصحيح هو ماذكرناه أعلاه.

(٢) تحشيد القوة: هو حشد أعظم قوة أدبية وبدنية ومادية واستخدامها في الزمان والمكان الجازمين.

(٣) الطبري (٢/٤٨٥) وابن الاثير (٢/١٣٣).

(٤) الطبري (٢/٥٠٤ — ٥٠٥).

وضم إليه رجال المثنى بن حارثة الشيبانى ورفقائه من القادة فى العراق، قبل أن ينشب الحرب ضد الفرس فى أرض الرافدين[1].

وكان يحرص كل الحرص أن يجمع أرتاله فى مكان معين فى وقت معين قبل أن يقوم بالهجوم على العدو، كما جرى ذلك فى معركة (ذات السلاسل) و(المصيخ) و (الثنى) و (الزميل).

ولم يبدأ بقتال الروم فى (اليرموك) إلا بعد أن أكمل تحشيد قوات المسلمين هناك.

ولكنه كان لا يهتم بكثرة العدو اهتمامه بوجود عدد من المؤمنين الصادقين بين صفوف رجاله، أى أنه كان يهتم (بالنوع) أكثر من اهتمامه (بالكمية)، لذلك حرص أن يستصحب معه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من رجاله فى العراق إلى الشام[2]، وكان يتمنى أن يقاتل مع المهاجرين ويفضّلهم على غيرهم من الناس[3].

إن خالداً طبق مبدأ (التحشد) فى كل معاركه، ولم يدخر وسعاً لتحشيد أكبر قوة مادية ومعنوية فى كل معركة خاضها.

خامساً : الاقتصاد بالمجهود[4]

راعى خالد مبدأ (الاقتصاد بالمجهود) فى كل معاركه، فكانت قواته

---

(١) الطبرى (٢/٥٥٤) وابن الاثير (٢/١٤٧).

(٢) الطبرى (٢/٦٠٥).

(٣) الإصابة (٢/٩٩).

(٤) الاقتصاد بالمجهود : هو استخدام أصغر قوّة الأمن أو لتحويل انتباه العدو إلى محل آخر أو صدّ قوة معادية أكبر منها، مع بلوغ الغاية المتوخاة.
إن الاقتصاد بالمجهود يدلّ على الاستخدام المتوازن للقوة والتصرّف الحكيم بجميع المواد لغرض الحصول على التحشّد المؤثر فى الزمان والمكان الحاسمين.

أقل بكثير من قوات أعدائه، وكان يعوّض عن قلّة رجاله بأساليبه التعبوية الفذّة وبفنّه العسكرى الممتاز .

كان دائماً فى الأمام قريباً من مواطن الخطر ، وذلك حتى يرى بعينيه حقيقة الموقف ويعمل فوراً على معالجته ، دون أن يكبد قواته خسائر لا مبرر لها .

وكان يستأثر بالخطر دون رجاله ، فيتربص بقائد جيش العدو ليقضى عليه ؛ أما إذا أقدم ذلك القائد على الظهور فى ميدان البراز ، فخالد حاضر لمبارزته وإنهاء الحساب معه .

لقد كانت شخصية خالد وقيادته العبقرية وشجاعته الشخصية ؛ هى العوامل الحاسمة للاقتصاد بالجهود ، وعدم تكبيد المسلمين خسائر بالأرواح ، وإكمال مايعانيه المسلمون من نقص فى العدد والمعدات .

لقد كان خالد قوة هائلة تعوّض عن كل نقص وتحمى من كل خطر .

سادساً : الأمن[1] :

طبق خالد مبدأ (الأمن) بشكل رائع يدعو إلى الإعجاب الشديد .

كان خالد لا يتحرك إلا على تعبية ، ومعنى ذلك أنه يخرج مقدمة ومجنبتين ومؤخرة لقوته ، لتكون محمية من جميع الجهات .

وكان لايبيت إلا على تعبية ، ومعنى ذلك أنه يؤمن حماية قواته من جميع الجهات أيضاً ، ويكثر من الحراسات .

---

(١) الامن : هو توفير الحماية للقوّة ولمواصلاتها لوقايتها من المباغتة ، ومنع العدو من الحصول على المعلومات .

وكان لا ينام ولا ينيم ، أى أنه كان يفتش بنفسه على قطعات الحماية وعلى الحراس حتى يتأكد من قيامهم بواجباتهم بشكل ممتاز .

وكان لايخفى عليه شيء من أمر عدوه ، ومعنى ذلك أنه كان يكثر من إرسال العيون والأرصاد ويقوم هو بنفسه بالاستطلاع الشخصى — كل ذلك ليحصل على المعلومات التفصيلية عن عدوه ويحرمه من الحصول على المعلومات عن قطعاته .

وطبق مبدأ (الكتمان) فى كل حركاته ، لحرم العدو من معرفة نواياه قبل وقت مناسب ليتخذ لإحباطها التدابير المناسبة .

تلك هى تدابير خالد الوقائية لسلامة رجاله وأمنهم ، لذلك لم ينجح أعداؤه فى محاولاتهم لمباغتة قواته ، ونجح هو كثيراً فى مباغتة أعدائه .

إن تدابير خالد الأمنية من أروع أمثلة التاريخ العسكرى للسهر على أمن وسلامة رجاله من مكائد الأعداء .

سابعاً : المرونة[1] :

كانت لقوات خالد قابلية فائقة على التنقل من مكان إلى آخر بكفاءة

---

(١) المرونة : إن المبدأ الذى كان يسمى قبل الحرب العالمية الثانية بمبدأ (قابلية الحركة) ، أصبح يسمى الآن مبدأ (المرونة) ، ذلك لأن (قابلية الحركة) تدل على الحركة المادية ، وهى صفة نسبية لا يعبر عنها تعبيراً صحيحاً إلا بالمقارنة مع قابلية حركة العدو .

إن (المرونة) تعنى أكثر من ذلك . إنها لا تتضمن قوة الحركة فحسب ، بل قوة العمل السريع . كذلك على القائد أن يكون مرن الفكر ، وعليه أن يطبق تلك المرونة عند وضع الخطط لحملته ، وأن تكون خططه بشكل يمكنه من أن يبدل سريعاً حركات قواته حين تضطره الظروف غير المتوقعة .

وسرعة ، يكفى أن نذكر أنها نجحت فى اختراق الصحراء من أصعب طرقها بأسرع وقت وبدون خسائر غير اعتيادية .

لقد امتاز خالد بمقدرته الفذة على غرس روح قابليـة الحركة فى رجاله وجعلهم يعملون بسرعة خارقة فى مختلف الظروف والأحوال — ذلك لأن خالداً كان يمتلك ذكاء لماحاً : يفكر بسرعة ، ويقرر بسرعة ، وينفذ بسرعة .

وكان قائداً مرناً فى خططه ، فهو لا ينفك يعدّلها بسرعة ودقة كلما ألجأته أحوال الموقف المتطور الذى لا يستقر على حال .

لم يكن يدور بخلد قائد المشركين فى (أحد) أن بإمكانه ضرب المسلمين من الخلف ، ولكن خالداً انتهز فرصة انسحاب رماة المسلمين ، فضرب قوات المسلمين من الخلف وطوقهم بفرسانه دون أن ينتظر أوامر القائد العام .

وكانت خطته أن يقضى على فتنة (طليحة) بأسرع وقت ممكن ، ولكنه توقّف عن الحركة ثلاثة أيام لكى تستطيع (طيىء) أن تسحب رجالها من إسناد (طليحة)[1] .

ولما عبَّأ خالد جيشه للقتال ، قالت (طيىء) : نحن نكفيك (قيساً) فإنَّ بنى (أسد) حلفاؤنا ! — . فقال خالد : « قاتلوا أى الطائفتين شئتم » فاعترض عدى بن حاتم على قومه (طيىء) قائلا : « لو نزل هذا على الذين هم أسرتى الأدنى فالأدنى لجاهدتهم عليه . والله لا أمتنع عن جهاد بنى (أسد) لحلفهم . فقال له خالد : « إن جهاد الفريقين جهاد . لا تخالف رأى أصحابك وأمض بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط »[2] ، فماذا كان يحدث لو أصر

(١) الطبرى (٢/٤٨٣) وابن الأثير (٢/١٣٢) .
(٢) الطبرى (٢/٤٨٢) وابن الأثير (٢/١٣٣) .

خالد على رفض رغبة (طيء) وإنفاذ رغبة عدى بن حاتم بحجة أن أسداً مرتدون لا فرق بينهم وبين قيس ، وأن عدم مقاتلتهم على اعتبارهم حلفائهم أمر من أمور الجاهلية يبرأ منه الإسلام ؟؟

وكانت أوامر أبي بكر لخالد : أن يُقيم فى (بزاخة) بعد الفراغ من أمر (طليحة) حتى يكتب إليه بأمره . ولكنّ خالداً قدّر أن الانتظار قد يفيد مالك بن نويرة لترصين قواته ومضاعفة استعدادها للقتال ؛ لذلك قرر المسير إلى (مالك) بعد فراغه من (طليحة) مباشرة غير ملتفت لاحتجاج الأنصار [1] ، فلو لم يكن مرناً وبقى مدة من الزمن ينتظر وصول الأوامر والوصايا والتوجيهات ، لكان من المحتمل أن يشتد عضد مالك ويزداد خطره ، فلا يقوى المسلمون على تحطيمه بسهولة وأمان .

وفى أول معركة خاضها خالد فى العراق ضد الفرس ، واعد خالد قواته (الحفير) ، فلما علم بأن الفرس سبقوه إليه ونزلوا به ، مال بالناس إلى (كاظمة) [2] ، حتى يحرم الفرس من مزية سبقه إلى ميدان القتال وإكمال استعداداتهم التعبوية قبله هناك .

وفى معركة (دمشق) كان خالد قائداً مرؤوساً ، وكان أبو عبيدة هو القائد العام ، ولكن خالداً عندما علم بأنَّ حماة الأسوار والأبواب من الروم قد تركوا مواضعهم للاشتراك فى أفراح البطريق ، انتهز هذه الفرصة الذهبية فاعتلى الأسوار وفتح الأبواب ودخل المدينة [3] .

تلك هى بعض ملامح خطط خالد المرنة وعقليته المرنة ، وتلك هى بعض

---

(١) الطبرى (٢/٥٠١) وابن الأثير (٢/١٣٦) .

(٢) الطبرى (٢/٥٥٥) وابن الأثير (٢/١٤٨) .

(٣) الطبرى (٢/٦٢٦ — ٦٢٨) وابن الأثير (٢/١٦٤ — ١٦٥) .

مزايا قوات خالد فى قابليتها على الحركة بسرعة وكفاءة ، فكيف لا ينتصر على أعدائه الكثيرين بقواته القليلة نسبياً ؟ ؟

ثامناً : التعاون[1]

ما دام خالد يمتلك شخصية قوية نافذة وإرادة فولاذية ثابتة ، وقابلية قيادية نادرة ، فإن بإمكانه أن يؤمن التعاون بين صنوف[2] قطعاته من جهة وبين تشكيلاتها التعبوية من جهة أخرى بسهولة ويسر ونجاح .

لقد لمسنا كيف أمّن خالد التعاون بين الفرسان الذين كانوا بقيادته وبين المشاة من المشركين فى معركة (أُحد) ، كما لمسنا كيف أمّن التعاون بين قواته وبين قبيلة (طيء) ضد (طليحة) الأسدى ، كما رأينا كيف أمن التعاون بين قواته وقوات شرحبيل بن حسنة ضد مسيلمة الكذاب ، وبين قواته وقوات المثنى بن حارثة الشيبانى وأصحابه فى العراق ، وبين قواته وقوات قادة الشام فى (اليرموك) ، وكيف أمّن التعاون بين جيشه الذى اقتفى به أثر جيش

---

(١) التعاون : هو توحيد جهود كافة الصنوف والقطعات لبلوغ الغرض .

(٢) كانت صنوف الجيش المعروفة حينذاك هى :

١ — الفرسان .
٢ — الرجل أو الرجالة وهم المشاة .
٣ — المنجنيقيون وهم رماة المنجنيق .
٤ — النشابون أو النشابة وهم الذين يرمون النشاب .
٥ — الدبابون ، وهم الذين يستخدمون الدبابات التى تتقدم مع المشاة لإعانتهم على التقدم .
٦ — الفعلة وهم الذين نسميهم اليوم بالهندسة .
٧ — الأطباء والبيطريون والممرّضون . راجع مقال جيش المسلمين فى عهد بنى أمية فى مجلة المجمع العلمى العراقى — العدد الثانى المجلد الرابع (١٣٧٥هـ — ١٩٥٦م) ص (٦٣٥ — ٦٣٧) .

(توذر) قائد الروم وبين جيش يزيد بن أبي سفيان ، حيث ضرب جيش الروم من الخلف فانهارت مقاومته ولم يستطع الوصول إلى هدفه وهو استعادة مدينة (دمشق) .

تلك أمثلة قليلة جداً عن جهود خالد لجمع وتوحيد كافة جهود الصنوف والقطعات وتأمين التعاون الكامل فيما بينها ، كي تعمل بتوافق واتّساق في سبيل هدف مشترك ومصلحة مشتركة ؛ ذلك الهدف هو القضاء على العدو بأسرع وقت وبأقل خسائر ، وتلك المصلحة هي إعلاء كلمة الله ورفع راية الإسلام شرقاً وغرباً .

لقد كان لمقدرة خالد على تأمين التعاون بين مختلف رجاله وأسلحته أثر كبير على إحراز النصر ودحر الأعداء .

تاسعاً: إدامة المعنويات[1]:

ترتكز المعنويات على دعامتين رئيسيتين: الثقة المتبادلة والإيمان القوي.

ذلك ما تنصّ عليه كتب التدريب العسكري في الجيوش الحديثة لأكبر جيوش العالم شرقية وغربية .

لقد كانت معنويات خالد ومعنويات رجاله ترتكز على هاتين الدعامتين

---

(١) المعنويات: أهم عامل من عوامل النجاح في الحرب ، وهي استعداد الجنود العقلي أو شعورهم الذي يدفعهم عن طيب خاطر إلى الكفاح والتحمل ومجابهة الخطر . وتتوقف المعنويات العالية على إيمان الجنود بالدور الذي يلعبونه وعلى ثقتهم بقائدهم ؛ فعندما تكون هناك ثقة ويكون هناك إيمان قوي ، فإن المعنويات تكون عالية . راجع كتاب تدريب المشاة المجلد الرابع — التعبية — (فوج مشاة في المعركة) ص (٤٤ — ٤٥) المطبوع في مطبعة الجيش العراقي سنة ١٩٥٥ م .

ولكن بشكل أكثر رسوخاً وأعظم قوةً ؛ إذ كانت معنوياتهم ترتكز على الثقة المتبادلة الراسخة ، والإيمان العظيم .

لقد أسلفنا أن خالداً كان موضع ثقة مرجعه الأعلى ، وكان يبادلهم ثقة بثقة وتقديراً بتقدير . كما أسلفنا أنه كان يثق بنفسه بل يبالغ بهذه الثقة ،ويثق برجاله أعظم الثقة ويقدّرهم أعظم التقدير .

كما أسلفنا : أن رجاله يثقون به إلى حد الفتنة ، فليس بعد ثقة رجال خالد به ثقة ولا بعد إعجابهم به إعجاب .

أما إيمانهم العظيم ، فهو إيمان المسلمين الأولين من السلف الصالح فى الصدر الأول للإسلام .

كانوا يؤمنون جميعاً بالقضاء والقدر إيماناً لا حدود له ، و يؤمنون بأن النفس لن تموت حتى تستوفى أجلها ، ويؤمنون بأن الجهاد فى سبيل الله فرض عين على كل مسلم وأن الصبر فى ساحات الوغى واجب محتوم : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين »[1]،ويؤمنون بأنهم يخوضون حربا عادلة لتكون كلمة الله هى العليا[2] وحتى ينتشر فى الأرض الإسلام والسلام .

ذلك هو مبلغ إيمان خالد ، وذلك هو مبلغ إيمان رجاله ، فكيف لا تظهر على أيديهم خوارق الشجاعة ومعجزات الفداء ! !

لقد أدام خالد هذه المعنويات العالية فى نفسه وفى رجاله بصورة خاصة

---

(١) سورة آل عمران (٣/١٤٢) .

(٢) الحرب العادلة : هى الحرب التى توجّه ضد شعب ارتكب ظلماً نحو شعب آخر ولم يشأ رفعه ، ويشترط فيها أن تكون مطابقة للقواعد الإنسانية وتكون لغرض تحقيق سلم دائم ، كما يشترط فيها وجوب احترام حياة وأملاك الأبرياء .

وفى العرب المسلمين بصورة عامة ، وذلك بإثارة الاعتزاز بالمثل العليا للعقيدة الإسلامية ، وبإثارة النخوة بالماضى المجيد لأيام العرب ، وبإثارة الرجولة بمثاله الشخصى فى الشجاعة والإقدام .

كان يثير فى النفوس شعور الاعتزاز بالإسلام ، فيعين قارئاً خاصاً يقرأ سورة الجهاد قبل المعركة وفى أثنائها ، فيستمعون قول الله : « يا أيها الذين آمنوا ، إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يولّهم يومئذٍ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة ، فقدباء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير »[1] ويستمعون قوله تعالى : « وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يُوفَّ إليكم وأنتم لا تظلمون . وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكّل على الله إنّه هو السميع العليم »[2] ، فمن يفرّ منهم من الزحف ، ومن منهم لا يُعِدّ كل ما يستطيع من قوة للتغلّب على العدو ، ومن منهم لا ينفق بسخاء فى سبيل المجهود الحربى ، ومن منهم يعتدى على العدو إذا جنح للسلم ؟ !

ويستمعون قوله تعالى : « يأأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون[3] » ، فمن منهم لا يطيع الأوامر وينفّذها عن طيب خاطر بكل أمانة وحرص ؟ !

تلك لمحات من سورة الأنفال ، التى كان يقرؤها القراء قبل المعركة

(١) سورة الأنفال (٨ : ١٥ — ١٦) .
(٢) سورة الأنفال (٨/٦٠ — ٦١) .
(٣) سورة الأنفال (٨/٢٠) .

وفي أثنائها لتذكير الناس بفضائل الجهاد ؛ فهل كان خالد يكتفي بذلك — ولو اكتفى لما كان ملوماً — لإدامة المعنويات ؟

لقد كان يعيّن قاصاً يقص[1] على الناس أخبار أيام العرب قبل الإسلام : يوم ذي قار وأيام حرب الفجار ؛ وأخبار أيام العرب بعد الإسلام : غزوات النبي صلى الله عليه وسلم وحروب أهل الردة وأيام الفتح ، فيثير ذلك شعور النخوة في النفوس ويبعثها على الإقدام البطولي لتكون هي الأخرى قصة مشرّفة تتلى على الناس ويتحدّثون عنها فخورين معجبين[2] .

وكان يثير الشجاعة والإقدام في نفوس رجاله ، بمثاله الشخصي ، فيقدم إقدام من لا يهاب الموت ولا يخشاه ، فكيف لا يقتدي رجاله بفعاله .

وبالإضافة إلى كل ذلك ، فقد كان خالد يديم معنويات رجاله بالنصر الذي يسير في ركابه ، وما أصدق قولة خالد : « . . . إنما تكثر الجنود بالنصر وتقلّ بالخذلان لا بعدد الرجال[3] » ، لأن الجيش ينتصر بمعنوياته أكثر مما ينتصر بعدده وعدده ، وقد رأينا في الحرب العالمية الثانية ، كيف كان ينظر العالم كله إلى الجيش الإيطالي على الرغم من ضخامة عدده وكفاءة تسليحه وحسن تنظيمه ، ولكن المعنويات كانت تنقصه ؛ فكانت مواضعه التي يحتلها تعتبر فراغاً عسكرياً .

---

(١) الطبري (٥٩٤/٢) وابن الأثير (١٥٨/٢) .

(٢) (كان أهل الأيام من أهل الكوفة يوعدون معاوية عند بعض الذي يبلغهم ويقولون ماشاء معاوية : نحن أصحاب ذات السلاسل ويسمّون ما بينها وبين الفراض ما يذكرون ما كان بعدُ احتقاراً لما كان بعد فيما كان قبل) ذلك ما ورد في الطبري (٥٨٤/٢) وكل هذه المعارك التي يفخر بها أهل الكوفة على معاوية كانت بقيادة خالد ابن الوليد . فإذا اقتصر فخر أهل الكوفة على معارك خالد في العراق ، فإن أهل الشام الذين قاتلوا تحت لواء خالد لا بد أن يفخروا بأيامهم معه فخر أهل الكوفة .

(٣) الطبري (٥٩٤/٢) وابن الأثير (١٥٨/٢) .

لقد كان خالد كتلة هائلة من المعنويات ، تنتقل منه المعنويات العالية إلى رجاله بالعدوى فتزداد معنوياتهم قوة ورصانة ، ويحطم بسمعته العالية وإقدامه ورجولته معنويات أعدائه ، فيحسبون للقائه ألف حساب .

عاشراً : الأمور الإدارية :

تحسّنت الحالة المعاشية لرجال خالد بعد معركة (اليمامة) وازدادت تحسّناً كلما أوغلوا فى فتح العراق ، فقد بلغ سهم الفارس فى يوم (ذات السلاسل) ألف درهم والراجل ثلث هذا المبلغ[1] وبلغ سهم الفارس فى معركة (أمغيشيا) ألفاً وخمسمائة سوى النفل[2] الذى نفله أهل البلاء[3] . . . إلخ

ولعلّ تدابير خالد الإدارية التى اتّخذها تمهيداً لعبوره الصحراء بين العراق والشام قد وصلت شأواً بعيداً فى الدقة والروعة فقد نقل الماء فى بطون الإبل وفوق ظهورها ، كما أمر خالد قائد كل خيل أن يعطش عدداً من الإبل يكفى ماتحرزه من الماء لخيله[4] ، وهيأ دليلاً ماهراً يعرف مسالك الصحراء ، وبهذه التدابير الدقيقة استطاع خالد عبور الصحراء بدون خلل إدارى يذكر .

وكان مع جيشه بعض الأطباء من العرب لإعطاء الأدوية السائدة حينذاك المرضى والمصابين ، كما كانت النساء يقمن بواجب تموين المقاتلين بالماء والطعام والعناية بالمرضى والجرحى ونقلهم من ساحة المعركة إلى موضع أمين .

---

(١) الطبرى (٢/٥٥٧) .

(٢) النفل : جمعها أنفال ، وهى الغنائم . راجع تفسير الجلالين فى تفسير قوله تعالى : « يسألونك عن الأنفال » ص (١٤٥) .

(٣) الطبرى (٢/٥٦٣) .

(٤) الطبرى (٢/٦٠٣) وابن الأثير (٢/١٥٦) وفتوح الشام للواقدى (١/١٤) والبلاذرى ص (١١٨) .

تلك هى بعض الأمور الإدارية التى أمّنها خالد لرجاله .

أما الأمور الإدارية التى أجراها مع أعدائه ، فقد كانت بدرجة من الروعة والعدل والإنصاف بحيث لانزال نعجب بها حتى اليوم أشد الإعجاب .

فقد أقرّ الفلاحين على ما كانوا عليه وجعل لهم الذمة[1] ، وعاملهم معاملة ممتازة ، مما جعلهم يلهجون بالشكر والثناء لعدالة العرب المسلمين .

أما الجزية[2] التى فرضها خالد على المغلوبين فهى من أجل حمايتهم فى أموالهم وعقائدهم وأعراضهم وكرامتهم وتمكينهم من التمتع بحقوق الرعوية مع المسلمين سواء بسواء . يدل على ذلك أنّ المعاهدات التى عقدها خالد مع سكان العراق مثلاً ، كانت تنصّ على هذه الحماية فى العقائد والأموال ، فقد جاء فى عهد خالد لصاحب (قس الناطف) : « إنى عاهدتكم على الجزية والمنعة ، فإن منعناكم فلنا الجزية ، وإلا فلا حتى نمنعكم[3] » . كما نص عهده مع أهل الحيرة على المنعة أيضاً وعلى أخذ الجزية من القادرين على دفعها فقط وإعفاء غير القادرين[4] بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، فأعلن فى كتابه إلى أهل الحيرة التأمين الاجتماعى ضد الشيخوخة والمرض والفقر ، فقال فيه : « جعلت لهم أيّما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته وعيل من بيت

---

(١) راجع الطبرى (٢/٥٥٦ و ٥٥٨ و ٥٥٩ . . . الخ) حيث ورد كثير عن معاملة خالد للفلاحين بالعدل والإنصاف .

(٢) الجزية : بالكسر ، خراج الأرض ، وما يؤخذ من الذمى . راجع القاموس المحيط للفيروزأبادى مادة الجزاء .

(٣) انظر نظام السلم والحرب فى الإسلام — للدكتور مصطفى السباعى (ص ٣٠)

(٤) الطبرى (٢/٥٦٧) .

مال المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام ، فإن خرجوا إلى غير دار الهجرة ودار الإسلام ، فليس على المسلمين النفقة على عيالهم[1] !!! » .

ولكن مامقدار الجزية المفروضة على القادر على دفعها ؟ إنها أربعة عشر درهماً على كل رجل لا أكثر[2] ، وهى أقل بكثير مما يدفعه المسلم من زكاة ماله .

الحق أن خالداً كان عبقرية إدارية كما كان عبقرية عسكرية ، ولو أنّ الظروف ساعدته على إظهار قابلياته الإدارية ، لاستحوذ على إعجاب الناس وتقديرهم لإدارته للناس ولأمور المال ، كما استحوذ على إعجاب الناس وتقديرهم لقيادته للرجال .

قائد عبقرى :

لا أعرف قائداً عبقرياً فى تاريخ المسلمين غير الرسول القائد صلوات الله وتسليمه عليه ، يمكن أن يفضل على القائد العبقرى خالد بن الوليد .

ولست أفضل عبقرية قيادة الرسول القائد على عبقرية خالد بن الوليد خضوعاً لعاطفتى باعتبار أنه نبىّ الإسلام وخاتم النبيين والمرسلين ، ولكنى مقتنع بذلك بعد دراسة مستفيضة لمزايا قيادة النبى العظيم سيد القادات وقائد السادات ، رجل الرجال وبطل الأبطال محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم[3] ، ومزايا قيادة خالد هازم الفرس والروم .

لقد اصطرعت عبقريتا هذين القائدين فى (أحد) وفى (الخندق) ،

---

(١) انظر الخراج لأبى يوسف ص (١٧٢) .
(٢) البلاذرى ص (٢٤٥) مع اختلاف فى المقدار فى مصادر أخرى .
(٣) أنظر تفاصيل هذه الدراسة فى كتابنا الرسول القائد .

وفى غزوة (الحديبية) ، فكانت الغلبة فى كل هذه الغزوات لعبقرية الرسول القائد على عبقرية الصحابى القائد .

لقد كان خالد قائد فرسان المشركين فى (أحد) ، وكان التفوق العددى إلى جانب المشركين ، ومع ذلك استطاع المسلمون بقيادة النبى الكريم دحر المشركين فى الصفحة الأولى من المعركة حتى أخذ المسلمون ينتهبون معسكر المشركين ، مما جعل بعض رماة المسلمين يتركون مواضعهم ظناً منهم أن المعركة قد انتهت لصالح المسلمين ، فانتهز خالد فرصة انسحاب الرماة لضرب المسلمين من الخلف ، فأصبح المسلمون مطوّقين من كل جانب .

فى هذا الموقف الرهيب بالنسبة للمسلمين ، يبرز اصطراع عبقريتى القائدين العظيمين ، فينجح الرسول القائد فى إنقاذ أصحابه من هلاك أكيد ، ويفشل خالد فى القضاء على المسلمين ، ولولا مخالفة الرماة لأوامر الرسول صلى الله عليه وسلم الصريحة فى الثبات حتى النهاية فى مواضعهم ، لاستحال على خالد أن يقوم بضرب المسلمين من الخلف ، ولما كان له فى هذه المعركة أثر ملموس .

أما فى (الخندق) و (الحديبية) فقد انتصرت عبقرية الرسول القائد على عبقرية خالد ، إذ لم يظهر لخالد فيهما أثر حاسم فى الوقت الذى ظهر للرسول صلى الله عليه وسلم أثران حاسمان : فى كل معركة منهما أثر حاسم .

ولا عجب فى ذلك . . . لقد كان محمد قائداً ورسولا .

ومع ذلك ، فهناك قائد عربى مسلم هو المثنى بن حارثة الشيبانى ، يشابه فى سماته ومزاياه العسكرية سمات ومزايا خالد ، ولو لم يستشهد المثنى قبل أن يقضى رسالته فى الفتح ، لكان له شأن ينافس شأن خالد فى الفتوح .

لقد ظهر عشرات القادة من صحابة النبى صلى الله عليه وسلم وتلاميذه

حملوا رايات الإسلام شرقاً وغرباً ، ولكن لم يفتتن الناس بغير خالد والمثنى[1] ، لأنهما كانا كفرسي رهان في مزاياهما وفي ثمار سيفيهما في الفتح .

لقد جمع خالد مزايا الجندي الممتاز إلى مزايا القائد الممتاز مع أن هذه المزايا هي مزايا مثالية أو نماذج عليا يندر أن يتصف بها قائد واحد ، لأنها مجموعة من مزايا عديدة من القادة العظام من فجر التاريخ حتى اليوم .

وإذا كان لنا أن نوجز مزايا عبقرية قيادة خالد بكلمات ، فهي : ذكاء نادر يجعله حاضر البديهة دائماً يصدر قرارات سريعة مرنة ومبتكرة غالباً متشبث بجمع المعلومات عن العدو مما يجعل تلك القرارات السريعة صحيحة ، سريع الحركة شجاع مقدام له عقيدة راسخة وشخصية قوية وإرادة حديدية وقابلية بدنية فائقة ومعنويات عالية ، يسيطر على أعصابه سيطرة عجيبة ، يثق به رجاله ويحبونه ويبادلهم ثقة بثقة وحباً بحب ، يفقه مبادئ الحرب وله ماض ناصع مجيد .

وكان بالإضافة إلى هذه المزايا ، يختار موضعه في القتال قريباً من مواطن الخطر — دائماً في الأمام ، دائماً يبارز أبطال أعدائه ويقضي عليهم ، دائماً يقاتل أكثر من أي فرد من رجاله فيضطر على تبديل سيف بعد سيف ، إذ لا يصمد في يده سيف واحد في معركة واحدة !

لقد خلق خالد ليكون قائداً ، فعاش قائداً ومات قائداً ، فغاب جسده عن الوجود ، ولكن بقي حياً في النفوس وآثاره بقيت خالدة في التاريخ ، وانتصاراته كانت ولا تزال وستبقى معجزة من معجزات تاريخ العرب والإسلام بل تاريخ الحرب لكل الأمم في كل مكان .

---

(١) ابن الأثير (٢/٢٠٧)

الخاتمة

« كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً
بِإِذْنِ اللهِ ، وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِين » .

(قرآن كريم)

أسلم خالد فى أول من صفر سنة ثمان للهجرة (٦٢٩م) ومات سنة إحدى وعشرين للهجرة (٦٤١م)، فخاض خلال اثنتى عشرة سنة فقط إحدى وأربعين معركة فى اليمن والحجاز ونجد والعراق وأرض الشام ، وترك آثاراً خالدة فى كل هذه البلاد الشاسعة كانت وما تزال باقية منذ نشر الإسلام فى ربوعها وضمها إلى العالم الإسلامى حتى اليوم .

إنه القائد العربى الوحيد الذى كان له أثر فى فتح كافة بقاع شبه الجزيرة العربية ، فهو أول قائد بحق جاهد من أجل وحدتها بصورة عملية .

رضى الله عن الصحابى الجليل ، البطل المقدام ، القائد الفاتح ، سيف الإسلام خالد بن الوليد .

الملحق (ب)

جدول توقيت الأعمال البارزة في حياة خالد[1]

التسلسل	الأعمـــال	السنة الهجرية	السنة الميلادية	الملحوظات
١	مولده	٢٥ ق . هـ	٥٩٧	في الجاهلية
٢	في أحد	٣ ب . هـ	٦٢٤	
٣	في غزوة الخندق	٥	٦٢٦	
٤	في غزوة الحديبية	٦	٦٢٧	
٥	في عمرة القضاء	٧	٦٢٨	
٦	إسلامه	٨	٦٢٩	مع الرسول القائد صلى الله عليه وسلم
٧	في غزوة مؤتة	٨	٦٢٩	
٨	في فتح مكة	٨	٦٢٩	
٩	في هدم العزى	٨	٦٢٩	
١٠	في بني جذيمة	٨	٦٢٩	
١١	يوم حنين	٨	٦٢٩	
١٢	غزوة الطائف	٨	٦٢٩	
١٣	مع بني المصطلق	٩	٦٣٠	
١٤	في تبوك	٩	٦٣٠	
١٥	هدم ود	٩	٦٣٠	
١٦	في دومة الجندل	٩	٦٣٠	
١٧	في نجران	١٠	٦٣١	
١٨	في اليمن	١٠	٦٣١	
١٩	مع طليحة	١١	٦٣٢	في حرب أهل الردة أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه
٢٠	مع مالك بن نويرة	١١	٦٣٢	
٢١	في اليمامة	١١	٦٣٢	
٢٢				
٢٣	في منطقة البصرة	١٢	٦٣٣	
٢٤	في المذار	١٢	٦٣٣	
٢٥	في الولجة	١٢	٦٣٣	
٢٦	في أليس	١٢	٦٣٣	

(١) إعتمدنا في إعداد توقيت هذا الجدول على ماجاء في الطبري ، عند مرعش وحصن الحدث فقد اعتمدنا في توقيت فتحهما على ما جاء في تاريخ أبي (١٦٠/١) .

التسلسل	الأعمال	السنة الهجرية	السنة الميلادية	الملحوظات
٢٧	في أمغيشيا	١٢	٦٣٣	
٢٨	في الحيرة	١٢	٦٣٣	
٢٩	في الأنبار	١٢	٦٣٣	
٣٠	في عين التمر	١٢	٦٣٣	فتح العراق
٣١	في دومة الجندل	١٢	٦٣٣	أيام أبي بكر
٣٢	في المصيخ	١٢	٦٣٣	الصديق
٣٣	في الثنى والزميل	١٢	٦٣٣	
٣٤	في الفراض	١٢	٦٣٣	رضى الله عنه
٣٥	حجّة خالد	١٢	٦٣٣	
٣٦				
٣٧	نقل خالد من العراق إلى أرض الشام	١٣	٦٣٤	
٣٨	في قراقر	١٣	٦٣٤	في الطريق بين
٣٩	في سوى	١٣	٦٣٤	العراق وأرض
٤٠	في تدمر	١٣	٦٣٤	الشام في عهد
٤١	في قصم	١٣	٦٣٤	
٤٢	في مرج راهط	١٣	٦٣٤	أبي بكر الصديق
٤٣	في بصرى	١٣	٦٣٤	رضى الله عنه
٤٤	في اليرموك	١٣	٦٣٤	فتح الشام أيام أبي بكر الصديق
٤٥	عزله من منصب القائد العام في الشام	١٣	٦٣٤	
٤٦	في دمشق	١٣	٦٣٤	فتح الشام
٤٧	في فحل	١٣	٦٣٤	في عهد عمر
٤٨	في مرج الروم	١٥	٦٣٦	ابن الخطاب
٤٩	في حمص	١٥	٦٣٦	رضى الله عنه
٥٠	في قنسرين	١٥	٦٣٦	
٥١	في مرعش وحصن الحدث	١٥	٦٣٦	
٥٢	وفاته	٢١	٦٤١	في حمص

أبو عبيد بن مسعود الثقفي[1]

فاتح منطقة الفرات الأوسط وشهيد معركة الجسر

إسلامه :

قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم (المدينة) من (تبوك) في رمضان من السنة التاسعة للهجرة ، وقدم عليه في ذلك الشهر وفد ثقيف[2] يعلن إسلامه وإسلام ثقيف .

لقد أسلم أبو عبيد بن مسعود بن عمرو الثقفي مع قومه ثقيف وحسن إسلامه كما حسن إسلام قومه ، إذ إنّهم ثبتوا على الإسلام بعد وفاة النبي[3] صلى الله عليه وسلم فنال أبو عبيد شرف الصحبة وكان من (جلة الصحابة)[4]، ولكنه لم ينل شرف الجهاد تحت لواء النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه أسلم بعد (تبوك) ، وهي آخر غزوة قادها الرسول بنفسه[5] .

---

(١) هو أبو عبيد بن مسعود بن عمر الثقفي ،وهو والد المختار الذي ظهر في الكوفة وقتل كافة من قدر عليه من قتلة الحسين بن علي رضي الله عنه . راجع الاستيعاب (١٤٦٥/٤) و (١٧٠٩/٤) .

(٢) عيون الأثر — لابن سيد الناس (٢٢٨/٢) وطبقات ابن سعد (٣١٦/١)

(٣) ابن الأثير (١٣٠/٢) .

(٤) الاستيعاب (١٤٦٥/٤) .

(٥) الطبري (٤٠٤/٢) .

جهاده :

١ — الفاتح :

أول ما عمل عمر بن الخطاب رضى الله عنه بعد موت أبى بكر رضى الله عنه أن ندب الناس مع المثنى بن حارثة الشيبانى إلى أهل فارس وذلك قبل صلاة الفجر من الليلة التى مات بها أبو بكر ، ثم أصبح فبايعه الناس فعاد فندب الناس لقتال الفرس .

وتتابع الناس على البيعة فى ثلاثة أيام ، كل يوم يندبهم فلا ينتدب أحد إلى فارس ؛ وكان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم وأثقلها عليهم ، لشدّة سلطانهم وشوكتهم وعزّهم وقهرهم الأمم ؛ فلما كان اليوم الرابع ، عاد فندب الناس إلى العراق ، فكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود ، ثم ثنى سعد ابن عبيد[1] وسُليط بن قيس[2] ، فلما تكامل تحشد ذلك البعث ، قال قائل لعمر : أمّر عليهم رجلا من السابقين المهاجرين والأنصار ، فقال عمر : « لا والله ! لا أفعل . إنّ الله إنما رفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العدو ، فإذا جبنتم وكرهتم اللقاء ، فأولى بالرياسة منكم من سبق إلى الدفع وأجاب إلى الله . والله لا أؤمّر عليهم إلا أولهم انتدابا[3]، ثم دعا أبا عبيد وسليطا وسعدا ، فقال مخاطباً سعدا وسليطاً .. « أما إنكما لو سبقتماه لوليتكما ، ثم قال لأبى عبيد :

(١) سعد بن عبيد الأنصارى الأوسى : شهد (بدرا) ومات شهيداً فى القادسية . راجع الإصابة (٨١/٣) والاستيعاب (٦٠٠/٢) وأسد الغابة (٢٨٥/٢) وطبقات ابن سعد (٤٥٨/٣) .

(٢) سليط بن قيس الأنصارى الخزرجى : من بنى النجار ، شهد (بدراً) وما بعدها من المشاهد كلها وقتل يوم الجسر مع أبى عبيد ، راجع أسدالغابة (٣٤٥/٢) والاستيعاب (٦٤٦/٢) والإصابة (١٢٣/٣) وطبقات ابن سعد (٥١٢/٣) .

(٣) الطبرى (٦٣١/٢) وابن الأثير (١٦٦/٢) وتاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص(٦٧) .

« إسمع من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأشركهم فى الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبيّن، فإنها الحرب ، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث[1] الذى يعرف الفرصة والكف »[2].

وعجّل المثنى بن حارثة الشيبانى بالعودة من المدينة إلى جيشه فى العراق، وسار أبو عبيد على أثره وبإمرته خمسة آلاف مقاتل، وكان يستنفر من يمرّ بهم من العرب، فأجابه عدد كبير منهم.

وصل المثنى إلى الحيرة، ووصل أبو عبيد إليها بعد المثنى بشهر[3]، وعملا على إكمال تحشّد جيش المسلمين؛ وبعد إنجاز ذلك ابتدأ الصراع بين الفرس والعرب المسلمين، فاصطدم جيش المسلمين بقيادة أبى عبيد بجيش الفرس بقيادة (جابان) فى (النمارق)[4]، فانهزمت القوات الفارسية بعد قتال شديد، وأُسر فى المعركة قائدهم (جابان)، فاستطاع بدهائه أن يأخذ الأمان لنفسه ممن أسره، فقال المسلمون لأبى عبيد: اقتله فإنه الأمير، فقال أبو عبيد: « إنى أخاف الله أن أقتله وقد أمّنه رجل مسلم. المسلمون فى التواد والتناصر كالجسد، فما لزم بعضهم فقد لزم كلهم!! فلما ألحوا عليه ذاكرين أن الذى أعطاه الأمان لا يعرف أنه أمير الفرس، أصر أبو عبيدة على موقفه قائلا: «لا أغدر»[5].. وتركه!

والتقى المسلمون بالفرس فى معركة (السقاطية)[6]، فانتصر المسلمون

---

(١) المكيث: الرزين غير المتهور. بعيد النظر الذى يفكر ملياً ثم يقرّر.
(٢) الطبرى: (٦٣١/٢).
(٣) ابن الأثير (١٦٧/٢).
(٤) النمارق: موضع قرب الكوفه من أرض العراق. راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٣١٦/٢).
(٥) الطبرى (٦٣٥/٢).
(٦) السقاطية ناحية قريبة من مدينة واسط. راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٩١/٥).

بعد قتال شديد أيضاً ، فأقام أبو عبيد بمنطقة (كسكر)[1] وسرح المثنى وغيره من القادة يغيرون على تلك النواحي ويخضعون حماتها للمسلمين .

وجاء الدهاقين[2] إلى أبي عبيد بآنية فيها أطعمة فارس ، وقالوا : هذه كرامة أكرمناك بها قِرىً لك . قال أبو عبيد : « أأكرمتم الجند وقَرَيتُموهم مثله ؟ » قالوا : لم يتيسّر ونحن فاعلون !! . قال أبو عبيد : « لا حاجة لنا فيه ! بئس المرء أبو عبيد إن صحب قوماً من بلادهم ، أهرقوا دماءهم دونه أو لم يهريقوا ، فاستأثر عليهم بشيء يصيبه !! لا والله لا نأكل مما أفاء الله عليهم إلا مثل ما يأكل أوساطهم[3] » .

وأرسل قائد الجيش الفارسي العام (رستم) جيشاً من الفرس بقيادة (الجالينوس) فهزمه أبو عبيد أيضاً ، فأتوه بالأطعمة أيضاً ، فقال : « ما آكل هذا دون المسلمين » ، فقالوا : ليس من أصحابك أحد إلا وقد أتى بمثل هذا !!. وحينذاك فقط أكل أبو عبيد ما قدّموه إليه من طعام[4] .

ثم ارتحل أبو عبيد بجنده حتى قدم الحيرة واستقر بها .

٢ — الشهيد :

عظم على (رستم) أن تنهزم جيوش فارس أمام العرب ، فسأل خاصته : « أي العجم اشتد على العرب فيما ترون؟ » ،فأجابوه إنه ذو الحاجب[5] (بَهْمن

---

(١) كسكر (منطقة غنية بمنتوجاتها الزراعية والحيوانية قصبتها مدينة واسط . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٢٥١/٧) .

(٢) الدهاقين : جمع دهقان وهو زعيم فلاحي الفرس ورئيس الأقليم .

(٣) الطبري (٦٣٧/٢) .

(٤) ابن الأثير (١٦٧/٢) .

(٥) سمي ذا الحاجب ، لأنه كان يعصب حاجبيه ليرفعهما عن عينيه كبراً . راجع البلاذري ص (٢٥٢) .

جاذويه) ، فوجهه رستم على رأس قوة عظيمة وردّ (الجاليتوس معه) وقال له : « إنْ عاد (الجالينوس) لمثل ما فعل ، فاضرب عنقه » .

وسار الفرس من المدائن حتى نزلوا (قس الناطف)[1] ، وسار أبو عبيد بجيشه حتى نزل (المروحة)[2] وعسكر بها ، وجعل الفرات بينه وبين العدو ، فبعث إليه قائد الفرس : « إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور ، وإما أن تدعونا نعبر إليكم » !!

قال الناس : لا تعبر يا أبا عبيد ! إنا ننهاك عن العبور . فحلف أبو عبيد : « ليقطعن الفرات إليهم » .

وناشده سليط بن قيس ووجوه الناس ، وقالوا : إنَّ العرب لم تلق مثل جنود فارس مذ كانوا ، وإنهم قد حفلوا[3] لنا واستقبلونا من الزهاء[4] بما لم يلقنا به أحد منهم ، وقد نزلت منزلا لنا فيه مجال وملجأ ومرجع من فرة إلى كرة[5] .

فقال أبو عبيد : « لا أفعل ! جبنت والله ياسليط ! » . فقال سليط « أنا

---

(١) قس الناطف موضع قريب من الكوفة على شاطىء الفرات الشرقي . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٧/ ٨٨) .

(٢) المروحة موضع قريب من الكوفة على شاطىء الفرات الغربي مقابل (قس الناطف) ، راجع التفاصيل في معجم البلدان (٨/ ٣٢) . وقد ذكر الدكتو محمد حسين هيكل في كتابه الفاروق عمر (١/ ١١٣) « أن أبا عبيد تراجع وجنوده إلى قرية (قس الناطف) فعبر النهر إليها وتحصنوا ينتظرون عدوهم » . والصحيح أنه كان في (المروحة) وهي في الضفة الغربية للفرات ، وهناك اصطدم بالفرس ، ولو صح أن أبا عبيد كان في قس الناطف لما كان لعبوره إلى الفرس معنى .

(٣) حفلوا : اجتمعوا واحتشدوا .

(٤) يقال قوم ذو زهاء ، أي عدد كبير .

(٥) الطبري (٢/ ٦٤٠) .

والله أجرأ منك نفساً ، وقد أشرنا عليك بالرأى ، فستعلم ! ! » ، فلج أبو عبيد وترك الرأى ، وقال : « لا يكونون أجرأ على الموت منا . بل نعبر إليهم » .

وعبر المسلمون على جسر من (المروحة) فى الضفة الغربية للفرات إلى (قس الناطف) فى الضفة الشرقية ، وكان جيش المسلمين أقل من عشرة آلاف مقاتل ، ومع ذلك ضاق بهم المكان الذى تركه لهم الفرس ؛ ولم يمهلهم الفرس بعد عبورهم ، بل هاجموهم بعنف شديد ، وكان فى مقدمة الفرس فيلة مدربة أخافت خيول المسلمين ، ففرت تلك الخيول لا تلوى على شيء .. ورشق الفرس المسلمين بالنبل ، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً . . . !

واشتدّ الأمر بالمسلمين ، فترجّل أبو عبيد والناس ومشوا إلى الفرس وصالحوهم بالسيوف ، ولكنّ الفيلة صدّت المسلمين وبعثرتهم ؛ فنادى أبو عبيد : احتوشوا[1] الفيلة واقطعوا بطنها[2] واقلبوا عنها أهلها ». ووثب هو بنفسه على فيل أبيض فقطع حزامه فوقع الذين على ظهره ، ثم ضرب خرطومه بالسيف ، ولكن الفيل هاجم أبا عبيد وضربه برجله فألقاه على الأرض ، ثم وقف فوقه فأزهق روحه .

ورأى الناس قائدهم شهيداً تحت أقدام الفيل ، فأنهارت معنوياتهم ، ولكنهم استقتلوا حتى تنحّى الفيل عن جثة أبى عبيد ، فأعملوا فيه سيوفهم حتى قتلوه .

وتتابع سبعة من ثقيف ، كلهم يأخذ اللواء ويقاتل حتى يموت ، حتى أخذ اللواء المثنى بن حارثة الشيبانى ، فوقف واللواء بيده ينادى : « يا أيها

---

(١) احتوش القوم الصيد ، إذا نفره بعضهم على بعض .

(٢) بطن : جمع بطان ، وهو الحزام .

الناس ! ! دونكم فاعبروا » . وبذلك استطاع تخليص البقية الباقية من جيش المسلمين[1] .

الشمائل :

جمع أبو عبيد مزايا العربي الأصيل والمسلم الصادق ، فقد كان كريماً مضيافا ، غيورا شهما يتدفق شهامة ونبلا ، وكان صادق القول وفيا إلى أقصى حدود الوفاء ، مأمون النقيبة ورعا تقيا ، أعماله أبلغ من أقواله ، وكان عقائديا من الطراز الرفيع ، بذل نفسه رخيصة فى سبيل عقيدته ، فمات شهيداً فى السنة الثالثة عشرة من الهجرة[2] (٦٣٤ م) .

القائد :

كان أبو عبيد لا يستأثر لنفسه بالخير دون رجاله بل كان يؤثرهم به على نفسه لذلك نال ثقتهم الكاملة .

وكان شجاعاً إلى أقصى حدود الشجاعة : تطوع لقتال الفرس عندما أحجم الآخرون، واستأثر لنفسه فى كل معركة بالخطر الداهم ، فبرز فى كل معركة خاضها على أقرانه وضرب لرجاله بمثاله الشخصى فى الشجاعة أروع الأمثال...وفى معركة الجسر بالذات يوم استشهاده قتل وحده من الفرس بين الستة والعشرة رجال[3] .

ولكنه كان إذا اقتنع برأى أصرّ عليه دون الالتفات إلى الآخرين ، وقد أدى إصراره على رأيه إلى كارثة معركة الجسر ، وكأنه نسى نصيحة

---

(١) الطبرى (٢/٦٣٩ — ٦٤٣) وابن الأثير (٢/١٦٨) والبلاذرى ص (٢٥٢ — ٢٥٣) ، وأنظر البدء والتاريخ (٥/١٧٠) وفى المعارف (٤٠١) ، أن أبا عبيد ضرب الفيل ، فوقع عليه الفيل فقتله .

(٢) الإصابة (٧/١٢٧) والاستيعاب (٤/١٤٦٥) .

(٣) الطبرى (٢/٦٣٩) .

عمر بن الخطاب له : أن يستشير أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يشركهم فى الرأى معه ، وكأنه نسى أن أمير المؤمنين أمرّه ولم يؤمر سليطا ، لأن الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث .

والحق أن أبا عبيد كان جندياً ممتازاً ولـكنه لم يكن قائداً ممتازاً ، لأن من صفات القائد الممتاز أن يستشير ذوى الرأى من رجاله وأن يأخذ بالسديد من آرائهم ، وأن يحسب لـكل شيء حسابه قبل الاندفاع إلى غمار القتال . لقد كان من نتائج إصرار أبى عبيد على رأيه واندفاعه الشديد خسارة المسلمين فى معركة الجسر أربعة آلاف شهيد بين قتيل وغريق ، من بينهم بعض كبار الصحابة ومن بينهم أخوه الحكم بن مسعود وابن أخيه جبر بن الحكم بن مسعود[1] وابنه جبر بن أبى عبيد[2] .

أبو عبيد فى التاريخ :

على الرغم من مكوث أبى عبيد مدة قصيرة قائداً عاماً فى العراق ، إلا أنه استطاع أن يترك أثراً معنوياً كبيراً بين المسلمين والفرس على حد سواء .

ترك أثراً معنوياً بين المسلمين ، لأنه جرّأهم على حرب الفرس ، فكان أول من أجاب دعوة عمر لجهاد الفرس ، فهو من هذه الناحية بعد المثنى بن حارثة الشيبانى وخالد بن الوليد فى إقنـاع العرب بالاستهانة بقوة الفرس العسكرية .

وتركت كارثة يوم الجسر أثراً معنوياً عميقاً فى نفوس المسلمين ، فقد بعث فى نفوسهم النخوة والحمية لأخذ ثارات شهداء يوم الجسر . لقد كان هتاف

---

(١) ابن الأثير (٢/١٦٩) .
(٢) الاستيعاب (٤/١٧٠٩) .

القعقاع بن عمرو التميمى وهتاف المسلمين فى معركة القادسية يتعالى : يالثارات أبى عبيد وسليط وأصحاب يوم الجسر[1] .

كما ترك أثراً معنوياً بين الفرس أنفسهم ، لأنه كان مثالاً فذا للقائد الشريف الذى لا يحنث بالعهود ويحترم المواثيق ويقاتل بشجاعة ونبل وشرف.

كما ترك أثراً مادياً لفتحه منطقة كبيرة من الفرات الأوسط ، تلك المنطقة التى اعتبر سكانها الفتح الإسلامى تحريراً لهم من ظلم الامبراطورية الفارسية واستغلالها .

لقد كان لتضحية أبى عبيد بنفسه أثر كبير فى إعداد العدّة الكاملة وإكمال أضخم تحشّد لقوات المسلمين فى العراق لإنجاز فتحه ؛ وبذلك يمكن اعتبار نتائج معركة الجسر فشلا تعبوياً للمسلمين ونصراً سوقيا لهم ، لأنهم أخذوا درسهم منها ، فلم يندحروا فى معركة بعدها حتى شملت رايات الإسلام جميع ربوع العراق .

إن التاريخ يذكر لأبى عبيد أنه مات شهيداً فى سبيل عقيدته ، وأن تضحيته بروحه وتضحية رجاله بأرواحهم هى التى ثبتت الإسلام فى العراق بعد المجوسية ، وجعلت العرب ينتزعونه من الفرس قبل أربعة عشر قرناً . . . وإلى الأبد !

رضى الله عن القائد الفاتح ، البطل الشهيد ، أبى عبيد بن مسعود الثقفى .

---

(١) الطبرى (٣/٥٢) .

سعد بن أبي وقاص الزهري

فاتح العراق والجزيرة

« هذا خالي ، فليرني امرؤ خاله »
محمد رسول الله

نسبه وأيامه الأولى :

هو سعد بن مالك بن أُهَيْب [1] بن عبد مناف بن زُهْرة بن كلاب القرشي الزهري ، وأمه حمنة بنت سفيان بن أمية بنت عم أبي سفيان بن حرب ابن أمية [2] . وفي (كلاب) يجتمع نسب الرسول صلى الله عليه وسلم بنسب سعد [3] ، كما أن آمنة بنت وهب أم النبي صلى الله علية وسلم من بني زهرة [4] ، لذلك فإن سعداً هو خال النبي صلى الله عليه وسلم .

نشأ سعد في قريش أعز العرب ، وفي مكة المكرمة إلى جانب البيت الحرام ، واشتغل في بري السهام وصناعة القسي وهي من عدد الحرب المهمة [5] قبل اختراع البارود . ولم تكن حرفته يومئذ رائجة عند المقاتلين فحسب ، بل كانت رائجة عند هواة الصيد والقنص ، وقد كان القتال شائعاً في الجاهلية

(١) في جوامع السيرة لابن حزم ص (٤٦) اسمه : وهيب .

(٢) الإصابة (٣/٨٣) والمعارف ص (٢٤١) والبدء والتاريخ (٥/٨٤) .

(٣) فتح الباري بشرح البخاري (٧/٦٦) وجوامع السيرة لابن حزم ص (٣)

(٤) سيرة ابن هشام (١/١٦٩) وطبقات ابن سعد (١/٥٩) وجوامع السيرة لابن حزم ص (٣) وهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف ، أي أن وهب بن عبد مناف والد آمنة هو اخو اهيب بن عبد مناف والد سعد ، فهو ابن عمها .

(٥) المعارف (٥٧٥) .

كما كان الصيد والقنص شائعين أيضاً ، لذلك كانت حرفته هذه تدرّ عليه المال الوفير .

وفى حانوته الذى كان بالقرب من البيت العتيق ، تعرّف سعد على كثير من شباب وسادات قريش ، كما تعرّف على كثير من الوافدين على مكة فى أيام الحج ومواسمها الأخرى ، وكانت مهارته الفائقة فى حرفته وإخلاصه فى عمله ودماثة خلقه عوامل حببته وعرفته بكثير منهم وأفادته مادياً ومعنوياً .

إسلامه :

كان أبو بكر الصديق من بين أصدقاء سعد الكثيرين ، وكانت الثقة والمحبة والاحترام متبادلة بينهما ، وكانا لا ينفكان يلتقيان كلما وجدا إلى اللقاء سبيلا .

ونزل الوحى على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأسلم أبو بكر وأظهر إسلامه ودعا إلى الله ورسوله ، وكان أبو بكر رجلا مؤلفاً لقومه محباً سهلا ، وكان أنسب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر ، وكان رجلا تاجراً ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه ، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من يثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه ، فأسلم بدعائه عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيدالله ، فجاء بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استجابوا له ، فأسلموا وصلوا[1] .

قال سعد عن نفسه : « ما أسلم أحد إلا فى اليوم الذى أسلمت فيه ، ولقد

---

(١) سيرة ابن هشام (١/٢٦٨) والطبرى (٢/٦٠) .

مكثت سبعة أيام وإنى لثالث الإسلام[1] ، وأراد بذلك النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر الصديق ، إذ يُحْمل قولُه على الأحرار البالغين دون الموالى والعبيد وغير البالغين من الأحرار[2]،ولكنه كان سابع سبعة فى الإسلام[3]، أسلم بعد ستة وذلك إذا أضفنا إلى قائمة المسلمين كافة من آمن بالله ورسوله من الذكور فقط دون النساء[4] .

ولاقى سعد معارضة شديدة لإسلامه حتى من أمه . قال سعد يصف ذلك : كنت رجلا برا بأمى ، فلما أسلمت قالت : ماهذا الدين الذى أحدثت ؟ لتدعن دينك أولا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعيّر بى ! فقلت لها : لا تفعلى يا أماه ، فإنى لا أدع دينى ! فمكثت يوماً وليلة لا تأكل ولا تشرب ، فأصبحت وقد جهدت فقلت لها : والله لو كان لك ألف نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت هذا الشيء ! فلما رأت ذلك منى ، أكلت وشربت ، فأنزل

---

(١) الإصابة (٨٣/٣) وفتح البارى بشرح البخارى (٦٦/٧ — ٦٧) والبدء والتاريخ (٨٤/٥) .

(٢) انظر فتح البارى بشرح البخارى (٦٦/٧ — ٦٧) .

(٣) الاستيعاب (٦٠٧/٢) ونكت الهميان (١٥٥) .

(٤) فى جوامع السيرة لابن حزم ص (٤٥ — ٤٦) عدد تسلسل الذين أسلموا كما يلى :

١ — أبو بكر .
٢ — على بن أبى طالب .
٣ — زيد بن حارثة الكلبي .
٤ — بلال بن رباح .
٥ — عبسة السلمى صديق النبى فى الجاهلية .
٦ — خالد بن سعد بن العاص .
٧ — سعد بن أبى وقاص ، فإذا أضفنا إلى هذا التسلسل خديجة أم المؤمنين وهى أول النساء إسلاماً ، فيكون سعد ثامن ثمانية فى الإسلام ، أسلم بعد سبعة من الرجال والنساء والصبيان .

المولى قوله سبحانه : (وإن جاهداك على أنْ تُشْرِكَ بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا)[1] فكان ماجرى بين سعد وأمه من مشادة فى الدين سبباً فى نزول هذا الدستور القرآنى الكريم ، يجلو ما بين الابن المسلم وبين أبويه المشركين[2] .

لقد أسلم سعد وهو ابن سبع عشرة سنة[3] .

مع النبي :

كان سعد من السابقين الأولين من المسلمين ، فقد أسلم قبل أن تفرض الصلاة[4] ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو حينذاك للإسلام سراً ، فجاهد سعد مع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بماله وبنفسه لتكون كلمة الله هى العليا .

وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلّوا ذهبوا إلى شِعاب[5] مكة بعيداً عن الأنظار فاستخفوا بصلاتهم من قومهم ، فبينما سعد فى نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فى شعب من شعاب مكة ، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين، فناكروهم وعابوا عليهم دينهم حتى قاتلوهم ، فضرب سعد رجلا

---

(١) أسد الغابة (٢٩٢/٢) وطبقات ابن سعد (١٢٤/٤) مع اختلاف باللفظ واتفاق بالمعنى . وانظر تفسير ابن كثير (٤٥٨/٦) وتفسير البغوى (٤٥٨/٦) وتفسير الكشاف للزمخشرى (٤١٣/٢) وشرح النووى على مسلم (١٥٩/٥) .

(٢) انظر مجلة لواء الاسلام العدد الأول من السنة الثانية ص (٣٩) .

(٣) طبقات ابن سعد (١٩٣/٣) والبدء والتاريخ (٨٥/٥) وأسد الغابة (٢٩٢/٢) أما فى الاستيعاب (٦٠٧/٢) فيذكر أنه أسلم وهو ابن تسع عشر سنة .

(٤) طبقات ابن سعد (١٣٩/٣) والاستيعاب (٦٠٧/٢) .

(٥) الشعاب : جمع شعب ، وهى المواضع الخفية بين الجبال .

من المشركين بلحى[1] جمل فشجه[2] فكان هذا أول دم أهريق في الإسلام[3].

ولما أذن الرسول صلى الله عليه وسلم للمسلمين بالهجرة إلى المدينة المنورة، هاجر إليها سعد من مكة ومعه أخوه عمير بن أبي وقاص[4]، فآخى الرسول صلى الله عليه وسلم بينه وبين مصعب بن عمير[5]، وبينه وبين سعد بن معاذ[6]

(١) اللحى: هو العظم الذي على الخد، وهو في الانسان العظم الذي تنبت عليه اللحية.

(٢) شجه: جرحه.

(٣) سيرة ابن هشام (١/٢٧٥) وأسد الغابة (٢/٢٩١) وجوامع السيرة لابن حزم ص (٥١).

(٤) عمير بن أبي وقاص: أخو سعد، هاجر معه إلى المدينة. قال سعد: « رأيت أخي عمير قبل أن يعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم للخروج إلى بدر يتوارى! فقلت: مالك ياأخي؟! فقال: إني أخاف أن يراني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيستصغرني فيردني وأنا أحب الخروج لعل الله يرزقني الشهادة. قال: فعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستصغره، فقال: ارجع! فبكى عمير! فأجازه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكنت أعقد حمائل سيفه من صغره » فقتل ببدر وهو ابن ست عشرة سنة. أنظر طبقات ابن سعد (٢/١٤٩).

(٥) مصعب بن عمير: من بني عبدالدار من قريش. كان فتى قريش شباباً وجمالا، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكره ويقول: « ما رأيت بمكة أحداً أحسن لمة ولا أرق حلة ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير ». هاجر إلى الحبشة الهجرة الأولى، وشهد بدراً واستشهد في أحد بعد أن ضحى بكل شيء يملكه في سبيل الله. راجع التفاصيل في طبقات ابن سعد (٣/١١٦) والاستيعاب (٤/١٤٧١) وأسد الغابة (٤/٣٦٨) والاصابة (٦/١٠١).

(٦) سعد بن معاذ الانصاري: سيد الانصار من الخزرج، أسلم بالمدينة على يد مصعب بن عمير، فلما أسلم لم يبق في بني عبد الأشهل قومه أحد إلا أسلم، فكانت دار بني عبد الأشهل أول دار من الأنصار أسلموا جميعاً رجالهم ونساؤهم. شهد بدراً واحداً وثبت مع النبي صلى الله عليه وسلم في أحد. وفي غزوة الخندق أصيب بسهم فعاش شهراً ثم انتقض جرحه فمات شهيداً سنة خمس للهجرة. ولما جرح أقام له النبي صلى الله عليه وسلم خيمة في المسجد ليعوده من قريب ولما نزل بنو قريظة على حكم سعد ارسل النبي صلى الله عليه وسلم إليه ليحكم في قريظة حلفاءه ومواليه، فقال سعد: « إني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتسبي ذراريهم » فقال النبي صلى الله عليه وسلم: « حكمت بحكم الله ». راجع طبقات ابن سعد (٣/٤٢٠) وأسد الغابة (٢/٢٩١) والاصابة (٢/٨٧) والاستيعاب (٢/٦٠٣) وفتح الباري بشرح البخاري (٧/٩٣).

في رواية أخرى[1] .

وعندما ابتدأ الجهاد في الإسلام ، كان سعد من بين الذين بذلوا أقصى جهودهم في ميادين القتال : جندياً تحت لواء الرسول القائد وأمراء بعوثه تارة ، وقائداً لبعض السرايا تارة أخرى .

ففي شوال من السنة الأولى للهجرة ، عقد الرسول القائد أول راية لعبيدة ابن الحارث بن المطلب[2] في ستين من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد ، وأمره بالمسير إلى بطن (رَابِغ)[3] ، فبلغ (ثنية المَرَة)[4] وهي بناحية الجُحْفَة[5] فالتقوا بالمشركين الذين كانوا بقيادة أبي سفيان بن حرب في مائتين من قريش[6] فلم يكن قتال بينهم ، إلا أن سعداً رمى يومئذ بسهم ، فكان أول سهم رمي في الإسلام . قال سعد : « والله إني لأول رجل من العرب رمى بسهم في سبيل الله ، ولقد كنا نغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومالنا

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/١٤٠) .

(٢) عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف القرشي المطلبي : أسلم قديماً وكان أسن بني عبد مناف يومئذ ، وكان أسن من رسول الله صلى الله عليه سلم بعشر سنين ، هاجر إلى المدينة وعقد الرسول صلى الله عليه وسلم له أول لواء وقد جرح يوم بدر فمات شهيدا من جرحه . راجع طبقات ابن سعد (٣/٥٠) والإصابة (٤/٣٩) وأسد الغابة (٣/٣٣٨) والاستيعاب (٣/١٠٣٠) .

(٣) رابغ : وادٍ بين الجحفة وودّان على طريق الحاج بين المدينة ومكة . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٤/٢٠٢) .

(٤) ثنية المرة : موضع قريب من الجحفة . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٣/٢٥) .

(٥) الجحفة : قرية على بعد أربع مراحل من المدينة على طريق المدينة — مكة . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٣/٦٢) .

(٦) الطبري (٢/١٥٢) وطبقات ابن سعد (٣/٥١) .

طعام نأكله[1] . . . » . وكان من الرماة المذكورين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] .

وفي العام الهجري الأول أيضاً ، عقد الرسول القائد راية لسعد فخرج إلى (الخَرّار[3]) لتهديد الطريق التجارية بين مكة والشام وبإمرته عشرون رجلا من المهاجرين للحاق بقافلة تحمل تجارة قريش. قال سعد : « كنا نكمن النهار ونسير الليل حتى صبحنا (الخرار) صبح خامسة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عهد إليّ ألا أجاوز (الخَرّار) ، وكانت العير قد سبقتني قبل ذلك بيوم ، وكانوا ستين[4] » .

وشارك سعد بسرية عبد الله بن جحش[5] ، كما شهد بدراً وأُحداً والخندق[6] والحديبية وخيبر وفتح مكة وكانت معه يومئذ إحدى رايات

(١) سيرة ابن هشام (٢٢٤/٢) وجوامع السيرة لابن حزم ص (١٠١) وطبقات ابن سعد (١٤٠/٣) .

(٢) طبقات ابن سعد (١٤٢/٣) .

(٣) الخرار : موضع بالحجاز قرب الجحفة ، وقيل : هو وادٍ من أودية المدينة . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٤٠٧/٣) .

(٤) الطبري (١٢٠/٢) وطبقات ابن سعد (٧/٢) وقد ذكر ابن هشام في سيرته (٢٣٨/٢) أن عدد رجال سعد ثمانية فقط .

(٥) عبد الله بن جحش الأسدي القرشي : ابو محمد ، أمه أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم . أسلم قبل دخول الرسول صلى الله عليه وسلم دار الأرقم وهاجر الهجرتين إلى الحبشة وأخته زينب بنت جحش زوج النبي صلى الله عليه وسلم . أمره النبي صلى الله عليه وسلم على سرية فغنم أول غنيمة في الإسلام ، وقد خمس الرسول صلى الله عليه وسلم الغنيمة وقسم الباقي ، فكانت أول خمس في الإسلام . شهد بدراً واستشهد يوم أحد . راجع طبقات ابن سعد (٨٩/٣) وأسد الغابة (١٣١/٣) والإصابة (٤٦/٤) والاستيعاب (٨٧٧/٣) .

(٦) أسد الغابة (٢٩٠/٢) .

المهاجرين الثلاثة ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم[١] وكان له فيها أثر ملموس .

فقد أرسله الرسول صلى الله عليه وسلم قبيل نشوب معركة (بدر)[٢] فى مهمة استطلاعية إلى ماء (بدر) مع على بن أبى طالب والزبير بن العوام ، فأسروا غلامين لقريش[٣] وعندما استنطقهما النبى صلى الله عليه وسلم علم منهما أن قريشاً وراء الـكثيب بالعدوة القصوى ، كما استنبط من استنطاقهما أن قوة قريش بين التسعمائة والألف ، كما عرف منهما أن أشراف قريش جميعاً خرجوا لمنعه . وقد شوهد سعد يقاتل يوم (بدر) قتال المغاوير من الرجال[٤] فأسر أسيرين من المشركين .

وكان موقف سعد فى (أُحد)[٥] رائعاً حقاً : ثبت يوم (أحد) ، ووقف سعد إلى جانب الرسول صلى الله عليه وسلم يرمى بالنبل دونه ، والرسول صلى الله عليه وسلم يناوله النبل ويترصد له إصاباته قائلا : « إرم فداك أبى وأمى »[٦] . قال سعد . « جمع لى النبى صلى الله عليه وسلم أبويه يوم (أحد)[٧] ،

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/١٤٢) .

(٢) بدر : ماء مشهور بين مكة والمدينة ، بينه وبين ساحل البحر ليلة ، وبينه وبين المدينة سبع مراحل . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٢/٨٨) . واليوم أصبح ببدر قرية كبيرة على طريق السيارات بين المدينة ومكة .

(٣) سيرة ابن هشام (٢/٢٥٥) . وجوامع السيرة لابن حزم ص (١١٠) .

(٤) طبقات ابن سعد (٣/١٤١) وانظر نـكت الهميان (١٥٦) حول أسره أسيرين .

(٥) أحد : جبل شمالى المدينة ، بينه وبينها قرابة ميل ، وعنده كانت الموقعة المشهورة بين المسلمين وقريش . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (١/١٣٣) وأنظر نـكت الهميان (١٥٦) حول ثباته يوم (أحد) .

(٦) جوامع السيرة لابن حزم ص (١٦٢) والطبرى (٢/١٩٨) وانظر شرح النووى على مسلم (٥/١٥٨) .

(٧) فتح البارى بشرح البخارى (٧/٦٦) .

وقال على بن أبى طالب : « ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفدى أحداً بأبويه إلا سعداً »[1] ، وكان لدفاع سعد المستميت مع بعض الصحابة عن حياة الرسول القائد الغالية أثر على تحطيم هجوم قريش لتهديد حياة النبى صلى الله عليه وسلم .

وكان سعد فى غزوة (الحديبية)[2] أحد الشهود على وثيقة الهدنة مع كل من أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعبدالرحمن بن عوف وعبد الله بن سهيل بن عمرو[3] وهم الشهود الذين وقعوا مع سعد على هذه الوثيقة[4] .

لقد كان سعد حريصاً غاية الحرص على حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحرب والسلم على حد سواء. روى الشيخان والترمذى والكسائى من حديث عائشة أم المؤمنين قولها : « لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة أرق ، فقال : ليت رجلا صالحاً من أصحابى يحرسنى ، إذ سمعنا صوت السلاح ، فقال : من هذا ؟ قال : أنا سعد ! فنام . . وفى رواية : فدعا له »[5] .

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/١٤١) .

(٢) الحديبية : قرية متوسطة ليست بالكبيرة ، سميت ببئر هناك بينها وبين مكة مرحلة ، وبينها وبين المدينة تسع مراحل . وقد اشتهرت بالصلح الذى جرى فيها بين المسلمين وقريش . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٣/٢٣٣) .

(٣) عبد الله بن سهيل بن عمرو القرشى العامرى : هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية ثم رجع إلى مكة فأخذه أبوه وأوقفه عنده وفتنه فى دينه . وخرج مع أبيه سهيل يوم بدر ، وكان يكتم إسلامه أباه ، فانحاز من المشركين وهرب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم مسلماً وشهد معه بدراً والمشاهد كلها ، وكان من فضلاء الصحابة ، وهو أحد الشهود فى صلح الحديبية ، وهو الذى أخذ الأمان لابيه يوم الفتح ، فقال أبوه عنه : « كان والله براً صغيراً وكبيراً » ، وقد استشهد يوم اليمامة سنة اثنتى عشر . راجع الاستيعاب (٣/٩٢٥) والاصابة (٤/٨٣) وأسد الغابة (٣/١٨١) .

(٤) سيرة ابن هشام (٣/٣٦٨) .

(٥) الاصابة (٣/٨٤) .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يفاخر بسعد حين يراه . أقبل سعد فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « هذا خالى ، فليرنى امرؤ خاله »[1] .

فهل بذل سعد نفسه فقط رخيصة فى سبيل الله أم بذل نفسه وماله أيضا ؟

مرض سعد بمكة بعد فتحها فخلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها مريضاً حين خرج إلى (حُنَيْن)[2] ، فلما قدم من (الجِعْرانَة)[3] معتمراً دخل على سعد يعوده ، فقال سعد . « يا رسول الله ! أوصى بمالى كله ؟ » . قال : « لا » . فقال : « فالشطر ؟ » . قال : « لا » . فقال : « الثلث ؟ » . قال : « الثلث والثلث كثير . إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس فى أيديهم ، وإنك مهما أنفقت على أهلك من نفقة فإنها صدقة حتى اللقمة ترفعها إلى فِىْ امرأتك ، وعسى الله أن يرفعك فينتفع بك قوم ويُضر بك آخرون »[4] وكان لسعد حينذاك مال كثير أوصى بثلثه فى سبيل الله[5] .

لقد رفع جهاد سعد بماله ونفسه فى سبيل الله ، وإخلاصه للإسلام ولرسوله ، وعقيدته الراسخة وإيمانه العظيم إلى درجة الصدّيقين ، فكان أحد العشرة المبشرة بالجنة الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض[6] .

---

(١) طبقات ابن سعد (١٣٧/٢) والاصابة (٨٣/٣) والسيرة الحلبية (٣١٢/١) .

(٢) حنين : واد قبل الطائف ، بين مكة والطائف ، وعلى بعد ثلاث ليالى من مكة ، راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٣٠٤/٣) .

(٣) الجعرانة : ماء بين الطائف ومكة أقرب . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (١٠٩/٣) .

(٤) طبقات ابن سعد (١٤٥/٣) .

(٥) طبقات ابن سعد (١٤٤/٣) .

(٦) أسد الغابة (٢٩١/٢) والاستيعاب (٦٠٨/٢) .

كما دعا له الرسول صلى الله عليه وسلم علامة رضاه عنه قائلا : « اللهم استجب لسعد إذا دعاك »[1] .

جهاده :

تعيينه :

اجتمع الفرس على (يزدجرد) بعد توليه عرش أجداده الأكاسرة ، فاطمأنت فارس وأخذت تعد العدة لمهاجمة جيوش المسلمين فى العراق .

ولما علم المثنى بن حارثة الشيبانى بأخبار فارس ، أيقن أن أهل السواد[2] لن يلبثوا أن ينقضوا على المسلمين إذا اتجهت جيوش الفرس نحوهم ، فكتب المثنى إلى عمر يذكر له حقيقة الموقف فى العراق .

وتجهز الفرس ، فأثار تجهزهم قرى العراق ومدنه على المسلمين ، فلم يجد المثنى بُدًّا من أن ينسحب كرة أخرى إلى تخوم شبه الجزيرة ، فسار بجنده حتى نزل (بذى قار)[3] .

ولما علم عمر بن الخطاب بخطورة الموقف فى العراق ، قال: «والله لأضربنَّ ملوك العجم بملوك العرب » ثم كتب عمر إلى عماله ، لا تدعو أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلىّ، والعجل العجل»[4] .

---

(١) الإصابة (٣/٨٣) وأسد الغابة (٢/٣٩١) والاستيعاب (٢/٦٠٧) وطبقات ابن سعد (٣/١٤٢) .

(٢) السواد . أرض العراق التى فتحها المسلمون على عهد عمر بن الخطاب ، سمى بذلك لسواده بالزروع والنخيل والأشجار ، لأنه حين تاخم جزيرة العرب التى لا زرع فيها ولا شجر ، كانوا إذا خرجوا من أرضهم ظهرت لهم خضرة الزرع والأشجار فيسمونه سواداً . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٥/١٥٩) .

(٣) ابن الأثير (٢/١٧١) و الطبرى (٢/٦٥٩) .

(٤) الطبرى (٢/٦٦٠) .

فلما اجتمع الناس إلى عمر أراد أن يتولى قيادتهم بنفسه لمواجهة القوات الفارسية ، ولكن أصحاب الرأي من كبار الصحابة أشاروا عليه بالبقاء في المدينة وإرسال قائد يعتمد عليه ، فجمع عمر الناس وقال لهم : «إني كنت عزمت على المسير حتى صرفني ذوو الرأي منكم ، وقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلا ، فأشيروا عليّ برجل»[1] ، وكان سعد يومذاك على صدقات هوازن ، فوصل كتاب منه حين كان عمر يستشير الناس فيمن يبعثه ، فلما وصل كتابه وقرأه عمر على الناس ، قال الناس لعمر : وجدته ! قال : « من هو ؟ » . قالوا : الأسد عادياً سعد بن مالك[2] . . . فلما استقر رأي عمر على تعيين سعد ، قال عنه : « إنه رجل شجاع رام »[3] .

لقد كانت إمارة سعد على جيش العراق نتيجة لمشاورات طويلة أجراها عمر مع خاصة الناس وعامتهم ، فلما قرر عمر نهائياً أن يكون سعد قائداً عاماً على أخطر جيش يتّجه إلى أخطر منطقة ، استدعاه عمر فقدم عليه وأوصاه : « ياسعد ، سعد بني وهيب ! لا يغرنك من الله أن قيل : خال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه ، فإن الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء ، ولكنه يمحو السيء بالحسن ! وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس

(١) ابن الأثير (٢/١٧٣) .

(٢) الطبري (٣/٤) وفي مروج الذهب للمسعودي على هامش الكامل لابن الاثير (٥/١١٦) أن عبد الرحمن بن عوف هو الذي أشار بتولية سعد ، وكذلك في تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص (٧٦) .

(٣) البلاذري ص (٢٥٥) . وقد كان لعمر بن الخطاب قابلية ممتازة على اختيار القادة ، وكان لابدّ أن تتوفّر بعض الشروط في القائد الذي يختاره . أشار عليه عثمان كما جاء في مروج الذهب على هامش ابن الاثير (٥/١١٧) أن يولي طلحة بن عبيد الله لقيادة جيش العراق قبل أن يقرّ قرار عمر على اختيار سعد بن أبي وقاص لهذا المنصب ، فقال عمر : « أين أنت من رجل شجاع ضروب بالسيف رام بالنبل، ولكن أخشى ألا يكون له معرفة بتدبير الحرب » ! .

شريفهم ووضيعهم فى دين الله سواء : يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلزمه ، فالزمه، فإنه الأمر » .

ولما أراد سعد التحرك بالجيش إلى العراق ، استدعاه عمر ، وقال له : « إنى قد وليتك حرب العراق ، فاحفظ وصيتى ، فإنك تقدم على أمر شديد كريه لا يخلص منه إلا الحق ، فعود نفسك ومن معك الخير واستفتح به ، واعلم أن لكل عادة عتادا ، وعتاد الخير الصبر فالصبر على ما أصابك»[1]،

٢ — فى القادسية :

لما وصل بجيشه موضع (ذى قار) وجد جيش المثنى بانتظاره ، ولكنه لم يجد المثنى بينهم لأنه كان قد مات قبيل وصول جيش سعد أرض العراق[2]، فاستلم سعد وصية المثنى له ، فترحم عليه كثيراً وأمّر المعنّى أخا المثنى على عمل المثنى وخطب زوجة المثنى سلمى وتزوجها[3] .

ونظّم سعد جيشه وعبأه للحرب : جعل على كل عشرة رجال عريفاً ، وأمّر على الرايات رجالاً من أهل السابقة ، وولّى الحروب رجالاً ، فولى على مقدماتها ومجنباتها وساقاتها وطلائعها ومشاتها وفرسانها ، ولم يتقدّم بعد ذلك إلا على تعبية[4] ، حتى يحول دون مباغتة العدو لقواته .

ولم ينس سعد القضايا الإدارية فى جيشه ، فعيّن مسؤولا عن القضاء

(١) الطبرى (٣/٤ — ٥) .

(٢) ابن الاثير (٢/١٧٣) والطبرى (٣/٧) .

(٣) الطبرى (٣/١٠) وابن الاثير (٢/١٧٤) .

(٤) ابن الاثير (٢/١٧٤) والطبرى (٣/٩) ، وكانت ترتيبات سعد هذه ضرورية لتامين الضبط والنظام فى جيشه ، إذ لا يمكن أن ينتصر جيش فى القتال بدون ضبط ولا نظام .

وجعله مسؤولاً عن قسمة الفيء أيضا، وعيّن مسؤولاً عن الوعظ والإرشاد، وعين مترجماً يجيد اللغة الفارسية ، كما عين كاتباً تنهى إليه الأمور الكتابية[1] .

وصل جيش المسلمين (القادسية)[2] ، فبعث عيونه ليعلموا له خبر أهل فارس ، فرجعوا إليه يخبرونه بأن كسرى ولى (رستم) حربه . ثم أرسل بعض المفارز للإغارة على المناطق المجاورة ، فعادت كلها بالفتح والغنائم والسلامة[3]. كما أرسل وفوداً من رجالات المسلمين إلى كسرى وإلى رستم يفاوضونهما ويعرضون عليهما مطالب المسلمين التي تتلخص بثلاث كلمات : الإسلام أو الجزية ، أو السيف [4] ، فكان لهذه الوفود تأثير معنوى حاسم على كسرى وقائده العام .

وتهيأ الفريقان للقتال ، فأرسل رستم إلى سعد يقول : « أتعبرون إلينا أم نعبر إليكم ؟ » . فقال سعد : «اعبروا إلينا»[5] .

وقبل أن يأذن سعد بالقتال ، أرسل ذوى الرأى والعقل والنجدة إلى الناس وقال لهم : انطلقوا فقوموا فى الناس بما يحق عليكم ويحق عليهم عند مواطن البأس ، فإنكم من العرب بالمكان الذى أنتم به ، وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم ، فسيروا فى الناس فذكّروهم

---

(١) ابن الأثير (٢/١٧٤) والطبري (٣/٩) .

(٢) القادسية . موضع بينه وبين الكوفة خمسة عشر فرسخا وبينه وبين العذيب أربعة أميال . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٧/٥) وآثار البلاد وأخبار العباد ص (٢٣٩) .

(٣) ابن الاثير (٢/١٧٥) .

(٤) انظر تفاصيل مفاوضات هذه الوفود فى الطبرى (٣/٣٣ - ٤٢) وابن الأثير (٢/١٧٥ - ١٧٦) .

(٥) الطبرى (٣/٤٢) .

وحرّضوهم على القتال »[1] . وأمر سعد الناس بقراءة سورة الجهاد وهى سورة الأنفال ، فلما قرئت هشّت قلوب الناس وعيونهم وعرفوا السكينة مع قراءتها[2] . وعند فراغ القراء من قراءة هذه السورة المباركة كبّر سعد ، فكبّر الذين يلونه ، وكبّر بعض الناس بتكبير بعض، فاستعد الناس للقتال . ثم ثنّى سعد ، فأكمل الناس استعداداتهم ، ثم ثلّث فبرز أهل النجدة وأنشبوا القتال . . . ثم كبّر سعد التكبيرة الرابعة إشارة لبدء الزحف العام[3] .

وحمل أصحاب الفيلة من الفرس ، ففرّقوا كتائب المسلمين وفرت خيولهم، ولكن المشاة صمدوا متكبدين خسائر فادحة ، وكان زخم هجوم فيلة الفرس على (بجيلة) ، فأرسل سعد إلى بنى أسد : أن ذبّوا عن بجيلة ومن حولها من الناس ، فاستطاعوا تقطيع أحزمة الفيلة ، فسقط عن ظهورها الذين يركبونها ويوجهونها ، مما أدى إلى تراجع الفيلة[4] .

ورأت (سلمى) التى كانت زوج المثنى بن حارثة الشيبانى والتى أصبحت زوج سعد ، ما حلّ بالمسلمين فى يوم (أرماث) وهو اليوم الأول من أيام القادسية ، فصاحت من أعماق قلبها : « وامثناه ! ولا مثنى للخيل اليوم[5] » وكان سعد مريضا بالدمامل فى جسمه[6] فكان خليفته خالد بن عرفطة يتسلم من سعد الأوامر ويشرف على تنفيذها[7] ، وكان سعد ضجراً فلطم وجه سلمى زوجه وقال لها : « أين المثنى من هذه الكتيبة التى تدور عليها الرحى

(١) الطبرى (٣/٤٥) .
(٢) ابن الأثير (٢/١٨١ ــ ١٨٢) والطبرى (٣/٤٧) .
(٣) الطبرى (٣/٤٧) .
(٤) الطبرى (٣/٤٩ ــ ٥٠) .
(٥) الطبرى (٣/٥١) وابن الأثير (٢/١٨٣) .
(٦) الطبرى (٣/٧٩) .
(٧) الطبرى (٣/٧٣) .

— يعنى أسدا وعاصما[1] وخيله — » الذين كانوا يصطلون بزخم هجوم فيلة الفرس عليهم ، فقالت سلمى : « أغيرة وجبنا ؟ ! » . قال : « والله لا يعذرنى اليوم أحد إذا أنت لم تعذرينى ، وأنت ترين ما بى ، والنـاس أحق ألا يعذروننى »[2] ، وقد عذرته سلمى وعذره الناس ، لأنه كان (غير جبان ولا ملوم)[3].

ولم تشرق شمس اليوم الثانى من أيام القادسية وهو يوم (أغواث) إلا وكان المسؤولون عن الشهداء والجرحى قد نقلوهم ليلا إلى (العُذَيْب)[4]، حيث دفنوا الشهداء هناك وأسلموا الجرحى للنساء يقمن عليهم[5].

ومضى اليوم الأول ، ومضى اليوم الثانى والحرب سجال ، وفى اليوم الثالث وهو يوم (عماس) عادت الفيلة الفارسية إلى ساحة المعركة ، فأرسل سعد إلى جماعة ممن أسلموا من فارس ، فلما دخلوا عليه سألهم عن مقاتل الفيلة ، فقالوا : المشافر والعيون ، فأرسل إلى القعقاع وعاصم ابنى عمرو : « اكفيانى الفيل الأبيض» وكان بأزائهما ، كما أرسل إلى جماعة من بنى أسد : « اكفيانى الفيل الأجرب » ، وكانت الفيلة كلها تتبع هذين الفيلين ، فحمل القعقاع وأخوه على الفيل الأبيض ففقآ عينيه وقطعا مشفره ، فبقى هائماً بين الصفين .

---

(١) هو عاصم بن عمرو التميمى أخو القعقاع بن عمرو التميمى وسترد ترجمتهما مع قادة الفتح الإسلامى .

(٢) الطبرى (٣/٥١) .

(٣) الطبرى (٣/٥١) :

(٤) العذيب : ماء بينه وبين القدسية أربعة أميال . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٦/١٣١) .

(٥) الطبرى (٣/٥١) وهذا أروع مايمكن أن يتخذه قائد من تدابير إدارية لدفن القتلى وتمريض الجرحى حتى بالنسبة للحرب الحديثة ، فكيف وقد طبق ذلك سعد قبل حوالى أربعة عشر قرنا ؟

كما جرح بنو أسد الفيل الأجرب فوثب إلى النهر ومن خلفه الفيلة الأخرى هاربة[1] لا تلوى على شيء !.

واستمر القتال ليلا ، وتسمى هذه الليلة ليلة (الهرير) وسميت بذلك لترك الناس الكلام إنما يهرّون هريراً[2]، وزحف القعقاع على الفرس ، فأطلّ سعد فرأى القعقاع يزاحفهم مما أثار نخوة غيره من الرجال[3] . وأرسل سعد طليحة الأسدى وعمرو بن معد يكرب إلى مخاضة أسفل المعسكر ليقوموا عليها خشية أن يأتيه الفرس منها ، فعبرها طليحة وضرب مؤخرة الفرس فارتاع أهل فارس وطلبوه فلم يدركوه . أما عمرو فأغار أسفل المخاضة ثم رجع[4]. وقدم الفرس صفوفهم ، فزاحفهم الناس بغير إذن سعد ، وكان أول من زاحفهم القعقاع ، فقال سعد : اللهم اغفرها له وانصره ، فقد أذنت له[5]» ، ذلك لأن سعداً قدّر أن الموقف الراهن يتطلّب هجوم المسلمين على الفرس فقال : « إذا كبّرت ثلاثاً فاحملوا » ، وهكذا ابتدأ الهجوم العام ، إذ لحق الناس بعضهم بعضاً واستقبلوا الليل استقبالاً بعد ما صلوا العشاء ، وكان صليل الحديد هو الصوت السائد فى ذلك الليل البهيم . وبات سعد ليلة لم يبت بمثلها ، ورأى العرب والعجم أمراً لم يروا مثله قط ، وانقطعت الأخبار والأصوات إلاّ صليل السيوف عن سعد ، وأقبل سعد على الدعاء ؛ فلما كان عند الصبح ، انتمى الناس ، فاستدلّ بذلك على أنهم الأعلون[6].

---

(١) الطبرى (٣/٦٣) ،
(٢) ابن الاثير (٢/١٨٥) .
(٣) الطبرى (٣/٦٨) .
(٤) ابن الاثير (٢/١٨٥) .
(٥) ابن الاثير (٢/١٨٦) .
(٦) ابن الاثير (٢/١٨٦) .

واستمر القتال فى اليوم الرابع حتى الظهيرة ، عند ذاك بدأ الخلل فى صفوف الفرس واضحاً للعيان خاصة بعد مقتل رستم قائد الفرس ، فانهزم قلب الفرس ؛ وتتابعت الهزيمة بغير نظام ،مما أدى إلى وقوع خسائر عظيمة فيهم قتلا وغرقا[1].

ولما انكشف أهل فارس، أمر سعد بعض قادته بمطاردتهم ، وأمر خالد ابن عرفطة لسلب القتلى ودفن الشهداء[2] فانهارت معنويات الفرس انهياراً تاماً ، إذ أصاب أهل فارس يومئذ بعدما انهزموا ما أصاب الناس قبلهم : قتلوا حتى أن كان الرجل من المسلمين ليدعوا الرجل منهم ، فيأتيه حتى يقوم بين يديه ، فيضرب عنقه ، وحتى إنه ليأخذ سلاحه فيقتله به ، وحتى إنه ليأمر الرجلين أحدهما بصاحبه[3].

وبعد أن انتهت معركة القادسية ، كتب سعد إلى عمر بالفتح : « أما بعد فإن الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال شديد . ولقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراءون مثل زهائها ، فلم ينفعهم الله بذلك ، وأتبعهم المسلمون على الأنهار وفى الفجاج ، وأصيب من المسلمين فلان وفلان ورجال من المسلمين لا نعلمهم ، الله بهم عالم ، وكانوا يدوون بالقرآن إذا جُنّ عليهم الليل دوىّ النحل ، وهم آساد الناس لا يشبههم إلا الأسود ، ولم يفضل من مضى منهم من بقى إلاّ بفضل الشهادة ، إذ لم تكتب لهم[4] » .

٣ — فتح عاصمة كسرى :

أمضى سعد شهرين فى القادسية بعد المعركة وكاتب عمر فيما يفعل ، فكتب

---

(١) الطبرى (٦٩/٣) .
(٢) الطبرى (٦٩/٣) .
(٣) الطبرى (٧٢/٣) .
(٤) الطبرى (٨٤/٣) .

إليه عمر يأمره بالمسير إلى المدائن وأن يخلِّف النساء والعيال (بالعتيق)[1] وأن يجعل معهم جنداً كثيفاً[2] لحمايتهم .

وتحرّك الجيش المنتصر باتجاه المدائن وأمامه المقدمات ، فأزاحت تلك المقدمات بعض المقاومات الفارسية فى طريقها ، وسار المسلمون من نصر إلى نصر فى (بُرسِ)[3] وفى (بابل)[4] ، وفى (بَهرُ سِيْر)[5] ، وبذلك أصبح جيش المسلمين فى الضفة المقابلة للمدائن .

وحاول سعد أن يؤمن عبور جيشه فى السفن فلم يقدر على شىء منها لأن الفرس ضمّوا السفن[6] ليحرموا المسلمين من الإفادة منها ، لذلك قرّر أن يقتحم الماء بالخيل ، فجمع الناس وقام فيهم وقال لهم : « إن عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر ، فلا تخلصون إليه ، وهم يخلصون إليكم إذا شاءوا ، فيناوشونكم فى سفنهم ، وليس وراءكم شىء تخافون أن تأتوا منه ، فقد كفاكموهم أهل الأيام وعطّلوا ثغورهم وأفنوا ذادتهم[7] ، وقد رأيت من الرأى أن تبادروا

(١) العتيق : موضع لم أجد له ذكرا فى معجم البلدان ، والظاهر أنه موضع قريب من القادسية .

(٢) ابن الأثير (٢/١٩٦) وفتوح الشام للواقدى (٢/١٢٥) .

(٣) راجع تفاصيل المعركة فى الطبرى (٣/١١٣) وابن الأثير (٢/١٩٦) . وبرس : موضع بأرض بابل به آثار لبخت نصر وتل مفرط العلو يسمى : صرح برس . راجع معجم البلدان (٢/١٢٦) .

(٤) راجع تفاصيل المعركة فى الطبرى (٣/١١٤) وابن الأثير (٢/١٩٦) . وبابل : مدينة أثرية قديمة فى ضواحى الحلة حالياً . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٢/١٨) وآثار البلاد وأخبار العباد ص(٣٠٤) .

(٥) راجع تفاصيل المعركة فى الطبرى (٣/١١٦) وابن الأثير (٢/١٩٦) . وبهرسير : من نواحى سواد بغداد قرب المدائن ، وهى فى الضفة الغربية من النهر مقابل المدائن . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٢/٣١٤) .

(٦) الطبرى (٣/١١٩) .

(٧) الذائد : الرجل الذى يحمى ويدافع ، وجمعه ذادة .

جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا . . . ألا إني قد عزمت على قطع هذا البحر إليهم » . فقالوا جميعاً : عزم الله لنا ولك على الرشد ، فافعل[1] !

ندب سعد الناس إلى العبور ، ثم قال : « من يبدأ ويحمي لنا الفراض[2] لكيلا يمنعونا من العبور ؟ » فانتدب[3] عاصم بن عمرو التميمي وانتدب معه ستمائة من أهل النجدات[4] ، فعبر هؤلاء المغاوير وعبر سعد مع جيشه بعدهم ، ففاجأوا أهل فارس بأمر لم يكن في حسابهم ، ففروا بأرواحهم تاركين كل غال ورخيص ، فدخل المسلمون المدائن .

وانتهى سعد إلى إيوان كسرى ، وأقبل يقرأ خاشعاً لله وحده : « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين[5] » .

وجمع سعد من الغنائم ما لا يكاد يحصى ، كان من بينها ذخائر كسرى ونفائسه . وشرع سعد بتقسيم هذه الغنائم ، فأصاب الفارس اثنا عشر ألف درهم ! ! وبعث بأخماس الغنائم إلى المدينة ، وفيها سيف كسرى ومنطقته ونفائسه ، فلما رآها عمر قال : « إن قوماً أدوا هذه لذوو أمانة ! » فقال علي بن أبي طالب : « إنك عففت فعفت الرعية[6] » .

---

(١) الطبري (٣/١١٩) وابن الاثير (٢/١٩٨) وفتوح الشام للواقدي (٢/١٢٧) .
(٢) الفراض : جمع فرضة ، وهي ثغور المخاضة من الناحية الأخرى .
(٣) انتدب : خفّ واسرع بالتطوع .
(٤) الطبري (٣/١٨٠) وإن عمل سعد في تأمين حماية الفراض وتأمين رأس جسر يطابق أحدث أساليب عبور الأنهر في الحرب الحديثة .
(٥) الطبري (٣/١٢٥) وابن الاثير (٢/١٩٩) .
(٦) الطبري (٣/١٢٨) وللاطلاع على تفاصيل الغنائم ، راجع الطبري (٣ - ١٢٥ - ١٣٢) وابن الاثير (٢/٢٠٠ - ٢٠١) . وانظر تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي (ص ٦٧) .

٤ — الفاتح العظيم

وجّه سعد هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ومعه القعقاع بن عمرو التميمي لفتح محور ديالى ، فانتصر هاشم في معركة جلولاء وفتح القعقاع وجرير البجلي خانقين وحلوان وقصر شيرين[1] .

كما وجه عبد الله بن المُعْتَم ورِبعي بن الأفكل وعرفجة بن هرثمة البارقي إلى محور دجلة، ففتح عبدالله بن المعتم تكريت وفتح ربعي بن الأفكل الموصل[2] .

ولما رجع هاشم بن عتبة من جلولاء إلى المدائن بلغ سعداً أن الفرس قد حشدوا قواتهم في سهل (ما سبذان) ، فأرسل سعد إليهم ضرار بن الخطاب الفهري ، فانتصر المسلمون على الفرس وفتح ضرار (ماسبذان)[3] .

ووجه سعد عمر بن مالك الزهري والحارث بن يزيد العامري لفتح محور الفرات ، حتى (قرقيسياء)[4] الواقعة في ملتقى خابور الفرات بنهر الفرات ، ففتحا هذه المنطقة .

---

(١) راجع التفاصيل في الطبري (٣/١٣٢ – ١٤١) وابن الأثير (٢/٢٠١ – ٢٠٢) أما البلاذري في (ص ٢٩٩) فيذكر أن الذي فتح حلوان وما حولها هو جرير ابن عبدالله البجلي ، وسترد تفاصيل كل ذلك في ترجمة : هاشم بن عتبة الزهري والقعقاع ابن عمرو التميمي وجرير بن عبد الله البجلي .

(٢) راجع التفاصيل في الطبري (٣/٢٤١ – ٢٤٢) وابن الاثير (٢/٢٠٢ – ٢٠٣) ، وسيرد تفاصيل ذلك في ترجمة : عبد الله بن المعتم وربعي بن الأفكل وعرفجة ابن هرثمة .

(٣) راجع التفاصيل في الطبري (٣/١٤٢ – ١٤٣) وابن الأثير (٢/٢٠٣) ، وسترد تفاصيل ذلك في ترجمة ضرار بن الخطاب الفهري . وماسبذان : مدينة واقعة جنوب حلوان وجند يسابور . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٣٦٣) .

(٤) راجع التفاصيل في الطبري (٣/١٤٣ – ١٤٤) وابن الأثير (١/٢٠٣) . وسترد تفاصيل ذلك في ترجمة : عمر بن مالك الزهري والحارث ابن زيد العامري . وقرقيساء : بلد عند ملتقى نهر الخابور بالفرات . راجع معجم البلدان (٧/٥٩) .

كما وجّه سعد عتبة بن غزوان لفتح جنوب العراق ، ففتح منطقة البصرة والأهواز[1] ، كما وجه عتبة بن فرقد السلمى لفتح شمالى العراق وآذربيجان ، ففتح تلك المناطق[2].

ووجه سعد عياض بن غنم وسهيل ابن عدى وعبد الله بن عبد الله ابن عتبان لفتح الجزيرة ففتحوا منطقة الرقة ونصيبين وحران والرها[3].

والخلاصة أن كافة الفتوحات الإسلامية التى جرت فى العراق وفى شرقه وشماله حتى نهاية سنة عشرين للهجرة[4] ، وهى السنة التى عزل فيها عمر بن الخطاب سعداً عن الكوفة[4] ، هذه الفتوحات كلها فتحها سعد بنفسه أو أرسل إليها الجيوش والقادة لفتحها ، وحتى الجيش الذى فتح نهاوند سنة إحدى وعشرين للهجرة أرساله سعد ولكن فتحها جرى بعد عزله[5].

لقد فتح سعد بلاداً شاسعه لم تنكص عنها رايات الإسلام منذ فتحها حتى اليوم .

---

(١) راجع الطبرى (٣/٩٠) وسترد تفاصيل ذلك فى ترجمة عتبة بن غزوان المازنى وأبى سبرة بن أبى رهم .

(٢) ابن الأثير (٣/١٥) والبلاذرى (ص٣٢٩) .

(٣) راجع التفاصيل فى ابن الأثير (٢/٢٠٥ – ٢٠٧) مع اختلافات فى أسماء الفاتحين ترد عند ترجمتهم .

(٤) راجع الطبرى (٣/٢٠٢) وابن الأثير (٢/٢٢٠) ، والبلاد التى فتحها سعد بصورة مجملة باعتباره قائداً عاماً عدا ما ذكرناه أعلاه هى : الأهواز ومناذر ونهرتيرى ، راجع ابن الأثير (٢/٢٠٩ – ٢١١) ، وتستر راجع ابن الأثير (٢/٢١١) ، ورامهرمز : راجع ابن الأثير (٢/٢١١) ، والسوس راجع ابن الأثير (٢/٢١٣ – ٢١٤) ، وجند يسابور وكرمان . راجع ابن الأثير (١/٢١٤) ، وسترد تفاصيل فتح هذه البلاد فى ترجمة القادة الذين فتحوها .

(٥) الطبرى (٣/٢٠٢) وابن الأثير (٣/٣) .

الإدارى :

١ — مع أبى بكر :

بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، تزاحمت الأحداث على أبى بكر الصديق ، وأصبح محتاجاً إلى مشورة ذوى الرأى من كبار الصحابة ، فكان سعد أحد ذوى شوراه المقربين .

لقد بقى سعد إلى جانب أبى بكر فى أكثر أيام خلافته مستشاراً أميناً له يعينه بالرأى السديد ، ومن أولى منه بالاستشارة وهو صديقه الحميم ؟ .

وكمثال على استعانة أبى بكر بمشورة سعد ، مارواه المؤرخون عن استدعاء أبى بكر له مع عمر وعثمان وعلى وأبى عبيدة ابن الجراح وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم من كبار الصحابة ، لاستشارتهم فى أمر استنفار العرب إلى الروم بالشام فأقر الحاضرون جميعاً هذا الرأى ، وقالوا : مارأيت من رأى فامضه فإنّا سامعون لك مطيعون ، لا نخالف أمرك ولا نتّهم رأيك ولا نتخلّف عن دعوتك وإجابتك[١] .

٢ — مع عمر :

(ا) تمصير الكوفة : كان أبو بكر قد استعمل سعداً على صدقات هوازن بنجد ، فأقره عمر[٢] ، ثم ولاّه قائداً عاماً لفتح العراق ثم ولاّه صلاة ما غلب عليه وحربه[٣] .

(١) الفتوحات الإسلامية لابن دحلان (١/٣٥) .

(٢) الطبرى (٣/٤) .

(٣) الطبرى (٣/١١٣) وابن الأثير (٢/٢١٤) .

وبعد إكمال فتح العراق، أقام سعد بالمدائن ومعه بعض جيوش المسلمين، ولكنهم استوخموها وأثّر جوّها على صحتهم وتغيّرت ألوانهم[1]، وكان حذيفة ابن اليمان[2] مقيماً مع سعد في المدائن، فكتب إلى عمر: «إن العرب قد رقّت بطونها وجفّت أعضاؤها وتغيّرت ألوانها»[3]، فخشي عمر ما يجرّه تردي صحة المحاربين من نتائج وخيمة، فكتب إلى سعد: «إن العرب لا يوافقها إلاّ ما وافق إبلها من البلدان، فابعث رائداً يرتاد لهم منزلا برياً بحرياً ليس بيني وبينكم فيه بحر ولا جسر»[4]، وأراد عمر من ذلك أن يكون الموضع المختار في جوّه قريباً من جو البادية ولا يحول جسر ولا نهر دون وصول الإمدادات إلى جيوش المسلمين في العراق، ولكي يسهل انسحاب القوات من هذا الموضع عند الضرورة إلى البادية دون عائق.

وبعث سعد سلمان الفارسي[5] وحذيفة بن اليمان يرتادان المكان الصالح

---

(١) الطبري (٣/١٤٥).

(٢) حذيفة بن اليمان: من قادة الفتح الإسلامي ترد ترجمته.

(٣) ابن الأثير (٢/٢٠٤).

(٤) البلاذري ص(٢٧٥) وابن الأثير (٢/٢٠٤) والطبري (٣/١٤٥).

(٥) سلمان الفارسي: يعرف بسلمان الخير، أصله من فارس، وكان إذا قيل له: ابن من أنت؟ قال: «أنا سلمان بن الإسلام». أول مشاهده الخندق وبقية المشاهد وفتوح العراق وولي المدائن. دخل قوم على سلمان وهو أمير المدائن وهو يعمل الخوص، فقيل له: لم تعمل هذا وأنت أمير يجري عليك رزق؟ فقال: «أحب أن آكل من عمل يدي». وكان إذا خرج عطاؤه تصدق به ويأكل من عمل يده، وكان خيّراً فاضلا جداً متقشفاً وقد توفي في المدائن في خلافة عثمان بن عفان وقبره لا يزال فيها، راجع الإصابة (٣/١١٣) وأسد الغابة (٢/٣٢٨) والاستيعاب (٢/٦٣٤) وطبقات ابن سعد (٤/٧٥) و(٦/١٦).

لمقام العرب ، فاختاروا موضع الكوفة الحالي[1] ، وكان ذلك في السنة السابعة عشرة للهجرة .

وخصّص سعد مكاناً مناسباً لمسجد الكوفة ، ثم أمر رجلا فعلا بسهم قبل مهب القبلة ، فأعلم موقعه . ثم علا بسهم قبل مهب الشمال ، وأعلم موقعه . وهكذا إلى جميع الجهات ، ثم وضع مسجدها ودار إمارتها في مرتفع عال ، وأسهم لنزار وأهل اليمن بسهمين على أنه من خرج بسهمه أولا فله الجانب الأيسر وهو خيرهما ، فخرج سهم اليمن ، فصارت دورهم في الجانب الشرقي ، وصارت دور نزار في الجانب الغربي[2] .

(ب) القوي الأمين :

كان من عادة عمر أن يسأل الناس عن قادتهم وأمرائهم ، وقد سأل مرة عمرو بن معد يكرب عن سعد ، فقال : « متواضع في خبائه ، عربي في نمرته[3] ، أسد في تاموره[4] ؛ يعدل في القضية ، ويقسم بالسوية ، ويبعد في السرية ؛ يعطف علينا عطف الأم البرة ، وينقل إلينا حقنا نقل الذرة »[5] .

---

(١) الطبري (٣/١٤٥) ، وقد ذكر الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه : الفاروق عمر (١/٢١٨) أن عبدالله بن المعتم والقعقاع بن عمرو التميمي اللذان اختارا موضع الكوفة الحالي ، والصحيح ما ذكرناه ، وإن هذين القائدين حضرا مع سعد عند اختطاط الكوفة . راجع الطبري (٣/١٣٥) فيما يخص التحاق القعقاع بسعد بعد خروجه من المدائن إلى الكوفة . والطبري (٣/١٤٧) فيما يخص قدوم عبدالله بن المعتم . كما قدم إلى الكوفة غيرهما من القادة . راجع الطبري (٣/١٤٧) حول قدوم ضرار بن الخطاب الفهري .

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص (٢٧٥) .

(٣) النمرة : هي كساء فيه خطوط بيض وسود تلبسه الأعراب .

(٤) التامور : هو عرين الأسد ، وهو بيته الذي يأوي إليه .

(٥) أسد الغابة (٢/٢٩٢) والبيان والتبيين للجاحظ (٢/٦٨) مع اختلاف في اللفظ . والذرة : أصغر النمل ، جمعها ذر .

وكان إدارياً حازماً فى إدارة الكوفة . سأل عنه عمرُ جريرَ بن عبدالله البجلى فقال : « تركته فى ولايته أكرم الناس مقدرة ، وأقلّهم قسوة ،وهو لهم كالأم البرة ، يجمع لهم كما تجمع الذرة ، أشد الناس عند الباس، وأحب قريش إلى الناس[1] » .

(حـ) محاسبته :

إن ماضى سعد المشرّف وجهاده فى الحرب والسلم ، لم يحولا دون محاسبة عمر له .

أنشأ سعد لسكناه داراً من نقض آجر قصر كان للأكاسرة فى ضواحى الحيرة ، وكانت الأسواق قريبة من داره وكانت الأصوات المرتفعة تمنع سعداً الحديث ، فلما أنجز بناء الدار ، ادّعى الناس عليه مالم يقل فقالوا : قال سعد : «سكّن عنى الصُوَيْت ! ! ![2]» .

وبلغ عمر ذلك عن دار سعد ، وأن الناس يسمونه : قصر سعد ، فدعا محمد ابن مَسْلَمَة[3] وأرسله إلى الكوفة ، وقال له : « أعمد إلى القصر حتى

---

(١) الإصابة (٣/٨٤) .

(٢) الطبرى (٣/١٥٠) .

(٣) محمد بن مسلمة الخزرجى الأنصارى . أسلم بالمدينة وآخى الرسول صلى الله عليه وسلم بينه وبين أبي عبيدة بن الجراح ، وشهد بدراً وأحداً ، وكان فيمن ثبت مع الرسول صلى الله عليه وسلم يومئذ حين ولى الناس ، وشهد الخندق والمشاهد كلها مع النبي صلى الله عليه وسلم ما خلا تبوك ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم استخلفه على المدينة حين خرج إلى تبوك ، وكان فيمن قتل اليهودى كعب بن الأشراف ، وقد بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم على رأس بعض المفارز وأمّره على الخيل فى بعض غزواته . كان موضع ثقة الخلفاء بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد استعمله عمر مفتشاً إدارياً عاما على الولاة والأمراء . وقد اعتزل الفتن مع من اعتزلها من كبار الصحابة وتوفى بالمدينة سنة ست وأربعين للهجرة وهو يومئذ ابن سبع وسبعين سنة . راجع طبقات ابن سعد (٣/٤٤٣) والإصابة (٦/٦٣) وأسد الغابة (٤/٣٣٠) والاستيعاب (٣/١٣٧٧) .

تحرق بابه ، ثم ارجع عودك على بدئك » ؛ فخرج حتى قدم الكوفة فاشترى حطباً ثم أتى به القصر ، فأحرق الباب[1] .

وأتى سعدٌ فأخبر الخبر ، فقال « هذا رسول أرسل لهذا الشأن » . وبعث لينظر من هو ، فاذا هو محمد بن مسلمة . فأراده على النزول والدخول ، فأبى . وعرض عليه نفقة ، فلم يأخذ . ودفع كتاب عمر إلى سعد وفيه : « بلغنى أنك بنيت قصراً اتخذته حصناً ويسمى : قصر سعد ، وجعلت بينك وبين الناس باباً ، فليس بقصرك ولكنه قصر الخبال . إنزل منه منزلاً مما يلى بيوت الأموال وأغلقه ولا تجعل على القصر باباً يمنع الناس من دخوله وتنفيهم به عن حقوقهم ليوافقوا مجلسك ومخرجك من دارك إذا خرجت ».. فحلف سعد ما قال الذى قالوا ! ! . . ورجع محمد بن مسلمة حتى إذا دنا من المدينة نفذ زاده ، فجعل يأكل قشر الشجر ، فأقبل على عمر وقد مرض لسبب ذلك ، فأخبره خبره كله ، فقال عمر : « هلا قبلت من سعد ! ؟[2] . فقال محمد : لو أردت ذلك ، كتبت لى به ، أو أذنت لى فيه » . فقال عمر : « إن أكمل الرجال رأياً من إذا لم يكن عنده عهد من صاحبه ، عمل بالحزم أو قال به » ! ! . .

وأخبر ابن مسلمة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما بيمين سعد وقوله ، فقال عمر : « هو أصدق من روى عليه وممن أبلغنى »[3] .

---

(١) الطبرى (٣/١٥٠) .

(٢) الطبرى (٣/١٥١) .

(٣) الطبرى (٣/١٥١) .

(ى) عزله :

إتّهم نفر من بنى أسد سعداً فى دينه وصلاته وفى عدله ! ! . . فشكوه إلى عمر فى أحرج الأوقات ، فقد اجتمعت قوى الفرس كلها فى (نَهَاوَنْد) ، وأخذ المسلمون والفرس يستعدون لمعركة حاسمة ، خاصة وأن سعداً هو القائد العام ، ولكن عمر قال لأولئك النفر : إنّ الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم فى هذا الأمر وقد استعد لكم من استعد ! وآيم الله ، لا يمنعنى ذلك من النظر فيما لديكم ، وإن نزلوا بكم »[1] . . ثم بعث محمد بن مسلمة للتحقيق — وهو صاحب العمال الذى يقتص آثار من شكى زمان عمر .

ولم يجر ابن مسلمة التحقيق مع سعد سراً ، ذلك أنه كان يأخذ سعداً من مسجد إلى مسجد ويسألهم عنه وعن سيرته ، علناً ، فيقولون : لا نعلم إلا خيراً ، ولا نشتهى به بديلا . . حتى وصل إلى الجماعة التى كانت تمالىء أصحاب الشكوى ، فلم تجرؤ أن تطعن عليه أو تقول فيه سوءاً . .

وانتهى به إلى مسجد بنى عبس ، فقال محمد بن مسلمة : « أنشد بالله رجلاً يعلم حقاً إلا قال » ، فأجابه أسامة بن قتادة « اللهم إذ نشدتنا ، فإنه لا يقسم بالسوية ، ولا يعدل فى الرعية ، ولا يغزو فى السرية » . فقال سعد : « اللهم إن كان قالها كاذباً ورئاء وسمعة فأعم بصره وأكثر عياله وعرّضه لمضلات الفتن » ، فعمى بعد ذلك واجتمع عنده عشر بنات ، وكان يسمع خبر المرأة فيأتيها حتى يجسها ، فإذا عُثِر عليه قال : « دعوة سعد الرجل المبارك »[2] .

---

(١) الطبرى (٣/٢٠٨) .
(٢) الطبرى (٣/٢٠٨ ـ ٢٠٩) .

وقال سعد : إني لأول رجل أهرق دماً من المشركين ، ولقد جمع لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أبويه وما جمعهما لأحد قبلي (قال له الرسول : فداك أبي وأمي) ،ولقد رأيتني خُمُسَ الإسلام ، وبنو أسد تزعم أني لا أحسن أصلّي، وأن الصيد يلهيني » ! ![1] .

وخرج محمد به وبهم إلى عمر حتى قدموا عليه فأخبره الخبر ، فقال : «يا سعد ! ويحك كيف تصلي ؟» قال سعد « أطيل الأوليين وأحذف الأخريين فقال عمر : هكذا الظن بك » ثم قال : «لولا الاحتياط لكان سبيلهم بيّناً[2] ».

وعزل عمر سعداً سنة عشرين للهجرة[3] (٦٤٠م) ، ولم يعزله عن عجز أو خيانة كما قال عمر[4] ، وولى عمار بن ياسر[5] مكانه ، فاتهمه أهل الكوفة بالضعف وأنه لا علم له بالسياسة ، فعزله عمر وهو يقول : « مَن عذيرى من أهل الكوفة ! إن استعملت عليهم القوى فجّروه ، وإن ولّيت عليهم الضعيف حقروه ! »[6] .

---

(١) الطبري (٣/٢٠٩) وانظر المعارف لابن قتيبة ص (٢٤٢) .

(٢) الطبري (٣/٢٠٩) .

(٣) ابن الأثير (٢/٢٢٠) والطبري (٣/٢٠٢) .

(٤) فتح الباري بشرح البخاري (٧/٥٥) .

(٥) عمار بن ياسر : أسلم بعد بضعة وثلاثين رجلا ، وعذبته قريش بالرمضاء بأنصاف النهار ليرجع عن دينه ، وأحرق بالنار ، كما عذبت قريش أمه وأباه أيضاً . هاجر إلى أرض الحبشة وصلى القبلتين وهو من المهاجرين الأولين . شهد بدرا والمشاهد كلها وأبلى ببدر بلاء حسنا ، ثم شهد اليمامة وأبلى فيها أيضا ، وقد قطعت أذنه يومئذ . روت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال عن عمار : « ملىء عمار إيماناً إلى أخمص قدميه » ولاه عمر الكوفة ثم عزله وكان مع علي بن أبي طالب رضى الله عنه وقتل في صفين وله ثلاث وتسعون سنة . راجع طبقات ابن سعد (٣/٢٤٦) والاستيعاب (٣/١١٣٥) وأسد الغابة (٤/٤٣) والإصابة (٤/٢٧٣) .

(٦) البلاذري ص (٢٧٨) وتاريخ عمر بن الخطاب للجوزي ص (٨٨) .

ما أعظم عدل عمر ، عدله الذى يتساوى أمامه الراعى والرعية والقوى والضعيف . . وما أعظم صبر سعد وما أعظم نكرانه لذاته ! ! ولكن ، هل كان سعد يعمل لذاته حتى يستجيب لنداء النفس ووساوس الشيطان ؟ ! إن سعداً وأضرابه كانوا يعملون لله وحده ، لا لعمر ولا لأنفسهم ، لذلك كانوا يتقبّلون محاسبتهم — مهما اشتدّت — تقبّل المؤمنين الصابرين .

فلماذا عزله عمر عن الكوفة ؟

لما حضرت عمر الوفاة ، جعل الخلافة من بعده شورى فى ستة هم : عثمان وعلى وطلحة والزبير وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص ينتخبون أميراً للمؤمنين من بينهم ، وقال عن سعد : « إن أصابت الإمرةُ سعداً ، فهو ذاك ، وإلا فليستعن به أيّكم ما أُمّر ، فإنى لم أعزله فى عجز ولا خيانة »[1] .

لقد عزل عمر سعداً خوف الفتنة ، لأن جيوش الفرس كانت تتجمّع للغزو والثأر ، وكان المسلمون فى موقف صعب للغاية يعملون على تحشيد جيوشهم فى منطقة (نهاوند) لصدّ الخطر الفارسى ، فليس من المصلحة إذكاء فتنة فى الكوفة لا يعرف نتائجها ، والكوفة يومها كانت القاعدة الأمامية الكبرى للجيوش الإسلامية فى المشرق . . ولعل عمر سرّه أن يكون سعد إلى جانبه فى المدينة المنورة يستشيره ، فقد استبقى عمر بالمدينة بنى هاشم وكبار الصحابة ورؤوس قريش[2] ليشيروا عليه بما أوتوا من عقل راجح وحكمة

---

(١) فتح البارى بشرح البخارى (٧/٥٥) والإصابة (٣/٨٤) والطبرى (٣/٣٩٤) .

(٢) الطبرى (٣/٤٢٦) وابن الأثير (٣/٧٠) ونص عبارة الطبرى . « لم يمت عمر حتى ملته قريش ، وقد كان حصرهم بالمدينة ، فامتنع عليهم ، وقال : « إن أخوف ماأخاف على هذه الأمة ، انتشاركم فى البلاد» فإن كان الرجل ليستأذنه فى الغزو وهو ممن حبس بالمدينة من المهاجرين، ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة ، فيقول«لقد كان غزوك =

وحنكة ؛ وحتى لا يفتتن بهم المسلمون ويفتتنون هم بهذه الدنيا كما حدث ذلك فعلا أيام عثمان ! !

لقد رأى عمر إذاً ، أن فى عزل سعد مصلحة عامة ؛ ومن يكون سعد — على سمو قدره وعظم بلائه — وهو فرد ، بجانب المصلحة العامة للمسلمين ؟ !

٣ — فى الشورى :

لما عين عمر الستة ليختاروا منهم واحداً يكون خليفة للمسلمين ، كان طلحة غائباً عن المدينة ، فقال عمر : « . . وطلحة شريككم فى الأمر ، فإن قدم فى الأيام الثلاثة فأحضروه أمركم ، وإن مضت الأيام الثلاثة قبل قدومه ، فاقضوا أمركم ، ومن لى بطلحة » ؟ فقال سعد : « أنا لك به ولا يخالف إنشاء الله »[1] ؟

وبعد وفاة عمر ، اجتمع أصحاب الشورى ، فجاء عمرو بن العاص والمغيرة ابن شعبة[2] فجلسا بالباب ، فحصبهما سعد وأقامهما ، وقال : « تريدان أن تقولا : حضرنا وكنا من أهل الشورى » . ولما خلع عبدالرحمن بن عوف نفسه من ترشيح نفسه للخلافة ليتولى أمر انتخاب الخليفة وبدأ مشاوراته قال

= مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبلغك وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك » فلما ولى عثمان خلى عنهم ، فاضطربوا فى البلاد وانقطع إليهم الناس !! . انتهى وانظر كتاب الفاروق عمر للدكتور محمد حسين هيكل (٢/٢١٢) و (٢/٢٢٣) ففيه تفصيل ما أجملناه أعلاه .

(١) الطبري (٣/٢٩٣) .

(٢) عمرو بن العاص والمغيرة ابن شعبة سترد ترجمتهما ، لأنهما من قادة الفتح الإسلامى .

(٢) الطبرى (٣/٢٩٥) .

له سعد : « إن اخترت نفسك فنعم ، وإن اخترت عثمان فعليّ أحب إلى »[1] .

وعندما طالت مشاورات عبدالرحمن قال له سعد : « يا عبدالرحمن أفرغ قبل أن يفتتن الناس[2] » ، وكان سعد قد أعطى صوته فى اختيار الخليفة لعبدالرحمن بن عوف يولى الخلافة من يشاء[3] .

كل ذلك يدل على قوة شخصيته ورجولته وحبه لوحدة الكلمة وعدم حبه الإمرة ، ولعل قوة شخصيته وشجاعته تظهران بجلاء عندما نزع سعد السيف من عبيدالله بن عمر وجذب شعر رأسه حتى أضجعه إلى الأرض وحبسه فى داره ، وذلك بعد ما أقدم عبيدالله على قتل المشتبه بهم بقتل أبيه[4] ، فى الوقت الذى كان فيه ابن عمر فى ذروة هياجه وتحمسه لمقتل أبيه حتى لم يستطع أحد من الصحابة غير سعد أن يقدم على وضع حد لتهور ابن عمر ، مع أن سعداً لم يكن وقتها ذا سلطان ، وكان يعتمد على شجاعته وشخصيته وحرصه على إشاعة الأمن والنظام .

٤ — مع عثمان :

(أ) فى الكوفة ثانية :

كان عمر قد أوصى الخليفة من بعده أن يستعمل سعداً ، فكان سعد أول

---

(١) الطبرى (٢٩٦/٣) أما فى الطبرى (٣٠٢/٢) فقد أشار على عبد الرحمن بانتخاب عثمان ، وفى الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينورى (٢٦/١) قال عبد الرحمن ابن عوف لجماعة الشورى : « إنى عارض عليكم أمراً . قالوا وما تعرض ؟ قال : أن تولونى أمركم وأهب لكم نصيبى فيها وأختار لكم من أنفسكم ! قالوا قد أعطيناك الذى سألت » .

(٢) الطبرى (٢٩٧/٣) .

(٣) فتح البارى بشرح البخارى (٥٦/٧) والإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينورى (٢٦/١) .

(٤) الطبرى (٣٠٢/٣) .

عامل بعث به عثمان على الكوفة وعزل المغيرة ابن شعبة ؛ وقيل بل أقر عثمان عمال عمر جميعهم سنة ، لأن عمر أوصى بذلك ، ثم عزل المغيرة بعد سنة واستعمل سعداً ، وعلى هذا القول تكون إمارة سعد سنة خمس وعشرين للهجرة [1].

ولكن عثمان عاد فعزل سعداً عن الكوفة بعد أن عمل عليها سنة وأشهراً [2] ، وولاها الوليد بن عقبة [3] . وسبب عزله أن سعداً استقرض مالا من بيت المال الذي كان عليه عبدالله بن مسعود [4] ، ولما تقاضاه ابن مسعود لم يتيسر عند سعد ما يسد به دينه من مال ، فارتفع بينهما الكلام ، حتى استعان عبدالله بأناس من الناس ، واستعان سعد بأناس من الناس على

---

(١) الطبري (٣/٣٠٦) وابن الأثير (٣/٣٠ – ٣١) .

(٢) الطبري (٣/٣١٠) .

(٣) الوليد بن عقبة ابن أبي معيط الأموي . وأمه أروى بنت كريز ، فهو أخو عثمان بن عفان لأمه ، أسلم يوم فتح مكة وكان صبيا ، وولاه عثمان الكوفة فابتنى له فيها داراً كبيرة إلى جانب المسجد ، ثم عزله عثمان عن الكوفة وولاها سعيد بن العاص ، فرجع الوليد إلى المدينة ، فلم يزل بها حتى قتل عثمان ، فلما كان من علي ومعاوية ما كان ، خرج الوليد إلى الرقة معتزلا لها ، فلم يكن مع واحد منهما حتى تصرم الأمر ، ومات بالرقة . راجع طبقات ابن سعد (٦/٢٤) والتفاصيل عن حياته في الإصابة (٦/٣٢١) والاستيعاب (٤/١٥٥٢) وفي الطبري (٣/٣١١) : (إنه لم يتخذ لداره بابا حتى خرج من الكوفة ، وكان عاملا لعمر بن الخطاب على ربيعة بالجزيرة) .

(٤) عبد الله بن مسعود : من حلفاء بني زهرة ، أسلم وهو غلام وأخذ من النبي صلى الله عليه وسلم سبعين سورة من القرآن الكريم ، وكان إسلامه قبل دخول النبي صلى الله عليه وسلم دار الأرقم . هاجر إلى الحبشة الهجرتين وقيل الهجرة الثانية فقط ، ثم هاجر إلى المدينة المنورة ، وشهد بدراً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أعلم الصحابة بالقرآن . أرسله عمر مع عمار بن ياسر إلى الكوفة : أرسل عماراً أميراً وعبد الله معلماً ووزيراً وبقي على بيت المال في عهد عثمان حتى عزله وتوفي بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين هجرية وهو ابن بضع وستين سنة ودفن بالبقيع . راجع طبقات ابن سعد (٣/١٥٠) و (٦/١٣) والإصابة (٤/١٢٩) وأسد الغابة (٣/٢٥٦) والاستيعاب (٣/٩٨٧) .

استنظاره . . . فافترقوا وبعضهم يلوم بعضا : يلوم هؤلاء سعداً ويلوم هؤلاء عبدالله ؛ فكان هذا الاختلاف البسيط بين صاحبي رسول الله صلى الله عليه وسلم (أول ما نزغ به بين أهل الكوفة ، وهو أول مصر نزغ الشيطان بينهم في الإسلام) ؛ فغضب عثمان على سعد وانتزع المال منه وعزله[1] .

ومن الواضح أن سبب عزل سعد عن الكوفة ، هو خوف عثمان من تفاقم الشغب بين أهل الكوفة ، مما يؤدي إلى أخطار جسيمة تهدّد سلامة هذه القاعدة الأمامية لجيوش المسلمين ، لذلك آثر عزل سعد ليقضي على هذه الفتنة في مهدها .

(ب) دفاعه عن عثمان :

عاد سعد إلى المدينة واستقرّ بها ، فكان عثمان يستشيره في الأمور الخطيرة ويثق بمشورته كل الوثوق . ولما احتشدت جموع الأمصار لقتل عثمان ، كان سعد رهن إشارة عثمان ينفّذ كافة أوامره[2] ورفض رفضاً قاطعاً أي تعاون مع الناقمين على عثمان[3] ، وقال عن رؤسائهم : « والله إنّ أمراً هؤلاء رؤساؤه لأمر سوء »[4] ، وكان سعد ممن استقتل في الدفاع عن عثمان[5] ، ولما علم سعد بمقتله ذهب عقله ، فدخل عليه واسترجع وأكب عليه يبكي ! ! . .[6] وقال سعد يوما : « ما بكيت من الدهر إلا ثلاثة أيام : يوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويوم قتل عثمان ، واليوم أبكي على الحق ، فعلى الحق السلام » . .

---

(١) الطبري (٣/٣١١) وابن الأثير (٣/٣٠ - ٣١) وانظر المعارف ص(٢٤٢) .

(٢) الطبري (٣/٣٩٤) .

(٣) الطبري (٣/٤٠٦) .

(٤) طبقات ابن سعد (٣/٧٢) .

(٥) ابن الأثير (٣/٦٢) والطبري (٣/٣٨٩) .

(٦) الإمامة والسياسة لابن قتيبة (١/٤٤) .

نهاية المطاف :

١ — إعتزاله الفتنة :

بايع سعد علياً بعد مقتل عثمان[1]، وقد رفض ما عرضه عليه بعض الناس لمبايعته قائلا لهم : « لا حاجة لى فيها وتمثّل :

لا تخلطن خبيثات بطيّبـة واخلع ثيابك منها وانج عريانا[2]

كان سعد يقول : « ما أزعم أنى بقميصى هذا أحق منى بالخلافة : قد جاهدت إذ أنا أعرف الجهاد، ولا أبخَعُ نفسى إن كان رجل خيراً منى، لا أقاتل حتى تأتونى بسيف له عينان ولسان وشفتان، فيقول : هذا مؤمن، وهذا كافر »[3]، وقال رجل لسعد : « ما يمنعك من القتال ؟ » فقال سعد : « حتى تأتونى بسيف يعرف المؤمن من الـكافر ! »[4]. وقال له ابن أخيه هاشم بن عُتْبةُ : « ههنا مائه ألف سيف يرونك أحق بهذا الأمر » فقال سعد : « أريد منها سيفاً واحداً إذا ضربت به المؤمن لم يصنع شيئاً وإذا ضربت به الـكافر قطع ! »[5]. وأراده ابنه عمر أن يدعو لنفسه بعد قتل عثمان، فلم يفعل وطلب السلامة واعتزل[6] الفتنة ولم يكن مع أحد الطوائف المتحاربة. بل

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة (٤٧/١) وطبقات ابن سعد (٣١/٣)، وفى الطبرى (٤٥١/٣) : « جاءوا بسعد، فقال على : بايع، فقال سعد : لا أبايع حتى يبايع الناس. قال على : ائتنى بحميل (أى كفيل) : قال سعد : لا أرى حميلا. قال الأشتر : خل عنى أضرب عنقه. فقال على : دعوه، أنا حميله ». وأنظر ابن الأثير (٧٤/٧) وتاريخ أبى الفدا (١٧١/١).

(٢) الطبرى (٤٥٤/٣) وابن الأثير (٧٥/٣).

(٣) طبقات ابن سعد (١٤٣/٣).

(٤) طبقات ابن سعد (١٤٤/٤).

(٥) الإصابة (٨٤/٣).

(٦) أسد الغابة (٢٩٢/٢).

لزم بيته[1] ، وأمر أهله ألاّ يخبروه من أخبار الناس بشيء حتى تجتمع الأمة على إمام[2] .

كل ذلك يدلّ على شدّة تعلّقه بوحدة كلمة المسلمين وابتعاده عن إراقة دمائهم . لقد كان سيف سعد للمسلمين لا عليهم .

ولما اجتمع الحكمان : أبو موسى الأشعرى عن الإمام على بن أبى طالب ، وعمرو بن العاص عن معاوية بن أبى سفيان ، حضر الاجتماع سعد[3] على أمل اجتماع كلمة المسلمين ، وكان سعد على ماء لبنى سُلَيْم فى البادية ، فأتاه ابنه عمر فقال له : « إن أبا موسى وعمراً قد شهدهما نفر من قريش ، فاحضر معهم ، فإنك صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحد الشورى ولم تدخل فى شىء كرهته هذه الأمة ، وأنت أحق الناس بالخلافة » فلم يفعل ! وقيل حضرهم سعد وندم على حضوره فأحرم بعمرة من بيت المقدس[4] ، وقيل إنه قال لابنه: « لا أفعل ، إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنه يكون فتنة ، خير الناس فيها الخفى التقى . والله لا أشهد هذا الأمر أبداً »[5] . وسواء حضر سعد فى هذا الاجتماع أم لم يحضر ، فإن أكبر همّه كان بألا يزج نفسه فى فتنة عمياء تراق فيها كثيراً من دماء المسلمين ، لأنه كان يريد لهم جميعاً الخير والمحبة والسلام .

---

(١) أسد الغابة (٢٩١/٢) .
(٢) الاستيعاب (٦٠٩/٢) .
(٣) طبقات ابن سعد (٣٣/٣) .
(٤) ابن الأثير (١٣٢/٣) وأنظر مروج الذهب للمسعودى على هامش ابن الأثير (٨/٦) حول حضوره التحكيم .
(٥) الطبرى (٤٩/٤) .

٢ — حياته :

أسلم سعد وعمره سبعة عشر عاما[1] ، فيكون مولده حوالى سنة ثلاث وعشرين قبل الهجرة (٦٠٣م) ،وتوفى فى قصره بالعقيق على بعد عشرة أميال من المدينة عام خمسة وخمسين للهجرة[2] (٦٧٥م) وهو أثبت الروايات[3] ، فيكون عمره حين توفى ثمان وسبعين سنة قمرية .

وقبل وفاته أوصى أن يكفن بجبته التى كان يرتديها حين قاتل المشركين فى غزوة (بدر) الكبرى . قال سعد : « كفنونى فيها ، فإنى كنت لقيت المشركين فيها يوم بدر وهى علىّ ، وإنما كنت أخبؤها لذلك »[4] .

وعندما توفى حُمِل جثمانه من قصره فى العقيق إلى المدينة على أعناق الرجال إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد الصلاة عليه وقف بجسده الطاهر على حُجر أمهات المؤمنين فصلين عليه[5] ودفن بالبقيع[6] .

المحدث الفقيه :

روى سعد الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه كثير

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/١٣٩) وفى الإستيعاب (٢/٦٠٧) أنه أسلم وهو ابن تسع عشرة سنة وكذلك فى المعارف (٢٤٢) .

(٢) طبقات ابن سعد (٣/١٤٩) والمعارف (٢٤٢) وفى رواية أنه مات سنة خمسين وفى أخرى أنه مات سنه ثمان وخمسين راجع الإصابة (٣/٨٣) .

(٣) طبقات ابن سعد (٣/١٤٩) والإصابة (٣/٨٣) ، وقد جاء أنه يوم مات كان ابن بضع وسبعين سنة .

(٤) أسد الغابة (٢/٢٩٣) والاستيعاب (٢/٦١٠) .

(٥) طبقات ابن سعد (٣/١٤٨) وصلى عليه مروان بن الحكم وهو يومئذ والى المدينة .

(٦) الاستيعاب (٢/٦١٠) ، والبقيع هو مقبرة أهل المدينة راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٢/٢٥٣).

من الصحابة منهم ابن عمر وابن عباس وعائشة أم المؤمنين [1] . حدّث سعد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه مسح على الخفين ، فسأل ابن عمر أباه عمر بن الخطاب عن ذلك ، فقال : « نعم . إذا حدثك سعد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا تسأل عنه غيره » . وقد أحصى ابن حزم الأحاديث التي رواها سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فكانت (٢٧١) حديثاً [2] ، كما عده ابن حزم من أهل الفتيا [3] .

ولكنه كان لا يحدث إلا إذا كان واثقاً كل الوثوق من صحة حفظه وروايته للحديث ، كما أنه كان لا يفتي إلا عندما يُسأل عن شيء ويجد نفسه مضطراً للافتاء . قال السائب بن يزيد [4] « صحبت سعد بن أبي وقاص من المدينة إلى مكة ، فما سمعته يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً حتى رجع » . وسئل مرة عن شيء ، فاستعجم ! فقال : « إني أخاف أن أحدثكم واحداً ، فتزيدوا عليه المائة » [5] .

لقد كان محدثاً فقيهاً ، ولكنه كان يخشى الله كثيراً ، فلا يقول إلا إذا لم يجد مفراً من القول ! . . .

---

(١) الإصابة (٣/٨٣) أسد الغابة (٢/٢٩٢) .

(٢) أسماء الصحابة الرواة وما لكل واحد من العدد — ملحق بجوامع السيرة لابن حزم ص (٢٧٧) وأنظر مسند سعد بن أبي وقاص في مسند الإمام أحمد بن حنبل (١/١٦٨) .

(٣) أصحاب الفتيا من الصحابة ومن بعدهم على مراتبهم في كثرة الفتيا لابن حزم — ملحق بجوامع السيرة لابن حزم ص (٣١٩) .

(٤) السائب بن يزيد : ولد في السنة الثانية من الهجرة ، وحج أبوه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع وكان السائب معه وهو ابن سبع سنين وكان عاملا لعمر ابن الخطاب على سوق المدينة . توفي سنة اثنتين وثمانين وقيل سنة ست وثمانين وقيل سنة إحدى وتسعين راجع أسد الغابة (٢/٢٥٧) والإصابة (٣/٨٢) والاستيعاب (٢/٥٧٦) .

(٥) طبقات ابن سعد (٣/١٤٤) .

الشاعر :

فى المصادر التى بين أيدينا بعض الشعر لسعد ، قاله فى بعض المناسبات ، مما يدل على تمتّعه بسليقة شعرية .

ففى سرية عبيدة بن الحارث ، رمى سعد أول سهم فى الإسلام ، وفى ذلك يقول[1] :

ألا أبلغ رسول الله أنى حميتُ صَحَابَتى بِصُدُورِ نُبْلِى
أذود بها عدوّهم ذياداً بكل حَزُوْنَة وبكل سهل[2]
فما يعتدُّ رامٍ من معدٍ بسهم يا رسول الله قَبلى

ويضيف ابن هشام فى كتابه : سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، هذه الأبيات الثلاثة[3] :

وذلك أن دينك دين صدق وذو حق أتيت به وعدل
يُنَجَّى المؤمنون به ويُخْزَى به الكفار عند مَقَام مَهْل[4]
فمهلا قد غَويت فلا تَعِبْنِى غَوِىَّ الحى ويحك يا ابن جَهْل

وفى معركة القادسية ، كان سعد مريضاً ، فقال جرير بن عبدالله البجلى:[5]

أنا جرير كنيتى أبو عَمْرو قد نصر الله وسعد فى القصر

فلما بلغ سعداً ذلك خرج إلى الناس ، فاعتذر إليهم ، وأراهم ما به من

---

(١) الإصابة (٣/٨٥) ، وفي الاستيعاب(٢/٦٠٧) ذكر صدر البيت الأول . (ألا هل جا رسول الله أنى) . كما ذكر عجز البيت الثالث) بسهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم) وما ذكرناه أعلاه أبلغ معنى ومبنى .

(٢) الحزونة : الوعر من الأرض ، والسهل ضده .

(٣) سيرة ابن هشام (٢/٢٢٩) .

(٤) مهل : أى إمهال وتثبت .

(٥) الطبرى (٣/٧٩) .

القرح فى فخذه وإليتيه ، وفى ذلك يقول سعد[1] :

وما أرجو (بَجيلة)[2] غير أنى أؤمل أجرهم يوم الحساب

فقد لقيت خيولهم خيولاً وقد وقع الفوارس فى ضراب

وقد دلفَتْ بِعَرصتهم فيولٌ كأنّ زُهاءها إبلٌ جِراب[2]

وعندما اعتزل سعد الفتنة الكبرى ، طمع فيه معاوية بن أبى سفيان ، فكتب إليه بدعوة أن يعينه على الطلب بدم عثمان ، فأجابه سعد[1] :

معاوى داؤك الداء العياء وليس لما تجىء به دواء

أيدعونى أبو حسن على فلم أردُدْ عليه ما يشاء

وقلتُ له : اعطنى سيفاً بصيراً تميزُ به العداوةُ والولاء

فإن الشر أصغره كبيرٌ وإن الظهرُ تُثقِلُهُ الدماء

أتطمع فى الذى أعيا علياً ؟ ! على ما قد طمعت به العَفاء

ليوم منه خير منك حياً وميتاً . أنت للمرء الفداء

فأما أمر عثمان ، فدعه فإن الرأى أذهبه البلاء

والظاهر أنه كان لا يقول الشعر إلا عندما يُستثار ، فلا يجد غير الشعر وسيلة يعبّر بها عما يخالج نفسه من أحاسيس وأفكار . وعلى كل حال ، فهو شاعر مُقِلّ له موهبة شعرية لا ترقى إلى درجة الشعراء المجيدين ، فهو وسط فى شعره .

---

(١) بجيلة : قبيلة عربية ينتسب إليها جرير بن عبد الله البجلى . وهذه الأبيات فى الطبرى (٧٩/٣) .

(٢) زهاء : الكبر والفخر والعدد واللاحظ أن أواخر الأبيات الأولى مكسورة ، بينما آخر البيت الأخير مرفوع ، ولا يمكن أن يقع مثل سعد العربى الأصيل فى مثل هذا الخطأ النحوى ، مما يدل على وجود تحريف فى البيت الأخير .

(٣) فى أسد الغابة (٢٩٢/٢) ورد البيت الأول والثانى والثالث والخامس فقط ، وهذه الأبيات كاملة فى الاستيعاب (٦٠٩/٢ — ٦١٠) .

الإنسان :

كان سعد يهتم بقيافته : يلبس أفخر الثياب ، ويخضب شعره بالسواد ويلبس فى إصبعه خاتماً ، يحب الطيب ، ذواقة فى ملبسه ومأكله ومشربه[1] .

وكان راجح العقل ، بعيد النظر ، متين الخلق ، عفّ اليد واللسان ، براً بأهله وفياً لأصحابه ، أحب قريش للناس ، بل أحب الناس للناس وأرفقهم بهم[2] .

وكانت فيه حدّة[3] ، يغضب لله ، فقد كان أشد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة : عمر وعلى والزبير وسعد[4] . قال عمر بن الخطاب قبل موته : « ما يمنعنى أن أستخلفك ياسعد ، إلا شدّتك وغلظتك »[5] .

وكان حكيماً فى قوله حكيماً فى عمله . قال لابنه وهو يعظه : يابنى ! إن طلبت الغنى فاطلبه بالقناعة ، فإن مَنْ لم تكن له قناعة ، لم يغنه مال » . وكان بينه وبين خالد بن الوليد كلام ، فذهب رجل يقع فى خالد عنده ، فقال سعد : « مه ! إن ما بيننا لم يبلغ ديننا »[6] . وكان يتوقّى الشبهات ورعاً ، وكان يقتفى آثار النبى صلى الله عليه وسلم ، فيعمل بعمله . قال له ابنه : « يا أبت ، أراك تصنع بهذا الحىّ من الأنصار شيئاً ما تصنعه بغيرهم » . فقال سعد : « أى بنى؟ هل تجد فى نفسك شيئاً من ذلك ؟» قال: «لا ! ولكن أعجب من صنيعك!»

(١) طبقات ابن سعد (٣/١٤٣) .
(٢) الطبرى (٣/٣١٢) .
(٣) الطبرى (٣/٣١١) .
(٤) الإصابة (٣/٨٤) .
(٥) الإمامة والسياسة — لابن قتيبة (١/٥٤) .
(٦) الطبقات الكبرى للشعرانى (١/٢١) .

قال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يحبّهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق»[1].

وكان يقول الحق ولا شيء غير الحق دون خوف من ظالم أو ذى سلطان ، فعندما تولى معاوية الخلافة بأساليب السياسة والدهاء ، دخل عليه سعد ، وقال: « السلام عليك أيها الملك ! » فضحك معاوية ، وقال : « ما كان عليك يا أبا اسحاق لو قلت : يا أمير المؤمنين ؟ ! » . فقال سعد : « أتقولها جذلان ضاحكا ! ! والله ما أحب أني وليتها به » يعني بأساليب معاوية . وكان أحدّ الناس بصراً[2] ، آدم[3] طويلاً أفطس[4] ، وقيل : إنه كان رجلاً قصيراً ، دُحْدَاحاً ، غليظاً ، ذا هامة شَثْن الأصابع ، أشعر[5].

وكان مِزواجاً ، فقد تزوج اثنتى عشرة امرأة خلال حياته ، وكان منهن بعض السراري ، وقد أعقب منهن سبعة عشر ذكراً وثماني عشرة أنثى ، وكان غنياً ترك يوم وفاته مائتي ألف وخمسين ألف درهم[6].

القائد :

كان سعد جندياً ممتازاً ، وقائداً ممتازاً .

---

(١) أسد الغابة (٢/٢٩٣) .

(٢) الإصابة (٣/٨٤) .

(٣) آدم : أسمر .

(٤) أسد الغابة (٢/٢٩٣) .

(٥) طبقات ابن سعد (٣/١٤٣) والبدء والتاريخ (٥/٨٥) والدحداح فى الرجال: القصير الغليظ البطن . راجع المعجم الوسيط الذي أصدره مجمع اللغة العربية بمصر عام ١٩٦٠ (١/٢٧٢) . وذا هامة : أى ذا رأس كبير . راجع القاموس المحيط للفيروز آبادى — المطبوع عام ١٩٣٣ فى المطبعة المصرية — الطبعة الرابعة (٤/١٩٣) . وشثن الأصابع غليظها . راجع متن اللغة (٣/٢٧٥) .

(٦) طبقات ابن سعد (٣/١٣٧ — ١٣٨) وفيها أسماء زوجاته وأولاده ذكوراً وإناثاً . وطبقات ابن سعد (٣/١٤٩) عن ماله وتركته .

كان جنديا ممتازاً ، لأنه كان متفوقاً فى الرمى تفوقاً ظاهراً[1] ، شجاعاً مقداماً يتحلّى بالضبط المتين ويؤمن بالطاعة لذوى الأمر ماداموا على الحق ، يتحمّل المشاق العسكرية ، له أهداف واضحة يؤمن بها ويعمل جاهداً لتحقيقها . يقوم بواجبه بدافع من نفسه لا بدافع من غيره وللمصلحة العامة لا للمصلحة الخاصة ، وتلك هى مزايا الجندى الممتاز فى كل زمان .

هذه الصفات ، هى التى جعلت النبى الكريم صلى الله عليه وسلم يختاره حارساً شخصياً له فى غزواته ، فقد (كان أحد الفرسان الشجعان من قريش الذين كانوا يحرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مغازيه)[2] .

وكان قائداً ممتازاً ، لأنه كانت له قابلية ظاهرة على إعطاء القرارات الصحيحة السريعة ، إذ أنه كان يتحلّى بعقلية متزنة وذكاء خارق،وكان يحرص كل الحرص على الحصول على المعلومات بالدوريات والعيون واستنطاق الأسرى والاستطلاع الشخصى وباستشارة ذوى الرأى . ولأنه كان يتحلّى بشجاعة شخصية نادرة وإرادة قوية ثابتة ونفسية لا تتبدّل فى حالتى النصر والاندحار، له مخيلة تحسب حساب كل شيء ، يبادل قواته محبةً بمحبة مثلها وثقةً بثقة تساويها ، يمتلك شخصية محترمة ذات ماض ناصع مجيد. وتلك هى صفات القائد الممتاز بكل زمان .

وبالإضافة إلى كل هذه المزايا ، كان سعد قائداً (مَرِناً) ، لا يُصِر على تنفيذ حرفية أوامره ، ولا يحاسب رجاله إذا انتهزوا فرصة مناسبة للإقدام على عمل عسكرى قبل أن يستأذنوه! ذلك لأنه ورجاله كانوا يعملون يداً واحدة

---

(١) فى الإصابة (٣/٨٤) قصة إصابته الهدف بدقة ، وفي طبقات ابن سعد (٣/١٤٢) أنه كان من الرماة المذكورين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٢) الاستيعاب (٢/٦٠٨) .

فى سبيل أهداف مشتركة ، ولم يكن يخطر ببال أحدهم أن يخالف الأوامر حباً بالظهور أو جراً لمغنم شخصى ! ولـكنه كان لا يرضى من رجاله أى إخلال بالضبط يؤدى إلى الشغب وعرقلة أعمال الجهاد . قال سعد : « والله لا يعود أحد يحبس المسلمين عن عدوّهم ويشاغلهم وهم بإزائهم ، إلاسُنّت به سنّة يؤخذ بها بعدى[1] » . وقال ناصحاً رجلين من أعوانه للتّمسك بأهداب الضبط : « إنى أحذركما أن تؤثرا أمر الجاهلية على الإسلام فتموت قلوبكما وأنتما حيّان! إلزما السمع والطاعة والاعتراف بالحقوق ، فما رأى الناس كأقوام أعزّهم الله بالإسلام[2] » .

والحق أن ضبط سعد كان متيناً للغاية ، فـكما كان يريد السمع والطاعة من القادة والرجال الذين كانوا بإمرته ، فإنه كان يسمع ويطيـع أمير المؤمنين سمعاً وطاعة خارجة عن أعماق قلبه ونفسه . لقد كان سعد يخبر عمر بكل شىء ويستأذنه قبل أن يُقْدِم على عمل أى شىء .

كان يخبره عن موقف العدو بالتفصيل ، وكان يخبره عن طبيعة الأرض التى يحلّ بها ، ويستأذنه قبل خوض المعارك ، ويسأله الرأى فى الأسرى والغنائم ، وكان عمر استناداً إلى أخبار سعد التى تصله تباعاً وبدافع من حرصه الشديد على انتصار المسلمين يكاد يتداخل فى تفاصيل المعركة : فى موقعها ، وفى إعداد خطّتها ، وحتى فى تسميه قادة التشـكيلات التعبوية من قلب وميمنة وميسرة وساقة . . . الخ . أما سعد فيتقبّل كل ذلك برحابة صدر وينفذ أوامر عمر حرفياً من دون تذمّر ولا تردد ! !

وكان قائداً عقائدياً ، جاهد لحماية حرية انتشار الإسلام فى شبه الجزيرة

---

(١) الطبرى (٣/٤٤) .

(٢) الطبرى (٣/٣٠) وهو يخاطب عمر بن معد يكرب وطليحة الأسدى .

العربية ، وجاهد فى الفتح الإسلامى خارج شبه الجزيرة العربية ؛ ولـكنه أحجم عن الاشتراك فى الفتنة الـكبرى واعتزل الطرفين المتخاصمين ، وكان بإمكانه أن يتولى قيادة الجيوش أو إمارة مصر من الأمصار لعلى أو معاوية على حد سواء ، لو أنه تعاون مع أحدهما على حساب عقيدته ... وهيهات ، لأنه لم يكن يجاهد من أجل المناصب ومن أجل الدنيا ولـكنه كان يجاهد من أجل إعلاء كلمة الله . وما أصدق قول سعد وهو على فراش الموت لابنه : « لا تبك علىّ فإن الله لا يعذبنى أبداً وإنى من أهل الجنة ، إن الله يدين المؤمنين ما عملوا لله»[1] .

وعند مقارنة أعمال سعد العسكرية بمبادىء الحرب ، يتضح لنا أنه كان يطبق مبدأ (اختيار المقصد وإدامته) ، فقد كان مقصده واضحاً فى كل معركة خاضها ، وكانت معاركه كلها ، معارك (تعرضية) وكان يطبق مبدأ (المباغتة) كلما وجد إلى ذلك سبيلا ، كما فعل عند عبور نهر دجلة بالخيل فى معركة فتح المدائن . وكان (يحشد) قوته قبل المعركة ولا يقدم على تنفيذ خطة حربية قبل أن يتّخذ كافة تدابير (الأمن) اللازمة مستفيداً من مبدأ (التعاون) بين صنوف قواته وأقسام جيشه من تشـكيلات تعبوية وقبائل ، ويبذل قصارى جهده (لإدامة معنويات قطعاته) ، ويؤمّن لها كافة متطلبات (القضايا الإدارية).

سعد فى التاريخ :

نسى الناس كثيرا من قادة الفتح الإسلامى ، وحتى التاريخ نسى كثيراً منهم أيضاً ، ولـكن سعداً كان من بين القادة الذين يذكرهم الناس دائماً

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/١٤٧) .

ولا ينسونهم أبداً ، كما إنه شرّف بأعماله الخالدة صفحات التاريخ ، فاسمه في كل مصادر التاريخ وعلى كل لسان .

لقد فتح سعـد العراق[1] وأكثر فارس[2] و (أذربيجان)[3] و (الجزيرة)[4] وبعض (أرمينية)[5]، أي أنه فتح بصورة مباشرة العراق الحديث وأكثر إيران بحدودها اليوم من أملاك الامبراطورية الفارسية ، وفتح القسم الجنوبي من جمهورية تركيا الحديثة من أمـلاك الامبراطورية الرومانية ونشر فيها الإسلام ، فرسخت مبادؤه في تلك البلاد الشاسعة منذ فتحها سعد حتى اليوم .

ولـكن ، هل هذه الفتوحات، على أهميتها وعظمها — هي كل أمجاد سعد ابن أبي وقاص ؟

---

(١) أقصد بالعراق العراق بحدوده الحالية لا العراق القديم . راجع تفاصيل ماجاء عن العراق في معجم البلدان (٦/١٣٣) .

(٢) الاستيعاب (٢/٦٠٨) ، وفارس ولاية وإقليم فسيح ، أول حدودها من العراق (أرّجان) ، ومن جهة (كرمان السيرجان) ومن جهة ساحل بحر الهند (البحر العربي) (سيراف) ومن جهة السند (مكران . أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٦/٣٢٤) .

(٣) آذربيجان من (برذعة) مشرقاً إلى (آذربيجان) مغرباً ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الديلم والجيل والطرم ، وهو إقليم واسع ، ومن مشهور مدائنها تبريز والمراغة وخوى وسلماس وأورميه وأردبيـل ومرند . راجع التفاصيل في معجم البلدان (١/١٥٩) .

(٤) الجزيرة : سميت بالجزيرة لأنها بين دجلة والفرات ، تشتمل على ديار مضر وديار بكر ، ومن أمهات مدنها حران — الرها — ونصيبين ومدن أخرى . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٣/٩٦) .

(٥) أرمينية : راجع التفاصيل عنها في معجم البلدان (١/٢٠٣) ونقصد بها المنطقة الكائنة شمال الحدود العراقية — السورية من تركيا في الوقت الحاضر .

لم تقتصر أمجاد سعد على هذه الفتوحات فحسب ، بل له أمجاد كثيرة هى أهم من فتوحاته هذه ، يمتاز بها عن غيره من القادة الفاتحين .

فقد أسلم سعد قبل أن تفرض الصلوات[1]، فهو من قدماء المسلمين الأولين،وهو الذى أراق أول دم دفاعاً عن الإسلام، وهو أول من رمى بسهم فى سبيل الله ، وهو أحد العشرة المبشّرة المشهود لهم بالجنة وهو أحد الستة الذين جعل عمر فيهم الشورى ، وهو الذى كوّف الكوفة فأصبحت القاعدة الأمامية للفتح الإسلامى فى الشرق كله ، وأمدت العالم الإسلامى بعدد ضخم من قادة الفتح والفاتحين ، وبعدد ضخم من قادة الفكر والأدباء والمفكرين وأصحاب الورع والتقوى ، فكانت هذه المدينة أعظم قواعد الفتح الإسلامى ، وأغرز مصادر الثقافة العربية .

وفوق ذلك ، يذكر التاريخ له ، أنه جاهد بنفسه وماله فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم لدعم العقيدة الإسلامية وللدفاع عن الإسلام ، فقد شهد المشاهد كلها مع الرسول القائد ، وكان له فيها أثر شخصى ملموس، كما أنه أوصى بثلث ماله لخدمة الدعوة الإسلامية ، وبذلك استحقّ سعد أن يفاخر به النبى الأعظم ويقول له : « أنت خالى[2] » ويفديه بأبيه وأمه يوم أحد[3]، ويدعو له قائلاً : « اللهم أجب دعوته وسدد رميته[4]» ، فكان سعد مجاب الدعوة مشهوراً بذلك ،تخاف دعوته وتُرجّى ، لا يشك فى إجابتها[5] .

---

(١) طبقات ابن سعد (١٣٩/٣) والاستيعاب (٦٠٧/٢) .

(٢) الاستيعاب (٦٠٨/٢) .

(٣) طبقات ابن سعد (١٤١/٣).

(٤) الاستيعاب (٦٠٨/٢) والإصابة (٨٣/٣) .

(٥) الاستيعاب (٦٠٧/٢) .

لا عجب إذن ، وقد عرفت بعض أمجاد سعد ، ألا ينساه الناس ولا ينساه التاريخ ، بل كان ولا يزال وسيبقى مفخرة من أبرز مفاخر العرب المسلمين .

إن سعد بن أبى وقاص دليل عملى على كفاءة العربى الأصيل المؤمن بمبادىء الإسلام ، وهو أسوة حسنة لمن يريد أن يفعل المستحيل من أجل عقيدته .

رضى الله عن القائد الذى حطم عرش كسرى ، الإدارى الذى كوّف الكوفة ، التقى النقى ، أبى إسحاق سعد بن أبى وقاص الزهرى .

قادة فتح
محور العراق الأوسط

خالد بن عرفطة العذري

نائب سعد في القادسية وفاتح مدينة ساباط

أيامه الأولى وإسلامه :

هو خالد بن عُرْفُطَة الليثي ويقال البكري من بني ليث بن بكر بن عبد مناه ، ويقال : بل هو من قضاعة ثم من عذرة حليف لبني زهرة[1]، وقد أسلم قبل فتح مكة وصحب النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه[2] ، ولكننا لا نعلم وقت إسلامه بالضبط ولا أعماله في عهد النبي الكريم .

جهاده :

برز اسم خالد لأول مرة في معركة القادسية الحاسمة ، وهذا يدل على أنه بذل جهوداً مشرفة في جهاده قبل القادسية رشحته ليكون الرجل الثاني في تلك المعركة .

فقد كان سعد بن أبي وقاص مريضاً في أيام القادسية لا يستطيع أن يقود

---

(١) الإصابة (٢/٩٤) وأسد الغابة (٢/٨٧) والاستيعاب (٢/٤٣٤) ، والصواب أنه من بني عذرة كما جاء في أسد الغابة (٢/٨٨) والاستيعاب (٢/٨٨) والاستيعاب (٢/٤٣٥) . وأرجح أنه من عذرة لأن الذين نسبوه إليها ذكروا أنه حليف لبني زهرة ، وهذا يجعله بتماس شديد بسعد بن أبي وقاص الزهري ، مما جعل سعداً يعرف مزاياه ويثق به ويقلده منصب نائبه في القادسية .

(٢) طبقات ابن سعد (٤/٣٥٥) ، وقد ذكر ابن حزم في رسالته (أسماء الصحابة الرواة) الملحقة بكتابه (جوامع السيرة) ص (٢٩٠) أن خالد بن عرفطة روى أربعة أحاديث فقط عن النبي صلى الله عليه وسلم .

المعركة إلا بإصدار الأوامر والإشراف العام على سير القتال ، لذلك عيّن خالداً نائباً عنه : يبلغ أوامر سعد إلى جيشه ، ويراقب تنفيذ تلك الأوامر ، ويباشر القتال بنفسه ، ويُطلِع سعداً على تفاصيل تطورات المعركة وسيرها ، فكان سعد يرمي بالرقاع فيها أمره إلى خالد[1] ، وكان خالد بدوره يبذل غاية جهده في تنفيذ أوامر القائد العام .

ولما انتهت معركة القادسية ، أمر سعد أن يجمع خالد سلب القتلى ، ويدفن الشهداء والقتلى[2] ، وهذان واجبان مهمان للغاية بعد كل معركة ، الواجب الأول يدل على أمانة خالد ، والواجب الثاني يدل على إنسانيته ، وكلاهما يدلان على عظم ثقة سعد بسجايا خالد الإنسانية .

وارتحل سعد بعد الفراغ من أمر القادسية باتجاه المدائن ، فكان خالد على مقدمة قوات المسلمين المتحركة لفتح المدائن ، فلم يرد سعد حتى فتح خالد (ساباط)[3] الواقعة قرب المدائن والتي كانت تدعى بـ (ساباط كسرى)[4] .

وكان خالد مع سعد في فتح المدائن ، وبقي إلى جانبه حتى ارتحل سعد إلى الكوفة ، فارتحل خالد معه .

شمائل الإنسان :

نزل خالد الكوفة مع مَنْ نزلها من المسلمين وابتنى بها داراً له[5] ،

---

(١) الطبري (٣/٤٣) وابن الأثير (٢/١٨١) .

(٢) الطبري (٣/٤٣) .

(٣) الطبري (٣/٦٩) .

(٤) البلاذري ص (٢٦٣) . وقد ذكر الطبري في (٣/١١٣) ان خالداً كان على الساقة وأن زهرة بن الحوية كان على المقدمة . وساباط : وتسمى (ساباط كسرى) مدينة بالقرب من المدائن . راجع معجم البلدان (٥/٢) .

(٥) معجم البلدان (٥/٢) وهي على مرأى من المدائن .

(٦) طبقات ابن سعد (٦/٢١) .

فكان مستشاراً مقرباً من سعد ومن الذين تولوا إمارة الكوفة[1] عند غيابه عنها .

لقد ابتعد خالد عن الفتن ، وبذل طاعته لكل خليفة تولى أمر المسلمين ولكل أمير تولى الكوفة ، فلم يشارك فى الشغب على عثمان رضى الله عنه ولم يرض عن تصرفات الناقمين عليه . فلما تولى على بن أبى طالب رضى الله عنه الخلافة أخلص له الولاء ولكنه لم يشارك فى القتال الدائر بين المسلمين ، إذ كان فى شك من أمر هذا القتال ، كما كان سعد بن أبى وقاص فى شك من أمر هذا القتال أيضاً .

ولما تولى معاوية الخلافة ودخل الكوفة ، كان خالد حينذاك فى الكوفة فبايع معاوية مع الذين بايعوه من أهل العراق . وفى تلك الأيام خرج على معاوية عبدالله بن أبى الحوساء على رأس جماعة من الخوارج (بالنخيلة) قرب الكوفة ، فقال معاوية لأهل الكوفة : « والله لا أمان لكم عندى حتى تكفوهم »[2] ، فخرج أهل الكوفة وعلى رأسهم خالد ، فقاتل ابن أبى الحوساء حتى قتله[3] ، فهو الذى قتل الخوارج يوم النخيلة[4] .

وقد توفى خالد سنة ستين للهجرة (٦٧٩ م) وقيل سنة إحدى وستين (٦٨٠م)[5] .

لقد كان خالد مخلصاً لعقيدته ، يتفانى فى سبيلها ، أسلم طائعاً وثبت على

---

(١) أسد الغابة (٢/٨٧) والإصابة (٢/٩٤) .
(٢) ابن الأثير (٣/١٦٣) .
(٣) الإصابة (٢/٩٤) وأسد الغابة (٢/٨٨) وابن الأثير (٣/١٦٤) .
(٤) طبقات ابن سعد (٦/٢١) .
(٥) ابن الأثير (٤/٤١) والإصابة (٢/٩٤) وأسد الغابة (٢/٨٨) .

إسلامه ، ولم يعمل لإثارة الفتن بين المسلمين ، وقد أعان على قتال الخوارج لأنهم كانوا يعملون على تفريق الكلمة وبعثرة الصفوف وإشاعة الفوضى والاضطراب فى البلاد ، فقاتلهم بدافع من اعتقاده بأنهم من عوامل فقدان الأمن والاستقرار وإثارة الحزازات والأحقاد .

وكان جواداً مضيافا شهماً غيوراً ، شجاعا مقداما ، يعمل للمصلحة العامة ويجعلها دائماً فوق مصلحته الخاصة ، وكان لا يحرص على تولى الإمارة ، ولا نعلم أنه خلّف مالا يذكر عند وفاته ، مما يدل على أنه لم يصبح ذا ثراء على حساب الفتح .

القائد :

كان خالد متكامل الشخصية مسيطراً على رجاله ، يتروى فى إعطاء قراراته ولا يتسرع فى إصدارها ، فكانت قراراته صحيحة تدل على عمق تفكيره ورجاحة عقله .

وكان ذا إرادة قوية ، يفكر ثم يقرّر ثم ينفذ ما يقرّره بعزم لا يتزعزع ، وكانت له شخصية قوية ولكنها محببة إلى النفوس : يحب رجاله ويحب الناس ويبادلونه حباً بحب وثقة بثقة .

وكان يطبق مبدأ (المباغتة) دائماً فى حركاته معتمداً على سرعة حركة قطعاته لمباغتة أعدائه بالمكان والزمان ، ومعتمداً على إبداعه الذاتى ومشورة رجاله لمباغتة أعدائه (بالأسلوب) كما فعل فى معركة القادسية عندما استخدم الجمال المجللة بالقماش لإخافة فيلة الفرس[1] .

---

(١) الطبرى (٣/٥٤) .

خالد فى التاريخ :

يذكر خالد كلما ذكرت معركة القادسية الحاسمة ، إذ كان (كالخليفة لسعد لو لم يكن سعد شاهداً)[1] ، لأنه لعب دوراً مهماً فى تلك المعركة التى فتحت أبواب الإمبراطورية الفارسية للمسلمين الفاتحين .

إنه يذكر كلما ذكر سعد بن أبى وقاص فى جهاده ، ويذكر كلما ذكر سعد فى أعماله العسكرية لإدامة زخم الفتوحات الإسلامية من جهة وفى أعماله الإدارية لإدارة البلاد المفتوحة من جهة أخرى .

لقد كان خالد فاتحاً وإدارياً ولكنه من الناحية الإنسانية كان مثالا للخلق الرفيع ، وقد كان صديقاً وفياً لسعد عندما كان قائداً عاماً فى العراق وأميراً على الكوفة ، وبقى محافظاً على صداقته بعدما أقيل سعد من مناصبه وأصبح رجلا من المسلمين. وبعد موت سعد ، بقى خالد وفياً لأهل سعد وفاءه لأهله.

لقد كان خالد قائداً إنساناً .

(١) الطبرى (٤٣/٣) .

زهرة بن الحوية التميمي

فاتح ما بين القادسية والمدائن

إسلامه :

أوفد ملك (هَجَر[1]) المنذر بن ساوى العبدى[2] بعد إسلامه زهرة بن حوية بن عبدالله التميمى السعدى على النبى صلى الله عليه وسلم ، فأسلم زهرة[3] .

وكان النبى بعد انصرافه من الحديبية سنة ست للهجرة[4] قد بعث العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى العبدى وكتب إليه رسول الله كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام[5] ، فأسلم المنذر وأوفد زهرة على النبى ، مما يدل على أن زهرة كان

---

(١) هجر : هى قصبة البحرين وقاعدتها . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٨/٤٤٥) .

(٢) المنذر بن ساوى العبدى التميمى الدارمى : يقال له العبدى لأنه من ولد عبد الله بن دارم ، ذكر بعضهم أنه وفد على النبى صلى الله عليه وسلم ، والصحيح أنه لم يكن فى الوفد ، وإنما كتب معهم بإسلامه . استخلفه النبى على البحرين ومات فى السنة التى توفى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . راجع التفاصيل فى الإصابة (٦/١٣٩) وأسد الغابة (٤/٤١٧) والاستيعاب (٤/١٤٤٨) وفى الطبرى (٢/٥١٩) أن المنذر مات بعد النبى صلى الله عليه وسلم بقليل .

(٣) الإصابة (٣/١٣) وأسد الغابة (٢/٢٠٦) وفى الطبرى (٣/٨) : زهرة بن عبدالله بن قتادة بن الحوية وكان ملك هجر قد سوده فى الجاهلية ووفده على النبى صلى الله عليه وسلم .

(٤) طبقات ابن سعد (١/٢٥٨) و (٢/٩٥) وسيرة ابن هشام (٣/٣٥٥) وفتح البارى بشرح البخارى (٧/٣٣٩) .

(٥) الطبرى (٢/٥٨٩) وسيرة بن هشام (٤/٢٧٩) وانظر نص كتاب المنذر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى طبقات ابن سعد (١/٣٦٣) وفى عيون الأثر لابن سيد الناس (٢/٢٦٧) .

من وجوه البحرين[1] وأنه كان موضع ثقة ملكها .

والظاهر أن زهرة عاد من المدينة إلى البحرين بعد أن تفقه فى الدين ، وذلك ليكون إلى جانب المنذر يعاونه فى نشر الإسلام وإدارة البحرين ، إذ لم يرد أى ذكر لزهرة فى غزوات النبي وفى أعماله الأخرى ، لذلك نال زهرة شرف الصحبة[2] ، ولم ينل شرف الجهاد تحت راية الرسول القائد .

جهاده :

(أ) قبل القادسية :

ثبت زهرة على دينه مع من ثبت من أهل البحرين عند ارتداد أهل البحرين عن الإسلام وبذل جهده فى محاربة المرتدين حتى عادوا إلى الإسلام ، إذ لم يتول قيادة الجيوش غير الصحابة[3] ، ولم يتولاها المرتدون على الرغم من توبتهم واشتراكهم فى الجهاد أيام عمر بن الخطاب[4] .

برز زهرة لأول مرة قائداً للمقدمة[5] فى مسير الاقتراب من (شراف)[6] إلى (القادسية) ، فتحرك بالمقدمة بعد الإذن من (شَرَاف)[6] إلى (العُذَيْب)[7]

---

(١) البحرين : بلاد على ساحل الخليج العربى ، وقيل هى قصبة هجر ، وقيل هجر قصبة البحرين . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٧٢/٢) .

(٢) ابن الأثير (١٧٤/٢) .

(٣) الإصابة (٣٠٩/١) و (١٩٤/٢) و (٢٣٥/٤) .

(٤) الطبرى (٦٣٤/٣) وأول من ندب أهل الردة هو عمر وكانوا فى أيام أبى بكر محرومين من الجهاد . وقد استخدمهم عمر جنودا فقط ولم يتول أى مرتد أية قيادة أبداً .

(٥) الطبرى (٨/٣) وابن الأثير (١٧٤/٢) وهذا يدل أنه بذل جهودا مشرفة فى الجهاد قبل ذلك حتى أصبح موضع ثقة سعد لتولى قيادة الرجال .

(٦) شراف : ماء بنجد . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٢٤٦/٥) .

(٧) العذيب : ماء على بعد أربعة أميال من القادسية يمر بها القادم من نجد قبل وصوله القادسية . وقيل هو واد لبنى تميم على طريق حاج الكوفة ، وقيل هو حد السواد . راجع التفاصيل معجم البلدان (١٣٠/٦) .

فوصلها وعسكرت قواته هناك حتى وصلت قوات سعد بن أبي وقاص ، فتقدم زهرة على رأس المقدمة حتى نزل (القادسية)[1] .

وكان في (العُذَيب) جندي فارسي يستطلع حركات أرتال المسلمين ، فخرج راكضاً نحو (القادسية) ليخبر الفرس عن قوة المسلمين واتجاه تقدمهم ، فلما علم زهرة بأمره اتبعه وقتله بعد أن عجز أصحاب زهرة عن إلقاء القبض عليه[2] وكان زهرة قد وجد في (العذيب) رماحا ونشابا وأسفاطا من جلود وغيرها ، فانتفع بها المسلمون ، كما انتفعوا بالأموال الكثيرة التي حصلت عليها سرية بعثها زهرة للغارة على (الحيرة)[3] وبذلك انتعش المسلمون من الناحية الإدارية .

وأكمل سعد بن أبي وقاص تحشد قوات المسلمين في القادسية ، وكان زهرة يقوم بواجب حماية تحشد المسلمين خوفا من مباغتة الفرس لهم ، فكانت طلائع الفرس تصطدم أول ما تصطدم بقوات زهرة[4] ، وعندما أراد (رستم) قائد الفرس أن يرسل له المسلمون رجلا منهم يفاوضه ، أخبر زهرة سعداً بهذا الطلب ، فأرسل سعد إلى (رستم) المغيرة بن شعبة[5] .

كما أن (رستم) نفسه قام باستطلاع شخصي لمعسكر المسلمين في القادسية ،

---

(١) الطبري (١٢/٣) والقادسية موضع بينه وبين الكوفة خمسة عشر فرسخا وبينه وبين العذيب أربعة أميال . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٥/٧) وآثار البلاد وأخبار العباد ص (٢٣٩) .

(٢) الطبري (١٢/٣) .

(٣) الطبري (١٣/٣) وابن الأثير (١٧٥/٢) ، والحيرة مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة في موضع يقال له النجف . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٣٧٦/٣) وآثار البلاد وأخبار العباد ص (١٨٦) .

(٤) البلاذري ص (٢٥٨) .

(٥) الطبري (٣٢/٣) .

فرآه زهرة وكلاهما لا يعرف شيئا عن حقيقة هوية صاحبه ، فعرض (رستم) أن يصالح المسلمين ويجعل لهم جعلا على أن ينصرفوا عنه ، وقال لزهرة : « أنتم جيراننا ، وقد كانت طائفة منكم فى سلطاننا[1] ، فكنا نحسن جوارهم ونكف الأذى عنهم ونوليهم المرافق الكثيرة ونحفظهم فى أهل باديتهم ، فنرعيهم مراعينا ، ونميرهم من بلادنا ، ولا نمنعهم من التجارة فى شيء من أرضنا ، وقد كان لهم فى ذلك معاش » فقال له زهرة : « صدقت ، قد كان ما تذكر ، وليس أمرنا أمر أولئك ولا طلبتنا طلبتهم . إنّا لم نأتكم لطلب الدنيا ، إنما طلبتنا وهمتنا الآخرة ! . كنا كما ذكرت يدين لكم من ورد عليكم منا ، ويضرع إليكم بطلب ما فى أيديكم ، ثم بعث الله تبارك وتعالى إلينا رسولا ، فدعانا إلى ربه ، فأجبناه ، فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : إنى قد سلّطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني ، فأنا منتقم بهم منهم وأجعل لهم الغلبة ماداموا مقرين به ، وهو دين الحق ، لا يرغب عنه أحد إلا ذل ، ولا يعتصم به أحد إلا عز » . فقال له رستم : « ماهو ؟ » . قال زهرة : « أما عموده الذى لا يصلح منه شيء إلا به ، فشهادة : أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والإقرار بما جاء به من عند الله تعالى . وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى . والناس بنو آدم وحواء أخوة لأب وأم » فقال رستم : « أرأيت لو أنى رضيت بهذا الأمر وأجبتكم إليه ومعى قومى ، كيف يكون أمركم ؟ أترجعون ؟ » . قال زهرة : « إى والله لا نقرب بلادكم

---

(١) يقصد رستم المناذرة فى الحيرة وفى المناطق المجاورة لها والقبائل العربية القاطنة فى البحرين وعمان على الخليج العربى والتى كانت تخضع للإمبراطورية الفارسية فى بعض الأحيان .

أبداً ، إلا فى تجارة أو حاجة ![1] » ، فإذا صحت هذه الرواية عن زهرة ، فهى دليل قاطع على قابليته فى اقناع خصومه بأن الحرب التى يخوضها المسلمون هى حرب عادلة لها أهداف سامية ، وهى بعيدة عن الظلم والاستغلال والعبث ، وبذلك يحطم معنويات خصومه فى أحرج الأوقات ، ولا يمكن أن ينتصر جيش يفتقر إلى المعنويات !

(ب) فى القادسية :

لما نشب القتال بين الفرس والمسلمين ، اندمجت قوات المقدمة التى يقودها زهرة بالقطعات المقاتلة الأخرى ، لذلك سلم سعد قيادة الميسرة لزهرة مكان شرحبيل بن السمط الكندى[2] ، فكان زهرة قائداً للميسرة فى معركة القادسية الحاسمة[3] ، فكان لبلاء زهرة وثباته أثر كبير فى انتصار المسلمين لذلك كان من بين خمسة وعشرين بطلا فضلهم سعد فى العطاء لبلائهم فى القادسية[4] بلاءً مشرفاً !.

ولما انكشف أهل فارس ، أمر سعد زهرة بمطاردتهم ، فخرج على رأس

---

(١) الطبرى (٣/٣٢ - ٣٣) وقد ذكر الطبرى أن رستم اقتنع بوجهة نظر زهرة وبآرائه ، ولكن أصحابه أنفوا من الاستسلام للمسلمين .

(٢) شرحبيل بن السمط الكندى : أدرك النبى صلى الله عليه وسلم وروى عنه حديثا واحداً هو «لا تزال أمتى قوامة على أمر الله لا يضرها من خالفها » ، وقد شهد القادسية وكان أميرا على حمص لمعاوية ثم مات سنة أربعين للهجرة . راجع طبقات ابن سعد (٧/٤٤٥) والإصابة (٣/١٩٩) وأسد الغابة (٢/٣٩١) والاستيعاب (٢/٦٩٩) ، وجاء فى الطبرى (٣/٩) فى وصفه عند الحديث عن معركة القادسية ما يلى : « وكان غلاما شابا ، وكان قد قاتل أهل الردة ووفى الله ، فعرف ذلك له ، وقد غلب الأشعث بن قيس الكندى على الشرف » .

(٣) الطبرى (٣/٤٣) .

(٤) ابن الأثير (٢/١٨٧) .

المقدمة فى آثارهم[١] ، فأدرك (الجالينوس) فى آخر القوات الفارسية يحمى تراجعها ، وكان الجالينوس ملكا من ملوك الفرس وأحد قادتهم الكبار ، يمتطى فرسه المطهم ويرتدى أفخر الثياب والحلى ، فحمل عليه زهرة الذى كان على فرس له ، عنانها من حبل مضفور كالمقود ، وحزامها شعر منسوج ، فقتل الجالينوس ، وجاء بسلبه إلى سعد ، فكأن سعداً استكثر قيمة هذا السلب ، فكتب إلى عمر فى أمره ، فكتب عمر إلى سعد : « تعمد إلى مثل زهرة وقد صلى بمثل ماصلى به ، وقد بقى عليك من حربك ما بقى ، تكسر قرنه وتفسد قلبه ؟!! امض له سلبه ، وفضله على أصحابه عند العطاء بخمسمائة » فدفعه سعد إلى زهرة ، فباعه بسبعين ألف درهم[٢] .

(حـ) الفاتح :

لما فرغ سعد من أمر القادسية ، أقام بها بعد الفتح شهرين وكاتب عمر فيما يفعل ، فكتب إليه عمر يأمره بالمسير إلى المدائن[٣] ، فجعل سعد على المقدمة زهرة وأمره بالتقدم ، فسار زهرة حتى نزل الكوفة[٤] وانتظر هناك حتى نزل عليه عبد الله بن المعتم وشرحبيل بن السمط ، فارتحل زهرة حين نزلا

---

(١) الطبرى (٣/٦٩) .

(٢) الطبرى (٣/٧١) وفتوح الشام للواقدى (٢/١٢٥) .

(٣) ابن الأثير (٢/١٩٦) .

(٤) الطبرى (٣/١١٣) : (إن الكوفة كل حصباء وسهلة حمراء مختلطتين) إذ أن مدينة الكوفة لم تكن قد مصرت حينذاك ، لأن تقدم جيش سعد نحو المدائن جرى سنة خمس عشرة للهجرة بينما تمصير الكوفة جرى سنة سبع عشرة للهجرة . وانظر فتوح الشام للواقدى (٢/١٢٥) وقد ذكر الواقدى أن اسمه : زهرة بن جويرة وهذا خطأ لإجماع المصادر الأخرى على أن اسمه زهرة بن الحوية .

عليه نحو المدائن ، فلما انتهى إلى (بُرْس) لقيه جمع من الفرس ، فهزمهم وقتل هو قائدهم[1].

ومكث زهرة ريثما عقدله (بسطام) دهقان (برس) الجسور وأتاه بأخبار الفرس الذين تحشدوا (ببابل) ، فكتب زهرة إلى سعد بالخبر ، فارتحل سعد بالناس إلى (برس) ، ثم قدم زهرة إلى بابل ، وتقدم جيش المسلمين من ورائه ، ولما أنجز المسلمون تحشد قواتهم ببابل ، قاتلوا القوات الفارسية هناك ، فهزموهم في أسرع من لفت الرداء[2].

وقدّم سعد زهرة إلى (بَهُرَسِيرْ)[3] ، فتلقاه دهقان (ساباط) وصالحه على الجزية[4]. وفي طريقه إلى المدائن ، قضى زهرة على كتيبة للفرس ، ثم انتظر تجمّع قوات المسلمين حول (بهرسير)[5] الواقعة على ضفة دجلة اليمنى مقابل (المدائن) التي تقع على ضفة النهر اليسرى ، فحاصرها سعد وضربها بالمنجنيقات ودبّ إليها جنوده بالدبابات ، وكان على زهرة درع مفصومة ، فقيل له : لو أمرت بهذا الفصم فتسرد ! فقال : ولم ؟ ! » فقالوا : نخاف عليك منه : فقال : « إني لكريم على الله إن ترك سهم فارس الجند كله ثم أتاني من هذا الفصم حتى يثبت فيّ ! » ولكنه أصيب بسهم ، فكان أول رجل

---

(١) الطبري (١١٣/٣ ـ ١١٤) وابن الأثير (١٩٦/٢) ، برس : موضع بأرض بابل في ضواحي مدينة الحلة حالياً . راجع التفاصيل في معجم البلدان (١٨/٢) .

(٢) الطبري (١١٤/٣) وابن الأثير (١٩٦/٢) .

(٣) بهرسير : مدينة من نواحي سواد بغداد قرب المدائن . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٢١٤/٢) .

(٤) ساباط : مدينة بالقرب من المدائن وتسمى (ساباط كسرى) . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٢/٥) وانظر الطبري (١١٦/٣) وفتوح الشام للواقدي (١٢٦/٢) حول الصلح .

(٥) الطبري (١١٦/٣) وابن الأثير (١٩٦/٢) .

من المسلمين أصيب يومئذ بنشابة فثبتت فيه من ذلك الفصم، فقال بعضهم: انزعوها عنه. فقال: «دعونى، فإن نفسى معى مادامت فِىّ، لعلى أن أصيب منهم بطعنة أو ضربة» فمضى إلى العدو وضرب بسيفه (شهريار) أحد قادة الفرس، فقتله[1]. واشتد الحصار بأهل المدائن الغربية (بهرسير)، حتى أكلوا السنانير والكلاب مما اضطرهم على الانسحاب إلى المدائن عبر النهر فدخل المسلمون (بهر سير) فاتحين[2].

الإنسان:

لم يرد ذكر زهرة فى معركة فتح (المدائن) ولا فى معارك الفتح الأخرى، مما يدل على أن جرحه فى معركة (بهر سير) كان بليغاً جداً، حتى عده كثير من المؤرخين فى عداد الشهداء[3]، وكانت إصابته بهذا الجرح البليغ هى التى حالت بينه وبين مواصلة جهاده فى معارك الفتح[4].

---

(١) الطبرى (٣/١١٧ – ١١٨) وابن الأثير (٢/١٩٥) وفى الطبرى وفتوح الشام للواقدى (٢/١٢٧) أن زهرة قتل فى هذه المعركة، والصحيح أنه عاش إلى عهد الحجاج بن يوسف الثقفى، فقتله شبيب الخارجى كما سيرد ذكر ذلك. وقد استدرك الطبرى، فروى أنه قتل وروى أنه لم يقتل ثم أورد تفاصيل مقتله فى أيام الحجاج.

(٢) ابن الأثير (٢/١٩٧) والطبرى (٣/١١٨).

(٣) راجع الطبرى (٣/١١٨) وابن الأثير (٢/١٩٧) وفتوح الشام (٢/١٢٧) ولكن ابن الأثير يستدرك فيقول: «... واحيط به فقتل (يعنى زهرة) وقيل إن زهرة عاش إلى أيام الحجاج»، وانظر أيضاً أسد الغابة (٢/٢٠٦) والإصابة (٣/١٣).

(٤) جاء فى الطبرى (٣/٧١) أن زهرة كان شابا فى تلك الأيام. لهذا لا أستبعد أبدا أن يكون جرحه فى معركة (بهرسير) ترك فيه عاهة مستديمة أعاقته عن مواصلة جهاده، إذ أن بطولته النادرة جعلته يبرز فى كل معركة خاضها، فليس من المنطق ولا من المعقول أنه شارك فى الجهاد بعد معركة (بهرسير) دون أن يترك آثارا مشرفة يذكرها التاريخ كما هى عادته فى أمثالها من المعارك التى خاضها قبل إصابته بجروح بليغة.

وسكن زهرة الكوفة واستقر بها ، ولكنه لم يشارك فى إثارة الفتنة الكبرى ولم يكن له موقف يذكر فى مناصرة أحد الطرفين المتنازعين بعد مقتل عثمان بن عفان سواء كان ذلك بلسانه أو بسيفه ، مما يدل على اعتزاله الفتنة أسوة بمن اعتزلها من كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما أنه لم يشارك فى الفتن التى حدثت بعد الفتنة الكبرى حتى وافاه الأجل المحتوم .

لقد كان زهرة سيداً فى الجاهلية سيداً فى الإسلام[1] لرجاحة عقله ومتانة أخلاقه وحسن تصرفه فى الأمور . وكان تقياً ورعاً ، قال عنه عمر بن الخطاب فى رسالة بعث بها إلى سعد : « أنا أعلم بزهرة منك ، وإن زهرة لم يكن ليغيب من سلب سلبه شيئا[2] » . وكان وفياً صادقاً شهماً غيورا محباً للخير . وكان لا يدخر وسعاً للعمل فى سبيل جمع شتات المسلمين وفى سبيل القضاء على عوامل التفرقة والفتن بينهم ، ومن أجل ذلك ضحى بحياته وهو شيخ كبير... فقد عاث شبيب الخارجى[3] فى الأرض فسادا وزاد خطره فى أيام الحجاج

---

(١) الطبرى (٧١/٣) .

(٢) الطبرى (٧١/٣) .

(٣) شبيب بن يزيد الشيبانى الخارجى : كان خروجه فى خلافة عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف الثقفى بالعراق يومئذ ، فبعث إليه الحجاج خمسة قواد ، فقتلهم واحدا بعد واحد . دخل شبيب الكوفة فتحصن الحجاج فى قصر الإمارة ، ودخلها معه أمه جهيزة وزوجته غزالة عند الصباح ، وكانت غزالة قد نذرت أن تدخل مسجد الكوفة فتصلى فيه ركعتين تقرأ فيهما سورة البقرة وآل عمران ، فأتوا الجامع فى سبعين رجلا ، فصلت فيه الغداة وخرجت من نذرها ، فعير الحجاج بعض الشعراء بقوله :

أسد على وفي الحروب نعامة ... فتخاء تنفر من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة في الوغى ... بل كان قلبك فى جناحى طائر

ولما عجز عنه الحجاج بعث عبد الملك إليه عسا كر كثيرة من الشام وتكاثروا على شبيب فانهزم ، ثم مات غرقا ، وكان مولده سنة ست وعشرين للهجرة وغرقه سنة سبع وسبعين للهجرة . راجع التفاصيل فى وفيات الأعيان (١٦٤/٢) .

ابن يوسف الثقفي وقضى على كثير من قواته ، فأظهر الحجاج تذمره من فشل أهل الكوفة في القضاء على شبيب ، ولكن زهرة قال للحجاج : « إنك إنما تبعث إليهم الناس متقطعين ، فاستنفر الناس إليهم كافة ، فلينفر إليهم الناس كافة ، وابعث عليهم رجلا ثبتا شجاعاً مجرباً للحرب ، ممن يرى الفرار هضما وعارا والصبر مجداً وكرماً » . فقال الحجاج : « فأنت ذاك ، فاخرج ! » فقال زهرة : « إنما يصلح للناس في هذا رجل يحمل الرمح والدرع ويهز السيف ويثبت على متن الفرس ، وأنا لا أطيق من هذا شيئاً ، وقد ضعف بصري وضعفت ، ولكن أخرجني في الناس مع الأمير ، فإني إنما أثبت على الراحلة ، فأكون مع الأمير في عسكره ، وأشير عليه برأيي » . فقال الحجاج : «جزاك الله عن الإسلام وأهله في أول الإسلام خيرا ، وجزاك الله عن الإسلام في آخر الإسلام خيراً ، فقد نصحت وصدقت، وأنا مخرج الناس كافة ،ألا فسيروا أيها الناس».

وسار الناس حتى وصلوا منطقة (ساباط) حيث دارت رحى معركة طاحنة بينهم وبين الخوارج بقيادة شبيب الخارجي ، وكان زهرة يجلس مع قائد أهل الكوفة في القلب ، فاستطاع الخوارج دحر أهل الكوفة ، فتجلد قائدهم ، فقال له زهرة يشجعه : « أحسنت ! فعلت فعل مثلك ! ! والله والله لو منحتهم كتفك ما كان بقاؤك إلا قليلا ! أبشر ، فإني أرجو أن يكون الله قد أهدى إلينا الشهادة عند فناء أعمارنا » . وثبت قائد أهل الكوفة بعد أن انفض عنه رجاله ، فمات بطلا ، وكان اسمه عتاب بن ورقاء الرياحي[1] ، أما زهرة فقد وطئته الخيل ، فأخذ يذب بسيفه وهو شيخ كبير لا يستطيع أن يقوم ، وهكذا قتل هذا الشيخ وهو ثابت الجنان صامداً لا يخاف الموت وذلك في سنة سبع وسبعين هجرية (٦٩٦ م) .

---

(١) عتاب بن ورقاء الرياحي التميمي : ولاه مصعب بن الزبير إمارة أصبهان ثم انتدبه الحجاج لقتال شبيب الخارجي فقتل سنة سبع وسبعين للهجرة راجع الأعلام للزركلي (٣٥٨/٤) .

ولما رأى شبيب قائد الخوارج زهرة صريعاً ، أبنّه بقوله : « لرب يوم من أيام المسلمين قد حسن فيه بلاؤك وعظم فيه غناؤك ، ولرب خيل للمشركين قد هزمتها وسرية لهم قد أغرتها وقرية من قراهم جم أهلها قد افتتحتها ...الخ[1] » ، وهذا أبلغ وأروع مايمكن أن يرثى به عدو عدوه ، وقديماً قالوا : والفضل ماشهدت به الأعداء ! .

القائد :

يمكن اعتبار زهرة من ألمع قادة الفتح الإسلامى عندما يتولى قيادة المقدمات وقوات المطاردة ، فقد نجح فى اشغاله هذين الواجبين نجاحاً باهراً يدعو إلى الإعجاب الشديد .

إن هذين الواجبين يحتاجان إلى قائد شجاع ، وقد كان زهرة يتحلى بشجاعة بطولية نادرة تجعله فى مصاف أبطال الحروب فى التاريخ . ولم تكن شجاعته الشخصية الفذة تجعله يزج بقطعاته فى المخاطر والمهالك ، بل كان يحرص كل الحرص على أن تبقى قطعاته فى أمان ، بينما يعرّض نفسه هو للمخاطر من أجل سلامتها ...

لقد كان شجاعاً من غير تهور ، يؤمن بفائدة الاستطلاع ولا يدّخر وسعاً فى سبيل إنجازه ، ويحرص على حماية قطعاته من مباغتة العدو لها ، ولا يتقدم إلا على هدى وبصيرة : يحصل على المعلومات عن العدو وحركاته ، ويؤمن القوات الكافية للتقدم .

كما كان مندفعاً يتحمّل المشاق ولا يكل من التعب ، وأعانه على ذلك شبابه[2] وحيويته وصبره .

---

(١) راجع التفاصيل عن مقتله فى الطبرى (٥/٨٤ - ٩١) وابن الأثير (١٦٢/٤ - ١٦٤) ، وانظر الإصابة (١٣/٣) عن رثاء شبيب لزهرة .

(٢) الطبرى (٧٢/٣) .

كل هذه المزايا جعلت زهرة قائداً ألمعياً فى معارك المقدمات والمطاردة ، وجعلت سعداً يحرص على تكليفه بإنجاز هذين الواجبين ! .

لقد وصف زهرة مزاياه فى القيادة بصورة غير مباشرة فى حديثه مع الحجاج عن حرب شبيب الخارجي ، فنصحه أن يحشد قواته كلها لضرب عدوه ولا يرسلها متفرقة ، وأن يؤمر عليها قائداً ثبتاً شجاعاً مجربا للحرب يرى الفرار هضماً وعاراً والصبر مجداً وكرماً ، يحمل الرمح والدرع ويهز السيف ويثبت على صهوة الفرس . .

ذلك موجز ما قاله زهرة للحجاج وهو ينصحه ، ولست أجد وصفاً ينطبق تمام الانطباق على مزايا قيادة زهرة مثل هذا الوصف الموجز البليغ .

لقد كانت لزهرة قابلية ممتازة لإعطاء القرار السريع الصحيح ، وكان شجاعاً ذا إرادة قوية ثابتة ، يتحمّل المسؤولية بلا تردّد ، يعرف مبادىء الحرب عن تجربة وممارسة ، له نفسية لا تتبدّل فى حالتى النصر والاندحار . يتمتع بمزية سبق النظر ، يعرف نفسيات رجاله وقابلياتهم ، يثق بقطعاته ويحبها وتثق به وتحبه نظراً لشخصيته القوية وممارسته للحرب جندياً وقائداً ولماضيه الناصع المشرف .

وعند تطبيق أعماله العسكرية على مبادىء الحرب ، نجد أنه (يختار مقصده ويديمه) وكان مقصده دائماً القضاء بنفسه على قائد العدو لتتفرق قطعاته عنه ؛ كل معاركه (تعرضية) ؛ يعمل على (مباغتة) خصمه فى الزمان والمكان والأسلوب ، ويبذل غاية جهده (لتحشيد قوته) قبل البدء بالقتال ، ويوفّر لها الحماية اللازمة وذلك بالحصول على المعلومات عن العدو ومنع العدو من الحصول على المعلومات عن قطعاته وبالكتمان الشديد ، وبذلك جعل رجاله فى (أمن) قبل القتال وأثناءه وبعده .

وكانت خططه العسكرية تتّسم بطابع (المرونة) ، يضع نصب عينه عند إعدادها تأمين (التعاون) بين صنوف قطعاته من جهة ، وبينها وبين قطعات المسلمين التي يقوم بحمايتها من جهة أخرى ، كما أنه يعمل على (إدامة المعنويات) وإنجاز كافة متطلبات (الأمور الإدارية) لرجاله خاصة ولقوات المسلمين عامة.

إن زهرة قائد عبقري بحق ، أثبت جدارة فائقة في قيادة الرجال خلال فترة قصيرة من أعماله العسكرية ، ولست أشك أن هذه الفترة لو طالت لنافس زهرة في شهرته المثنى بن حارثة الشيباني ، وخالد بن الوليد المخزومي ، لأن قابلياته في القيادة ومزاياه العسكرية تشابه قابلياتهما ومزاياهما إلى حد بعيد!

زهرة في التاريخ:

يذكر التاريخ لزهرة ثباته الراسخ على عقيدته في أيام ردة أهل البحرين ، ويذكر له انتصاره لعقيدته ودفاعه عنها . دفاع المستميت ، حتى عادت رايات الإسلام ترفرف ثانية في ربوع بلاده.

ويذكر له نجاحه في حماية قوات المسلمين عند حركتها من منطقة تحشدها في (شراف) حتى وصولها القادسية ، ويذكر له حمايته لتحشد قوات المسلمين في القادسية ، ويذكر له مواقفه البطولية وقيادته الحكيمة للميسرة في أيام القادسية.

ويذكر له مطاردته الشديدة التي حطّمت كثيراً من قوات الفرس بعد القادسية ، مما سهل انتصار المسلمين عليهم فيما بعد . ويذكر له قيادته الناجحة للمقدمة بعد القادسية حتى وصول المسلمين عاصمة كسرى.

إن زهرة من أبرز القادة الذين كان لهم أثر حاسم في انتصار المسلمين على الفرس في معركة القادسية الحاسمة ، وفي انتصارهم بعد هذه المعركة حتى دخولهم (المدائن).

وأخيراً يذكر له التاريخ تضحيته بنفسه في سبيل جمع كلمة المسلمين ووحدتهم ، وترفعه عن كل أسباب إشاعة الفوضى والفتن وتفرقة الصفوف.

رضي الله عن الصحابي الجليل القائد البطل زهرة بن الحوية التميمي.

قـادة فـتـح

محور ديالى من المدائن إلى حلوان

هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الزهري

فاتح محور ديالى من المدائن إلى جلولاء

إسلامه وأيامه الأولى :

هو أبو عمرو هاشم بن عتبة بن أبي وقاص من بني زهرة ، وهو ابن أخ سعد بن أبي وقاص[1] فاتح العراق .

والمصادر التي بين أيدينا لا تتحدث عن أيام هاشم قبل الإسلام ، وقد لا تختلف شيئاً عن حياة أترابه من قريش : اشتغال بالتجارة وعكوف على الأوثان ، وحياة رتيبة في جوار البيت الحرام .

أسلم هاشم يوم الفتح[2] فهو من الطلقاء ، وشهد غزوة حنين مع الذين أسلموا من قريش يوم فتح مكة ، وبذلك نال هاشم شرف الصحبة وشرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد .

ولم يكن هاشم شديد العداوة للنبي ولدعوته قبل إسلامه ، إذ المعروف أن الذين لم يسلموا من بني زهرة لم يكونوا في يوم من الأيام شديدي العداوة للرسول وللإسلام : خرجوا مع قريش لقتال المسلمين في (بدر) ، ولكنهم رجعوا قبل نشوب القتال ، فلم يشهد معركة (بدر) مع قريش زهري واحد[3] ؛

(١) الإصابة (٦/٢٧٥) وانظر جمهرة أنساب العرب (١٢٠) .
(٢) الإصابة (٦/٢٧٥) والاستيعاب (٤/١٥٤٦) .
(٣) ابن هشام (٢/٢٥٨) .

كما أنهم لم يقاتلوا النبي بضراوة بعد (بدر) كما فعل غيرهم من بطون قريش؛ ولعل من أسباب ذلك أنهم أخوال النبي لأن أمه (آمنة) بنت وهب من بني زهرة ، ولأن سعد بن أبي وقاص — وهو من أبرز وأحب رجالاتهم كان بين صفوف المسلمين الأولين ، كما أنهم كانوا معروفين بين (قريش) بالتفكير السليم الذي يرشدهم إلى طريق الحق والسلام .

جهاده :

١ — مع خالد بن الوليد :

قاتل هاشم المرتدين تحت لواء خالد ، فلما انتهت حروب الردة وسار خالد بن الوليد نحو العراق كان هاشم معه في معاركه التي خاضها في العراق ، فلما توجه خالد نحو الشام كان هاشم من بين الذين انتخبهم خالد من جيش العراق . فشارك خالداً في المعارك التي خاضها في طريقه إلى الشام .

وفي معركة (اليرموك) برز هاشم فدائياً وقائداً ، فقد انتخب خالد فدائيين من أبطال المهاجرين والأنصار عددهم مائة فارس فقط[١] للتأثير على معنويات الروم في ابتداء معركة اليرموك ، وكان هاشم أحد هؤلاء الفدائيين المنتخبين .

وبعد أن فعل هؤلاء الفدائيون الأعاجيب ، تولى هاشم قيادة مشاة المسلمين في معركة (اليرموك)[٢] في رواية وقيادة كردوس من مشاة المسلمين في رواية

---

(١) فتوح الشام — للواقدي (١/١٢٠) .

(٢) فتوح الشام — للواقدي (١/١٣٤) وذكر الطبري في (٢/٥٩٣) أنه كان قائد كردوس من كراديس جيش العراق ، وأنا أميل إلى رأي الطبري ، لأن مشاة المسلمين في اليرموك وزعوا إلى كراديس ، لكل كردوس قائد خاص . ولم يكن المشاة مجموعة واحدة ليتولى قيادتها قائد واحد .

أخرى ، وفى هذه المعركة فقد إحدى عينيه[1] ، وقاتل الروم بشجاعة فائقة كان لها أثر ملموس فى انتصار المسلمين على عدوهم فى هذه المعركة الحاسمة .

٢ — مع سعد بن أبى وقاص :

أولا : لما أصبح الموقف العسكرى فى العراق خطيراً ، وتولى سعد ابن أبى وقاص منصب القيادة العامة فيه ، أصدر عمر بن الخطاب أمره إلى القائد العام فى بلاد الشام أبى عبيدة بن الجراح ، بأن يصرف أهل العراق من أصحاب خالد إلى العراق ، فأعاد إلى العراق كافة الرجال الذين جاءوا مدداً إلى الشام وهم ستة آلاف[1] وذلك بعد فتح الشام الذى تم قبل القادسية بشهر واحد ،وأمر على هذا الجيش هاشم بن عتبة ،وجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو التميمى وعجله أمامه كى يدرك سعدا قبل فوات الأوان ، فقدم القعقاع على الناس صبيحة يوم (أغواث) وهو اليوم الثانى من أيام القادسية ، فرفع قدومه وجهاده البطولى معنويات المسلمين. وفى اليوم الثالث من أيام القادسية وهو يوم (عماس) أدرك هاشم وجنوده رجال القعقاع ، فجعل رجاله فرقاً وأمرهم أن يتلاحقوا دراكا ، فلا تسير فرقة حتى تغيب الأخرى عن نظرها ، وسار هاشم على رأس الفرقة الأولى ، حتى إذا خالط القلب ، كبرّ وكبرّ المسلمون . واندفع هاشم وهو يرمى العدو بأسهمه حتى بلغ النهر ، ثم عاد فكرّر فعلته ، فلم يجرؤ أحد على مصاولته[3] .

---

(١) البلاذرى ص (١٤١) .

(٢) الطبرى (٣/٥٢) ، وقد ذكر الدكتور حسين هيكل أن عددهم ثمانية آلاف فى كتابه (الفاروق عمر) فى (١٥٣/١) ولكنه عاد فذكر فى (١٧٢/١) من نفس الكتاب أن عددهم ستة آلاف ، والصحيح أن عددهم ستة آلاف .

(٣) الطبرى (٥٩/٣) وابن الأثير (١٨٠/٢) .

لقد كان لقدوم قوات هاشم فى الوقت المناسب أثر حاسم فى انتصار المسلمين على الفرس فى معركة القادسية الحاسمة ، كما أن هاشما (أبلى فيها بلاءاً حسناً ، وقام منه فى ذلك ما لم يقم من أحد ، وكان سبب الفتح على المسلمين[1]).

ثانياً : أقام سعد بالقادسية بعد انتصار المسلمين فيها شهرين : ليستجمّ المقاتلون ، وليعيدوا تنظيمهم ، وليكملوا قضاياهم الإدارية استعداداً للبدء بصفحة استثمار الفوز ، وذلك بفتح المدائن عاصمة كسرى ومن ثم فتح العراق كله ليكون قاعدة أمينة متقدمة للفتح الإسلامى بدلا عن الحجاز ، لأن الحجاز أصبح بعيداً جداً ، وأصبحت من جراء ذلك خطوط مواصلات المسلمين طويلة للغاية . وفعلا وصل أمر عمر بالتوجه لفتح المدائن ، فعبأ سعد جيشه بقدمات : قدّم زهرة بن الحوية ، ثم أتبعه بعبدالله بن المعتم ، ثم بشرحبيل ابن السمط ، ثم بهاشم الذى جعله نائباً عنه بدلا عن خالد بن عرفطة الذى جعله على الساقة[2]، فسارت قوات المسلمين من نصر إلى نصر : انتصروا فى (بُرس)[3] وفى (بابل)[4] وفى (ساباط)[5]، وفيها قتل هاشم أسداً رباه كسرى ودربه على القتال، إذ لم يكد هاشم يرى الأسد إلاوترجل وقتله بسيفه[6].

وانتهى المسلمون إلى (المدائن) وفتحوها ، فدخلها هاشم مع الفاتحين .

---

(١) الاستيعاب (١٥٤٦/٤) .

(٢) الطبرى (١١٣/٣) .

(٣) برس : موضع بأرض بابل فيه آثار قديمة وتل مفرط العلو يدعى : صرح البرس . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (١٢٦/٢) .

(٤) بابل : مدينة قديمة أثرية بناها الكلدانيون ، ولا تزال أطلالها بالقرب من مدينة الحلة فى الوقت الحاضر . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (١٨/٢) .

(٥) ساباط : مدينة بالقرب من المدائن تعرف بـ (ساباط كسرى) . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٥/٢) .

(٦) ابن الأثير (١٩٦/٢) .

٣ — الفاتح :

لم يكد المسلمون يستقرون فى المدائن ، حتى علموا بأن القوات الفارسية قد عسكرت (بجلولاء) ، وهى مدينة على طريق خراسان شمال (المدائن) ، فكتب عمر إلى سعد : « سرح هاشم بن عتبة إلى (جلولاء)[١] فى اثنى عشر ألفا ، واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو ، وعلى ميمنته مسعر بن مالك ، وعلى ميسرته عمرو بن مالك بن عتبة ، واجعل على ساقته عمرو بن مرة الجهنى »[٢] .

وفصل هاشم من (المدائن) ، حتى قدم على الفرس فى (جَلُوْلاء) ، فحاصرهم فى خنادقهم وأحاط بهم ، واستمر الحصار نحو ثمانين يوما ، وكانت الإمدادات ترد إلى الفرس بكثرة ، كما أمد سعد المسلمين . وأخيراً ، خرج الفرس من خنادقهم إلى العراء ، فاصطدمت قوات الطرفين ، فقام هاشم خطيباً فى رجاله : « أبلوا فى الله بلاء حسنا يتم عليكم الأجر والمغنم ، واعملوا لله »[٣] ، فاقتتلوا قتالا شديدا لم يقتتلوا مثله إلا ليلة (الهرير) أشد أيام القادسية ولياليها ، وهاجم المسلمون الفرس هجومين شديدين ، فاستطاع القعقاع دخول خندقهم واحتلاله ، وبذلك طوق المسلمون أعداءهم من جميع الجهات فقتلوا كما قيل من الفرس مائة ألف [٤] ولم يفلت منهم إلا القليل ! !

وابتدأت مطاردة المسلمين لفلول الفرس ، إذ أصدر هاشم أمره إلى القعقاع

---

(١) الإصابة (٢٧٥/٦) .

(٢) الطبرى (١٢٢/٣) والبلاذرى ص (٢٦٤) .

(٣) الطبرى (١٢٣/٣) .

(٤) ابن الأثير (٢٠٤/٢) .

للقيام بالمطاردة ، فدخل القعقاع خانقين وحلوان فاتحاً ، وبقى فى حلوان حتى تحوّل سعد إلى الكوفة ، فلحقه القعقاع[1] .

وكتب سعد إلى عمر بفتح جلولاء وحلوان واستأذنه فى التغلغل داخل بلاد الفرس ، ولكن عمر أبى عليه ذلك قائلا : « لوددت أن بين السواد وبين الجبل سدا ، لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم ، حسبنا من الريف السواد . . . إنى آثرت سلامة المسلمين على الأنفال »[2] ، وكان هذا القرار صحيحاً للغاية ، وذلك لتوطيد الفتح فى العراق حتى يمكن أن يكون قاعدة أمينة متقدمة كما أسلفنا ، يمكن الاستناد عليها فى استئناف الفتح القريب !

أيامه بعد الفتح :

استقر هاشم فى الكوفة بعد تمصيرها مع عمه سعد بن أبى وقاص ، يعاونه فى إدارة شؤون العراق ، ويدير معه الشؤون العسكرية فى أوج أيام الفتح الإسلامى ، حتى عزل عمر سعداً عن الكوفة سنة عشرين للهجرة[2] .

وقد قام هاشم بنفس الدور فى معاونة عمه سعد عندما تولى الكوفة ثانية فى خلافة عثمان بن عفان سنة أربع وعشرين للهجرة[3] حتى عزله عثمان عنها سنة ست وعشرين للهجرة[4] .

ولم يكن هاشم يبخل بنصحه وإرشاده على غير سعد من ولاة الكوفة ،

---

(١) ابن الأثير (٢/ ٢٠١) والطبرى (٣/ ١٣٥) و (٣/ ١٤٠) ولكن البلاذرى فى ص ((٢٩٩) يذكر أن الذي فتح خانقين وحلوان هوجرير بن عبد الله البجلى ، وقد ذكرنا تفصيل ذلك فى ترجمة جرير .

(٢) الطبرى (٣/ ١٣٥) .

(٢) ابن الأثير (٢/ ٢٢٠) .

(٣) الطبرى (٣/ ٣٠٦) .

(٤) الطبرى (٣/ ٣١١) . أما ابن الأثير فى (٣/ ٣١) فيذكر أن سعداً عزل عن عن الكوفة سنة خمس وعشرين للهجرة .

بل كان لهم جميعاً خير عون فى السراء والضراء ؛ فكان لذلك موضع ثقتهم جميعاً .

وكان هاشم فى الكوفة لما قتل عثمان ابن عفان ، فلم يتردد أبداً عن مبايعة على ابن أبى طالب بعد ما علم بأن الناس فى المدينة المنورة بايعوه . قال هاشم لأبى موسى الأشعرى والى الكوفة يومذاك : « تعال يا أبا موسى بايع لخير هذه الأمة على » فقال أبو موسى : « لا تعجل » ، فوضع هاشم يده على الأخرى قائلا : « هذه لعلى ، وهذه لى ، وقد بايعت عليا »[1] .

والمهم فى الأمر ، أن هاشم بن عتبة ، لم يشارك بقلبه ولا بلسانه ولا بيده فى الشغب على عثمان وفى قتله ، ولقد كان كارهاً لهذه الفتنة كرهاً شديداً .

لقد كان هاشم يؤمن إيماناً صادقاً بضرورة اجتماع قلوب المسلمين ووحدة كلمتهم ، وكان يكافح كل عوامل تفرقة الصفوف وإشعال نيران الفتن ، لذلك قاتل مخلصاً فى صفوف على بن أبى طالب ، وكان قائد المشاة فى معركة صفين[2] كما كانت معه راية على فى تلك المعركة ، وقد قتل فيها هو وعمار بن ياسر فى يوم واحد[3] وذلك فى سنة سبع وثلاثين للهجرة ، بعد أن أبلى فى تلك المعركة أعظم البلاء .

شعره

تروى بعض المصادر التى بين أيدينا بعض الشعر لهاشم ، منه ما قاله لما جاء نبأ مقتل عثمان إلى أهل الكوفة[4] :

---

(١) الإصابة (٦/٢٧٦) .
(٢) الاستيعاب (٤/١٥٤٧) .
(٣) الطبرى (٤/٢٨) .
(٤) الإصابة (٦/٢٧٥) .

أبايع غير مكترثٍ علياً ... ولا أخشى أميراً أشعريا[1]
أبايعه وأعلم أن سأرضي ... بذاك الله حقاً والنبيا

وقال وهو يقاتل فى معركة صفين[2] :

أعور يبغى أهله محلا ... قد عالج الحياة حتى ملا
لا بدّ أن يفل أو يفلا ... يتلهّم بذى الكعوب تلا

وقطعت رجله يومئذٍ ، فجعل يقاتل من دنا منه وهو بارك ويقول[3] :

الفحل يحمى شوله معقولا

وعلى الرغم من صعوبة الحكم على شاعرية هاشم من هذه الأبيات القليلة، إلا أنه يمكن القول ، بأنه كان شاعراً له قريحة شعرية لا بأس بها ، لم تبلغ بشعره منزلة عالية تجعله بين الشعراء المجيدين !

الإنسان :

دراسة شخصية هاشم تدل بوضوح على أنه كان يتميز بميزتين ظاهرتين للعيان : الإخلاص الشديد ، والشجاعة النادرة .

نلمس إخلاصه الشديد لعقيدته فى كل حياته ، أخلص لدينه القديم حتى فتحت مكة ، فلما آن له أن يؤمن بالله ورسوله ، أخلص للإسلام ولمبادئه حتى توفاه الله .

وأخلص لعقيدته السياسية ، فلم يتردد أبداً فى الدفاع عن الخليفة القائم ،

---

(١) يقصد أبا موسى الأشعرى والى الكوفة .
(٢) ابن الأثير (٣/١٢٣) وفى الإصابة (٦/٢٧٩) يروى صدر البيت الأول : أعور يبغى أهله محلا ، كما أن عجز البيت الثانى لم يذكر فى الإصابة .
(٣) الاستيعاب (٤/١٥٤٧) .

ولم يتردد فى محاربة الفتن ، وأخيراً ضحى بنفسه إخلاصاً لعقيدته فى محاولة جمع شمل المسلمين ..

لقد كان مثالاً حياً للإخلاص الشديد .

ونلمس شجاعته فى كل معركة خاضها ، وكان معدودا من أبرز أبطال المسلمين حتى لقبوه (بالمرقال) من (الإرقال) وهو ضرب من العدو[1] ، لأنه كان يرقل فى الحرب أى يسرع فى تقدمه نحو العدو .

لقد كان مثالا حياً للشجاعة النادرة .

وكان كريماً شهماً ، وفياً صادقاً ، ألفاً مألوفاً ، ذكياً ، متزناً ، كل هذا جعله موضع ثقة المسلمين وموضع ثقة أمرائهم وخلفائهم .

وكان لا يحرص على الإمارة ، فلم نعرف عنه أنه طالب أحداً بولاية أو إمارة ، وكان يعتبر ذلك تكليفاً لا تشريفاً !

ولم يذكر عنه أنه أثرى على حساب الفتح ، بينما شهد معركة اليرموك والقادسية وفتح المدائن ومعركة جلولاء ، وكلها معارك أفاءت على الذين شهدوها من المسلمين مالا كثيراً ، ولعل سخاءه وكرمه لم يترك له غير الذكر الحسن ، وكأن الذى قال : (الجود يفقر والإقدام قتال !!) قصده بالذات ، إذ مات فقيرا قتيلا !

القائد

كان هاشم صحيح القرار سريعه ، وذلك لذكائه واتزانه ولاستعانته دائماً بذوى الرأى من رجاله والعمل بمشورتهم .

---

(١) الإصابة (٦/٢٧٥) والاستيعاب (٤/١٠٤٦) .

وكان ذا إرادة قوية وشخصية نافذة وشجاعة نادرة وعقيدة راسخة ، يتحمّل المسؤولية ، يبادل رجاله ثقة بثقة وحباً بحب ، له ماض ناصع مجيد .

هاشم فى التاريخ

يذكر التاريخ لهاشم بأنه قضى على مقاومات الفرس على محور المدائن — جلولاء — خانقين — قصر شيرين ، وهو المحور الرئيس لانسحاب القوات الفارسية من المدائن باتّجاه فارس والذى تتيسر فيه مواضع دفاعية متعاقبة تسهل الدفاع عنه ، مما يجعلنا نلمس أهمية قيادة هاشم ومقدار خدمته للفتح الإسلامى.

ويذكر له أثره الشخصى البارز فى انتصار المسلمين على الروم فى معركة اليرموك الحاسمة ، وعلى الفرس فى معركة القادسية الحاسمة ، ولا يزال المؤرخون يتساءلون حتى اليوم : ترى ! لو لم تصل قوات هاشم إلى ساحة معركة القادسية فى الوقت المناسب ، فماذا كان يحدث للمسلمين فى تلك المعركة ؟ ؟

إن التاريخ يذكر له أنه فاتح محور ديالى وأنه نشر الإسلام فى الربوع الساكنة بين (سلمان باك) الحالية وقصر شرين فى إيران عبر حدود العراق ، فهل يذكره أهل تلك المنطقة ؟ وهل يذكره العرب والمسلمون فى كل مكان ؟ ؟

القعقاع بن عمرو التميمي

فاتح خانقين وحلوان وهمذان

« لا يهزم جيش فيه مثل القعقاع »
أبو بكر الصديق

الصحابي :

قدم وفد تميم على النبي صلى الله عليه وسلم فى السنة التاسعة للهجرة [1] بعد غزوة (تبوك) : فدخلت قبيلة تميم فى الإسلام ومن بينهم القعقاع بن عمرو التميمي . قال القعقاع : « قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أعددت للجهاد ؟ قلت : طاعة الله ورسوله والخيل . قال : تلك الغاية » [2] . وروى عنه أنه قال : « شهدت وفاة النبي صلى الله عليه وسلم » [3] .

ولا نعرف له جهاداً فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه أسلم متأخراً ، ولكنه نال شرف الصحبة [4] وهو شرف عظيم !

جهاده :

١ — فى الردة :

كان علقمة بن عُلاّثة من بنى (كلب) قد أسلم ثم ارتد فى زمن الرسول

(١) ابن الأثير (٢ — ١١٠) والطبرى (٢ — ٢٧٧) أنظر التفاصيل فى طبقات ابن سعد (١ — ٢٩٣) .
(٢) الإصابة (٥ — ٢٤٤) .
(٣) أسد الغابة (٤ — ٢٠٧) وأنظر عكسه فى الإصابة (٥ — ٢٤٤) .
(٤) الطبرى (٣ — ٥٠٢) وابن الأثير (٣ — ٩١) .

صلى الله عليه وسلم ولحق بالشام ، ولكنه أقبل مسرعاً بعد وفاة النبى ، حتى عسكر فى بنى (كلب) .

وبلغ ذلك أبا بكر ، فبعث إليه القعقاع بن عمرو[1] وأمره أن يغير عليه ليأسره أو ليقتله . فخرج القعقاع فى رجاله فلم يثبت له علقمة وفرّ على فرسه ، ولكن أهله وامرأته وبناته أسلموا وجحدوا أن يكونوا على رأى علقمة . أما علقمة نفسه ، فقد رجع إلى أبى بكر تائباً فقبل منه وحقن دمه ، لأنه لم يقاتل المسلمين ولم يقتل أحدا منهم[2] .

٣ — مع خالد بن الوليد :

(ا) فى العراق :

سيّر أبو بكر إلى العراق خالد بن الوليد ، وكتب إليه وإلى عياض بن غنم : « أن استنفرا من قاتل أهل الردة ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يغزونّ معكم أحد ارتدّ حتى أرى رأيى » فلم يشهد تلك الأيام مرتد[3] .

واحتاج خالد إلى الإمدادات ، فكتب إلى أبى بكر يستمده ، فأمده بالقعقاع ، فقيل لأبى بكر : أتمد رجلا قد ارفضّ عنه جنوده برجل ؟ فقال : « لا يهزم جيش فيه مثل هذا »[4] .

---

(١) الطبرى (٢ ــ ٤٩٠) وقد ذكر ابن الأثير (٢ ــ ١٣٣) « أن أبا بكر أرسل القعقاع بن عمرو وقيل القعقاع ابن سور » ... ولم أجد للقعقاع ابن سور ذكراً فى الإصابة ولا فى أسد الغابة .

(٢) الطبرى (٢ ــ ٤٩٠) وابن الأثير (٢ ــ ١٣٣) .

(٣) الطبرى (٢ ــ ٥٥٤) .

(٤) الطبرى (٢ ــ ٥٥٤) .

التحق القعقاع بخالد وشهد معه معركة (كاظمة)[1] وهي أول معركة كبيرة قاتل فيها خالد جيش الفرس بقيادة (هرمز) ، فأنقذ القعقاع خالداً في هذه المعركة من الموت . فقد خرج هرمز ودعا خالداً إلى البراز ، واتفق مع أصحابه للغدر بخالد ، فلما التقيا احتضنه خالد ، فشد أهل فارس يريدون قتل خالد واستخلاص (هرمز) من يديه ؛ ولكن القعقاع لم يمهلهم وحمل عليهم ، وشد المسلمون فانهزم الفرس أمامهم فطاردوهم بتماس شديد إلى الليل[2]

وقاتل القعقاع تحت راية خالد حتى دخلت قوات المسلمين (الحيرة)[3] وكان له أثر بارز في كل معركة خاضها المسلمون ، فلما استسلمت (الحيرة) أرسل خالد قادته ومنهم القعقاع للتغلغل في أرض (السواد) حتى دجلة[4] فنجح القعقاع في مهمته نجاحاً باهراً .

أصبحت (الحيرة) القاعدة المتقدمة لجيش المسلمين ، فلما أراد خالد الانحدار شمالاً لفتح (الأنبار)[5] و (عين التمر)[6] و (دومة الجندل)[7] ، استخلف القعقاع على (الحيرة)[8] ، فحمى القعقاع ظهر خالد وحافظ على (الحيرة)

---

(١) كاظمة : مدينة على ساحل الخليج العربي جنوب البصرة على طريق البحرين من البصرة ، بينها وبين البصرة مرحلتان راجلا . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٧ ـ ٢٠٨).

(٢) ابن الأثير (٢ ـ ١٤٨) .

(٣) مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف . أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٣ ـ ٣٧٦) .

(٤) ابن الأثير (٢ ـ ١٥٠) .

(٥) الأنبار هي مدينة الفلوجة الحالية وافعه غرب بغداد على الفرات . راجع التفاصيل في معجم البلدان (١ ـ ٣٤٠) .

(٦) عين التمر : بلدة قريبة من الانبار غربي الكوفة بقربها موضع يقال له شفاثة . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٦ ـ ٢٥٣) .

(٧) راجع التفاصيل في معجم البلدان (٤ ـ ١٠٦) .

(٨) الطبري (٢ ـ ٥٧٤) .

قاعدة المسلمين المتقدمة ، وصدَّ هجوماً مقابلاً شنّه الفرس وحلفاؤهم على المناطق المجاورة للأنبار[1] .

وما كاد خالد يصل (الحيرة) عائداً من (دومة الجندل) حتى وجد القعقاع متهيأً للحركة على رأس رجاله لضرب تحشدات الفرس فى موضع (حَصِيد)[2] حيث أوقع خسائر فادحة فى الفرس وقتل بنفسه قائد الفرس[3] .

وقاتل القعقاع تحت لواء خالد أيضاً فى كل المعارك التى خاضها بعد ذلك[4] حتى تحرك خالد بنصف قطعاته من العراق إلى الشام[5] فكان القعقاع أحد الأبطال الذين اختارهم خالد ليعاونوه فى مهمته الشاقة ، وهى فتح بلاد الشام .

وفى الطريق إلى الشام قاتل القعقاع تحت لواء خالد فى كافة المعارك التى خاضها خالد حتى التحقت قوات العراق بقوات الشام .

(ب) فى الشام :

اجتمعت قوات المسلمين فى اليرموك وتولى خالد بن الوليد القيادة العامة ، فكان القعقاع أحد الأبطال الذين اختارهم خالد وعددهم مائة فارس فقط من المهاجرين والأنصار فدائيين للتأثير على معنويات الروم فى ابتداء معركة (اليرموك)[6] ، كما تولى القعقاع قيادة كردوس من كراديس العراق فى معركة

---

(١) ابن الأثير (٢ ــ ١٥٢) .

(٢) حصيد : موضع فى أطراف العراق على حدود الجزيرة . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٣ ــ ٢٨٨) .

(٣) الطبرى (٢ ــ ٥٨٠) .

(٤) راجع التفاصيل فى الطبرى (٢ ــ ٥٨٠ ــ ٥٨١ ــ ٥٨٢) .

(٥) ابن الأثير (٢ ــ ١٥٦) .

(٦) فتوح الشام للواقدى (١ ــ ١٢٠) .

اليرموك[١] ، فكان القعقاع يهاجم الروم على رأس كردوسه وهو يرتجز[٢] ضارباً لرجاله فى الشجاعة والإقدام أروع الأمثال .

ولما انتهت معركة اليرموك الحاسمة ، علم المسلمون أن قوات جديدة من الروم قد عززت حامية دمشق، فسار أبو عبيدة بن الجرّاح وخالد إلى دمشق ، فحاصرها المسلمون سبعين يوماً دون جدوى ، لذلك قرر خالد أن يقوم بمغامرة جريئة لاحتلال المدينة ، فأعدّ حبالاً على هيئة السلالم ، فلما أرخى الليل سدوله نهض هو ومن معه من رجاله الذين جاءوا من العراق وتقدمهم خالد ومعه القعقاع وقالوا لرجالهم : « إذا سمعتم تكبيراً على السور فارقوا إلينا » ، ثم تقدم نحو سور المدينة وألقى سلالم الحبال ، فصعد القعقاع ومذعور بن عدى إلى أعلى السور وأثبتا بقية الحبال فى شرف السور ، وكان المكان الذى اقتحموا منه أحصن مكان يحيط بدمشق حتى إذا صعد المسلمون السور هاجم خالد برجاله وعلى رأسهم القعقاع حماة أبواب المدينة ، فقتلوهم وفتحوا الأبواب للفاتحين من المسلمين[٣] .

لقد ردّد خالد والقعقاع من فوق أسوار المدينة : الله أكبر . . . الله أكبر . . . فكان ذلك إيذاناً بدخول المسلمين إلى دمشق بعد صمودها الطويل .

٣ — فى العراق ثانية :

(ا) فى القادسية :

بعد فتح دمشق ورد كتاب عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة بن الجراح .

---

(١) الطبرى (٢ ــ ٥٩٢) وابن الأثير (٢ ــ ١٥٨) .
(٢) الطبرى (٢ ــ ٥٩٤) .
(٣) الطبرى (٢ ــ ٦٢٧) وابن الأثير (٢ ــ ١٩٤) .

« اصرف جند العراق إلى العراق وأمرهم بالحث إلى سعد بن أبي وقاص »[1].

فأمر أبو عبيدة هاشم بن عتبة على جند العراق ، وجعل على مقدمته القعقاع ، فعجّل القعقاع في مسيرته حيث وصل العراق في صبيحة اليوم الثاني من أيام القادسية وهو يوم (أغواث) وقد عهد إلى أصحابه وهم ألف رجل أن يكونوا جماعات ، كل جماعة مؤلفة من عشرة رجال[2]، فكلما بلغت جماعة منهم مدى البصر ، سرّحوا في آثارهم جماعة أخرى ، ثم تقدم القعقاع مع الجماعة الأولى ، فأتى الناس وسلم عليهم وبشّرهم بالجنود فقال : « يا أيها الناس . إني جئتكم في قوم والله لو كانوا بمكانكم ثم أحسّوكم حسدوكم حظوتها ، وحاولوا أن يطيروا بها دونكم ، فاصنعوا كما أصنع »[3] . ثم تقدم ، فلما كان بين الصفين ، نادى : من يبارز ؟ فخرج إليه ذو الحاجب وعرّفه بنفسه قائلاً : إني (بهمن جاذويه)[4] فنادى القعقاع : « يا لثارات أبي عبيدة وسليط وأصحاب يوم الجسر » ! ! فاجتلدا فقتله القعقاع[5] . وجعلت خيل القعقاع ترد جماعات وما زالت ترد إلى الليل فترفع معنويات المقاتلين من المسلمين ، حتى كأن لم يكن بالأمس مصيبة .

وطلب القعقاع البراز ثانية ، فخرج إليه أحد قادة الفرس ، فعاجله بضربة أطاحت به سريعاً .

---

(١) الطبري (٢ - ٦٢٧) .

(٢) ذكر الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه (الفاروق عمر) في (١ - ١٧٢) أن القعقاع قسم رجاله الألف إلى عشرة فرق ، والصحيح أنه قسمهم إلى مائة قسم كل قسم مؤلف من عشرة رجال ، كما ذكر الطبري في (٣ - ٥٢) وابن الأثير في (٢ - ١٨٣) .

(٣) الطبري (٣ - ٥٢) .

(٤) هو قائد قوات الفرس في معركة الجسر التي استشهد فيها أبو عبيدة ابن مسعود الثقفي .

(٥) الطبري (٣ - ٥٢) .

وحمل بنو عم القعقاع بجماعات مؤلفة كل منها من عشرة رجال على إبل قد ألبسوها وهى مجللة مبرقعة ، وأمرهم القعقاع أن يهاجموا بها خيل الفرس ، فجفلت خيول الفرس تفر منها وركبتها خيول المسلمين ، فلما رأى الناس ذلك فرحوا أشد الفرح ، إذ لقى الفرس من هذه الإبل أعظم مما لقى المسلمون من الفيلة فى اليوم الأول من أيام القادسية[1] ، وحمل القعقاع يوم ذاك ثلاثين حملة كلما طلعت جماعة من جماعاته حمل معهم وأصاب فيها[2] فقتل وحده يومها من الفرس ثلاثين رجلاً[3] .

وبات القعقاع ليلته كلها يسرّب أصحابه إلى المكان الذى فارقهم فيه من الأمس قائلاً لهم : « إذا طلعت لكم الشمس فأقبلوا مائة مائة كلما توارى عنكم مائة فليتبعها مائة فإن جاء هاشم فذاك ، وإلا جددتم للناس رجاء وجدًا »[4] . وقد نفّذ ذلك دون علم رجال القادسية الآخرين .

أصبح الناس على مواقعهم ، فلما ذرّ قرن الشمس طلعت نواصى خيل رجال القعقاع ، فكبّر وكبّر المسلمون ، وقالوا : « جاء المدد » فلما وصل آخر رجال القعقاع ، أخذت قوات هاشم تتوارد هى الأخرى . ولكن الفيلة ما لبثت أن عادت إلى مثل فتكها فى اليوم الأول من أيام القادسية . ورآها سعد تكبد المسلمين خسائر فادحة ، فأرسل إلى القعقاع وأخيه عاصم يقول : « اكفيانى الفيل الأبيض » وكانت الفيلة كلها آلفة له ، فأخذ القعقاع وعاصم رمحين أصمين لينين ودبا فى خيل ورجل ، فقالا : اكتنفوه لتحيّروه ، ثم

(١) ابن الأثير (٢٣ ـ ١٨) والطبرى (٣ ـ ٥٤) .
(٢) الطبرى (٣ ـ ٥٥) .
(٣) الإصابة (٥ ـ ٢٤٤) .
(٤) الطبرى (٣ ـ ٥٩)

حملا على الفيل فوضعا رمحيهما معاً في عيني الفيل الأبيض ، فتراجع الحيوان من الألم وطرح سائسه ، ودلى مشفره فضربه القعقاع بسيفه فقطع مشفره [1] .

وجاء الليل وكان سعد بن أبي وقاص قد أرسل قوات من المسلمين لحماية مخاضة كان يخشى أن تطوق قوات الفرس منها قواته ، ولكن قوات المسلمين بدلا من حماية المخاضة عبرتها وضربت مؤخرة الفرس ، فقدّم الفرس صفوفهم زاحفين. ورأى القعقاع صنيعهم فزاحفهم هو الآخر من غير أن يستأذن سعداً ، فلما رأى سعد زحف القعقاع قال : « اللهم اغفرها له وانصره ، فقد أذنت له وإن لم يستأذني » . وفعل الناس ما فعل القعقاع ، فاشتد القتال وحمي وطيسه كلما تقدم الليل ، وما كاد الليل ينتصف إلا وسمع سعد صوت القعقاع يهدر مرتجزاً ، فكان صوت القعقاع أول ما استدل به سعد على الفتح [2] .

وتنفس الصبح عن هذه الليلة الدامية ، فسار القعقاع في الناس يقول : « إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم ، فاصبروا ساعة واحملوا ، فإن النصر مع الصبر » [3] .

واجتمع جماعة من القادة ومعهم جنودهم ، فصمدوا لرستم حتى خالطوا الذين دونه ، عند ذاك بدأت صفوف الفرس تضطرب .

وزحف القعقاع ومن معه إلى سرير (هرمز) فلما وصلوه وجدوا (هرمز) قد قام عنه ، فاندفع القعقاع برجاله إلى ناحية النهر ، فوجد (هرمز) قد ألقى بنفسه في النهر ، فرآه (هلال بن علقمة) فاقتحم النهر وراءه وقتله . فانهزم

---

(١) الطبري (٣ — ٦٢) والإصابة (٥ — ٢٤٥) .
(٢) الطبري (٣ — ٦٧) .
(٣) ابن الأثير (٢ — ١٨٦) .

الفرس وطاردهم القعقاع بأمر سعد وأوقع بهم خسائر فادحة[1] . كتب عمر ابن الخطاب إلى سعد : « أي فارس كان أفرسَ فى القادسية ؟ فكتب إليه سعد : « إنى لم أر مثل القعقاع بن عمرو ، حمل فى يوم ثلاثين حملة يقتل فى كل حملة بطلاً »[2] .

(ب) فى المدائن :

قرر سعد أن يعبر النهر على ظهور الخيل لفتح[3] المدائن ، فندب الناس إلى العبور قائلا : « من يبدأ فيحمى لنا الفراض[4] حتى تتلاحق به الناس لكى لا يمنعوهم من العبور ؟ » فانتدب له عاصم أخو القعقاع فى ستمائة من أهل النجدات ، فعبر عاصم على رأس كتيبة أطلق عليها اسم (كتيبة الأهوال) فكان عاصم أول من دخل المدائن بكتيبته ، ثم دخلت كتيبة القعقاع بعده ، وهى التى أطلق عليها اسم (الكتيبة الخرساء)[5] وفى أثناء عبور القعقاع زل رجل عن ظهر فرسه فثنى القعقاع عنان فرسه إليه فأخذ بيده فجره حتى عبر ، فقال الرجل للقعقاع : « أعجز الأخوات أن يلدن مثلك ياقعقاع »[6] .

وبعد انتصار المسلمين كان القعقاع على رأس قواتهم : المطاردة للفرس ،

---

(١) الطبرى (٣ — ٦٩)

(٢) الإصابة (٥ — ٢٤٤) .

(٣) أسد الغابة (٤ — ٢٠٧) .

(٤) الفراض : جمع فرضة وهى موضع فى الجهة المقابلة من النهر وتسمى بالاصطلاح العسكرى الحديث (رأس جسر) ، والاستيلاء عليها وحمايتها ضرورى لتسهيل مهمة العبور للقسم الأكبر من القطعات .

(٥) الطبرى (٣ — ١٢٣) .

(٦) الطبرى (٣ — ١٢٢) .

فوجد فارسياً يحمى انسحاب الفرس فقتله ، فإذا مع المقتول أحد عشر سيفاً ودروع بينها سيف ودرع كسرى وهرمز وهرقل وخاقان والنعمان وغيرهم من الملوك والأمراء والقادة ، فغنمها القعقاع [1].

(ح) في جلولاء :

انسحبت القوات الفارسية من المدائن إلى جلولاء ، فكتب سعد إلى عمر يخبره بذلك، فأجاب عمر سعداً : «سرّح هاشم بن عتبة إلى جلولاء فى اثنى عشر ألفاً واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو » .

ولما بلغ هاشم جلولاء حاصر القوات الفارسية فيها ، ولكن الحصار طال كثيراً حتى بلغ ثمانين يوماً .

وزحف القعقاع برجاله حتى انتهى إلى باب خندق الفرس ، فدخل الخندق واحتل قسماً منه ، وأمر منادياً ينادى : « يا معاشر المسلمين ، هذا أميركم قد دخل الخندق وأخذ به فأقبلوا إليه ولا يمنعكم من بينكم وبينه من دخوله » وقد أمر القعقاع بذلك ليقوى معنويات المسلمين ، وفعلاً حمل المسلمون وهم لا يشكّون أن هاشماً فى الخندق ، فإذا هم بالقعقاع قد احتل قسماً من الخندق ، وبذلك انهزم الفرس [2] ، ولكن القعقاع طاردهم حتى بلغ خانقين [3] ثم دخل حُلوان [4] وقصر شِيرين [5] . وبقى القعقاع فى حلوان إلى أن تحول سعد

(١) الطبرى (٣ ــ ١٢٨) والإصابة (٥ ــ ٢٤٥) .

(٢) الطبرى (٣ ــ ١٢٢) وابن الأثير (٢ ــ ٢٠١) .

(٣) خانقين : بلدة بالقرب من الحدود العراقية الإيرانية فى العراق على طريق بغداد ــ همذان ــ راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٣ ــ ٣٩٢) .

(٤) حلوان العراق هى آخر حدود السواد مما يلى الجبال من بغداد . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٣ ــ ٣٢٢) .

(٥) قصر شيرين ــ مدينة قريبة من (قرميسين) بين همدان وحلوان فى طريق بغداد إلى همدان . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٧ ــ ١٠٢) .

إلى الكوفة فلحقه القعقاع إلى هناك مستخلفاً أحد رجاله على حلوان[1]

٤ — إلى الشام ثانية :

حشد هرقل ملك الروم قوات كبيرة ، وأقبلت قواته من الجزيرة ومن بلاده براً ومن الإسكندرية بحراً ، فلما علم أبو عبيدة بن الجراح بذلك حشد قوات المسلمين فى حمص[2] وكتب إلى عمر بن الخطاب يخبره بهذا الموقف العصيب ، فكتب عمر إلى سعد بن أبى وقاص : « اندب الناس مع القعقاع ابن عمرو ، وسرّحهم من يومهم الذى يأتيك فيه كتابى إلى حمص ، فإن أبا عبيدة قد أحيط به ، وتقدم إليهم فى الجد والحث »[3] ، فتحرك القعقاع على رأس أربعة آلاف رجل من يومهم الذى أتاهم فيه الكتاب نحو حمص[4] ، فلما بلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا الروم على أهل حمص بأن جنود المسلمين قد تحركت من الكوفة دون أن يعرفوا الوجهة الحقيقية لها : أى هل تتجه إلى الجزيرة أم إلى حمص، تفرقوا إلى بلدانهم لحمايتها من الخطر المباشر ، فبقى الروم وحدهم ، فقاتلهم المسلمون وانتصروا عليهم بسهولة قبل أن يبلغ القعقاع حمص بثلاثة أيام، فكتب عمر إلى أبى عبيدة كى يشرك أهل الكوفة فى العطاء قائلاً:

---

(١) راجع ابن الأثير (٢ — ٢٠١) والطبرى (٣ — ١٣٥) ، (٣ — ١٤٠) ولكن البلاذرى فى صحيفة (٢٩٩) يذكر أن الذى فتح حلوان هو جرير ابن عبد الله البجلى .

(٢) مدينة كبيرة بين دمشق وحلب فى نصف الطريق . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٣ — ٣٣٩) .

(٣) الطبرى (٣ — ١٥٤) .

(٤) حركة أربعة آلاف فى يوم واحد إلى هدف بعيد ليس سهلا إنه يكاد يكون مستحيلا فى أيامنا الحاضرة فكيف أنجزه المسلمون قبل أربعة عشر قرناً ؟ كان عمر قد خصص قوات احتياطية تتحرك فوراً عند الطلب ، وكان فى الكوفة وحدها أربعة آلاف فرس للحركة الفورية — راجع الطبرى (٣ — ١٥٤) .

«جزى الله أهل الكوفة خيراً : يكفون حوزتهم ويمدون أهل الأمصار»[1].

وعاد القعقاع بجنوده إلى العراق رافعاً اسمهم عالياً بين الفاتحين من مختلف الأمصار .

٥ — في بلاد فارس :

قاتل القعقاع في معركة (نهاوند) الحاسمة تحت لواء النعمان بن مقرن المزني ، وكان له في هذه المعركة أثر أي أثر ! !

كان القعقاع على المجردة[2] وقد خشي المسلمون أن يطول حصار المدينةدون جدوى ، إذ كان الفرس قد تحصنوا داخلها فلا يخرجون منها إلا إذا أرادوا الخروج .

وعقد النعمان بن مقرن المزني مؤتمراً استشارياً ليجد حلاً مناسباً يعينه على فتح المدينة ، فاستقر الرأى على أن يبعث النعمان خيلاً لينشب القتال ، ثم تنسحب الخيل مظهرة الفرار حتى يتعقبها الفرس ، وعند ذلك يهاجمهم المسلمون فى معركة تدور رحاها خارج أسوار المدينة الحصينة[3] .

فمن يقود الخيل لتنفيذ هذه الخطة بدقة وإتقان واندفاع ؟

أمر النعمان القعقاع ، فقاد الخيل وأنشب القتال ، فلما خرج الفرس لقتاله ، نكص ، ثم نكص ، ثم نكص ، وظن الأعاجم أنها هزيمة فاغتنموها ، وخرجوا حتى لم يبق منهم سوى من يحرس الأبواب .

---

(١) الطبرى (٣ — ١٥٠) ولعل هذا الثناء أبلغ ثناء ولا أقول أول ثناء وآخر ثناء حظى به أهل الكوفة بفضل القعقاع .

(٢) المجردة هى القطع الراكبة فى الاصطلاحات العسكرية الحديثة وهى القوات المؤلفة من الفرسان التى تتقدم أمام المقدمة لحمايتها .

(٣) ابن الأثير (٣ — ٤) .

وتقهقر القعقاع إلى المسلمين حتى انقطع الفرس عن حصونهم[1] فلما هاجمهم المسلمون فى العراء ، استطاعوا التغلب عليهم بيسر ، وبذلك انتهت معركة (نهاوند) التى أطلق عليها المؤرخون اسم (فتح الفتوح)[2] بنصر المسلمين ، وكان للقعقاع فى هذا النصر نصيب مرموق ، وفرّ (الفيرزان) قائد الفرس ناجياً بنفسه ، فتعقبه نعيم بن مقرن المزنى وقدم القعقاع أمامه فأدركه القعقاع فى ناحية همذان[3] حيث ترجل ليصعد جبلاً قريباً ، ولكن القعقاع تبعه راجلاً فأدركه وقتله[4] ثم دخل همذان فاتحاً مع نعيم بن مقرن المزنى[5] .

أيامه بعد الفتح :

لا نعلم بالضبط متى رجع القعقاع من جهاده فى الفتح ، ولكننا نعلم أنه سكن الكوفة واستقر فيها[6] ثم تولى شؤون الحرب فى الكوفة على عهد سعيد ابن العاص[7] ، وهو منصب القيادة العامة كما نسميه فى هذه الأيام ، وعندما علم بخروج يزيد بن قيس من الكوفة لخلع عثمان بن عفان أقبل إليه القعقاع حتى أخذه فقال يزيد : « إنما نستعفى من سعيد بن العاص » فقال القعقاع : « أما هذا فنعم » ثم تركه[8] ، وهذا يدلنا على إخلاصه الشديد لعثمان وعدم رضاه عن والى الكوفة حينذاك سعيد ، إذ كان الناس فى الكوفة متذمرين

---

(١) الطبرى (٣ ـ ٢١٦) .
(٢) البلاذرى : ص (٣٠٢) .
(٣) همذان مدينة من أكبر مدن إيران وأقدمها ، راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٨ ـ ٤٧٤) .
(٤) ابن الأثير (٣ ـ ٥) .
(٥) ابن الأثير (٣ ـ ٦) .
(٥) أسد الغابة (٤/٢٠٧) .
(٦) الطبرى (٣/٣٧١) .
(٧) الطبرى (٣/٣٧٥) .

من سيرته ، وقد أراد وكيل سعيد في الكوفة أن ينصح المتذمرين محاولاً أن يعيدهم إلى طريق الصواب ، ولكنه أخفق في محاولته . وقد نصحه القعقاع بالصبر قائلاً له : « اتردّ السيل عن عبابه ، فاردد الفرات عن أدراجه . . . هيهات ! ! لا والله ، لا تسكن الغوغاء إلا المشرفية ، ويوشك ان تنتضى ثم يعجّون عجيج العبدان ويتمنون ما هم فيه فلا يرده الله عليهم أبداً ، فاصبر[1] » وهذا يدل على بعد نظر القعقاع فكأنه كان يقرأ الغيب في صحيفة ، إذ حدث كل ما توقعه .

ولما كتب عثمان بن عفان إلى الأمصار يستمدهم لإنقاذه من الثائرين به ، سارع القعقاع على رأس جيش من أهل الكوفة متوجهاً إلى المدينة لإنقاذ الخليفة مما أحاق به من خطر داهم ، ولكن عثمان قُتل قبل أن يدركه جيش القعقاع أو تدركه جيوش الأمصار الأخرى[2] ، فعاد القعقاع أدراجه إلى الكوفة[3] .

لقد بذل القعقاع غاية جهده ليحول دون قتل عثمان وإشعال نيران الفتنة الكبرى ، كما بذل غيره من كبار الصحابة غاية جهدهم لإطفاء نيران هذه الفتنة ، ولكن جهودهم جميعاً ذهبت أدراج الرياح ، وما كان لمثل القعقاع أن يفعل غير ذلك ، لأنه جندي يقدّر قيمة طاعة ذوي الأمر ، ولأنه مؤمن يعتبر المؤمنين أخوة له ، ولأن سيفه على أعداء الإسلام لا على المسلمين . .

ولقد فتحت جيوش الكوفة فتوحات كثيرة في مناطق مختلفة على عهد

---

(١) الطبري (٣-٣٧٢) .
(٢) ابن الأثير (٣ - ٦٦) والطبري (٣ - ٤٠٢) .
(٣) ابن الأثير (٣ - ٧٨) والطبري (٣ - ٤٦٢) .

عثمان ، وكان القعقاع على حرب الكوفة حتى قتل عثمان[1] فكان هو المسؤول الأول عن إعداد الجيوش وتسييرها إلى أهدافها وإمدادها بالرجال والسلاح . .

وتولى على بن أبي طالب الخلافة ، وسار إلى البصرة بعد علمه بذهاب طلحة والزبير وعائشة إليها ، وكان أبو موسى الأشعرى حينذاك أميراً على الكوفة ، وكان من رأيه القعود عن القتال حتى تنجلى الفتنة[2] ، ولكن القعقاع قام خطيباً فقال مخاطباً أهل الكوفة : « إنى لكم ناصح . . . إنه لا بدّ من إمارة تنظّم الناس وتنزع الظالم وتعز المظلوم ، وهنا أمير المؤمنين ولىّ بما ولى ، وقد انصف فى الدعاء ، وإنما يدعو إلى الاصلاح . فانفروا وكونوا من هذا الأمر بمرأى ومسمع[3] » .

كان القعقاع أحد رجالات الكوفة الذين نفروا لنصرة على بن أبى طالب ، فلما نزلوا موقع (ذى قار) حيث يعسكر على بجيشه ، دعا أمير المؤمنين إليه القعقاع وأرسله إلى أهل البصرة قائلاً له : « الق هذين الرجلين ، فادعهما إلى الألفة والجماعة وعظّم عليهما الفرقة » وقال له : « كيف أنت صانع فيما جاءك منهما مما ليس عندك فيه وصاة منى ؟ » فقال القعقاع : « نلقاهم بالذى أمرت به فإذا جاء منهما أمر ليس عندنا منك فيه رأى ، اجتهدنا الرأى ، وكلمناهم على قدر ما نسمع ونرى أنه ينبغى » قال على : « أنت لها[4] » . . فخرج القعقاع حتى قدم البصرة فبدأ بعائشة أم المؤمنين ، ثم كلم طلحة والزبير

---

(١) ابن الأثير (٣ ـ ٧٢) والطبرى (٣ ـ ٤٤٦) .
(٢) الطبرى (٣ ـ ٤٩٩) وابن الأثير (٣ ـ ٨٩) .
(٣) الطبرى (٣ ـ ٤٩٩) .
(٤) الطبرى (٣ ـ ٥٠٢) وابن الأثير (٣ ـ ٩١)

كلاماً منطقياً متزناً اقتنعوا به جميعاً حتى أشرف الناس على الصلح[1] .

كان القعقاع مع أمير المؤمنين على بن أبى طالب يوم (الجمل) ، ولكنه لم يظهر فعالية تذكر فى القتال . لقد كان هواه مع جميع المسلمين لا مع فريق منهم فلا يريد أن يلطخ يده بدمائهم . وقد مر فى المعركة بطلحة وهو يقول : « إلىّ عباد الله ! الصبر ، الصبر » فقال له : « يا أبا محمد ! إنك لجريح وإنك عما تريد لعليل ، فادخل الأبيات[2] » .

وهذا يدل على عطفه الشديد حتى على الذين يختلفون معه فى الرأى من المسلمين .

ولما قتل (الجمل) تقدم القعقاع وزفر بن الحارث وأنزلا (الهودج) عن ظهر البعير[3] ، ثم كان أول من دخل على عائشة أم المؤمنين ، فسلم عليها فقالت له : « إنى رأيت رجلين بالأمس اجتلدا بين يدى وارتجزا بكذا .. فهل تعرف كوفيك منهما ؟ » قال : ذاك الذى قال :

أعقّ أم نعلم ! ! كذب والله ! إنك لأبر أم نعلم[4] » .

وعندما علم الإمام على بعد زيارته لعائشة ، بأن رجلين أسمعاها كلاماً نابياً ، بعث القعقاع إلى باب عائشة ، فأقبل بمن كان عليه من الرجال ، فلما عرف الرجلين اللذين قالا ما قالا أخبر علياً بهما ، فقال : « لأنهكنهما عقوبة[5] » .

---

(١) تفاصيل كلام القعقاع فى الطبرى (٣ ــ ٥٠٣) .
(٢) الطبري (٣ ــ ٥٢٣) .
(٣) الطبرى (٣ ــ ٥٣٨) .
(٤) الطبرى (٣ ــ ٥٤١) .
(٥) الطبرى (٣ ــ ٥٤٤) .

لقد شهد القعقاع مع علي بن أبي طالب معركة الجمل[1] كما شهد معه معركة (صفين)[2] ، وهي المعركة الحاسمة التي خاضها على ضد معاوية ، ولكننا لانجد له أثراً فعالاً في تلك المشاهد كما عودنا في المعارك التي خاضها فاتحاً ، وفي (صفين) لم نجد له ذكراً بين قادة التشكيلات التعبوية لعلى[3] . ولم يذكر اسمه من الشهود على وثيقة التحكيم[4] كما أنه لم يبرز فيها مقاتلاً كما برز في معارك الفتح، ممايدل على أنه كان في معارك الفتنة حاضراً كالغائب !

لقد كان القعقاع يرى أن أمر المسلمين لا يصلح بغير إمام ، وأن علياً أحق الناس بالخلافة ، فلا بد من الوقوف في صفه ، ولكنه بنفس الوقت كان داعية سلام ومحبة ووحدة بين المسلمين ولم يكن داعية حرب وخصام وفرقة بينهم ، كما لم يكن يرى مبرراً أن يحكم السيف لمجرد اختلاف الرأي بين المسلمين .

والحق ان أمر القعقاع قائداً وأميراً قد انتهى منذ نشبت المعارك الداخلية بين المسلمين ، فلا نعرف أنه تولى قيادة أو تسنم منصباً إدارياً في أيام الفتنة الكبرى حتى توفاه الله سنة أربعين للهجرة (٦٦٠ م) مما يدل دلالة واضحة على أنه كان إلى جانب على بن أبي طالب لأنه كان يؤمن بأن علياً كان على الحق ، ولكنه لم يصل في ذلك إلى الاندفاع في قتال المسلمين .

---

(١) أسد الغابة (٤ ـ ٢٠٧) .

(٢) ابن الأثير (٣ ـ ١٠٣) .

(٣) الطبري (٤ ـ ٧) .

(٤) الطبري (٤ ـ ٢٩) .

الشاعر :

كان القعقاع فارس الشعراء أو شاعر الفرسان ، فهو أحد فرسان العرب وشعرائهم [1] ، وشعره الذى بين أيدينا شعر حربى إن صح هذا التعبير ، وهذه نماذج منه :

ولقد شهدت البرق برق تهامة يهدى المناقب راكباً لعيار
فى جند سيف الله سيف محمد والسابقين لسنة الأحرار [2]

وقال فى يوم أغواث من أيام القادسية :

ولم تعرف الخيل العراب [3] سواءنا عشية أغواثٍ بجنب القوادس
عشية رحنا بالرماح كأنها على القوم ألوان الطيور الرسارس [4]

وكان يرتجز فى القادسية [5] :

أزعجهم عمداً بها ازعاجاً أطعن طعناً صائباً ثجاجا [6]
أرجو به من جنة أفواجاً [7]

وقد حمل فى يوم (أغواث) ثلاثين حملة ، كلما حمل حملة قتل فيها رجلاً من الفرس ، وكان آخر من قتل (بزر جمهر الهمذانى) وفى ذلك يقول :

حبوته جياشة بالنفس هدارة مثل شعاع الشمس
فى يوم أغواث ، فَلِيل الفرس أنخس بالقوم أشد النخس

---

(١) الإصابة (٥ ـ ٢٤٥) .
(٢) الإصابة (٥ ـ ٢٤٤) .
(٣) الخيل العراب : الخيل الأصيلة لا شائبة بنسبها .
(٤) الطبرى (٣ ـ ٥٤) .
(٥) الإصابة (٣ ـ ٢٤٥) والطبرى (٣ ـ ٥٥) .
(٦) الثجاج : منصب جداً ، وثج الماء أو الدم سيله ، أى أطعن طعناً يجعل الدم يسيل بغزارة .
(٧) الطبرى (٣ ـ ٥٥) .

حتى تفيض معشرى ونفسى [1]

وقال فى القادسية :

وخضض[2] قومى مَضرمى بن يعمر فلله قومى حين هزوا العَواليا

وما خام عنها يوم سارت جموعنا لاهل قديس يمنعون المواليا

فإن كنت قاتلت العدو فَلَلته فإنى لألقى فى الحروب الدواهيا

فيولاً أراها كالبيوت مغيرةً أسمِّل أعياناً لها ومآقيا [3]

وقال فى القادسية لما أصيب خالد بن يعمر التميمى :

سقى الله يا خوصاء قبر ابن يعمر إذا ارتحل السفار لم يترّحلِ

سقى الله أرضاً حلّها قبر خالد ذهاب غواد مدجنات تُجلجل

فأقسمت لا ينفك سيفى يحسّهم فان زَحَلَ الأقوام لم أتزّحلِ [4]

وكان أول صوت سمعه سعد ابن أبى وقاص ليلة الهرير فى النصف الأخير من الليل مما يستدل به على الفتح صوت القعقاع يهدر :

نحن قتلنا معشراً وزائداً أربعةً وخمسةً وواحداً

نُحسَبُ فوق اللبد الأساودا حتى إذا ماتوا دعوت جاهداً

الله ربى واحترزت عامداً [5]

هذا بعض شعره الذى قاله فى القادسية ، ولا بد أن يكون له شعر فى معاركه الأخرى ، وعلى كل فإن هذه النماذج تدل دلالة واضحة على تمتع القعقاع بسليقة شعرية أصيلة .

---

(١) الطبرى (٣ ــ ٥٥) .

(٢) خضض — حرك .

(٣) الطبرى (٣ ــ ٦٣) .

(٤) الطبرى (٣ ــ ٦٥) .

(٥) الطبرى (٣ ــ ٦٧) .

ولعل خير ما نختم به شعر القعقاع قوله فى معركة اليرموك لأنه يمثل نفسيته التى تستأثر دائماً بالخطر وتستجيب مندفعة فى القتال :

يدعون قعقاعاً لكل كريهة   فيجيب قعقاعٌ دُعاء الهاتف

الإنسان :

كان القعقاع صادق الإيمان متين العقيدة : تمسك بالإسلام بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم غير مكترث بردة قومه تميم ، ولا بردة القبائل العربية الأخرى . وكان إيمانه العظيم من العوامل التى جعلت أبا بكر الصديق يوليه قيادة جيش من جيوش المسلمين ويرسله لقتال بعض المرتدين فى أحرج الظروف.

ولا ينكر أبداً ما كان يتحلى به القعقاع من شجاعة فائقة ، ولكن الخوارق التى حققها فى معارك الفتح لا تعزى إلى شجاعته فحسب بل إلى عقيدته الراسخة أولا وإلى شجاعته الشخصية ثانياً وإلى ما كان يتمتع به من عقلية راجحة أخيراً .

لقد كان بإمكانه أن يبرز فى معارك الفتنة الكبرى كما برز فى معارك الفتح ، ولكن عقيدته كانت دائماً له بالمرصاد ، فهى التى جعلته يقدم أقداماً مدهشاً فى قتال غير المسلمين ، وهى التى جعلته لا يقدم نفس إقدامه الأول فى قتال المسلمين .

لقد كان المسلمون أيام الفتنة ثلاثة أقسام : القسم الأول اعتزلوا الجانبين المتخاصمين ، ينتظرون النتيجة ومنهم سعد بن أبى وقاص .

والقسم الثانى كان مع على فى كل شىء إلا فى قتال المسلمين ومنهم القعقاع ، والقسم الثالث كان مع على أو معاوية فى كل شىء . وكان لكل قسم من هذه

الأقسام وجهة نظر يؤمن بها ويدافع عنها ، وكانت وجهة نظر القعقاع ، أنه لابدّ من إمام وهو على ، ولكن كان فى صدره حرج شديد من قتال المسلم للمسلم .

لقد كان إدارياً أثبت كفاءة ممتازة حين كان والياً على حلوان[1] ، وكان راجح العقل بعيد النظر ، كريماً مضيافاً شهماً غيوراً صادقاً وهب نفسه لعقيدته فعاش عيش الكفاف ولم يترك بعد موته عقاراً ولا أموالا مما يدل على أنه لم يثر على حساب الفتح والغنائم .

القائد :

كان القعقاع جندياً من أخمص قدمه إلى قمة رأسه ، كرّس حياته للجندية ولمتطلباتها ، فكانت أعماله فى الجهاد مشرفة لكل جندى يفهم الجندية على أنها شرف ما بعده من شرف .

ولعل من الحديث المعاد أن نذكر أنه شجاع مقدام ، فقد كان مثالا رفيعاً للشجاعة الأصيلة ، ولكن لا بد لنا أن نشير إلى أنه كان يؤمن بالضبط والنظام كأساسين للجندية الحقة ولا جندية بدون ضبط ونظام .

لقد كان يتلقى الأوامر من رؤسائه ويحرص على تنفيذها برحابة صدر ، وكان يخلص إخلاصاً كاملاً لذوى الأمر من الخلفاء والأمراء ما داموا على الحق ، وكان يعتقد بأن أمر الناس بدون خليفة هو الفوضى ، وأنه لا بد من النظام ليشيع الأمن والاطمئنان بين الناس .

وكان فى جهاده جندياً وقائداً يؤمن بأن سرعة الحركة والاندفاع بإقدام بعد إعداد العدّة عاملان من عوامل الظفر فى الحرب .

---

(١) ابن الأثير (٢ ـ ٢٠٤) .

لقد كان لا يعرف للتردد والخور معنى ، لذلك كان أبو بكر والمسلمون يجزمون أن الجيش الذى يقاتل معه القعقاع لا يقهر أبداً . .

وما أبلغ وصف أبى بكر للقعقاع : « لصوت القعقاع فى الجيش خير من ألف رجل »[1] .

كان سريع القرار صائبه ، يثق بنفسه وبرجاله ثقة لا حدود لها ، ويثق به المسلمون ثقة لا حدود لها أيضاً ، كما كان محبوباً ذا شخصية جبارة ونفسية عالية لا تتبدل ، وماضٍ ناصع مجيد ، وكان فى قتاله يعتمد اعتماداً كبيراً على تطبيق مبدأ (المباغتة) ، ومبدأ (التعرض) ، فكانت معاركه كلها معارك تعرضية ، كان لعنصر المباغتة فيها نصيب كبير .

القعقاع فى التاريخ :

هناك قادة صمدوا للمرتدين كما صمد القعقاع ، وهناك قادة لم يخسروا معركة فى حياتهم كلها كما لم يخسر القعقاع معركة واحدة فى حياته ، وهناك أبطال يذكرون حين يذكر القعقاع ، ولكننى لا أعرف قائداً غير القعقاع قاتل فى كل معارك الفتح الإسلامى الثلاثة الحاسمة : القادسية واليرموك ، ونهاوند ، وأبلى فيها كلها بلاءه !

لقد فتحت معركة القادسية أبواب العراق للمسلمين ، وفتحت معركة اليرموك أبواب أرض الشام ، وفتحت معركة نهاوند أبواب بلاد فارس للإسلام ، وكان للقعقاع فى هذه المعارك كلها أثر شخصى بارز يذكره له التاريخ بالفخر والإعجاب .

---

(١) الإصابة (٥ ـ ٢٤٤) .

لقد ضرب القعقاع رقماً قياسياً فى عدد المعارك التى خاضها فى العراق وبلاد الشام وفارس ، وكانت له فى كل معركة خاضها قصة مشرفة خالدة ، وقد حاولت أن أحصى عددها فوجدتها إحدى عشرة معركة كبيرة : سبع منها فى العراق وثلاث فى سوريا وواحدة فى إيران ، فإذا أحصى له التاريخ هـذا العدد الـكبير من المعارك الـكبيرة ، فـكم هى المعارك الثانوية التى لم يذكرها له التاريخ .

رضى الله عن القعقاع بن عمرو التميمى القائد الفاتح ، المؤمن الحق ، بطل الإسلام وفارس العرب .

جرير بن عبد الله البجلي

فاتح خانقين وحلوان وقرميسين وهمذان

« اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً »

(محمد رسول الله)

نسبه :

هو جرير بن عبدالله بن جابر[1] من بنى أنمار بن إراش بن عمرو بن الغوث البَجَلى ، نُسبوا إلى أمهم (بَجِيلة) . وقد اختلف النسّابون فى (بجيلة) ، فمنهم من جعلهم من اليمن : أنمار بن إراش بن عمرو الذى هو أخو الأزد ، وهو قول الكلبى وأكثر أهل النسب ، ومنهم من قال هم من نزار : أنمار بن نزار[2] .

والظاهر أنه من اليمن ، لمعرفته التفصيليّة لتلك البلاد ولأهلها ، مما جعل النبي صلى الله عليه وسلم يرسله مقاتلا إلى اليمن[3] وداعياً[4] .

يكنى جرير أبا عمرو على المشهور[5] ، وقيل أبا عبدالله[6] .

إسلامه :

اختُلف فى وقت إسلامه ، فهناك من يذكر أنه أسلم قبل أربعين يوماً من

---

(١) الإصابة (١/٢٤٢) والاستيعاب (١/٢٣٦) وجمهرة أنساب العرب (٣٦٥) .
(٢) أسد الغابة (١/٢٧٩) والاستيعاب (١/٢٣٧) .
(٣) فتح البارى بشرح البخارى (٨/٦٠) .
(٤) طبقات ابن سعد (١/٢٦٥ — ٢٦٦) .
(٥) فتح البارى بشرح البخارى (٧/٩٩) .
(٦) الاستيعاب (١/٢٣٧) .

وفاة النبي صلى الله عليه وسلم[1] ، وهذا خطأ لما ثبت في الصحيحين : البخاري ومسلم ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : « استنصت الناس » في حجة الوداع ، وذلك قبل التحاق الرسول صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى بأكثر من ثمانين يوماً[2] .

وجزم الواقدي ، بأنه وفد على النبي صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان سنة عشر للهجرة ، وهذا خطأ أيضاً ، لأن جريراً يروى « أنه سمع الرسول صلى الله عليه وسلم ينعى النجاشي » وهذا يدل على أنّ إسلام جرير كان قبل سنة عشر للهجرة[3] ، لأن النجاشي مات قبل ذلك.

والصحيح أنه أسلم سنة تسع للهجرة ، وهي سنة الوفود[4] .

لقد كان جرير موضع ثقة النبي صلى الله عليه وسلم . قال جرير : «ماحجبني رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أسلمت ولا رآني إلا ضحك[5] .

وأرسله النبي صلى الله عليه وسلم لهدم (ذي الخَلَصَة) وهي من الأصنام بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج ، وكانت (بتَبَالَة) بين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة ، وكان سدنتها بنو أُمامة من باهِلَة بن أعصُر ، وكانت تعظمها وتهدى لها خَثْعَم وبَجِيلة وأزد السَّرَاة ومن قاربهم من بطون العرب

---

(١) أسد الغابة (١/٢٧٩) والاستيعاب (١/٢٣٧) .

(٢) الإصابة (١/٢٤٢) .

(٣) الإصابة (١/٢٤٢) .

(٤) فتح الباري بشرح البخاري (٧/٩٩) ، وفي طبقات ابن سعد (١/٣٣٧) يذكر أنه وفد على النبي صلى الله عليه وسلم سنة عشرة للهجرة مع (بجيلة) .

(٥) فتح الباري بشرح البخاري (٧/٩٩) وشرح النووي على مسلم (٥/١٩٤) .

من هوازن[1] ، وذو الخلصة أيضاً الذى فيه هذا الصنم بيت كان يطلق عليه فى الجاهلية اسم الكعبة اليمانية[2] ، فسار إليها جرير على رأس مائة وخمسين فارساً ، فهدم الصنم والبيت وحرقهما وعاد سالماً ، فدعا له النبى صلى الله عليه وسلم[3] . وأرسله النبى صلى الله عليه وسلم إلى اليمن يقاتلهم ويدعوهم إلى الإسلام[4] ، فقد بعثه النبى صلى الله عليه وسلم إلى ذى الكُلاع بن ناكور ابن حبيب بن مالك بن حسان بن تُبّع وإلى ذى عمرو يدعوهما إلى الإسلام ، فأسلما ، وأسلمت ضُرَيبة بنت أبرهة امرأة ذى الكلاع . وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجرير عندهم ، فأخبره ذو عمرو بوفاته صلى الله عليه وسلم، فخرج جرير إلى المدينة[5] .

جهاده :

١ — عاد جرير إلى المدينة وأخبر أبا بكر بارتداد من ارتدّ من أهل اليمن عن دينه وبثبات من ثبت عليه[6] .

ولكن أبا بكر ردّ جريرا إلى اليمن ليصمد مع الثابتين على دينهم من قبيلة

---

(١) أنظر كتاب الأصنام — للكلبى ص (٣٤/٣٥) وفى ذى الخلصة يقول رجل من العرب :

لو كنت يا ذا الخلص الموتوراً ... مثلى وكان شيخك المقبوراً
لم تنه عن قتل العداة زوراً

وكان أبو الشاعر قتل ، فأراد الطلب بثأره ، فأتى ذا الخلصة ، فاستقسم عنده بالأزلام ، فخرج السهم ينهاه عن ذلك ، فقال هذه الأبيات .

(٢) أنظر شرح النووى على مسلم (٥/١٩٤) .

(٣) فتح البارى بشرح البخارى (٧/٩٩) وشرح النووى على مسلم (٥/١٩٥) . وطبقات ابن سعد (١/٣٤٨) .

(٤) فتح البارى بشرح البخارى (٨/٦٠) والبلاذرى ص (١١٣) .

(٥) طبقات ابن سعد (١/٢٦٦) .

(٦) الطبرى (٢/٥٣٣) .

(بجيلة) تجاه تيار المرتدين الجارف، والشد من عزائم المسلمين القليلين لمشاغلة المرتدين الكثيرين حتى تردهم النجدات ، فخرج جرير ونفذ أمر أبي بكر ، فلم يصادف مقاومة تذكر إلا من نفر يسير قتلهم وطاردهم[1]. فلما وصل المهاجر ابن أمية اليمن من عند أبي بكر ، وكان آخر من تحرك من المدينة لحرب المرتدين — حتى إذا حاذى جريراً ضمه إليه[2] ، وكان جرير حينذاك (بنجران)[3] ، فقاتل جرير وأتباعه أهل الردة تحت لواء المهاجر بن أمية ، فسار المهاجر من نصر إلى نصر ، حتى نزل (صنعاء) .

لقد ثبت جرير على عقيدته بالرغم من ارتداد معظم قومه (بجيلة) ، فكان ثباته ذا أثر كبير على إعادة (بجيلة) للإسلام ومن العوامل المهمة لانتصار المسلمين السريع الحاسم على المرتدين من أهل اليمن .

٢ — وسار جرير يجاهد تحت لواء خالد بن سعيد فى أرض الشام ، ولكنه استأذن خالداً إلى أبي بكر ليكلمه فى جمع قومه (بجيلة) وكانوا أوزاعاً فى العرب ، فلما سمع أبو بكر حديثه غضب وقال له : « ترى شغلنا وما نحن فيه بغوث المسلمين ممن بإزائهم من الأسدين : فارس والروم : ثم أنت تكلفني التشاغل بما لا يغنى عما هو أرضى لله ورسوله ! دعني وسر نحو خالد ابن الوليد حتى أنظر ما يحكم الله فى هذين الوجهين » ، فسار جرير حتى قدم على خالد بالحيرة بعد فتحها ، ولم يشهد شيئاً من قبلها بالعراق[4] .

٣ — ولما غادر خالد بن الوليد العراق إلى الشام ، استصحب معه جريراً ،

---

(١) ابن الأثير (٢/١٤٤)

(٢) الطبرى (٢/٥٤٠) .

(٣) الطبرى (٢/٦١٧) وابن الأثير (٢/١٦١) .

(٤) الطبرى (٢/٥٦٨) وابن الأثير (٢/١٥١) .

فشهد كافة معارك خالد فى طريقه إلى الشام . وفى معركة اليرموك برز اسم جرير أحد الفدائيين الفرسان من المهاجرين والأنصار ، وهم مائة فارس ، انتخبهم خالد من بين جيش المسلمين كله ، كل فارس يردّ جيشاً وحده[1] ، للتأثير بهم على معنويات الروم قبيل معركة اليرموك الحاسمة .

٤ — وبلغ عمر بن الخطاب نتائج معركة (الجسر) فى العراق واستشهاد أبى عبيد الثقفى وصحبه فيها ، فندب الناس إلى المثنى بن حارثة الشيبانى ، وكان فيمن ندب (بجيلة) بعد جمعهم بطلب من جرير : « إنه من كان ينسب إلى بجيلة فى الجاهلية وثبت عليه فى الإسلام ، فأخرجوه إلى جرير »[2] .

وتجمّعت بجيلة وعلى رأسها جرير ، فقال له عمر : « أخرج حتى تلحق بالمثنى » ، فقال جرير : « بل الشام » ، فقال عمر : « بل العراق ، فإن أهل الشام قد قووا على عدوهم » ، وجعل عمر لجرير وقومه ربع خمس ما أفاء الله عليهم فى غزواتهم[3] .

ورأى الناس ما صنع بنو بجيلة ، فحذوا حذوهم ، وكان الذين فروا من معركة (الجسر) فى مقدمتهم ، ثم تابعهم بنو الأزد وبنو كنانة وخلق كثير من مختلف القبائل ، وساروا يريدون العراق[4] .

٥ — وقاتل جرير وقومه تحت راية المثنى بن حارثة الشيبانى القوات الفارسية فى معركة (البُوَيْب)[5] أول معركة حاسمة من معارك المسلمين

---

(١) فتوح الشام للواقدى (١/١٢٠) .
(٢) ابن الأثير (٢/١٦٩) .
(٣) الطبرى (٢/٦٤٦) .
(٤) الطبرى (٢/٦٤٧) :
(٥) البويب : نهر كان بالعراق موضع الكوفة ، فمه عند دار الرزق يأخذ من الفرات . انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٢/٣١٠) .

فى العراق . ولما انهزم الفرس قال المثنى : « من يتبع الناس ؟ » ، فقام جرير فى قومه ، فقال : « يا معشر بجيلة ! إنكم وجميع من شهد هذا اليوم فى السابقة والفضيلة والبلاء سواء ، وليس لأحد منهم فى هذا الخمس غداً من النفل مثل الذى لكم منه ولكم ربع خمسة نفلاً من أمير المؤمنين ، فلا يكونن أحد أسرع إلى هذا العدو ولا أشد عليه منكم للذى لكم منه ونية إلى ما ترجون ، فإنما تنتظرون إحدى الحسنيين : الشهادة والجنة ، أو الغنيمة والجنة »[1] ؛ وهكذا تطوعت بجيلة بقيادة جرير لمطاردة الفرس . وأرسل جرير يخبر المثنى بسلامة بجيلة كما أخبر القادة الآخرون الذين طاردوا الفرس المثنى بسلامة قواتهم ، وسألوه جميعا أن يسمح لهم بالتغلغل عمقاً فى مطاردتهم ، فأذن لهم المثنى ، فأغاروا حتى بلغوا (ساباط) على مرأى من المدائن ، لا يخافون كيداً ولا يلقون مانعا[2] .

ولما انسحب المثنى بقواته إلى (ذى قار) انتظاراً للإمدادات ، كان جرير على رأس بجيلة يقوم بواجب القوات الساترة (المسالح) التى تحمى قوات المسلمين الأصلية[3] من قوات الفرس المتفوقة .

٦ - وتولى سعد بن أبى وقاص قيادة المسلمين فى العراق ، فقاتلت بجيلة التى يقدّر عددها بألفى مقاتل[4] تحت راية سعد فى القادسية ، فكان لجرير

---

(١) الطبرى (٢/٦٥٢) .

(٢) ابن الأثير (٢/١٧١) .

(٣) الطبرى (٢/٦٦٠) . إن بعض الروايات تنص على أن جريراً اختلف مع المثنى ، فقال جرير : « أنت أمير وأنا أمير » ، وأعتقد أن ذلك لا يمكن أن يحدث ، لأن عمر أرسل جريراً مدداً للمثنى لا أميراً مستقلا . راجع الطبرى (٢/٦٥٤) الذى يذكر هذه الرواية .

(٤) الطبرى (٣/٧) .

وليجيلة أثر ظاهر فى انتصار المسلمين على الفرس فى هذه المعركة الحاسمة .

كان سعد مريضا بالدمامل عندما كانت رحى معركة القادسية تدور ، ولكن رجاله لم يكونوا يعلمون بحقيقة مرضه الذى أقعده عن مباشرة القتال بنفسه كما يفعل قادة العرب فى حروبهم ليكونوا مثالاً شخصيا يحتذى بهم رجالهم ؛ لذلك تذمّر بعض رجال سعد ومن بينهم جرير وأبو محجن الثقفى ، فلما عرفوا أن المرض حال دون مباشرة سعد للقتال بنفسه قبلوا عذره وتحاثوا على السمع والطاعة ، وقال جرير : « أما أنى بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن أسمع وأطيع لمن ولاّه الله الأمر ، وإن كان عبداً حبشيا »[1] .

وفى اليوم الأول من أيام القادسية ، وجّه الفرس ثلاثة عشر فيلا ، وفى رواية أخرى ستة عشر فيلا إلى مواقع (بجيلة) ، ففرّقت بين الكتائب وأذعرت الخيل ، وكادت بجيلة أن تفنى عن بكرة أبيها بعد فرار خيلها ذعراً من الفيلة ، ولكن الرجالة (المشاة) منها صمدوا فى مواضعهم صمود الأبطال ، وأعانهم على الصمود تدارك سعد لهم ببنى أسد الذين هاجموا الفيلة وحماتها هجوماً عنيفاً بقيادة طليحة الأسدى ، فاستطاعوا بمعاونة ربيعة بقيادة الأشعث بن قيس بعد جهد جهيد أن يولوا الفيلة والقوات الفارسية التى تساندها الأدبار[2] .

وتركت بجيلة كثيراً من الشهداء فى ساحة المعركة ، ولكن صمودها المدهش أتاح للمسلمين تدارك الموقف الخطير الذى كان نتيجة لهجوم فيلة الفرس على قواتهم .

وفى ليلة اليوم الرابع من أيام القادسية (ليلة الهرير) ، حملت بجيلة على القوات الفارسية مع من حمل عليها من القبائل غير منتظرة أمر سعد بالحملة ،

---

(١) الطبرى (٤٣/٣ — ٤٤) وابن الأثير (١٨١/٢) .
(٢) الطبرى (٤٩/٣) وابن الأثير (١٨٢/٢) .

فعذرها سعد قائلا : « اللهم اغفرها لهم وانصرهم[1] » ، فقضوا فى تلك الليلة على عدد ضخم من الفرس ، وفى بلاء بجيلة بقيادة جَرير قال سعد :

وما أرجو بجيلة غير أنى أؤمل أجرهم يوم الحساب
فقد لقيت خيولهم خيولا وقد وقع الفوارس فى ضراب
وقد دلفت بعرصتهم فيول كأن زهاءها[2] إبل جراب

وكان سعد فى شعره هذا يرد على قول جرير :

أنا جرير كنيتى أبو عَمْر قد نصر الله وسعد فى القَصْر

ولما فرّ الفرس من ساحة المعركة وجّه سعدٌ عياض بن غنم وجعل على مقدمته هاشم بن عتبة بن أبى وقاص وعلى ميمنته جرير البجلى وعلى ميسرته زُهرة التميمى ، وتخلّف سعد لمرضه حتى وصلوا بمطاردتهم (ساباط) قريباً من المدائن ، فأشفق الناس أن يكون كمين للعدو ، ولكن هاشم بن عتبه أمر بالتغلغل فى المطاردة ، حتى انتهوا بمطاردتهم إلى جلولاء[3] وكان بها جماعة من الفرس استطاع المطاردون تشتيتهم .

٦ — وشهد جرير مع قومه معركة فتح (المدائن) عاصمة كسرى ، كما شهد معركة جلولاء تحت راية هاشم بن عتبة بن أبى وقاص الزهرى ، فلما استطاع المسلمون القضاء على القوات الفارسية فى (جلولاء) ضم هاشم إلى بجيلة خيلاً كثيفة وجعلهم بقيادة جرير وأبقاهم قوة ساترة فى جلولاء لتكون بين

---

(١) الطبرى (٣/٦٦) وابن الأثير (٢/١٨٩).
(٢) الزهاء : العدد الكثير والكبر والفخر أيضاً .
(٣) الطبرى (٣/٨٠) .

المسلمين والفرس ، فهاجم جرير (خانقين)[1] ، وكان فيها فلول من الفرس فقتل بعضهم وفرّ الباقي[2] .

وأمد سعد جريرا بنحو ثلاثة آلاف مقاتل ، وأمره أن يسير لفتح (حُلوان)[3] ، فلما كان بالقرب منها هرب (يزدجرد) إلى (أصبهان) ففتح جرير حلوان صلحا ، ثم سار إلى (قَرْمِيسين)[4] ففتحها صلحا أيضا ، وبقي جرير واليا على حلوان حتى أمره عمار بن ياسر والى الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص أن يتحرك مدداً لأبي موسى الأشعري في (خوزستان) ، فغادرها جرير مخلفاً عليها عزرة بن قيس البجلي ، وقد نزل حلوان قوم من ولد جرير ، فأعقابهم بها[5] .

---

(١) خانقين : بلدة بالقرب من الحدود العراقية — الإيرانية ، تقع في العراق على طريق بغداد — همذان . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٣/٣٢٢) .

(٢) البلاذري ص (٢٦٤) .

(٣) حلوان : مدينة في العراق تقع في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٣/٣٢٢) .

(٤) قرميسين : جاء اسمها في البلاذري ص (٢٩٩) قرماسين ، وهي على طريق مكة ، والصحيح ما ذكرناه أعلاه . وهي بلد معروف بينه وبين همذان ثلاثون فرسخاً وهي بين همذان وحلوان . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٧/٦٣) وحول قرماسين (٣/٦٢) .

(٥) البلاذري (٢٩٩) وجمل فتوح الإسلام — ملحق بجوامع السيرة — لابن حزم ص (٣٤٥) ، ولكن الطبري يذكر أن الذي فتح حلوان وخانقين هو القعقاع ابن عمرو التميمي . راجع الطبري (٣/١٤٠) .

ولا أرى اختلافاً بين ما جاء في الطبري والبلاذري ، إذ أن القعقاع فتحها حقاً حين طارد الفرس ، ولكن جريراً ثبّت هذا الفتح بقواته الضاربة ، ثم تسرّب بفتحه عمقاً إلى قرميسين داخل إيران .

(ب) لا تزال في منطقة خانقين وحلوان قبيلة باسم (باجلان) وهي بمعنى (بجلي) نسبة إلى (بجيلة) القبيلة العربية المعروفة ، لأن الألف والنون من (باجلان) علامة نسبة پهلوية كما هي في الكلمة : پاپكان نسبة إلى (پاپك) . راجع كتاب دستور پهلوي=

٧ – وبرز اسم جرير فى معركة (نَهَاوَنْد)[1] الحاسمة ، فكان من بين أشراف العرب وأبطالهم المعدودين الذين خاضوا تلك المعركة[2] تحت لواء النعمان بن مُقَرّن المزنى ، فأبلى جرير فى هذه المعركة بلاءً أعظم البلاء .

وكان عمر بن الخطاب قد كتب إلى النعمان بن مقرن : « إن أصبت فالأمير حذيفة بن اليمان ، فإن أصيب فجرير بن عبد الله البجلى ، فإن أصيب فالمغيرة بن شعبة ثم الأشعث بن قيس »[3] ، مما يدل على منزلته الرفيعة عند عمر بن الخطاب .

وفى رواية ، أن المغيرة بن شعبة حين كان والياً على الكوفة ، أرسل جريراً لفتح (همذان)[4] ، فقاتل أهلها وأصيبت عينه بسهم فقال : « احتسبتها عند الله الذى زيّن بها وجهى ونوّر لى ما شاء ثم سلبنيها فى سبيله » ، ثم فتحها على مثل صلح (نهاوند) وغلب على أرضها قسراً[5] .

= (٢٠٧) طبع بمبى سنة ١٩٣٤ . فباجلان إذن نسبة إلى بجيلة ، وقد اسقطت منها التاء المربوطة بعد أن تحوّلت إلى هاء صامتة تخفيفاً ، فاضيفت إلى آخر الكلمة أداة النسبة البهلوية (ان) ، ثم أشبعت فتحة الباء فتحوات ألفا ، فأصبحت الكلمة (باجلان) .

إن قبيلة باجلان هى قبيلة بجيلة العربية وهم من ولد القائد الفاتح الصحابى الجليل جرير ابن عبد الله البجلى .

(١) نهاوند : أعتق مدينة فى الجبل ، وهى مدينة قديمة فى إيران . راجع فى معجم البلدان (٨/٣٢٩) .

(٢) ابن الأثير (٣/٤) .

(٣) البلاذرى ص (٣٠٠) ومعجم البلدان (٨/٣٢٩) .

(٤) همذان : مدينة من أكبر مدن إيران وأقدمها . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٨/٤٧٤) .

(٥) ابن الأثير (٣/٩) والبلاذرى ص (٣٠٦) وجمل فتوح الإسلام — ملحق بجوامع السيرة لابن حزم ص (٣٤٦) . أما الطبرى فى (٣/٢٢٩ — ٢٣٠) فيذكر أن الذى فتحها هو نعيم بن مقرن المزنى والقعقاع بن عمرو التميمى ، ولا أرى تضارباً بين الروايتين لأن فتح نعيم لها كان بقواته الخفيفة المطاردة ، أما فتح جرير فكان بقواته الضاربة حيث ثبّت فتحها وضمّها نهائياً إلى بلاد المسلمين .

نهاية المطاف :

سكن جرير الكوفة وابتنى بها دارا فى القسم المخصص منها لسكنى (بجيلة)[1] قوم جرير .

وقد ولاه عثمان بن عفان رضى الله عنه (قِرْقِيسْيِاء)[2] وبقى عليها[3] حتى توفى عثمان[4] . وفى رواية أخرى أن عثمان ولاه (همذان) فبقى واليا عليها حتى استدعاه على بن أبى طالب بعد منصرف على من البصرة إلى الكوفة وفراغه من معركة (الجمل) ، لذلك لم يشهد جرير تلك المعركة .

غادر جرير (همذان) بعد أخذ البيعة من أهلها لعلى بن أبى طالب ، فلما وصل الكوفة أرسله على إلى معاوية بن أبى سفيان يدعوه إلى الدخول فى طاعته وكتب معه كتابا يعلم معاوية فيه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ويدعوه إلى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والأنصار .

وانتهى جرير إلى معاوية فكلمه ووعظه وألح عليه فى الكلام والوعظ ، ولكن معاوية جعل يسمع منه ولا يقول له شيئاً وإنما يطاوله ويسرف فى مطاولته ويدعو مع ذلك وجوه أهل الشام وقادة الجيش مظهراً مشورتهم فيما يطلب إليه على بن أبى طالب ويعظم لهم قتل عثمان ويحرّضهم على المطالبة بدمه . . . وأخيرا عاد جرير الى الكوفة ليخبر علياً خبر معاوية واجتماع أهل

---

(١) طبقات ابن سعد (٦/٢٢) والإصابة (١/٢٤٢) .

(٢) قرقيساء : بلدة على الخابور عند مصب الخابور فى الفرات . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٧/٦٠) .

(٣) الطبرى (٣/٣٧١) وابن الأثير (٣/٥٦) .

(٤) الطبرى (٣/٤٤٦) وابن الأثير (٣/٧٢) .

(٥) المعارف (٥٨٦) .

الشام معه على قتاله . . . فلم يرض على عن سفارة جرير ، كما أن جماعة من أصحاب على على رأسهم الأشتر النخعى أسمعوا جريرا بعض ما يكره ، فغضب جرير وارتحل بأهله إلى (قِرْقِيْسِياء) معتزلا الفريقين[1] .

وفى معركة (صفين) بين على ومعاوية ، انقسمت القبائل العربية على نفسها ، فكان مع الطرفين قسم من كل قبيلة عربية عدا بجيلة ، فقد كانت كلها مع على ولم يشهد منها أحد هذه المعركة مع قوات معاوية[2] ، وهذا يثبت أن جريراً اعتزل الطرفين ولم يلتحق بمعاوية كما يزعم بعض الرواة .

وفى اعتزال جرير انتهت حياته العامة حتى وافاه الأجل سنة إحدى وخمسين للهجرة (٦٧١ م) وقيل سنة أربع وخمسين[3] .

الإنسان :

كان سيد قومه فى الجاهلية وفى الإسلام[4] . قال النبى صلى الله عليه وسلم لما دخل عليه جرير : « اذا أتاكم كريم قوم فأكرموه »[5] .

وكان مؤمناً حقاً ، لم يبدّل ولم يغيّر منذ آمن بالله ورسوله ، وقد أخلص للدعوة مجاهداً وداعيا ، وسهر على مصالح رعيته حين أصبح والياً ، فلما نشب القتال بين المسلمين أيام الفتنة الكبرى ، لم يلطخ يده ولا ضميره بدنس ، بل سعى جاهداً لجمع كلمة المسلمين ، فلما أخفق فى مهمته ترك الدنيا وما فيها واعتزل الفتن منزويا فى عقر داره فى (قرقيسياء) .

---

(١) الإصابة (٢٤٢/١) .
(٢) ابن الأثير (١١٧/٣) .
(٣) ابن الأثير (١٩٤/٣) .
(٤) الاستيعاب (٢٣٨/١) .
(٥) الإصابة (٢٤٢/١) وأسد الغابة (٢٧٩/١) والاستيعاب (٢٣٧/١) .

وكان شاعراً خطيبا لَسِنا . قدم على عمر بن الخطاب رضى الله عنه من عند سعد بن أبى وقاص ، فقال له : « كيف تركت سعدا فى ولايته ؟ » ، فقل : « تركته أكرم الناس مقدرة ، وأحسنهم معذرة ، هو لهم كالأم البرة ، يجمع لهم كما تجمع الذرة [1] ، مع أنه ميمون الأثر ، مرزوق الظفر ، أشد الناس عند البأس ، وأحب قريش إلى الناس [2] » .

قال عمر : « فأخبرنى عن حال الناس » ، فقال جرير : « هم كسهام الجَعْبَة ، منها القائم الرائش [3] ، ومنها العَضِل [4] الطائش ، وابن أبى وقاص ثقافها يغمز عَضِلها ويقيم ميلها ، والله أعلم بالسرائر ياعمر ! » قال : « أخبرونى عن إسلامهم » ، قال : « يقيمون الصلاة لأوقاتها ، ويؤتون الطاعة لولاتها » . فقال عمر : « الحمد لله — إذا كانت الصلاة أوتيت الزكاة ، وإذا كانت الطاعة كانت الجماعة » . وجرير هو القائل : « الخرس خير من الخلابة ، والبكم خير من البذاء » [5] .

وكان ذكيا محدثا عالما بأمور دينه فقيها : روى مائة حديث عن رسول الله عليه وسلم [6] ، كما عدّه العلماء من أهل الفتيا البارزين [7] .

وكان كيّسا عاقلا . وجد عمر بن الخطاب فى مجلسه رائحة من بعض جلسائه ، حين قال عمر : « عزمت على صاحب هذه الرائحة إلا قام فتوضأ ! » ،

---

(١) الذر : صغار النمل ، واحدته : ذرة .
(٢) الاستيعاب (١/٢٣٩) .
(٣) الرائش : ذو الريش ، إشارة إلى كماله واستقامته .
(٤) العضل بكسر الضاد — من السهام : المعوج .
(٥) الاستيعاب (١/٢٣٩) . والخلابة أراد به القول .
(٦) أسماء الصحابة والرواة — ملحق بجوامع السيرة — لابن حزم .
(٧) أسماء أصحاب الفتيا — ملحق بجامع السيرة لابن حزم — ص (٣١٩) .

فقال جرير : « علينا كلنا يا أمير المؤمنين فاعزم ! » ، فقال عمر « عليكم كلكم عزمت » ، ثم قال : « يا جرير ! مازلت سيداً فى الجاهلية والإسلام[1] » .

وكان آلفاً مألوفاً : أحبه النبي صلى الله عليه وسلم ، وأحبه أصحابه ، وكان على بن أبى طالب يقول : « جرير منا آل البيت » . وبلغ مقدار حبّه لقومه (بجيلة) أن حصل على وعد من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجمعهم له وكانوا أشتاتاً بين القبائل العربية ، فاستنجز أبا بكر هذا الوعد إلا أن ظروفه لم تساعده على إنجازه ، فطالب عمر بن الخطاب بإنجازه فجمعهم له وسيّرهم إلى العراق بإمرته لقتال الفرس .

وكان يثق بنفسه ويعرف لها قدرها ولا يتخلى عن حق من حقوقها . أراد عمر بن الخطاب أن يؤمّر عرفجة بن هرثمة البارق على (بجيلة) ليسيّرهم إلى العراق ، فغضب جرير وقال لبجيلة : « كلّموا أمير المؤمنين ! » ، فقالوا لعمر : استعملت علينا رجلا ليس منا ! ، فأرسل إلى عرفجة وقال له : « ما يقول هؤلاء؟ » ، قال : « صدقوا يا أمير المؤمنين ! لستُ منهم ولكنى من الأزد ، كنا أصبنا فى الجاهلية دماً من قومنا فلحقنا ببجيلة فبلغنا فيهم من السؤدد مابلغك » ، فقال عمر : « فاثبت على منزلتك فدافعهم كما يدافعونك » ، فقال : « لست فاعلاً ولا سائراً معهم » ، فأمّر ، عمر جريراً على بجيلة وسار معهم إلى العراق [2] .

وكان كريما شهما شجاعاً وفياً جمع صفات العربى الأصيل وزاد عليها خلق المسلم ، فلا عجب أن كان نموذجاً كاملا للمؤمن المجاهد الصابر المحتسب الذى بذل غاية جهده لخدمة عقيدته وقومه فى السلم وفى الحرب ، ولاعجب أن

---

(١) الاستيعاب (١/٢٣٨) .

(٢) الطبرى (٢/٦٤٦) .

يستحوذ على إعجاب الناس بمزاياه ، فيقول فيه أحد الشعراء مردداً صدى إعجاب الناس بسجاياه الكريمة :

لولا جرير هلكت بجيلة نعم الفتى وبئست القبيلة [1]

ولست أشك أن الشاعر لم يرد هجاء بجيلة نظراً لماضيها المشرّف ، ولكنه أراد أن (يبرز) أثر جرير الشخصى فى (رفع) منزلة (بجيلة) بين القبائل العربية .

لقد كان جميل الصورة ، قال عمر ابن الخطاب عنه : « جرير يوسف هذه الأمة وهو سيد قومه » [2] ، وكان طويل القامة [3] ، يخضب بالصفرة [4] ، أعور ذهبت عينه بـ (همذان) [5]

القائد :

لسنا بوضوح فى مزايا جرير الشخصية بعض الصفات التى تؤهله لتولى قيادة الرجال فى أخطر المواقف وأحرج الظروف ، فهو كريم النسب عقائدى شجاع مقدام عالم ذكى ، لذلك أمّره الرسول القائد فى حياته حين وجّهه لتحطيم صنم (ذى الخلصة) هذا الواجب الذى لم يكن سهلا فى تلك الأيام ، خاصة وأن جذور الشرك لم تكن قد اجتثّت تماماً من أصولها ، وأن المشركين كانوا يسترخصون أرواحهم وأموالهم فى سبيل الذود عن أصنامهم ، لهذا لم يوجّه الرسول صلى الله عليه وسلم لمثل هذه الواجبات غير الصفوة من أصحابه أمثال على بن أبى طالب وخالد بن الوليد وجرير .

---

(١) الاستيعاب (١/٢٣٨) .

(٢) أسد الغابة (١/٢٧٩) وأنظر البدء والتاريخ (٥/٨٥) .

(٣) الإصابة (١/٢٤٣) والبدء والتاريخ (٥/٨٥) .

(٤) أسد الغابة (١/٢٧٩) .

(٥) المعارف (٥٨٦) .

لقد كانت له قابلية فائقة على إعطاء القرار السريع الصحيح ، شجاعاً مقداماً صبوراً ذا إرادة قوية راسخة ، يتحمّل مسؤوليته كاملة بلا تردّد بل إنه يحرص غاية الحرص على تحمّل مسؤوليته كاملة ولايتهرّب منها خوفاً وجزعاً ، له نفسية لاتتبدّل فى حالتى النصر والاندحار وفى حالتى الرخاء والشدة ، يعرف نفسيات رجاله وقابلياتهم ويثق بهم ويثقون به ويبادلهم حباً بحب وإخلاصاً بإخلاص ، له شخصية نافذة وقابلية بدنية ممتازة وماض ناصع مجيـــد .

جرير فى التاريخ :

يذكره التاريخ فى ناحيتين : عقيدته الراسخة وجهاده العظيم !

يذكر عقيدته التى لم تتبدل أبدا منذ إسلامه ، فقد ثبت على عقيدته شامخا كالطود حين ارتد كثير من الناس ، واعتزل الفتن حين اشترك فيها كثير من الناس ، وبقى فى كل حياته مخلصا لعقيدته لايتزحزح عنها قيد أنملة طلبا لمغنم أو هربا من مغرم ، وبذلك كان النموذج الرائع للعقائدى الذى يحيا ويموت من أجل عقيدته .

ويذكر التاريخ لهجهاده الفذ لأجل إعلاء كلمة الله ، ولاتزال آثار فتوحاته باقية فى حلوان وخانقين وقرميسين وهمذان منذ الفتح الإسلامى قبل حوالى أربعة عشر قرناً حتى اليوم .

إن التاريخ لاينسى جريراً وأمثاله من قادة الفتح ، ولـكن هل يذكره العرب والمسلمون ؟

رضى الله عن الصحابى الجليل ، القائد الفاتح ، المتحدث الفقيه ، جرير ابن عبد الله البجلى .

قـادة فتـح
محور دجلة من المدائن حتى الموصل

عبد الله بن المعتم العبسي

فاتح محور دجلة من المدائن جنوبا حتى الموصل شمالا

إسلامه :

أسلم عبد الله بن مالك بن المُعْتَمّ العبسى[1] فى أيام النبى صلى الله عليه وسلم ، فهو أحد تسعة رجال من قبيلة عبس وفدوا على النبى[2] فأسلموا ، فدعا لهم الرسول بالخير .

وبلغ رسول الله ، أن عيراً لقريش أقبلت من الشام ، فبعث هؤلاء الجماعة من بنى عبس فى سرية على رأسهم عبد الله ، وعقد لهم لواءً أبيض[3] ، فقالوا : يارسول الله ! كيف نقسم غنيمة إن أصبناها ونحن تسعة ؟ . قال : « أنا عاشركم ! »[4] . وهذا دليل واضح على أن عبد الله وفد مع جماعته قبل صلح الحديبية ، لذلك فهو من المهاجرين الأولين[5] .

---

(١) عند ذكر عبد الله بن المعتم . لم يجزم ابن حجر العسقلانى فى الإصابة (٤/١٢٥) برأيه ، فقال : « وقد تقدم ذكر عبد الله بن المعتم العبسى ، فما أدرى أهو هذا نسب إلى جده (أى عبد الله بن المعتم من دون ذكر والده مالك) أم غيره » وقد ذكر الطبرى (٣/٩) أن عبد الله بن المعتم من أصحاب النبي وكان أحد التسعة الذين قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم ، كما أن ابن سعد فى طبقاته (١/٢٩٥) ذكر أن عبد الله بن مالك كان أحد التسعة من وفد عبس ، لهذا يكون عبد الله بن المعتم هذا قد نسب إلى جده ، ويكون اسمه الكامل : عبد الله بن مالك بن المعتم .

(٢) الإصابة (٤/١٢٥) الطبرى (٣/٩) وطبقات ابن سعد (١/٢٩٥) .

(٣) الإصابة (٤/١٢٥) .

(٤) طبقات ابن سعد (١/٢٩٦) .

(٥) طبقات ابن سعد (١/٢٩٥) .

وارتدت عبس بعد وفاة النبى ، فوثب مرتدوها على من ثبت على إسلامه وأبادوهم [1] ، والظاهر أن عبد الله كان بعيداً على متناول أيدى المرتدين من قومه ، فقد كان من الذين ثبتوا على إسلامهم بدليل أنه تولى القيادة فيما بعد ، ولم يتولاها غير الصحابة ، كما لم يتولاها أبداً من ارتد عن الإسلام ثم عاد إليه ، بل بقى جندياً بسيطاً حتى ولو بلغ الذروة فى المنزلة والشجاعة والكفاءة .

جهاده :

١ — مع سعد بن أبى وقاص :

لابد وأن جهاده بدأ مبكراً بعد إسلامه ، فقاتل المرتدين ، وقاتل تحت ألوية الفاتحين ، ولكنه برز لأول مرة عندما تولى قيادة (الميمنة) [2] لقوات سعد التى تحركت من (شَرَاف) [3] متجهة نحو القادسية ، وبقى فى مسير الاقتراب من شراف إلى القادسية وفى معركة القادسية قائداً للميمنة ، فكان لقيادته الحكيمة أثر فى انتصار المسلمين فى معركة القادسية الحاسمة .

وبعد معركة القادسية ، وصل أمر عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص بالسير إلى المدائن ، فقدّم سعد زهرة بن الحوية ، ثم أتبع زهرة بعبد الله بن المعتم ، فلما وصلت مقدمته (بُرْس) [4] لقيهم جمع من الفرس سارعوا إلى الانسحاب نحو (بابل) ولكنهم هزموا هناك أيضا .

وسار المسلمون من نصر إلى نصر ، حتى تم لهم دخول المدائن عاصمة كسرى ،

---

(١) الطبرى (٢/٤٧٨) .
(٢) الطبرى (٢/٩) وابن الأثير (٢/١٧٤) .
(٣) شراف : ماء بنجد . أنظر التفاصيل فى معجم البلدان (٥/٢٤٦) .
(٤) برس : موضع بأرض بابل أنظر معجم البلدان (٢/١٢٦) .

وكان عبد الله على مقدمة سعد منذ غادر القادسية حتى فَتَحَ المدائن[1] .

٢ — الفاتح :

عندما علم سعد بأن الروم وأهل الموصل — اجتمعوا بتكريت وتحصنوا بها ومعهم أحلافهم من إياد وتغلب والنمر ، أرسل إليهم عبد الله وبإمرته خمسة آلاف مسلم ، فوصل تكريت بأربعة مراحل في أربعة أيام[2] وحاصر الروم وأحلافهم الذين خندقوا بتكريت أربعين يوماً تزاحفوا خلالها أربعة وعشرين زحفاً ، فأرسل عبدالله إلى العرب الذين يقاتلون بجانب الروم يناشدهم الكف عن نصرة الروم والالتحاق بالعرب المسلمين ، فاستجابوا له وسألوه السلام للعرب ، فأجابهم : « إن كنتم صادقين ، فاشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وأقروا بما جاء به من عند الله ، ثم أعلمونا رأيكم » فرضوا بذلك ، فأرسل إليهم من يقول لهم : « إذا سمعتم تكبيرنا فاعلموا أنا قد نهدنا إلى الأبواب التي تلينا لندخل عليهم منها ، فخذوا بالأبواب التي تلي دجلة وكبروا واقتلوا مَنْ قدرتم عليه » .

وحمل المسلمون على المدينة وكبروا ، فردّد تكبيرهم العرب الذين أسلموا من المدينة ، فاضطرب الروم وحاولوا الهرب من الأبواب التي تطل على دجلة ، إلا أن السيوف أخذتهم من الإمام والخلف ، فلم يفلت منهم أحد[3] ؛ وهكذا فتح المسلمون مدينة تكريت .

أفيقنع عبد الله بهذا النصر ؟ كلا ! لقد أرسل قوة من المسلمين بقيادة

---

(١) الإصابة (٤/١٣٢) .

(٢) الطبري (٣/١٤١) .

(٣) ابن الأثير (٢/٢٠٣) .

ربعي ابن الأفكل[1] إلى الحصنين : نينوى[2] والموصل ، وقال له : « اسبق إليهما قبل وصول الأنباء إليهما » وسرح معه تغلب واياد والنمر ، فباغت ابن الأفكل الحصنين قبل وصول أنباء فتح تكريت إليهما .

وأراد حماة هذين الحصنين المقاومة ، فلما علموا بما أصاب تكريت أجاب أكثرهم إلى الصلح على الجزية ، فأقام من استجاب وهرب من لم يستجب إلى أن وصل الموصل عبد الله بن المعتم ، فدعا الذين هربوا إلى العودة ووفى بعهده لمن بقي فيها ، فتراجع الهراب واغتبط المقيم وصارت لهم جميعاً المنعة والذمة[3].

وبقي عبد الله على رأس جيشه في الموصل حتى استدعاه سعد للحضور مع قواته إلى المدائن ، فلما وصلوها ارتحل سعد بالناس إلى الكوفة فدخلوها في محرم من السنة السابعة عشرة للهجرة[4].

الإنسان :

لما قدم وفد عبس إلى الرسول معلناً إسلامه ، عقد الرسول راية بيضاء[5] ، لابن المعتم على أصحابه المنتخبين من بين سادات قومهم ، مما يدل على أنه كان أبرز شخصية في عبس حينذاك .

ومنذ أسلم ثبت على عقيدته لا يريم عنها بالرغم من ارتداد (عبس) عن

---

(١) سنكتب ترجمته في العدد القادم إن شاء الله تعالى .

(٢) نينوى : مدينة أثرية آشورية لاتزال قائمة مقابل مدينة الموصل في الضفة اليسرى من دجلة وفيها قبر النبي ذي النون (يونس) عليه الصلاة والسلام . أنظر معجم البلدان (٣٦٨/٨) .

(٣) الطبري (١٤٢/٣) وأسد الغابة (٢٦٤/٣) .

(٤) الطبري (١٤٧/٣) .

(٥) الإصابة (١٢٥/٤) .

الإسلام بعد وفاة النبي ، مما يدل على أنه أسلم رغبة لا رهبة وأنه كان رجل مبدأ وليس بإمعة يتاجر بمبادئه فيبدلها كلما تبدلت الظروف والأحوال.

لقد أوقف نفسه لخدمة عقيدته ، فجاهد في سبيل إعلائها جندياً وقائداً حتى وافاه الأجل المحتوم.

الظاهر أنه تفرّغ للجهاد ، فشغله هذا الواجب عن كل أمر سواه ، إذ لم تُعرف له رواية عن النبي[1] ، كما قد شغل الجهاد كثيراً من الصحابة عن رواية الحديث والتفقه في الدين إلى درجة الاختصاص.

لقد كان محباً لأصحابه محبوباً منهم كريماً شهماً شجاعاً مقداماً ، جمع صفات العربي الأصيل والمسلم الصادق ، فلا عجب ألا يكون من بين الذين أثروا من غنائم الفتح ، وهي غنائم كفيلة بتأمين الثراء العريض.

ما هي أعماله العامة بعد الفتح ؟ أين ومتى توفى ؟ ذلك ما لم تذكره المصادر التي بين أيدينا ، وحسبها أن تتغنى بكل ما ذكرناه من أمجاده ، وهي بدون شك أهم مما أغفلته بكثير ! !

٤ — القائد :

عين الرسول ابن المعتم قائداً ، وعينه سعد بموافقة عمر قائداً ، فما هي المزايا التي أهلته لتولى منصب القيادة ؟

كان شجاعاً مقداماً ، له قابلية على إعطاء القرارات الصحيحة السريعة ، مكيثاً لا يتعجل الأمور ولا يتهور ، صابراً على مكابدة مشقات القتال ، له إرادة قوية راسخة وشخصية نافذة مسيطرة ، يتحمل المسؤولية ولا يتهرب منها

(١) أسد الغابة (٣/٢٥١) والإصابة (٤/١٢٥).

أو يلقيها على عواتق الآخرين ، يثق برجاله ويثقون به ويحبهم ويحبونه ، له ماض مشرف ناصع مجيد .

وكان يهتم كثيراً بالاطلاع على نوايا العدو وأخباره ، وقد ظهر ذلك بوضوح فى معركة (تكريت) ، إذ عندما أرهق الحصار المدافعين عن المدينة ، عزم الروم على الفرار بالسفن ، فلما علم ابن المعتم بذلك من عيونه راسل حلفاء الروم من العرب يدعوهم إلى الإسلام وإلى نصرته[1] ، وكان لاستجابتهم له أثر حاسم فى انتصار المسلمين .

أما خطته الدقيقة لاحتلال تكريت ، فتدل على قابليته الفائقة فى وضع الخطط العسكرية وتنفيذها ، كما تدل على تشبعه بروح (المباغتة) أهم مبدأ من مبادئ الحرب على الإطلاق .

كما أن أوامره الصريحة التى أصدرها لربعى بن الأفكل الذى وجهه لفتح الموصل ونينوى : « أسبق الأخبار ، وسر مادون القيل وأحى الليل »[2] ، ما يؤكد تشبع ابن المعتم بروح (المباغتة) وبمبدأ (التعرض) و (الأمن) ومبدأ (تحشيد القوة) فلا عجب إذا استطاع بمدة لاتزيد كثيراً عن الشهرين احتلال المنطقة الشاسعة من المدائن جنوباً حتى الموصل شمالا ، وهى مدة قصيرة حتى بالنسبة للحرب[3] الحديثة ، بينما قطع العرب هذه المسافة سيراً على الأقدام أو على الخيل والإبل ولم تتيسر لديهم وسائط النقل الحديثة .

---

(١) الطبرى (٣/١٤١) .

(٢) الطبرى (٣ / ١٤٢) ، ومعنى ذلك : أن يتحرك بكل سرعة ليلا ويختفى نهاراً حتى يصل هدفه قبل وصول أنباء فتح تكريت إليه ، وبهذا يباغت المدافعين عنه بوصول المسلمين إليهم قبل أن يعدوا كافة متطلبات القتال .

(٣) فى الحرب العالمية الثانية احتل الحلفاء بغداد فى ١١ مارس ١٩١٧ وأعلنت الهدنة فى ٣١ تشرين الأول ١٩١٨ ، ودخلوا الموصل صلحاً بعد ذلك ! ! ! ! .

ابن المعتم فى التاريخ :

بعد هزائم الروم بتكريت والموصل ، خشى الروم أن يقطع المسلمون عليهم خط رجعتهم بالحركة من الموصل إلى شمال بلاد الشام ، فكان لذلك أثر كبير فى تراجع الروم بسرعة من شمال بلاد الشام وتقدم المسلمين السريع لفتحها .

يكفى أن يذكر التاريخ له ، أنه فاتح محور دجلة من المدائن حتى الموصل وإنه أسكن العرب ونشر الإسلام فى كل هذه الربوع .

ربعى بن الأفكل العنزى

فاتح الموصل

الصحابى :

أسلم رِبْعِي بن الأفكَل العنزى[1] فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، ولكن المصادر التى بين أيدينا أغفلت ذكر موعد إسلامه . ومع ذلك يمكننا الجزم بأنه أسلم فى أيام النبى وصحبه ، لأنهم كانوا لا يؤمرون فى الفتوح إلا الصحابة[2] ، خاصة وأنه تولى القيادة فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وبأمر لا يولى إلا الصحابة ولا يرضى أبدا أن يعمل صحابى بإمرة غير صحابى .

جهاده :

جاهد ربعى أهل الردة ، فلما عادوا إلى الإسلام واستقرت الأمور فى شبه الجزيرة العربية ، كان ربعى من بين الذين اختاروا جهاد الفرس فشهد فتح المدائن والمعارك التى سبقتها .

وبرز اسمه لأول مرة قائدا لمقدمة عبدالله بن المعتم الذى تحرك بقواته

---

(١) جاء اسمه فى الإصابة (٢/ ١٩٤) ربعى بن الأفكل العنبرى ، بينما جاء اسمه فى الطبرى (٣/١٤١) ربعى ابن الأفكل العنزي ، كما ورد اسمه فى كافه المصادر القديمة ربعى بن الأفكل العنزى ، وقد أخذنا به نظرا لاعتقادنا أن كلمة (العنبرى) فى الإصابة تصحيف ليس إلا .

(٢) الإصابة (٢/١٩٤) .

لفتح مدينة (تـكريت) ، وبعد أن تم لعبد الله فتح (تـكريت) سار ربعى على رأس قوة من المسلمين لفتح الحصنين : نينوى والموصل ، إذ أن عمر بن الخطاب كان قد عهد إلى سعد بن أبى وقاص : « أن يسرح عبد الله بن المعتم بعد فتح تـكريت ربعى بن الأفكل إلى الحصنين »[1] ، الحصن الشرقى وهو نينوى والحصن الغربى وهو الموصل .

وكان نص أمر عبد الله بن المعتم الذى أصدره إلى ربعى : « اسبق الخبر وسر ما دون القيل وأحى الليل » أى أنه يجب أن يقطع المسافة بين تـكريت والموصل سريعا بالسرى ليلا وبالمسير بعض ساعات النهار قبل الظهر ، حتى يصل الحصنين قبل أن تصل إليهما أخبار استسلام تـكريت وأخبار تقدم المسلمين لفتحهما ، فنفذ ربعى هذا الأمر حرفيا بالإفادة من رجال تغلب واياد والنمر الذين أسلموا حديثا بعد فتح تـكريت ، إذ دبّر ربعى خطة الفتح بالتعاون مع هذه القبائل ، تلك الخطة التى يمكن تلخيصها : بأن يسبقوا جيشه ويذهبوا إلى أهل الحصنين ويظهروا لهم الظفر والنفل . والعودة بسلام من تـكريت ، ولـكنهم عندما يدخلون الحصنين يسيطيرون على أبوابهما ، فيدخل المسلمون من تلك الأبواب المسيطر عليها بدون مقاومة .

نفذّت القبائل هذه الخطة بكل دقة ، وبادرت خيل ربعى المتقدمة أمام قواته باقتحام الحصنين على حماتهما ، فاستسلم بعضهم وفرّ آخرون ، فلما وصل عبد الله بن المعتم نينوى والموصل بعدفتحهما دعا من فر من سكانهما ولهم الأمان ، فعادوا إلى بلدهم وشملت السكان الأصليين الذمة والمنعة .

---

(١) الطبرى (١٤١/٣) وابن الأثير (٢٠٢/١) .

وهكذا فتح المسلمون الموصل وضواحيها ، فعين عمر بن الخطاب ربعي ابن الأفكل على حرب الموصل وعرفجة بن هرثمة على خراجها[1] .

الإنسان :

عاش ربعي لعقيدته ، وكان جهاده أبرز ما فى حياته ، فقد عاش جنديا وقائدا يعمل تحت رايات غيره من القادة تارة ، ويعمل الناس تحت رايته تارة أخرى ، وهو فى الحالتين يبذل غاية جهده لإعلاء كلمة الله . .

متى ولد ؟ كيف وأين عاش ؟ ماهى مزاياه الإنسانية ؟ كيف ومتى توفى ؟ أين دفن ؟ كل ذلك أغفله التاريخ ونسيه الناس !

ولكن هل تخفى مزاياه الإنسانية إلى درجة أننا لا نستطيع أن نتبين معالمها وخطوطها العريضة ؟ ؟ حسبنا أن نذكر أنه رجل من رجالات العرب وقائد من قادة الإسلام ، جمع مزايا العرب وفضائل الإسلام ، وكرس حياته كلها لخدمة عقيدته ، ولم يعمل لنفسه يجمع لها المال والعقار ، إذ لم يذكر التاريخ عنه أنه أثرى من الفتح وعاش فى سعة ورفاه كبعض الفاتحين من أمثاله .

القائد :

يظهر من دراسة الخطة العسكرية التى نفذها ربعى منذ تحرك بقواته من تكريت إلى أن فتح الموصل وضواحيها ، أنه كان قائداً متشبعاً بروح مبدأ (المباغتة) بالزمان ، فقد قطع المسافة بين تكريت والموصل بسرعة خاطفة ، واقتحمت خيله المدينة قبل أن تصلها أخبار استسلام تكريت للمسلمين ، ففتح

(١) ابن الأثير (٢٠٣/٢) والطبرى (١٤٣/٣) ويروى البلاذرى ص (٣٢٧) أن فاتح الموصل هو عتبة بن فرقد السلمى ولكن روايته هذه مرجوحة فى نظرنا .

المدينة صلحاً ، وفر الذين لم يرضوا بالصلح ثم عادوا أدراجهم بعد حين !

إن العسكرى يدهش أشد الدهشة من سرعة حركة قوات ربعى وسرعة فتح مدينة الموصل ، فقد تم كل ذلك بمدة لا تزيد على عشرة أيام ، بينما قطع الحلفاء نفس المسافة فى الحرب العالمية الأولى بمدة لا تقل عن عام ونصف العام!

إن سرعة تقدم المسلمين فى حركاتهم مثال من أمثلة الحرب الخاطفة التى كانوا يشنونها فى الزمان والمكان المناسبين — وهذه السرعة الخاطفة كانت بدون شك من عوامل انتصارهم على أعدائهم .

لقد كانت قوات الموصل الضاربة تقاتل فى تكريت التى تعتبر الخط الدفاعى الأول عن الموصل ، فلما استسلمت القوات المدافعة عن تكريت لم يبق الموصل قوة مؤثرة تدافع عنها ، إذ كان مقدرا للقوات المدافعة عن تكريت أن تنسحب منها بعد قتال شديد إلى الموصل للاشتراك مع القوات المتيسرة هناك فى الدفاع عن المدينة ، ولكن استسلام المدافعين عن تكريت من غير العرب وإسلام القبائل العربية المدافعة عنها وانضمامهم إلى المسلمين كان إيذانا بسقوط الموصل الأكيد مالم تعمل الموصل على تحشيد قوة كافية للدفاع عنها ، وهذا يحتاج إلى الوقت الكافى . لذلك سبق ربعى الخبر بحركة قواته السريعة ليلا ونهاراً ، مما جعله يداهم الموصل قبل أن تعلم بأنباء سقوط تكريت ، وقبل أن يتأهب أهلها للدفاع عنها .

لقد كان ربعى شجاعاً مقداماً ، سريع القرار ، قادراً على إعداد الخطط العسكرية المناسبة ، وكان يبادل قطعاته ثقة كاملة وحبا بحب ، وكان يتمتع بإرادة قوية راسخة وشخصية رصينة نافذة ، يتحمل المسئولية ولا يتهرب منها ليضعها على عواتق الآخرين .

ربعى فى التاريخ :

يقترن اسم ربعى باسم الموصل فى التاريخ ، فمنذ فتحها المسلمون لم يستطع أحد من غير المسلمين دخولها عنوة ، كما لم يقتحمها أبداً عدو (خارجى) منذ فتحها المسلمون حتى اليوم ، بل صمدت هذه المدينة الصابرة الباسلة دائماً بوجه الغزاة تدافع عن عروبتها وإسلامها .

إنّ أثر ربعى فى فتح الموصل لم يقتصر على ضمها إلى البلاد الإسلامية وإسكان العرب فى ربوعها و نشر الإسلام بين سكانها ، بل امتد أثره بعيداً إلى أرض الشام ، حيث بلغت هزائم الروم فى تكريت والموصل أسماع إخوانهم فى بلاد الشام ، فتولاهم الفزع من احتمال تقدم المسلمين من الموصل إلى أصقاع الشام الشمالية ، فيقطعوا على الجيش الرومانى الذى يدافع عن أرض الشام خطوط انسحابه إلى قواعده فى القسطنطينية والبلاد الرومية ، مما سهل على المجاهدين فى بلاد الشام مهمتهم، واضطر الجيوش الرومانية على الانسحاب من بلاد الشام باتجاه القسطنطينية ، وبذلك طهر المسلمون بلاد الشام من الروم وسهل لهم فتح (الجزيرة) الكائنة بين الفرات ودجلة من شمال الموصل حتى ديار بكر و نصيبين .

هـذا هو ربعى بن الأفكل ، وتلك هى آثاره الخالدة ، فهل يستحق مثله العقوق والنسيان ؟ ؟

عرفجة بن هرثمة البارقي

أول قائد عربي ركب البحر وأول من اختط الموصل

وأسكنها العرب ومصرها

إسلامه :

أسلم عَرْفَجَة بن هرثمة البارقي[1] فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنا لا نعرف متى أسلم بالضبط ، والظاهر أنه أسلم متأخراً أى فى عام الوفود من السنة التاسعة للهجرة ، لأنه لم يرد له ذكر فى غزوات الرسول القائد ؛ ولكنه بدون شك كان صحابياً جليلا ، لأنهم لم يكونوا يؤمرون إلا الصحابة[2]

جهاده :

١ — جهاده أهل الردة :

عقد الصديق أبو بكر إحدى عشر لواء لكل قائد لواء ووجهم لقتال المرتدين ، وعقد لعرفجة لواء ووجهه لمقاتله أهل الردة فى (مَهْرَة)[3] ، كما وجه

---

(١) فى الإصابة (٤/٢٣٥) التسلسل (٥٥٠١) نسبة : عرفجة بن هرثمة ابن عبد العزيز بن زهير البارق .

(٢) الإصابة (٤/٢٣٥) .

(٣) مهرة : اسم قبيلة من قضاعة تنسب إليهم الإبل المهرية ، ولهم فى اليمن محل يسمى : مهرة بينه وبين عمان مسيرة نحو شهر وكذلك بينه وبين حضر موت . راجع معجم البلدان (٨/٢١١) .

حذيفة بن محصن الغَلْفَاني[1] لمقاتلة المرتدين فى (عمان)[2] ، وأمرهما أن يبتدئا بعمان : حذيفة على عرفجة فى (عمان) وعرفجة على حذيفة فى (مهرة)[3] ، وأمرهما أن يُجدا السير حتى يقدما (عمان) ؛ وكان أبو بكر قد أرسل عكرمة ابن أبي جهل إلى (اليمامة)[4] ففشل فى مهمته ، فأمره أبو بكر أن يلحق بحذيفة وعرفجة ، فلحقهما قبل وصولهما (عمان) فلما وصلوها انضمت إليهم قوات المسلمين الذين ثبتوا على دينهم فى تلك المنطقة ، فقاتلوا المرتدين فى منطقة (عمان) قتالا عنيفاً حطموا به المرتدين ، كما خاضوا معركة عنيفة أخرى فى منطقة (مهرة) انتصروا فيها على المرتدين أيضاً[5] ، وأعادوا الإسلام إلى تلك الربوع .

٢ — جهاده فى البحرين

ولما انتهى أمر المرتدين فى (عمان) و (مهرة) التحق عرفجة على رأس رجاله بالعلاء بن الحضرمى فى البحرين ، فبعثه العلاء إلى أسياف فارس ، فقطع البحر فى السفن ، فكان أول من فتح جزيرة بأرض فارس واتخذ فيها مسجدا[6] .

---

(١) راجع ترجمته فى الإصابة (١/٣٣٢) التسلسل (١٦٤١) .

(٢) عمان : منطقة عربية على ساحل خليج عمان وتشتمل على بلدان كثيرة ذات نخل وزروع ، إلا أن حرها يضرب به المثل . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٨/٥١٥) .

(٣) الطبرى (٢/٢٣٥) .

(٤) اليمامة : منقول عن اسم طائر يقال له : اليمام واحدته يمامه ، وهى منطقة معدودة من نجد ، راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٨/٥١٠) .

(٥) الطبرى (٢/٢٩٥) وابن الأثير (٢/١٤٣) .

(٦) البلاذرى ص (٣٨٧) ، وطبقات ابن سعد (٤/٣٦٢) وقد ذكر أن غزوة عرفجة هذه كانت سنة أربع عشرة هجرية ، وأنا أعتقد أنها كانت قبل هذا التاريخ نظراً لتسلسل الحوادث ولأن عرفجة كان حينذاك فى ساحات قتال العراق .

٣ — جهاده فى العراق

(ا) مع المثنى بن حارثة الشيبانى

ندب عمر بن الخطاب الناس إلى العراق بعد هزيمة المسلمين فى معركة (الجسر) واستشهاد قائدهم أبى عبيد بن مسعود الثقفى ، فكان عرفجة أحد المتطوعين ، فأراد عمر استعماله على (بجيلة) ، فقال جرير بن عبد الله البجلى لبجيله : « تقرون بهذا ؟ » فأتوا عمر ، وقالوا : اعفنا من عرفجة !، فقال عمر : « لا أعفيكم من أقدمكم هجرة وإسلاما ، وأعظمكم بلاء وإحسانا » . فقالوا : استعمل علينا رجلا منا ! . . . فأرسل عمر إلى عرفجة ، فقال : « إن هؤلاء استعفونى منك وزعموا أنك لست منهم ، فما عندك ؟ » . فقال عرفجه : «صدقوا ، وما يسرنى أنى منهم . . . أنا امرؤ من الأزد ثم من بارق » . فقال عمر : « نعم الحى الأزد ، يأخذون نصيبهم من الخير والشر !! » [١] ، فأمر عمر عرفجة على الأزد وسيرهم إلى العراق ، ففرح الأزد بعودة عرفجة إليهم ، فخرج بقومه حتى قدم على المثنى بن حارثة الشيبانى فى العراق [٢] .

قاتل عرفجة على رأس الأزد تحت لواء المثنى فى معركة (البويب) الحاسمة، فكان من المعدودين الذين قتلوا تسعة من رجال الفرس . قال يحدث المثنى بعد المعركة : « طاردت كتيبة منهم إلى الفرات ورجوت أن يكون الله تعالى قد أذن فى غرقهم وسلى عنها بهامصيبة (الجسر) ، فلما دخلوا إلى حد الاحراج ، كروا علينا ، فقاتلناهم شديدا حتى قال بعض قومى : لو أخرت رايتك ! !

---

(١) الطبرى (٢/٦٤٦) .

(٢) الطبرى (٢/٦٤٧) .

فقلت : « على إقدامها ! ! » وحملت بها على حاميتهم فقتلته ، فولوا نحو الفرات ، فما بلغه منهم أحد فيه الروح »[١] .

(ب) مع سعد بن أبى وقاص

قاتل عرفجة تحت لواء سعد بن أبى وقاص فى معركة (القادسية) الحاسمة، وكان أحد أفراد الوفد الذى وجهه سعد لمفاوضة رستم قائد الفرس[٢] ، وكان عرفجة أحد الذين أبلوا أحسن البلاء فى القادسية وفى المعارك الأخرى التى قادها سعد بعد (القادسية) حتى دخل المدائن عاصمة الامبراطورية الفارسية .

(ج) الفاتح

لما علم عمر من سعد باجتماع أهل (الموصل) وتوجههم إلى (تكريت) ، كتب إلى سعد : « سرح إليهم عبد الله بن المعتم[٣] ، واستعمل على مقدمته ربعى بن الأفكل وعلى الخيل عرفجة بن هرثمة »[٤] ، فشهد تحت لواء ابن المعتم فتح (تكريت) ثم شهد فتح المنطقة من (تكريت) حتى (الموصل) ، حيث ولاه عمر خراج (الموصل)[٥] بعد فتحها .

٤ — في البحرين ثانية

الظاهر أن عرفجة آثر الجهاد على منصبه الادارى ، فعاد ثانية مع قومه إلى البحرين ، فلما تولى عتبة بن غزوان البصرة[٦] ، كتب عمر اليه : « قد

---

(١) الطبرى (٢/٦٥١) .
(٢) الطبرى (٣/٣٣) .
(٣) سترد ترجمته فى عدد قادم إن شاء الله .
(٤) ابن الأثير (٢/٢٠٣) والطبرى (٣/١٤١) .
(٥) ابن الأثير (٢/٢٠٤) .
(٦) فى رواية أن عتبة بن غزوان تولى البصرة سنة أربع عشرة للهجرة ، كما جاء فى ابن الأثير (٢/١٨٨) ، بينما مصرت البصرة سنة سبع عشر للهجرة كما جاء فى نفس=

كتب إلى العلاء بن الحضرمى أن يمدك بعرفجة بن هرثمة ، وهو ذو مجاهدة ومكايدة للعدو ، فإذا قدم إليك فاستشره » [1] ، فكان الساعد الأيمن لعتبة فى الإدارة والجهاد .

فقد أرسله وعاصم بن عمرو التميمي والأحنف بن قيس من البصرة ضمن جيش كثيف فى اثنى عشر ألف مقاتل ، فخرجوا على البغال يجنبون الخيل وعليهم أبو سبرة بن أبى رهم لإنقاذ جيش العلاء بن الحضرمى ، فانتصر المسلمون فى (الأهواز) انتصارا رائعا وأنقذوا جيش العلاء بن الحضرمى من خطر كبير ، ثم عاد هذا الجيش إلى البصرة سالما غانما [2] .

٥ — فى فتح فارس

تولى البصرة أبو موسى الأشعرى فكتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى: « ابعث إلى الأهواز جندا كثيفا ، وأمر عليهم عدى ابن عمرو أخا سهيل ، وابعث معه البراء بن مالك ومجزأة بن ثور وعرفجة بن هرثمة » [3] فشهد فتح مدينة (رامهرمز) [4] ومدينة (تستر) [5] ، وبقى مجاهدا فى ساحات القتال حتى عاد إلى (الموصل) سنة اثنتين وعشرين للهجرة واليا عليها من قبل عمر

= المصدر (٢/٢٠٣) ، إذ أن منطقة البصرة كانت خاضعة للفرس سنة أربع عشرة للهجرة ولم يجر تطهيرها منهم . إننى أرجح أن عتبة بن غزوان تولى البصرة سنة سبع عشرة للهجرة وأن عرفجة التحق بعد فتح الموصل كما جاء فى أعلاه .

(١) ابن الأثير (٢/١٨٨) والإصابة (٤/٢٣٥) وأسد الغابة (٣/٤٠١) .

(٢) ابن الأثير (٢/٢٠٩) والطبرى (٣/١٧٨) .

(٣) ابن الأثير (٢/٢١١) .

(٤) رامهرمز : معنى (رام) بالفارسية المراد والمقصود ، وهرمز مدينة مشهورة بناحية خوزستان . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٤/٢١١) .

(٥) تستر : أعظم مدينة فى خوزستان اليوم . أنظر التفاصيل فى معجم البلدان (٢/٣٧٦) وهى مدينة ششتر .

بن الخطاب ، ولكن عثمان أعاده للجهاد فى ميادين بلاد فارس ، وأخيرا أعاده عثمان واليا على الموصل » [1] .

الإنسان :

استقر عرفجة فى الموصل واليا عليها بعد جهاده الطويل ، فقد أمره عثمان أن يتوجه من فارس إلى الموصل على رأس أربعة آلاف جندى من الأزد وطئ وكندة وعبد القيس ، وكان قد بعثه عثمان يغير على أهل فارس ، فسكن الموصل هذا الجيش [2] ، فكان عرفجة أول من اختط (الموصل) وأسكنها العرب ومصرّها ، وكانت قبله فيها الحصن وبيع النصارى ومنازل قليلة لهم عند تلك البيع ومحلة لليهود ، فمصرّها عرفجة وأنزل العرب منازلهم واختط لهم ثم بنى المسجد الجامع [3] ، وبذلك سكن العرب الجدد إلى جانب إخوانهم العرب القدماء من إياد وتغلب والنمر [4] .

ما هى أعمال عرفجة العامة بعد تمصيره (الموصل) ، وما مصيره ؟ ومتى توفى ؟ إن المصادر التى بين أيدينا لا تذكر شيئا عن ذلك .

ولكن الذى يقرأ سيرته إنسانا يتبين أنه كان مؤمنا حقا ، يتفانى من أجل عقيدته ومبدئه ، ولم يكن مرتزقا يجمع الأموال والعقار من أعماله العامة قائدا وواليا ، بل ارتفع بنفسه عن المادة الزائلة ليبقى عمله خالصا لوجه الله وحده !

وكان صادقا وفيا ، شهما غيورا ، كريما مضيافا رزينا متزنا ، عاقلا ذكيا ،

---

(١) أسد الغابة (٣/٤٠١) .
(٢) أسد الغابة (٣/٤٠١) .
(٣) البلاذرى ص (٣٢٧) .
(٤) الطبرى (٣/١٥٣) وابن الأثير (٢/٢٠٢) ولا تزال هذه القبائل فى الموصل حتى اليوم تحافظ على أمجادها وتعرف نسبها وتعتد بالعروبة والإسلام .

يحب لغيره ما يحب لنفسه ، وكان إداريا حازما برز فى الإدارة بروزا لايقل عن بزوزه فى ميدان الحرب .

القائد :

كان عرفجة مثالا رفيعا من أمثلة الشجاعة العربية النادرة ، وكان فى زمانه معدودا من أفذاذ الشجاعة ، لذلك نرى عمر يعينه بالاسم فى البعوث كلما تحرج موقف المسلمين فى ساحة ما من ساحات الفتح .

قال عمر للأزد قوم عرفجة : « أى الوجوه أحب إليكم ؟ » . قالوا : الشام ! . فقال : « ذلك قد كفيتموه . . العراق ! العراق ! ذروا بلدة قد قلل الله شوكتها وعددها ، واستقبلوا جهاد قوم قد حووا فنون العيش ، لعل يورثكم قسطكم من ذلك ، فتعيشوا مع من عاش من الناس » . فقال عرفجة لقومه : « ياعشيرتاه ! أجيبوا أمير المؤمنين إلى مايرى » . فقال الأزد : إنا قد أطعناك وأجبنا أمير المؤمنين إلى ما رأى وأراد [1] .

ولم يكن التوجه إلى العراق يومذاك سهلا ، خاصة بعد أن تلقى المجاهدون من المسلمين فيه درسا قاسيا فى معركة (الجسر) ، ولكن شجاعة عرفجة ونخوته وشهامته أبت عليه إلا أن يختار أخطر ساحات الفتح الإسلامى ، فذهب إلى العراق مختارا وبذل فيه أقصى ما يبذله المؤمن القوى الشجاع .

وكان سريع القرار صائبه ، له نفسية لاتتبدل فى حالتى النصر والاندحار، يتحمل المسؤولية كاملة بلا تردد ولا خوف ، ويتمتع بمزية سبق النظر لذكائه واتزانه ، يثق برجاله ويثقون به ويحبهم ويحبونه ، له شخصية نافذة وإرادة قوية وماض ناصع مجيد .

---

(١) الطبرى (٢/٦٤٧) .

وكان فى أعماله يطبق أهم مبادىء الحرب : يختار (مقصده) بدقة ويتوخاه دائما ، كل معاركه (تعرضيه) ، يحشد لها أكبر قوة ممكنة ، وينفذ خططه بصورة مباغتة ويعمل دائما على إدامة معنويات قطعاته ويؤمن لها كافة متطلباتها الإدارية .

عرفجة فى التاريخ :

يذكر التاريخ لعرفجة جهوده الجبارة فى قتال أهل الردة فى (عمان) و (مهرة) ، ويذكر له أعماله الفذة فى أكثر معارك الفتح الاسلامى فى العراق وفارس ، ويذكر له أنه أول قائد عربى فى الإسلام ركب البحر وجرأ العرب على ركوبه ، ويذكر له تمصيره مدينة الموصل الحدباء [1] وجعلها من أكبر قواعد العرب والإسلام .

تلك هى مآثر عرفجة فى التاريخ ، فهل نذكره ونذكرها له ، أم ننساه وننساها ، لأننا أمة من أخطر عيوبنا النسيان ؟ !

---

(١) يقول ياقوت الحموى فى كتابه معجم البلدان (٧/١٩٥) عن الموصل ما نصه : « المدينة المشهورة العظيمة ، إحدى قواعد بلاد الإسلام ، قليلة النظير كبراً وعظماً وكثرة خلق وسعة رقعة ، فهى محط رحال الركبان » .

قادة فتح

محور الفرات من الرمادي حتى ملتقى الخابور

بالفرات

عمر بن مالك الزهري

فاتح محور الفرات من الرمادي حتى ملتقى الخابور بالفرات

إسلامه :

أسلم عمر بن مالك بن عقبة بن وهب بن عبد مناف بن زهرة القرشي يوم فتح مكة المكرمة ، وعمر هذا هو ابن عم والد سعد بن أبي وقاص الزهري[1] .

ولا تذكر المصادر التي بين أيدينا شيئاً عن قتاله المسلمين قبل إسلامه ولا عن قتاله مع المسلمين في حياة النبي بعد إسلامه ، والظاهر أنه لم يكن شديد الخصومة للدين الجديد أسوة بقومه بني زهرة . فلما أسلم حسن إسلامه وصمد مع الصامدين دفاعا عن دينه في حروب الردة ، وكان أحد الفاتحين بعد عودة المياه إلى مجاريها في داخل الجزيرة العربية .

جهاده :

قاتل عمر المرتدين تحت لواء خالد ابن الوليد ، وسار مع خالد إلى العراق

---

(١) الإصابة (٤/٢٨٢) ، وفي أسد الغابة (٤/٨١) أن نسبه : عمر بن مالك ابن عقبة بن نوفل بن عبد مناف بن زهرة ، أما في الطبري (٣/١٤٣) فذكر أنه عمر بن مالك بن عتبه وكذلك في تاريخ ابن الأثير (٢/٢٠٣) ، ولكنهم جميعاً اتفقوا أنه : عمر بن مالك واختلفوا قليلا في ذكر أسماء أجداده ، ولكن الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه : الفاروق عمر (١/٢١٣) ذكر أن اسمه عمرو بن مالك ، وهذا خطأ لإجماع كافة المصادر القديمة على أن اسمه : عمر لا عمرو عدا معجم البلدان في (٧/٥٩) .

بعد انتهاء حروب الردة وقاتل معه هناك ، فلما توجه خالد من العراق إلى الشام مدداً لقوات المسلمين فيها كان عمر أحد الذين اختارهم خالد لمرافقته ، فقاتل فى كل المعارك التى خاضها خالد فى طريقه إلى الشام وشهد اليرموك وفتح دمشق[1] ، ثم عاد إلى العراق بقيادة هاشم بن عتبه الزهرى ليشترك تحت لواء سعد بن أبى وقاص فى معركة القادسية وفى كافة المعارك خاضها سعد بعدها حتى فتح المدائن ، كما شهد معركة (جلولاء) تحت لواء هاشم بن عتبة ، فلما رجع هاشم عن جلولاء إلى المدائن[2] وعلم سعد بأن أهل (الجزيرة) أمدوا (هرقل) على أهل (حمص) وبعثوا جندا إلى أهل (هيت) ، أخبر عمر بن الخطاب بذلك ، فكتب إليه عمر : (ابعث إليهم عمر بن مالك . . . فى جند ، وابعث على مقدمته الحارث بن يزيد العامرى[3] وعلى مجنبتيه ربعى بن عامر[4] ومالك بن حبيب »[5][6].

تحرك عمر بجيشه نحو (هيت) ، وقدم الحارث بن يزيد العامرى حتى نزل عليها ، فوجد أهلها قد خندقوا عليهم ، فلما رأى عمر امتناع القوم بخندقهم واعتصامهم به قدر أن حصارهم سيطول ، لذلك قرر أن يترك الأخبيه[7] على حالتها حتى لا يشعر المدافعون عن (هيت) بترك قسم من قوات المسلمين حصارهم ثم ابقى نصف القوة للاستمرار فى حصار (هيت) وخرج بنصف قواته الأخرى

---

(١) أسد الغابة (٥/٨١) .
(٢) ابن الأثير (٢/٢٠٣) وأسد الغابة (٤/٨١) .
(٣) راجع ترجمته فى العدد السابق من هذه المجلة .
(٤) راجع ترجمته فى الإصابة (٢/١٩٤) تسلسل (٢٥٦٨) .
(٥) راجع ترجمته فى الإصابة (٦/١٦١) .
(٦) الطبرى (٣/١٤٣) .
(٧) الأخبية : جمع خباء ، وهو خيمة من وبر أو صوف ولا يكون من شعر وهو على عمودين أو ثلاثة وما فوق ذلك فهو بيت . راجع مختار الصحاح ص (١٦٩) .

يعارض الطريق حتى جاء (قرقيسياء)[1] ، فأخذها عنوة وأجابه أهلها إلى الجزاء[2] .

وكتب عمر إلى الحارث بن يزيد العامرى فى شأن أهل (هيت) : « إن استجابوا فخل عنهم فليخرجوا ، وإلا فخندق على خندقهم خندقا أبوابه مما يليك ، حتى أرى من رأيى » . فأرسل الحارث إلى أهل (هيت) بما عزم من ذلك ، فأيقنوا أنه الحصار المديد حتى الموت إذا أصروا على الدفاع عن المدينة ، وبذلك تذهب الفرصة السانحة التى عرضها عليهم الحارث وهى النجاة من القتل أو الأسر ، لذلك أذعنوا وتركوا المدينة وانصرفوا إلى أهلهم ، فدخل المسلمون (هيت) فاتحين .

الشاعر :

يدل شعر عمر الذى وصل إلينا ، أنه كان شاعر الفرسان يقتصر شعره على وصف المعارك . ومن شعره ما قاله فى وصف فتح قرقيسيا[3] :

ونحن جمعنا جمعهم فى حفيرهم ... بهيت ، ولم نحفل لأهل الحفائر[4]

وسرنا على عمدٍ نريد مدينة ... بقرقيسيا سير الكماة المساعر[5]

فجئناهم فى دارهم بغتةً ضحى ... فطاروا وخلوا أهل تلك المحاجر

فنادوا إلينا من بعيد بأننا ... ندين بدين الجزية المتواتر

قبلنا ولم نردد عليهم جزاءهم ... وحطناهم بعد الجزا بالبواتر

---

(١) قرقيسياء : بلد عند ملتقى نهر الخابور بنهر الفرات ، راجع معجم البلدان (٧/٥٩) .

(٢) الطبرى (٣/١٤٣) وابن الأثير (٢/٢٠٣) .

(٣) معجم البلدان (٧/٥٩) .

(٤) الحفائر : جمع حفرة ، وهنا معناها الخندق ، أى أننا لم نكترث لخنادقهم .

(٥) الكماة : جمع كمى وهو الشجاع ، والمساعر : جمع مسعر ، تقول : سعر النار والحرب اى هيجها وألهبها .

هذا مثال واحد من شعر عمر[1] يدل بوضوح على أنه سخر حتى شعره لخدمة الفتح الإسلامى وإثارة روح القتال فى المسلمين ، ويدل على أنه لم يكن شاعرا محترفا يمدح ويقدح حسب الظروف والأحوال ! !

الإنسان :

كان هذا الصحابى الجليل دمث الأخلاق حسن السيرة شهما كريما وفيا شاعرا محبا للناس محبوبا عقائديا مخلصا لعقيدته ورعا طاهرا ذكيا ، أوقف سيفه ولسانه وقلبه لخدمة الإسلام ولإعلاء كلمته .

ولا نعلم أنه أثرى من الفتح أو استغل نفوذه لامتلاك الأراضى والقصور ، وهذا يدل على أنه كان يعمل للمصلحة العامة لا لمصلحته الشخصية .

القائد :

لا يستطيع العسكرى المختص الذى يدرس حركة عمر من (هيت) بنصف قواته إلى (قرقيسياء) بشكل مباغت وتركه نصف قواته للاستمرار فى حصار (هيت) ، ثم وصوله (قرقيسياء) على حين غرة مما أرغم المدافعين عنها للاستسلام ، إلا أن ينحنى إعجاباً لقيادة عمر ولقابليته الفائقة فى إعداد الخطط العسكرية الدقيقة الصحيحة .

إن الدفاع عن (هيت) كان فى الحقيقة هو الخط الأول للدفاع عن (قرقيسياء) ، وكان المدافعون عنها يتوقعون أن يؤخروا المسلمين فى حصارها مدة طويلة ، لمناعة أرض (هيت) أولا ولتيسر خندق حول المدينة ثانياً ،

---

(١) راجع معجم البلدان (٨/٤٨٧) فى مادة (هيت) تجد مثالا آخر من شعر عمر بن مالك الزهرى .

مما يساعدهم على إطالة أمد الدفاع عنها ، ولكن المسلمين تركوا قوة مناسبة من قوتهم وتحركوا إلى هدفهم الأصلى (قرقيسياء) ، فاستطاعوا الوصول إليها فى غرة مما اضطرها على الاستسلام ، وبذلك تقرر مصير (هيت) سلفا ، وهو الاستسلام المحتوم .

ومما يزيدنا إعجابا بقيادة عمر ، أن خطته فى تطويق (هيت) بقسم من قواته ، والحركة بكتمان شديد بالقسم الباقى إلى (قرقيسياء) يطابق أحدث الأساليب العسكرية المتبعة فى الوقت الحاضر ، مما يدل على نضوج الفكرة العسكرية عند العرب قبل أربعة عشر قرنا .

وخطة عمر هذه ، تدل على تشبعه بروح (المباغتة) أهم مبدأ من مبادىء الحرب .

لقد كان عمر شجاعا مقداما سريع القرار صحيحه ، يثق بقواته وتثق به قواته ويبادلهم حبا بحب ، وكان ذا إرادة قوية ثابتة وشخصية نافذة متزنة ، يتحمل المسؤولية من دون تردد ، ويتمتع بمزية سبق النظر والإبداع ، وله ماض ناصع مجيد .

عمر فى التاريخ :

سكت التاريخ عن أيام عمر الأولى، كما سكت عن أيامه الأخيرة بعد الفتح : أين استقر ، وكيف عاش ، وماذا عمل ، ومتى توفى ؟؟ ... إلخ .

وعلى الرغم من أهمية كل ذلك لمن يريد دراسة حياة هذا القائد العظيم ، إلا أن ما ذكره التاريخ له من فتوحات تخلده على الأيام ، ما بقى التاريخ وما بقى

العرب والمسلمون فى المنطقة الواقعة بين الرمادى حتى ملتقى خابور الفرات بنهر الفرات ، وما أعظمها من فتوحات وما أخلد فاتحها فى التاريخ !!!

إن من حق هذا القائد العظيم أن يعرفه العرب والمسلمون فى كل ديار العروبة والإسلام خاصة سكان المنطقة الشاسعة التى فتحها ، وأن يذكروه كلما تكلم الناس بالعربية فى هذه المنطقة وكلما علا صوت المؤذن من فوق منائرها : الله أكبر . .

الحارث بن يزيد العامري (1)

فاتح هيت

الصحابي :

لا يذكر التاريخ شيئاً عن الحارث بن يزيد العامري قبل إسلامه ، كما لا يذكر شيئاً عن موعد إسلامه ولا عن أعماله في زمن الرسول . ولكنه بدون شك أسلم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وكان أحد أصحابه ، لأنه تولى قيادة جيش إسلامي ، وكانوا لا يؤمرون إلا الصحابة [2] ، وخاصة وأنه تولى القيادة في عهد عمر بن الخطاب الذي كان لا يرضى أن يتولاها غير أصحاب النبي .

المجاهد :

١ — الظاهر أن الحارث قام بأعمال لامعة في القتال ، فاستحق أن يتولى القيادة لقسم من جيوش المسلمين مكافأة له على أعماله المجيدة .

إنَّ القائد حينذاك يجب أن يكون صحابياً ، لأن الصحابي أقدم من غيره إسلاماً وأكثر تفهماً له ، ولكن عمر بن الخطاب لم يول كل الصحابة قيادات عسكرية ، بل ولى تلك القيادات البارزين من الصحابة في جهادهم وفي مزاياهم

---

(١) الطبري (٣/١٤٣) والإصابة (١/٣٠٩) ، وابن الأثير (٢/٣٠٣) .
(٢) الإصابة (١/٣٠٩) .

العسكرية . لقد كان عمر يصرّ على تيسر شروط معينة فى القائد بالإضافة إلى صحبته للرسول ، هذه الشروط واضحة فى وصيته لقائد من قادته : « إسمع من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وأشركهم فى الأمر ، ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبيّن ؛ فَإِنها الحرب ، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة والكف[1] » .

٢ — أول ما يذكر التاريخ للحارث ، هو أن عمر بن الخطاب حين علم من سعد بن أبى وقاص ، أن أهل (الجزيرة[2]) أمدوا (هرقل) على أهل (حمص) وبعثوا جنداً إلى أهل (هيت) ، كتب إلى سعد : « إبعث إليهم عمر بن مالك . . . فى جند ، وابعث على مقدمته الحارث بن يزيد العامرى[3] » . فلما وجد عمر بن مالك أن العدو المدافع عن (هيت) قد خندق عليه وأن حصاره قد طال دون جدوى ، قرّر أن يترك نصف قواته للاستمرار فى حصار (هيت) ، وأن يتحرك بنصفها لاحتلال (قَرقِيسياء[4]) ، وترك على رأس القوة المحاصرة لمدينة (هيت) الحارث بن يزيد العامرى .

واحتل عمر بن مالك (قرقيسياء) ، فكتب إلى حارث فى شأن أهل (هيت) : « إن استجابوا فخل عنهم فليخرجوا ، وإلا فخندق على خندقهم خندقاً أبوابه مما يليك ، حتى أرى من رأى[5] » .

---

(١) الطبرى (٢/٦٣١) .

(٢) الجزيرة : هى التى بين دجلة والفرات ، تشمل على ديار مصر وربيعة وديار بكر ... سميت الجزيرة لأنها بين دجلة والفرات . راجع معجم البلدان – لياقوت الحموى – (٣/٩٦) .

(٣) الطبرى (٣/١٤٣) وابن الأثير (٢/٢٠٣) .

(٤) قرقيسياء : بلدة على الخابور وعندها مصب الخابور فى الفرات . أنظر معجم البلدان (٧/٦٠) .

(٥) الطبرى (٣/١٤٣) وابن الأثير (٢/٢٠٣) .

وأرسل الحارث إلى أهل (هيت) أنه سيمضى فى حصارهم حتى النهاية وأنه سيطوق خندقهم بخندق آخر يحتله المسلمون ولا يتزحزحون عنه قبل استسلام (هيت) ، وأن الذين يريدون الانسحاب إلى أهلهم من المدافعين عن (هيت) يستطيعون أن يخرجوا بأمان ؛ فلما أيقن هؤلاء المدافعون عن (هيت) أنه الحصار حتى الموت ، وأن الفرصة سانحة لمن يريد النجاة إلى بلادهم إذا رضوا بتسليم المدينة ، أجابوا الحارث إلى ترك المدينة والعودة إلى بلادهم[1] فدخل الحارث (هيت) وضمها إلى بلاد المسلمين .

الإنسان :

كان الحارث كثير التديّن راسخ العقيدة قوى الإيمان ، وكان كريماً سخياً مضيافاً شهماً وفياً محباً للناس محبوباً من الناس ، وكان شجاعاً مقداماً صبوراً على الشدائد ثابتاً فى الملمات . جمع كل مزايا العربى الأصيل وأضاف إليها بعد إسلامه مزايا المسلم الحق ، فكان مثالاً حياً لشمائل العروبة وخلق الإسلام .

القائد :

أبرز مزايا قيادة الحارث هو الصبر الجميل . إن العرب لم تكن تصبر على حرب الحصار ، وقد كان عدد المشركين الذين حاصروا المدينة المنورة فى غزوة (الخندق) عشرة آلاف راكب وراجل ، وكان عدد المسلمين فى تلك الغزوة ثلاثة آلاف رجل ، ومع ذلك لم يستطع المشركون رغم تفوقهم الساحق عدديا على المسلمين أن يصبروا على حصار المدينة أكثر من شهر واحد ، تفرقوا بعده خائبين .

إنّ مهمة الحصار تحتاج إلى قائد يتميز بالصبر والأناة والروية والانتباه

---

(١) ابن الأثير (٢/٣٠٣) .

الشديد إلى حركات عدوه وسكناته والسهر المتواصل على مراقبة الطرق التقريبية المؤدية للعدو لحرمانه من وصول السلاح والعتاد والمواد الغذائية إليه ، لأن الغفلة عن ذلك تؤدى إلى إطالة أمد الحصار كما تحتاج إلى قوات مدربة تتميز بالضبط الشديد لأن القوات غير المدربة المحرومة من الضبط يتسرب إليها الملل سريعا ، فلا تقوم بواجباتها فى الانتباه واليقظة والسهر وتشديد الحصار ، كما أنها تتسلل سرا وعلانية عائدة إلى مأمنها ، وقد أظهر حصار (هيت) أن القائد وقطعاته كانوا يتمتعون بكل هذه المزايا بشكل مثالى .

وكان الحارث سريع القرار صحيحه ، يثق بقطعاته وتثق قطعاته به ، يتحمل المسؤلية بلا تردد ، يسبق النظر ويحسب لكل شىء حسابه ، له شخصية قوية نافذة وعزيمة صارمة وماضٍ ناصع مجيد .

الحارث فى التاريخ :

أغفل التاريخ ذكر أيام الحارث بعد الفتح ، كما أغفل أيامه الأولى قبل الإسلام ، وربما اعتبرنا مثل هذا الإغفال فى أيامنا هذه اهمالا لما كان يتمتع به الحارث من مزايا إنسانية وعسكرية عالية . ولو كان وحده فى أيامه متميزا بمثل هذه المزايا الرفيعة ، لكان لمزاياه هذه مكان مرموق فى التاريخ ، ولكن أمثاله حينذاك كثير ، لذلك اقتصر التاريخ على ذكر فتوحاته وسكت عن مزاياه الإنسانية ، ولكننا نذكرها اليوم ليكون الحارث أسوة حسنة لشباب العرب والمسلمين ، لأنهم بأمس الحاجة للاقتداء به وبأمثاله حتى يكونوا قادرين على إنجاز مثل أعمالهم ، إذ لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

يكفى أن يذكر التاريخ عنه ، أنه فاتح (هيت) البلد العربى المسلم ، الذى لم ترفرف عليه منذ (الحارث) غير رايات العرب والمسلمين ، وسيبقى عربيا مسلما يذكر الحارث وجيش الحارث ، ويذكر أن أهله اليوم هم أبناء أولئك الأبطال الفاتحين !

قـــادة فتـح
جنـــوب العـــراق

عتبة بن غزوان المازنى

فاتح جنوب العراق والأهواز وأول من مصّر البصرة

إسلامه :

كان عُتْبَةَ بن غَزْوَان أحد السابقين إلى الإسلام ، فقد ذكر فى إحدى خطبه أنه : كان سابع سبعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] . ولما اشتد أذى قريش للمسلمين ، هاجر عتبة مع من هاجر من المسلمين إلى الحبشة[2] ، وهناك اتصل بالمهاجرين : أن قريشاً قد أسلمت ، فانصرف منهم قوم كان عتبة من بينهم[3] حيث عادوا إلى مكة فوجدوا فيها البلاء والأذى على المسلمين ، ولكنهم صبروا إلى أن هاجروا إلى المدينة ، وقد هاجر إليها عتبة رفيقا للمقداد بن عمرو[4] ، ونزل فى المدينة على عباد بن بشر فى داره[5] ، وقيل

---

(١) طبقات ابن سعد (٦/٧) وأسد الغابة (٣٦٥/٣) .

(٢) سيرة ابن هشام (٣٤٦/١) والاصابة (٢١٥/٤) .

(٣) جوامع السيرة لابن حزم (ص ٦٥) وسيرة ابن هشام (٣٨٩/١) .

(٤) الإصابة (٢١٥/٥) ، والمقداد ابن عمرو هو المقداد ابن الأسود الكندى ، صحابى جليل كان قديم الإسلام من الفضلاء النجباء الكبار الخيار من أصحاب النبى . وكان موضع ثقة الرسول وتقديره ، وقد شهد فتح مصر ومات وهو ابن سبعين ودفن بالمدينة . راجع الاستيعاب (١٤٨٠/٤) وطبقات ابن سعد (١٦١/٣) والإصابة (١٣٣/٦) وأسد الغابة (٤٠٩/٤) .

(٥) جوامع السيرة لابن حزم (ص ٧٩) ، وعباد بن بشر الأنصارى من الخزرج شهد بدرا وأحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله ، وجعله النبى على مقاسم حنين واستعمله على حرسه فى تبوك ، وقد شهد يوم اليمامة واستشهد فيها سنة اثنتى عشرة للهجرة وهو يومئذ ابن خمس وأربعين سنة . راجع التفاصيل فى طبقات ابن سعد (٤٤٠/٣) .

نزل على عبد الله ابن سلمة العجلانى[1] ، وآخى الرسول بينه وبين أبي دجانة[2] وفى رواية أنه خرج مع الكفار فى سرية عليها عكرمة بن أبي جهل[3] ، فلقيهم سرية من المسلمين عليها عبيدة بن الحارث[4] ، فالتحق المقداد وعتبة بالمسلمين[5] .

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/٩٩) ، وعبد الله بن سلمة من الأنصار شهد بدرا وأحدا ، واستشهد يوم أحد رضى الله عنه . راجع طبقات ابن سعد (٣/٤٦٨) والإصابة (٤/٨١) وأسد الغابة (٣/١٧٧) والاستيعاب (٣/٩٢٣) .

(٢) طبقات ابن سعد (٣/٩٩) وأبو دجانة هو سماك بن خرشة الخزرجى الأنصارى شهد بدرا وأحدا وثبت يومئذ مع رسول الله وبايعه على الموت ، وكان أبو دجانة من أبرز أبطال المسلمين وهو الذى أعطاه النبي سيفه يوم أحد . قال الرسول : « من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ » فأحجم القوم ، فقال أبو دجانة : « أنا آخذه بحقه » فأخفاه ففلق به هام المشركين . وكان أبو دجانة يعتم فى الزحوف بعصابة حمراء . وبعد النبي شهد أبو دجانة يوم اليمامة وهو فيمن اشترك فى قتل مسيلمة الكذاب ، وقتل أبو دجانة يومئذ شهيدا . راجع طبقات ابن سعد (٣/٥٥٦) وأسد الغابة (٢/٣٥٢) والاستيعاب (٢/٦٥١) .

(٣) ستردّ ترجمته ، لأنه أصبح من قادة الفتح الإسلامى فيما بعد .

(٤) عبيدة بن الحارث بن عبد مناف ابن قصى ، أسلم قبل دخول رسول الله دار الأرقم وقبل أن يدعو فيها . هاجر إلى المدينة وعقد له النبي لواء ، وقد استشهد يوم بدر وله من العمر ثلاث وستون سنة . راجع طبقات ابن سعد (٣/٥٠) .

(٥) أسد الغابة (٣/٣٦٤) وجوامع السيرة (ص ١٠١) وطبقات ابن سعد (٣/١٦١) ، وفيها أنه هاجر مع المقداد بن عمرو وكانا من السابقين ، وإنما خرجا مع الكفار يتوصلان إلى المدينة ، وكان الكفار سرية عليهم عكرمة بن أبي جهل ، فلقيهم سرية من المسلمين عليهم عبيدة بن الحارث ، فالتحق المقداد وعتبة بالمسلمين . . . الخ أنتهى ! ! .

ولست أميل إلى تصديق هذه الرواية على الرغم من إجماع المصادر التى بين أيدينا على ترديدها ، لأنهما مسلمان قديمان معروفان كل المعرفة من قريش ، ولا يمكن أن يجهل المشركون إسلامهما ، فكيف يخرجان مع المشركين دون أن يعرفهما أحد ؟

إننى أعتقد أنهما هاجرا إلى المدينة سرا كما هاجر إليها غيرهم من المسلمين ، وهذا ما يقره المنطق السليم .

جهاده :

(أ) مع النبي :

بعث النبي في السنة الثانية للهجرة ثمانية فرسان من المهاجرين بقيادة عبد الله ابن جحش الأسدي[1] ، كان أحدهم عتبة[2] ، وكان هؤلاء من الفدائيين (المغاوير) ، لذلك اختارهم الرسول من أبطال المهاجرين المعروفين ، لأن واجبهم كان خطيراً وخطرا للغاية .

وقاتل عتبة تحت لواء النبي في غزوة بدر الكبرى[3] وأبلى فيها أحسن البلاء ، كما قاتل تحت راية النبي في كل غزواته[4] ، فكان من المسلمين الأولين الذين شاركوا النبي في جهاده وأعانوه على حماية حرية انتشار الإسلام .

٢ — في الفتح :

(أ) الغازي

بذل عتبة أقصى جهده في مقاتلة المرتدين ، فلما عادت رايات المسلمين ترفرف على كافة البلاد العربية داخل شبه الجزيرة العربية ، سار عتبة إلى العراق لجهاد الفرس ، فقاتل تحت لواء سعد بن أبي وقاص في القادسية

---

(١) عبد الله بن جحش الأسدي : أمه أميمة بنت عبد المطلب بن هاشم . أسلم قبل دخول الرسول دار الأرقم ، وهاجر إلى الحبشة ثم عاد إلى مكة وهاجر إلى المدينة ، وقد أمره النبي على جماعته وأرسلهم إلى نخلة ومعهم رسالة مكتومة . وقد شهد بدرا واستشهد في يوم أحد ، ودفن مع حمزة بن عبد المطلب وهو خاله في قبر واحد . راجع طبقات ابن سعد (٣/٨٩) وأسد الغابة (٣/١٣١) .

(٢) سيرة ابن هشام (٢/٣٢٧) .

(٣) طبقات بن سعد (٣/٩٩) والاستيعاب (٣/١٠٢٦) .

(٤) أسد الغابة (٣ /٣٦٤) .

وفى المعارك الأخرى حتى تم للمسلمين فتح المدائن ووصلت خيولهم إلى حلوان على محور ديالى وإلى شمال الموصل على محور دجلة وإلى قرقيسياء على محور الفرات[1] ، عند ذاك كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص : أن يبعث عتبة بن غزوان إلى منطقة البصرة[2] ، وقال عمر عن عتبة : « فإن له من الإسلام مكانا ، فقد شهد بدرا وقد رجوت جزءه عن المسلمين[3] » ، فدعا سعد بن أبى وقاص عتبة وأخبره بكتاب عمر ، فخرج من الكوفة فى ثمانمائة رجل[4] ، فساروا حتى نزلوا البصرة حيث ضربوا أخبيتهم وخيامهم وأخذ عمر يوالى إرسال الامدادات إلى عتبة ، فلما كثر المسلمون بنى رهط منهم بيوتا من لبن[5] فى موضع البصرة الحالى .

(ب) الفاتح :

حين وجه عمر عتبة إلى منطقة البصرة ، أوصاه : « يا عتبة ! إنى قد استعملتك على أرض الهند[6] ، وهى حومة من حومة العدو أرجو أن يكفيك الله ما حولها ويعينك عليها ، وقد كتبت إلى العلاء الحضرمى أن يمدك بعرفجة ابن هرثمة ، وهو ذو مجاهدة ومكايدة للعدو ، فإذا قدم عليك فاستشره ، وادع إلى الله ، فمن أجابك فاقبل منه ، ومن أبى فالجزية ، وإلا فالسيف »[7] ،

---

(١) الطبرى (٣ / ٩٠) .

(٢) ابن الأثير (٢/١٨٨) .

(٣) طبقات ابن سعد (٧/٦) .

(٤) طبقات ابن سعد (٧/٦) ويذكر الطبرى فى (٣/٩٠) أن عددهم كان خمسمائة رجل .

(٥) طبقات ابن سعد (٧/٦) .

(٦) منطقة البصرة يومذاك كان يطلق عليها (أرض الهند) راجع ابن الأثير (٢/١٨٨) .

(٧) الطبرى (٣/٩٢) وابن الأثير (٢/١٨٨) والاستيعاب (٣/١٠٢٧) .

فلما وصل عتبة إلى منطقة البصرة ، أقام فيها نحو شهر ، ثم خرج إليه أهل (الأُبُلّة)[1] فقاتلهم ، وجعل قطبة بن قتادة السدوسى[2] وقسامة بن زهير المازنى[3] فى عشرة فوارس ، وقال لهم : « كونا فى ظهرنا ، فتردان المنهزم ، وتمنعان من أرادنا من ورائنا » ولكن المعركة بين المسلمين والفرس لم تستمر غير وقت قصير حتى انهزم الفرس ، فدخل المسلمون (الأبلة) وأصابوا فيها متاعا وسلاحا ومالا كثيراً[4] .

وعلم عتبة بتحشد أهل (دَسْتُميسَان)[5] لقتال المسلمين ، فبادر إلى قتالهم وهزمهم وأسر قائدهم[6] ، كما أنه فتح (مَيْسَان) أيضاً[7] .

وتحرج موقف قوات العلاء بن الحضرمى فى الأهواز ، إذ طوق الفرس

---

(١) الأبلة : مدينة كانت مرفأ السفن القادمة من الصين . راجع الطبرى (٩٣/٣) وهى واقعة جنوب البصرة القديمة بمسافة خمسة عشر ميلا وجنوب مدينة أبى الخصيب الحالية بحوالى ميلين ، وهى ليست مدينة أبى الخصيب كما جاء فى كتاب (أخبار عمر) للأستاذين على وناجى الطنطاوى . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٨٩/١) .

(٢) قطبة بن قتادة : صحابى جليل وفد على الرسول صلى الله عليه وسلم وبايعه . استخلفه خالد بن الوليد على منطقة البصرة سنة اثنتى عشرة للهجرة ولم يزل بأرض البصرة حتى قدم عليه عتبة بن غزوان . راجع الاستيعاب (١٢٨٢/٣) وأسد الغابة (٢٠٦/٤).

(٣) قسامة بن زهير : صحابى جليل كما جاء فى الإصابة (٢٠٤/٤) ومن التابعين كما جاء فى طبقات ابن سعد (١٥٢/٧) وكان ثقة توفى فى ولاية الحجاج بن يوسف الثقفى .

(٤) الطبرى (٩٣/٣) والبلاذرى (ص ٣٣٧) .

(٥) دستميسان : كورة جليلة بين واسط والبصرة والأهواز ، وهى إلى الأهواز أقرب ، وقيل دستميسان كورة قصبتها الأبلة ، فتكون البصرة من هذه الكورة . راجع معجم البلدان (٥٩/٤) .

(٦) طبقات ابن سعد (٧/٧) .

(٧) ميسان كورة واسعة كثيرة القرى والنخيل بين البصرة وواسط . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٢٢٤/٨) .

قوات المسلمين فلم يستطيعوا الانسحاب عن طريق البحر إلى قاعدتهم فى (البحرين) ، فأرسل عمر إلى عتبة يأمره بإنفاذ جيش كثيف إلى المسلمين بفارس قبل أن يهلكوا ، فأرسل عتبة جيشاً كثيفاً فى اثنى عشر ألف مقاتل فيهم عاصم ابن عمرو التميمى وعرفجة بن هرثمة البارق والأحنف بن قيس وغيرهم ، فخرجوا على البغال يجنبون الخيل وعليهم أبو سبرة بن أبى رهم[1] ، فسار بالناس يساحل بهم حتى التقى بقوات الفرس ، فهزمهم وأنقذ جيش العلاء ابن الحضرمى وعاد بقواته إلى البصرة سالماً غانماً[2] .

ولكن عتبة عاد وأرسل قوات إلى منطقة الأهواز واستمد سعد بن أبى وقاص ، فأمده بنُعَيْم بن مقرن المزنى ونعيم بن مسعود ، وبذلك استطاع عتبة فتح منطقة الأهواز[3] .

الإنسان :

لما فتح عتبة الأهواز ، استأذن عمر فى الحج ، فأذن له ، فلما قضى حجه ، استعفاه من منصبه على البصرة ، فأبى عمر أن يعفيه وعزم عليه أن يرجع إلى عمله[4] ، فلماذا أراد عتبة أن يستقيل من منصبه الرفيع ؟

---

(١) عاصم بن عمرو التميمى ، وعرفجة بن هرثمة البارق والأحنف بن قيس وأبو سبرة بن أبى رهم ، كلهم من قادة الفتح الإسلامى لهم تراجم خاصة فى كتابنا : (قادة الفتح الإسلامى) .

(٢) ابن الأثير (٢/٢٠٩) والطبرى (٣/١٧٨) .

(٣) ابن الأثير (٢/٢١٠) ونعيم ابن مقرن من قادة الفتح الإسلامى له ترجمة خاصة فى كتابنا : (قادة الفتح الإسلامى) . أما نعيم بن مسعود ، فهو الذى هاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى يوم الخندق ، وهو الذى خذّل المشركين وبنى قريظة حتى صرف الله المشركين . سكن المدينة ومات فى خلافة عثمان . راجع التفاصيل فى الاستيعاب (٤/١٥٠٩) .

(٤) الإصابة (٤/٢١٥) وابن الأثير (٢/٢٠٩) .

لقد شعر عتبة أنه أنجز واجبه على أتم وجه ، فلم يعد لبقائه فى منصبه مسوّغ ، وكان كثير من السلف الصالح يتهربون من المناصب ورعا وخوفا من الوقوع فى الأخطاء .

كان عتبة من السابقين للإسلام ومن المهاجرين الأولين ، وكان من أُولئك الذين يعتبرون أرفع المناصب تكليفاً لهم لا تشريفاً . لذلك استقال من منصبه وأصر على استقالته بعد أن شعر أنه لا مبرر لبقائه فيه بعد إكمال واجبه[1] .

وكان عتبة متواضعاً أشد التواضع[2] . خطب مرة فى البصرة وهو أمير عليها قائلا : « لقد رأيتنى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سابع سبعة ما لنا طعام إلا ورق البشام وشوك القتادة[3] ، حتى قرحت أشداقنا . ولقد

---

(١) جاء فى طبقات ابن سعد (٨/٧) عن سبب استقالة عتبة : أن سعد ابن أبى وقاص كان يعتبر عتبة عامله على البصرة ، فوجد من ذلك عتبة ، فلما قدم على عمر ، شكا إليه تسلّط سعد عليه : فسكت عمر ، فأعاد ذلك عتبة مرارا ، فلما أكثر على عمر ، قال له : « وما عليك يا عتبة أن تقرّ بالأمر لرجل من قريش له صحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشرف ؟ » . قال له عتبة : ألست من قريش ؟ ! ... قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حليف القوم منهم ، ولى صحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قديمة لا تنكر ولا تدفع » . فقال عمر : « لا ينكر ذلك من فضلك ! » فقال عتبة : « أما إذا صار الأمر إلى هذا ، فوالله لا أرجع إليها أبدا ! » فأبى عمر إلا أن يرده إليها ، فردّه ، فمات فى الطريق .. انتهى قول ابن سعد .

ولست أشك أن سبب استقالته هذا غير وارد ، لأن عتبة لم يكن يعمل لنفسه بل كان يعمل لله . لهذا لم يذكر هذه الرواية الثقات . راجع الاستيعاب (١٠٢٦/٣) والإصابة (٢١٥/٤) وأسد الغابة (٣٦٣/٣) والطبرى (٩٥/٣) وابن الأثير (٢٠٩/٢) . أقول : وكان عتبة حليفا لبنى عبد شمس أو بنى نوفل من قريش . راجع الإصابة (٢١٥/٤) .

(٢) الاصابة (٢١٥/٤) .

(٣) البشام : شجر طيب الريح يستاك به . والقتاد : شجر له شوك . راجع مختار الصحاح (ص ٥٤) . الطبعة الخامسة .

التقطت بُرْدَة[1] يومئذ ، فشققتها بيني وبين سعد بن أبي وقاص ، ولقد رأيتنا بعد ذلك وما منا أيها الرهط السبعة إلا أمير على مصر من الأمصار[2] » .

ومن أعماله الخالدة ، أنه مصّر البصرة واختطها وبنى المسجد بقصب[3] ، وأسكنها من تميم والأزد[4] ومن كافة القبائل العربية الأخرى ، وقد تم بناء البصرة سنة سبع عشرة للهجرة[5] .

وكان كريما مضيافا شهما غيورا مؤمنا صادق الإيمان ، روى أربعة أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[6] وكان يكنى أبا عبد الله ويكنيه بعضهم أبا غزوان[7] ، وكان رجلا طويلا جميلا ، وكان من الرماة المعدودين من أصحاب النبي[8] .

لقد كان عمره حين هاجر إلى المدينة أربعين سنة ، فيكون مولده قبل الهجرة بأربعين عاما (٥٨٤ م) ، وتوفي سنة سبع عشرة (٦٣٨ م) وهو بن سبع وخمسين[9] ، وكان عمله على البصرة ستة أشهر[10] .

---

(١) بردة : كساء أسود مربع فيه صفر تلبسه الأعراب ، والجمع برد . راجع مختار الصحاح (ص ٤٧) .

(٢) طبقات ابن سعد (٧/٧) والبيان والتبيين (٢/٥٧) والعقد الفريد(٢/٢٨٦) مع اختلاف في اللفظ .

(٣) طبقات ابن سعد (٣/٩٩) و (٧/٥) .

(٤) طبقات ابن سعد (٧/٦) .

(٥) مجمل فتوح الإسلام لابن حزم ملحق بجوامع السيرة ص (٣٤٥) .

(٦) أسماء الصحابة الرواة لابن حزم ـ ملحق بجوامع السيرة (ص ٢٩٠)

(٧) طبقات ابن سعد (٣/ ٩٨) .

(٨) طبقات ابن سعد (٣/٩٩) وأسد الغابة (٣/٣٦٤) .

(٩) طبقات ابن سعد (٣/٩٩) وابن الأثير (٢/٢٠٩).

(١٠) طبقات بن سعد (٧/٨).

القائد

كان عتبة من القادة الذين يتحينون الفرص المناسبة للقتال ، ولا يزجون قواتهم فى قتال غير مأمون العواقب ولا مضمون النتائج ، لذلك كانت كل معاركه معارك فرص مؤاتية اهتبلها ، أو بطلب من الخليفة نفذ فيها الأوامر حرفياً .

إنه قائد متبع لا مبتدع ، دفاعى لا تعرضى ، لهذا كانت خسائره قليلة جداً بالنسبة للفتوحات التى أجراها فى أيامه القصيرة عند توليه إمارة البصرة .

لقد كان قائداً عقائديا يعمل لعقيدته ويخاف الله عليها ويبالغ بهذا الخوف . . وكان يعتبر منصبه قائداً وأميراً تكليفا له يتحين الفرص للتخلص منه ، ولا يعتبره تشريفا يباهى به ويحرص عليه .

ولولا شدة خوفه من الله أن يقصر فى عمله ، ولولا شدة حرصه على أرواح المسلمين ، لكان من أبرز قادة الفتح الإسلامى ، لأنه كان يتمتع بقابلية إصدار القرارات الصحيحة السريعة ، وكان شجاعا مقداما له إرادة قوية ونفسية لا تتبدل . يثق به رجاله ويثق بهم ويحبونه ويحبهم ، له شخصية قوية نافذة وماض ناصع مجيد .

عتبة فى التاريخ

يذكر التاريخ لعتبة جهاده المرتدين ، وجهوده المشرفة فى الفتح الإسلامى .

فقد كان له أثر كبير فى إعادة المرتدين من أهل عمان ومهرة إلى الاسلام ، تلك البلاد العربيــة التى أصبحت قاعدة عسكرية متقدمة لإمداد الفاتحين بالرجال والمواد .

وهو الذى فتح العراق الجنوبى والأهواز ، فنشر فيها رايات الإسلام قبل أربعة عشر قرنا . . . وإلى الأبد .

ولكن عتبة يذكر دائماً عندما تذكر مدينة (البصرة) التى كان أول من مصرها ، فأمدت العالم الإسلامى منذ مصّرها حتى اليوم بسيول جارفة من قادة الفتح والفاتحين وصلوا إلى حدود الصين . . . وبسيول جارفة من قادة الفكر والعلماء والأدباء والمفكرين وأصحاب الورع والتقوى ، فكانت هذه المدينة من أعظم قواعد الفتح الإسلامى ، ومن أغزر مصادر الفكر العربى والتراث الإسلامى .

رضى الله عن القائد الورع الصحابى الجليل عتبة بن غزوان المازنى .

المغيرة بن شعبة الثقفي

فاتح مَيْسَان[1] وَدَسْتُمَيْسَان[2] وأَبَزْقُبَاذ[3]

من جنوبي العراق

« دهاة العرب أربعة : معاوية بن أبي سفيان
وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة وزياد »
(الشعبي)

نسبه وأيامه الأولى :

هو المُغِيرَةُ بن شُعْبَةَ بن أبي عامر بن مسعود بن مُعَتِّب الثقفي ، وأمه أسماء بنت الأفقم[4] من بني نصر بن معاوية[5] ، ويكنى أبا عيسى أو أبا محمد أو أبا عبد الله[6] .

---

(١) ميسان : كورة واسعة كثيرة القرى والنخيل بين البصرة ومدينة واسط . أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٢٢٤) .

(٢) دستميسان : كورة جليلة بين واسط والبصرة والأهواز ، وهي إلى الأهواز أقرب ، وقيل : دستميسان كورة قصبتها الأبلة . راجع معجم البلدان (٤/٥٩) .

(٣) أبزقباذ : موضع يجاور ميسان ودستميسان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/٨٣) .

(٤) طبقات ابن سعد (٦/١٣١) والاستيعاب (٤/١٤٤٥) ، أنظر جمهرة أنساب العرب (٢٥٥) .

(٥) الاستيعاب (٤/١٤٤٥) .

(٦) الإصابة (٦/١٣١) .

وكان فى الجاهلية يسكن (الطائف) ، وكان من سدنة (اللاَّت)[1] ومن أشراف ثقيف ، وهو ابن أخ عُرْوَة بن مَسْعُود[2] أحد رؤساء ثقيف البارزين .

وقد سافر قبل إسلامه إلى مصر برفقة جماعة من بنى مالك من ثقيف ، فلما دخل (الإسكندرية) رأى المقوقس فى مجلس مطل على البحر ، فركب زورقاً حاذى به مجلسه ، فلفت نظر المقوقس إليه ، فأمر رجلاً من رجاله أن يسأله عن هويته ، فلما عرفه وعرف أصحابه أمر أن ينزلوا فى كنيسة وأجرى عليهم ضيافة ، ثم دعاهم فدخلوا عليه وقدموا له هداياهم ، فسر بها وأمر باستلامها ، ثم أمر لهم بجوائز .

وفى طريق عودتهم إلى الحجاز ، كانوا يعاقرون الخمرة ، فاغتال المغيرة أصحابه وأخذ جميع ما كان معهم من مال[3] .

لقد كان شاباً من شباب العرب فى أيامه . مشركاً يعاقر الخمرة ، يحب المقامرة ولا يحجم حتى عن القتل غدراً فى سبيل استلاب المال .

مع النبى :

قدم المغيرة على النبى صلى الله عليه وسلم مُسْلِماً بعد اغتياله رفقاء سفره إلى مصر ، فعرفه أبو بكر الصديق وسأله : « أمن مصر أقبلتم ؟ » ، فأجابه : « نعم ! . . . » ، فقال أبو بكر : « فما فعل المالكيون الذين كانوا معك ؟ » ، فأجابه : « كان بينى وبينهم بعض ما يكون بين العرب ونحن على دين الشرك ،

---

(1) اللات : صخرة مربّعة كانت قريش وجميع العرب تعظمها ، وكان سدنتها من ثقيف ، وبها كانت العرب تسمى : زيد اللاّت وتيم اللاّت ، وهى التى ذكرها الله فى القرآن الكريم فقال : (أفرأيتم اللاّت والعزىّ) . أنظر كتاب الأصنام ص (١٦) للكلبى .

(2) المعارف ص (٢٩٤)

(3) أنظر تفاصيل هذه القصة فى طبقات ابن سعد (٤/٢٨٤) .

فقتلتهم وأخذت أسلابهم وجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخمسها أو يرى فيها رأيه ، فإنما هي غنيمة من مشركين وأنا مُسْلِم مصدّق بمحمد » ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أما إسلامك فقبلته ، ولا آخذ من أموالهم شيئاً ولا أخمّسه ، لأن هذا غدر ، والغدر لا خير فيه[1] » .

كان إسلامه عام الخندق[2] ، وكانت الحُدَيْبِيّةِ أول مشاهده[3] ، فشهد بيعة الرضوان[4] ، وكان واقفاً على رأس النبي صلى الله عليه وسلم بالسيف يوم الحديبية[5] ، أي أنه كان من حرس الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي تلك الغزوة بعثت قريش عُرْوَة بن مسعود عم المغـيرة[6] ليفاوض النبي صلى الله عليه وسلم ، فجعل عروة يتناول لحية النبي صلى الله عليه وسلم وهو يكلمه ، وجعل المغيرة يقرع يد عُروة إذا تناول لحيـة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : « أكفف يدك عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن لا تصل إليك ! » ، فقال عروة : « ويحك ما أفظك وأغلظك ! ! » ، فتبسم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال له عروة : « من هذا يا محمد ؟ » ، فقال : « هذا ابن أخيـك المُغيرة بن شُعْبَة » ، قال : « أي غُدَرُ ! وهل غسلت سوأتك إلا بالأمس ؟[7] » ، فلما عاد عروة إلى قريش ، وقد رأى إخلاص

---

(١) طبقات ابن سعد (٤/٢٨٦) .

(٢) أسد الغابة (٤/٤٠٦) وشذرات الذهب (١/٥٦) .

(٣) طبقات ابن سعد (٦/٢٠)

(٤) الإصابة (٦/١٣١) وجمهرة أنساب العرب (٢٥٥) .

(٥) جوامع السيرة لابن حزم ص (٢٨) والأغاني (١٤/٣١٥) .

(٦) المعارف ص (٢٩٤) .

(٧) سيرة ابن هشام (٣/٣٦٢) والأغاني (١٤/٣١٥) . وغزوة الحديبية كانت في السنة السادسة للهجرة ، وبين الحديبية ومكة مرحلة واحدة ، وكان عروة قد ودى المقتولين وعددهم ثلاثة عشر رجلا الذين قتلهم المغيرة من بني مالك من ثقيف ، إذ تهايج =

أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن بينهم ابن أخيه لنبيهم ، قال لقريش : « يا معشر قريش ! إني جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشي فى ملكه ، وإني والله ما رأيت مَلِكاً فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه : لا يتوضأ إلا ابتدروا[1] وضوءه ، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه ، وإنهم لن يسلموه لشيء أبداً ، فروا رأيكم[2] » ، وكان للمغيرة أثر معنوى كبير على نفسية عمه الذى عكس شعوره بصراحة لقريش .

وشهد المغيرة بعد الحديبية كافة غزوات الرسول القائد ، وكان معه فى غزوة (حُنَين) وحصار الطائف بلد المغيرة ، وفى هذه الغزوة وجد أحد الأنصار رجلاً مقتولاً من ثقيف وهو أغرل[3] ، فصاح بأعلى صوته : « يا معشر العرب ! يعلم الله أن ثقيفاً غُرْل » ! . قال المغيرة : « فأخذت بيده ، وخشيت أن تذهب عنا فى العرب ، فقلت : لا تقل ذاك فداك أبي وأمي ، إنما هو غلام لنا نصراني ! » ثم جعل المغيرة يكشف عن القتلى ويقول له : « هاهم مختتنين كما ترى ؟ ![4] » .

ولما طوّق المسلمون مدينة الطائف وضيّقوا عليها الحصار ، تقدم أبو سفيان بن حرب والمغيرة إلى الطائف ، مناديا ثقيفاً : أن أمنونا حتى نكلمكم . . . فأمنوهما ، فدعوا نساء من نساء قريش وبنى كنانة ليخرجن إليهما وهما يخافان

= الحيان من ثقيف : بنى مالك رهط المقتولين ، والأحلاف رهط المغيرة ، فودى عروة المقتولين ثلاثة عشرة دية وأصلح ذلك الأمر . وهذا ما أراد عروة بقوله : « هل غسلت سوأتك إلا بالأمس ! » أى أقلت عثرتك وأصلحت خطأك !

(١) ابتدروا أمراً : بادر بعضهم بعضا إليه ، أيهم يسبق إليه فيغلب .

(٢) سيرة ابن هشام (٣/٣٦٣) .

(٣) أغرل : أى غير مختتن ، والغرلة هى الجلدة التى يقطعها الخاتن .

(٤) سيرة ابن هشام (٤/٨٠) .

عليهن السباء ، ولكنهن أبين الخروج[1] مفضلات البقاء مع رجالهن وذويهن على النجاة بأنفسهن .

إن قتال المغيرة لقومه ثقيف فى الطائف عقر دارهم ، دليل على شدّة إخلاصه لعقيدته الجديدة ؛ ومع هذا ، فهو يحرص على سمعة قومه ومصيرهم ما دام ذلك لا يمس جوهر عقيدته بسوء .

ولما قدم وفد ثقيف على النبي صلى الله عليه وسلم لقيهم المغيرة حين دنوا من المدينة ، فأسرع ليبشّر النبى صلى الله عليه وسلم بقدومهم عليه ؛ ولكن أبا بكر الصديق لقيه فى الطريق قبل أن يدخل على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له أبو بكر : « أقسمت عليك بالله لا تسبقنى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم » ؛ ودخل أبو بكر وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بقدوم وفد ثقيف[2] .

وعاد وفد ثقيف إلى قومهم ، فوجّه النبى صلى الله عليه وسلم معهم أبا سفيان ابن حرب والمغيرة ليقوما بهدم (اللات) صنم ثقيف ، فأنجز المغيرة هذا الواجب بكل دقة : دخل المغيرة على هذا الصنم وشرع فى هدم هذا الطاغية ، وأقام قومه دونه خشية أن يُرمى ؛ وخرج نساء ثقيف حُسّراً يبكين اللات وينُحنَ عليها . وبعد هدمها أخذ المغيرة مالها وحليها ، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا المال دين عروة بن مسعود ودين رجل آخر من ثقيف[3] .

ولما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حضر المغيرة دفنه ، فكان

---

(١) سيرة ابن هشام (١٢٨/٤) . (٢) سيره ابن هشام (١٩٦/٤) .

(٣) جوامع السيره لابن حزم ص (٥٢٨) ، وفى معجم البلدان (٣١٠/٧) : أن المغيرة هدم اللات وحرقها بالنار .

يدّعي أنه أحدث النـاس عهداً برسـول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : « أخذت خاتمي فألقيته في القبر ، وقلت : إنّ خاتمي سقط مني ؛ وإنما طرحته عمداً لأمس رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، فأكون أحدث النـاس به عهداً »[1] ؛ ولـكن بعض شهود العيان الذين حضروا دفن النبي صلى الله عليه وسلم ذكروا : أن المغيرة ألقى في قبر النبي صلى الله عليه وسلم بعـد أن خرجوا منه خاتمه لينزل فيه ، فقال علي بن أبي طالب : « إنما ألقيت خاتمك لـكي تنزل فيه فيقال : نزل في قبر النبي صلى الله عليه وسلم ! والذي نفسي بيده لا تنزل فيه أبداً » ومنعه[2] . وذكر بعضهم أن علياً قال للمغيرة : « لا يتحدّث الناس أنك نزلت فيه ، ولا يتحدّث الناس أن خاتمك في قبر النبي صلى الله عليه وسـلم » . ونزل علي وقد رأى موقع الخـاتم ، فتناوله ودفعه إليـه[3] .

وقد أجاب علي بن أبي طالب بنفسه عن سؤال نفر من أهل العراق سألوه عن حقيقة هذه القصة ، فقال : « أحدث الناس عهـداً برسول الله صلى الله عليه وسلم قُثَم بن العباس[4] » . لقد أراد المغـيرة أن يستأثر بهذه المكرمة فيذكرها الناس له ، ويذكرها هو الناس . لقد كان طموحاً يحب دائماً أن يتميز على أقرانه بالحمد والثناء وبالمناصب الرفيعة .

جهاده :

قاتل المغيرة في حروب الردة تحت لواء خالد بن الوليد ، فشهد معركة

---

(١) سيرة ابن هشام (٤/٣٤٤) . (٢) طبقات ابن سعد (٢/٣٠٢) .
(٣) طبقات ابن سعد (٢/٣٠٣) . (٤) سيرة ابن هشام (٤/٣٤٥) .

(اليمامة)[1] ضد مسيلمة الكذاب ؛ وتوجّه مع خالد إلى العراق فقاتل تحت لوائه هناك فلما نُقل خالد من العراق إلى أرض الشام كان المغيرة معه فشهد تحت لوائه معركة (اليرموك) وفيها ذهبت عينه[2] ، كما شهد بعض فتوح الشام[3] .

وعاد المغيرة إلى المدينة المنورة ، وقبيل معركة القادسية كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب يستمدّه ، فبعث إليه عمر المغيرة على رأس أربعمائة رجل مدداً من المدينة[4] ؛ فلما وصل العراق أرسله سعد على رأس خمسمائة رجل إلى منطقة (الأُبُلَّة)[5] ليكون قوة ساترة تحمى تحشد المسلمين من خطر عدو يهددها من تلك المنطقة ، ولكن سعداً سحب المغيرة وقوته وضمّها إلى قواته الأصلية قبيل معركة (القادسية) .

وقاتل المغيرة تحت لواء سعد فى معركة القادسية[6] ، وكان له أثر بطولى فى هذه المعركة — ولكن من نوع آخر — هو الأفادة من عقليته الراجحة وتفكيره الناضج فى مفاوضة كسرى وقادته[7] ، تلك المفاوضات التى أمّنت انتصاراً معنوياً باهراً للمسلمين على الفرس قبل نشوب القتال .

فقد أرسله سعد مع نفر من ذوى المنظر والمهابة والرأى إلى كسرى[9] ،

---

(١) الاصابة (٦/١٣١) . (٢) أسد الغابة (٤/٤٠٧) .

(٣) المعارف ص (٢٩٥) . (٤) الطبرى (٣/٧٥) .

(٥) الأبلة : مدينة كانت مرفأ للسفن القادمة من الصين . راجع الطبرى (٣/٩٣) وهى واقعة جنوب البصرة القديمة بمسافة خمسة عشر ميلا وجنوب مدينة أبى الخصيب الحالية بحوالى ميلين . راجع معجم البلدان (١/٨٩) .

(٦) الطبرى (٣/٨) . (٧) المعارف ص (٢٩٥) .

(٨) ابن الأثير (٢/١٧٥) . (٩) الطبرى (٣/١٥) .

ولما عاد هذا الوفد المفاوض ، أرسله سعد وحده إلى رستم القائد العام للقوات الفارسية ، فأقبل المغيرة حتى جلس مع رستم على سريره ، فوثب عليه رجال رستم وأنزلوه ؛ فقال لهم : « قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام ، ولا أرى قوماً أسفه منكم . إنّا معشر العرب لا نستعبد بعضنا بعضاً ، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى ؛ فكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض . . . » فقال عامة الناس صدق والله العربى . وقال رؤساؤهم : « والله لقد رمى بكلام لا زال عبيدنا ينزعون إليه[1] ! » . . . وبذلك أثار المغيرة بين العامة من جهة وبين الخاصة من جهة أخرى نعرات تفرق كلمتهم ؛ وتفريق الكلمة — خاصة فى ساحة القتال — ، سلاح من أخطر الأسلحة وأشدها فتكاً .

وقبل نشوب القتال بين المسلمين والفرس فى القادسية ، أرسل سعد إلى الذين انتهى إليهم رأى الناس والذين انتهت إليهم نجدتهم ، فكان منهم من ذوى الرأى المغيرة ، وقال سعد لهم : « انطلقوا فقوموا فى الناس بما يحق عليكم ويحق عليهم عند مواطن البأس ، فأنكم من العرب بالمكان الذى أنتم به ، وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم ، فسيروا فى الناس فذكّروهم وحرّضوهم على القتال[2] » ، فكان المغيرة أحد البارزين الذين حرّضوا الناس على القتال ودفعوهم إلى التضحية والفداء يومذاك .

ولما تولى عُتبة بن غَزْوان المازنى أمر فتح منطقة البصرة ، سار المغيرة معه إليها وقاتل تحت لوائه فى المعارك التى خاضها لتطهير العراق الجنوبى من

(١) الطبرى (٣/٣٦) وابن الأثير (٢/١٧٩) .
(٢) الطبرى (٣/٤٥) .

الفرس[1] ، فشهد فتح (الأُبُلّة) وفتح هو (مَيْسَان) و (دَسْتُمَيْسَان) و (أَبَزْقُبَاذ)[2] .

ولما توجّه عُتْبَة بن غَزْوان لأداء فريضة الحج ، استخلف المغيرة على الصلاة في البصرة إلى أن يقدم مُجاشع بن مسعود من غزوته فيتولى الإمارة . وانتصر مجاشع على الفرس في منطقة الفرات الجنوبي ، ولكن أحد قادة الفرس استطاع أن يحشد قوة كبيرة يهدّد بها جيش مجاشع ، فخرج المغيرة من البصرة على رأس جيش من المسلمين فلقي الفرس وانتصر عليهم ؛ فكتب إلى عمر ابن الخطاب بهذا النصر ، فقال عمر لعتبة : « من استعملت على البصرة ؟ » ، فقال : « مجاشع بن مسعود » ، فقال عمر : « أتستعمل رجلا من أهل الوَبَر على رجل من أهل المَدَر ؟[3] » ، ثم أخبره بما كان من المغيرة[4] الذي أنقذ جيش مجاشع من خطر داهم .

لم يكن انتصار المغيرة على الفرس يسيراً ، فقد اشتدّ القتال بين الطرفين ، وكانت القوات الفارسية متفوقة عددياً على المسلمين ، كما أن الفرس استماتوا في المعركة ، وأنهم لكذلك إذ رأوا كتيبة مقبلة حسبوها مدداً للمسلمين ، فتضعضعت معنوياتهم وانهزموا ، ولم تكن تلك الكتيبة إلا نساء المسلمين

---

(١) الطبري (٣/٩٢) . (٢) المعارف (٢٩٥) .

(٣) الطبري (٣/٩٤) وابن الأثير (٢/١٨٩) . والوبر : بفتحتين غطاء جلد البعير ويطلق على البعير أيضا ، واحدتها : وبرة . والمدر : بفتحتين أيضاً جمع مدرة وهي القرية . يريد عمر : أتستعمل أعرابياً على حضري ؛ أو ، أتستعمل رجلا من أهل البادية على رجل من أهل الحاضرة ، على اعتبار أن أهل الحاضرة أعرق مدنية وأعرف بالسياسة والإدارة من أهل البادية .

(٤) الطبري (٣/٩٣) وابن الأثير (٢/١٨٩) .

خرجن من أخبيتهن واتخذن من خمرهنّ رايات وسرن يردن معاونة الرجال ! [1] .

ولما مات عُتبة فى طريق عودته من الحجاز إلى العراق ، استعمل عمر بن الخطاب على البصرة المغيرة خلفاً لعتبة [2] .

وشهد المغيرة فتح (سوق الأهواز) [3] ، كما قاتل تحت لواء النعمان بن مقرّن المزنى فى معركة (نهاوند) [4] ، وقد جاء مع أمداد المدينة [5] . وقبل اشتباك الطرفين ، بعث قائد الفرس إلى النعمان : « ان أرسلوا إلينا رجلاً نكلّمه » ، فأرسل النعمان إليه المغيرة . ودارت بين الرجلين مناقشة حامية ختمها المغيرة بقوله : « والله ما زلنا مذ جاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم نتعرّف من ربنا الفتح والنصر حتى أتيناكم ، وإنّا والله لا نرجع إلى ذلك الشقاء أبداً حتى نغلبكم على ما بأيديكم أو نقتل بأرضكم » . . . وقال المغيرة للمسلمين عند عودته إليهم من قائد الفرس : « . . . فقمت ، فقد والله أرعبت العلج جهدى [6] » .

وتولى المغيرة يوم (نهاوند) قيادة الميسرة [7] ، وعندما رأى كثرة

---

(١) الطبرى (٣/ ٩٤) .

(٢) البلاذرى ص (٢٣٨) والطبرى (٣/ ٩٥) ، ولكن الطبرى فى (٣/ ١٧٩) يذكر أن عتبة استخلف أبا سبرة بن أبى رهم على البصرة ، فلما مات عتبة أقرّ عمر أبا سبرة على البصرة بقية السنة ، ثم استعمل المغيرة فى السنة الثانية . وارجح رواية الطبرى الأولى لشهرتها ولقول عمر نفسه لعتبة : « أتستعمل رجلا من أهل الوبر على رجل من أهل المدر ؟ » ثم ذكر لعتبة خبر انتصار المغيرة على الفرس .

(٣) المعارف ص (٢٩٥) . (٤) أسد الغابة (٤٠/ ٧٤) .

(٥) ابن الأثير (٣/ ٤) . (٦) الطبرى (٣/ ٢٠٦) .

(٧) أسد الغابة (٤/ ٤٠٧) والمعارف ص (٢٩٥) .

الفرس قال : « لم أر كاليوم فشلا ! إن عدونا يُتركون يتأهبون لا يعجلون . أما والله لو أن الأمر لى لقد أعجلتهم ! [1] » ؛ ولكن النعمان بن مُقَرِّن أمر الناس أن يلزموا الأرض ولا يقاتلوا حتى يأذن لهم [2] ، ثم قال النعمان : « إن أُصِبتُ فعلى الناس حُذَيفة بن اليمان ، وإن أُصيب حذيفة ففلان . . . ففلان ، حتى عدّ سبعة آخرهم المغيرة [3] » . وبعد نهاوند شهد فتح (همذان) [4] .

وتولى المغيرة الكوفة سنة أحدى وعشرين للهجرة [5] وذلك أيام عمر بن الخطاب ، ومنذ ذلك الوقت حتى عزله عثمان بن عفان عنها ، أشرف المغيرة على الفتح الإسلامى الذى تمّ على يد الكوفيين ، فأرسل البراء بن عازب لفتح قزين ففتحها [6] ، كما فتح الكوفيون مناطق كثيرة ، كان المغيرة يومها هو المسؤول الأول عن إعداد الجيوش وإمدادها بالرجال والمواد بحكم منصبه والياً على الكوفة ومسؤولاً عن إدارتها وقيادة جيوشها .

الإنسان :

اغتال المغيرة ثلاثة عشر ثقفياً من رفقاء سفره إلى مصر ، فلم يقرّه النبى صلى الله عليه وسلم على فعلته واعتبر المال الذى جاء به نتيجة من نتائج الغدر ، وليس فى الغدر خير .

---

(١) الطبرى (٣/٢٠٧) .
(٢) ابن الاثير (٣/٥) .
(٣) الطبرى (٣/٢٠٧) .
(٤) أسد الغابة (٤/٤٠٧) ، وقد ذكر البلاذرى فى ص (٣٠٦) : أنه فتح همذان ، وفى ص (٣٢٢) : أنه فتح آذربيجان ، وقد ذكرنا القادة الذين فتحوا هذه المناطق فى محله .
(٥) ابن الأثير (٣/٨) .
(٦) البلاذرى ص (٣١٧) .

ولـكن الإسلام يَجبُّ ما قبله ، فقد نصح المغيرة للنبي صلى الله عليه وسلم وأخلص لعقيدته ، ولعل من أدلة ذلك موقفه الرائع تجاه عمه عروة بن مسعود يوم الحديبية ، وموقفه المشرف يوم حُنين ، وموقفه فى حصار الطائف بلده ، وأقدامه على هدم اللاّت وحرقها ، ممـا جعله موضع ثقـة النبى صلى الله عليه وسلم وتقديره .

وكان جهاده مشكوراً فى حروب الردة وفى أرض الشام وفى حروب العراق وفارس ، مما جعله موضع ثقة عمر بن الخطاب ، فأمَّرَه على البحرين أول الأمر ، فـكرهوه وشكوا منه ، فعزله عمر ، فخافوا أن يعيده عليهم ، فجمعوا مائة ألف درهم وأحضرها الدهقان إلى عمر قائلاً : « إنّ المغيرة اختـان هذه فأودعها عندى » ، فسأل عمر المغيرة عنها فقال : « كذب ! إنما كانت مائتى ألف » ، فقال عمر : « وما حملك على ذلك ؟ ! » ، فقال المغيرة : « كثرة العيال ! » ، فسقط فى يد الدهقان وحلف مؤكداً الأيمـان : أنه لم يودع عنده قليـلاً ولا كثيراً ، فقال عمر للمغيرة : « ما حملك على هذا ؟ » ، فأجاب المغيرة : « إنه افترى علىّ فأردت أن أخزيه ! ! »[1] . والظاهر أن المغيرة كان قليل التجربة فى الإدارة وذلك فى أيامه الأولى ، لهـذا كرهه أهل البحرين ، وسنرى أنه أصبح إداريا من الطراز الأول بعد أن تقدم فى العمر وزادت تجاربه فى الحياة .

وبعد بلائه الممتاز فى جهاده ، ولاّه عمر بن الخطاب البصرة بعد مؤسسها وبانيها عتبة بن غزوان[2] ، ولـكنه عاد وعزله عن البصرة لاتهـامه بتهمة

(١) الإصابة (٦/١٣٢) .

(٢) البلاذرى ص (٣٣٨) وابن الأثير (٢/٢٠٩) .

أخلاقية لم تثبت عليه[1] ، وكان ناجحاً كل النجاح فى إدارته ؛ إذ لم ينتقض عليه أحد ولم يُحدث شيئاً إلا ما كان بينه وبين أبى بكرة الذى اتهمه بتلك التهمة الأخلاقية[2] ، وكان المغيرة أول من وضع ديوان البصرة وأول من سلم عليه بالأمرة[3] .

ثم ولاه عمر الكوفة بعد عزل أبى موسى الأشعرى عنها ، وكان عمر قد عزل قبل أبى موسى عمار بن ياسر ، إذ كان أهل الكوفة لا يرضون عن أمير ؛ فقد أهمّ عمر أمر الكوفة فوجده المغيرة نائماً فى ناحية المسجد فحرسه المغيرة حتى استيقظ . وسأل المغيرة عمر عن أسباب حزنه ، فقال : « أى شىء أعظم من مائة ألف لا يرضون عن أمير ولا يرضى عنهم أمير ؟ ! » . واستشار عمر أصحابه فيمن يوليه وقال : « ما تقولون فى تولية رجل ضعيف مسلم أو رجل قوى مسدّد ؟ » ، فقال المغيرة : « أما الضعيف المسلم ، فإن إسلامه لنفسه وضعفه عليك ، وأما القوى المسدّد ، فإن سداده لنفسه وقوته للمسلمين » ، فولى المغيرة الكوفة قائلاً له : « يامغيرة ! ليأمنك الأبرار وليخفك الفجار»[4] ؛ فكانت وَصية عمر هذه للمغيرة الخط العريض لسياسته التى طبقها فى الكوفة فعلاً — والياً عليها وقائداً عاماً لجيوشها — حتى عزله عثمان بن عفان بعد استشهاد عمر بن الخطاب[5] .

وبعد عزله سكن الكوفة[6] ، ولكنه كان يتنقل بينها وبين الحجاز ؛

---

(١) أنظر تفاصيل محاكمة المغيرة عن تلك التهمة أمام عمر بن الخطاب فى الأغانى (١٤/٣٢٨) .

(٢) ابن الاثير (٢/٢٠٩) .

(٣) الاصابة (٦/١٣٢) .

(٤) ابن الاثير (٣/١٣) .

(٥) أسد الغابة (٤/٤٠٧) .

(٦) طبقات ابن سعد (٦/٢٠) .

وقد أراد حضور اجتماع جماعة الشورى بعد وفاة عمر ، فجلس هو وعمرو بن العاص على باب الدار التى كان فيها أصحاب الشورى ، ولكن سعد بن وقاص حصبهما وأقامهما قائلاً لهما : « تريدان أن تقولا : حضرنا وكنا من أهل الشورى ! ! »[1] .

ولما بويع عثمان بالخلافة ، قال المغيرة لعبد الرحمن بن عوف . « يا أبا محمد ! لقد أصبت أن بايعت عثمان » ، وقال لعثمان : « لو بايع عبد الرحمن غيرك ما رضينا ! » ، فقال عبد الرحمن بن عوف : « كذبت يا أعور ! لو بايعتُ غيره لبايعته ! ! » ، والظاهر أن المغيرة أراد أن يسترضى عثمان فلا يعزله عن الكوفة ، ولكن عثمان عزله وولى مكانه سعد بن أبى وقاص[2] ؛ فآلم ذلك المغيرة أشد الألم ، إذ من الواضح أنه كان يحب الأمارة ، مما جعله يتحيّن الفرص للعودة إلى إمارته على الكوفة أو على غيرها من الأمصار .

وبعد قتل عثمان بيومين ، اختلى المغيرة بعلى بن أبى طالب وقال له : « انّ النصح رخيص ، وأنت بقيّة الناس ؛ إنى لك ناصح ؛ وإنى أشير عليك بردّ عمال عثمان عامك هذا ، فاكتب إليهم بإثباتهم على أعمالهم ؛ فإذا بايعوا لك واطمأن الأمر لك ، عزلت من أحببت » ؛ فأجابه على : « والله لا أداهن فى دينى ولا أعطى الدنىّ فى أمرى » ، فقال المغيرة : « فإن كنت قد أبيت علىَّ فأنزع من شئت واترك معاوية ، فان لمعاوية جرأة ، وهو فى أهل الشام يُسمع منه ؛ ولك حجّة فى إثباته : كان عمر بن الخطاب قد ولاّه الشام كلها » ؛ فقال على : « لا والله ، لا أستعمل معاوية أبداً » ؛ فخرج من عند على ثم عاد

---

(١) ابن الأثير (٣/٢٦) . (٢) ابن الأثير (٣/٣٠) .

فقال : « إني أشرت عليك بما أشرت فأبيتَ عليّ ، ثم نظرت في الأمر فإذا أنت مصيب » ؛ فلما سمع عبد الله بن عامر من علي أبي طالب خبر هذا الحديث قال له : « أما أول ما أشار عليك فقد نصحك ، وأما الآخر فغشّك »[1] .

وقال الحسن بن علي لأبيه : « ما قال لك هذا الأعور ؟ » ؛ فقال علي : « أتاني أمس بكذا ، وأتاني اليوم بكذا » ؛ فقال الحسن : « نصح لك والله أمس ، وخدعك اليوم » ، فقال له علي : « إن أقررت معاوية على ما في يده ، كنتُ متخذ المضلين عَضُدا » . وقال المغيرة في ذلك :

نصحت علياً في ابن هِنْدٍ نصيحةً ... فردّ ، فلا يسمع له الدهر ثانية

وقلت له : أرسل إليه بعهده ... على الشام حتى يستقر معاوية

ويعلم أهل الشام أن قد ملكته ... فأم ابن هند عند ذلك هاوية

فلم يقبل النصح الذي جئته به ... وكانت له تلك النصيحة كافية[2]

لقد كان المغيرة يرى أن يسترضي علياً بأي ثمن — لعلّه يعيده إلى الكوفة أو يجر منه مغنماً — فلما رأى صلابة علي وتمسكه الشديد بالحق واعتداده برأيه ، آثر العزلة في (الطائف) بلده ؛ إذ هاجر من الكوفة إليها واعتزل الحرب بين علي ومعاوية[3] ؛ إلا أنه كان يرقب الحوادث الدائرة عن كثب بانتباه شديد ؛ فلما علم باجتماع الحكَمَيْن : أبي موسى الأشعري عن علي وعمرو ابن العاص عن معاوية ، قال لجماعة من قريش : « أترون أحداً يستطيع أن يأتي برأي يعلم به أيجتمع الحكمان أم لا ؟ ! » ، فقالوا : « لا » ، فقال : « إني أعلمه منهما » ، فدخل على عمرو بن العاص فقال : « كيف ترانا معشر

---

(١) الطبري (٣/٤٦١) والأغاني (١٤/٣٢٣) .

(٢) الاستيعاب (٤/١٤٤٧) .

(٣) الإصابة (٦/١٣٦) .

من اعتزل الحرب ؟ فإنا قد شككنا في الأمر الذى استبان لكم » ، فقال عمرو : « أراكم خلف الأبرار ، أمام الفجار ! » . وانصرف المغيرة إلى أبي موسى الأشعرى ، فقال له مثل قوله لعمرو ، فأجاب أبو موسى : « أراكم أثبت الناس رأياً ، فيكم بقية الناس » ، فعاد المغيرة إلى أصحابه وقال لهم : « لا يجتمع هذان على رأى واحد »[1] ، وقد أصاب المغيرة إذ لم يجتمع الحكمان على شيء كما هو معروف .

لقد كان المغيرة مع معاوية على الرغم من اعتزاله في (الطائف)[2] : كان قلبه معه لأنه يأمل أن يوليه إمارة مصر من الأمصار إذا صارت الأمور إليه ، ولا يطمع أن يوليه عليٌّ إمارة ما ، ولكن سيفه كان في غمده لا يشهره على أحد من المسلمين ، والحق أن حب المغيرة الشديد للإمارة لم يبلغ به درجة يبيع بها دينه بدنياه ، وإلا لكان له مجال واسع للالتحاق بمعاوية من أول الأمر ، ولكنه تريّث ولم يزج نفسه في أُوار الفتنة الكبرى ، إلا أنه أظهر ولاءه الكامل لمعاوية بعد استشهاد على بن أبي طالب ، فاستعمله معاوية على الكوفة ، فقد كان معاوية يريد أن يولى عبد الله بن عمرو بن العاص عليها ، فأتاه المغيرة ابن شعبة وقال : « استعملت عبد الله بن عمرو على الكوفة وعمراً على مصر ، فتكون أنت بين فكى الأسد ! » . وبلغ عمراً ما قال المغيرة ، فدخل على معاوية وقال : « استعملت المغيرة على الكوفة ؟ ! » ، فقال : « نعم ! » ، فقال : « أجعلته على الخراج ؟ » ، قال : « نعم ! » ، فقال : « تستعمل المغيرة على الخراج فيغتال المال ، فيذهب فلا تستطيع أن تأخذ منه شيئاً ؟ استعمل على الخراج من يخافك ويهابك ويتّقيك » ، فعزل معاوية المغيرة عن الخراج واستعمله

---

(١) ابن الأثير (٣/١٣٢) .

(٢) الطبرى (٤/١٢٥) .

على الصلاة ، فلقي المغيرة عمراً ، فقال عمرو : « أنت المشير على أمير المؤمنين بما أشرت به في عبد الله ؟ » ، فقال المغيرة : « نعم » . فقال عمرو : « هذه بتلك »[1] .

وسار المغيرة إلى الكوفة ، فكانت سيرته في الخوارج من أهل الكوفة كسيرة علي بن أبي طالب فيهم ، إذ تركهم أحراراً يلقى بعضهم بعضاً ويجتمعون يتذاكرون أمرهم ، وأبى أن يعرض لهم إلا أن يحدثوا شراً أو يبادون بعداوة . ولكنه كان أشد احتياطاً من علي ، فكان له من يعلمه علم الخوارج ، وكان يحاول أن يمنع خروجهم قبل وقوعه ، وربما دفعه ذلك إلى أخذهم أثناء اجتماعهم وإلقائهم في السجن ، فإذا خرجت منهم خارجة ونصبت له الحرب أو أفسدت في الأرض ، أرسل إليها من أهل الكوفة من يقاتلها حتى يكفيه شرها .

وكانت سيرته في شيعة علي أيسر من ذلك وأسمح : لم يعرض لهم بمكروه ، وربما بادروه بالكلام القاسي الغليظ ، فلم يؤذهم في أنفسهم ولا في أموالهم . كان يؤتى فيقال له : إن فلاناً يرى رأي الشيعة وفلاناً يرى رأي الخوارج ، فيقول : « قضى الله ألا يزالوا مختلفين ، وسيحكم الله بين عباده » ، فأمنه الناس[2] .

ولكي يثبت إخلاصه لمعاوية ، بذل جهده في مصالحة زياد بن أبيه مع معاوية ، وكان زياد معتصماً في (فارس) يهدد معاوية وحزبه بشر مستطير[3] ، وقد نجح المغيرة في إحلال السلام بين الطرفين :

---

(١) الطبري (٤/١٢٢) .
(٢) ابن الأثير (٣/١٦٨) .
(٣) ابن الأثير (٣/١٦٨) .

كما أنه شجع معاوية على أخذ البيعة لولده يزيد فى حياته ، فقد أراد معاوية عزل المغيرة عن الكوفة واستعمال سعيد بن العاص مكانه ، فبلغ ذلك المغيرة ، فقرّر أن يشخص إلى معاوية ويستعفيه ليظهر للناس كراهيته للولاية .

وسار المغيرة إلى معاوية ، وقال لأصحابه حين وصل إليه : « إن لم أكسبكم الآن ولاية وإمارة لا أفعل ذلك أبداً » ؛ ومضى حتى دخل على يزيد وقال له : « إنه قد ذهب أعيان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وآله وكبراء قريش وذوو أسنانهم ، وإنما بقى أبناؤهم وأنت أفضلهم وأحسنهم رأياً وأعلمهم بالسنة والسياسة ؛ ولا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة ! » ، فقال يزيد : « أو ترى ذلك يتمّ ؟! » . قال : « نعم ! » ؛ فدخل يزيد على أبيه وأخبره بما قال المغيرة ، فأحضر المغيرة وقال له : « ما يقول يزيد ؟ » ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان ؛ وفى يزيد منك خلف ، فاعقد له ؛ فإن حدث حادث كان كهفاً للناس وخلفاً منك ، ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة » . قال معاوية : « ومن لى بهذا ؟ » ، فقال : « أكفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة ، وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك ! » . قال معاوية : « فأرجع إلى عملك ، وتحدّث مع من تثق إليه فى ذلك ، وترى ونرى » ؛ فودّعه المغيرة ورجع إلى أصحابه وقال لهم : « لقد وضعت رجل معاوية فى غرز بعيد الغاية على أمة محمد ، وفتقت عليهم فتقاً لا يرتق أبداً » . ولما وصل الكوفة أوفد عشرة رجال ، وقيل أكثر إلى معاوية وأعطاهم ثلاثين ألف درهم وجعل عليهم ابنه ، فزيّنوا له بيعة يزيد[1] .

---

(١) ابن الأثير (٣/١٩٨) ، وانظر ما جاء حول ذلك فى الامامة والسياسة لابن قتيبة (١/١٦٥) واليعقوبى (٢/١٩٦) .

وهكذا كان المغيرة مستعداً للتضحية بأشياء كثيرة فى سبيل بقائه أميراً على الكوفة . . . لقد كان يرى أن حياته بدون إمارة لا معنى لها — وهو أول من سُلم عليه بالإمرة [1] ، وكان يحرص على الإمارة حرصه على الحياة !

وإذا استطاع المغيرة بدهائه أن يبقى على الكوفة وأن يقنع معاوية بإبقائه عليها ، فقد انتزعه الله منها ، إذ مات بالطاعون فيها سنة خمسين للهجرة (٦٧٠ م) ، ودفن بالثَوِيّة [2] ، وهو يومئذ ابن سبعين سنة [3] ، ومعنى ذلك أنه ولد سنة عشرين قبل الهجرة (٦٠٢ م) .

ولما حضرته الوفاة قال : « اللهم هذه يمينى بايعت بها نبيك ، وجاهدت بها فى سبيلك » [4] .

وكان بين المغيرة وبين مصقلة بن هبيرة الشيبانى نزاع ، فضرع له المغيرة وتواضع فى كلامه حتى طمع فيه مصقلة واستعلى عليه وشتمه وقذفه ، فقدّمه المغيرة إلى قاضى الكوفة فأقام عليه البينة فضربه الحد ، فآلى مصقلة ألاّ يقيم ببلدة فيها المغيرة ما دام حياً . وخرج مصقلة إلى بنى شيبان فنزل فيهم إلى أن مات المغيرة — ثم دخل الكوفة — فتلقاه قومه وسلموا عليه ؛ فما فرغ من التسليم حتى سألهم عن مقابر ثقيف ، فأرشدوه إليها ؛ فجعل قوم من مواليه يلتقطون له الحجارة ، فقال : « ما هذا ؟ » ، قالوا : ظننا أنك تريد أن ترجُم

---

(١) الإصابة (٦/١٣٢) .

(٢) الثوية : موضع قريب من الكوفة وقيل بالكوفة . انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٣/٢٨) .

(٣) طبقات ابن سعد (٦/٢٠) والاستيعاب (٤/١٤٤٦) والمعارف ص (٢٩٥) .

(٤) المعارف ص (٢٩٥) .

قبره ، فقال : « ألقوا ما فى أيديكم » . وانطلق حتى وقف على قبر المغيرة فقال : « والله لقد كنت ما علمت نافعاً لصديقك ، صابراً لعدوك ، وما مثلك إلا كما قال مهلهل فى أخيه كليب :

إنّ تحت الأحجار حزماً وعزماً[1] وخصيماً ألد ذا مغلاق
حية فى الوجار أربد لا ينفع منه السليم نفث الراقى[2]

ثم قال : « أما والله ، لقد كنت شديد العداوة لمن عاديت ، شديد الأخوة لمن آخيت »[3] .

لقد كان المغيرة رجلاً ذا هيبة أعور يخضب شعره بالصفرة[4] وبالسواد أيضاً ، فقد كان أول من خضب بالسواد : خرج على الناس وكان عهدهم به أبيض الشعر ، فعجب الناس منه[5] ، أصهب الشعر أقلص الشفتين ضخم الهامة عبل الذراعين عريض ما بين المنكبين[6] .

وكان يحسن القراءة والكتابة ، لذلك جعله النبى صلى الله عليه وسلم أحد كتاب الوحى[7] ، كما كان يحسن التكلم باللغة الفارسية وقد قام بمهمة المترجم بين عمر بن الخطاب والهرمزان[8] ، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) فى الاستيعاب (١٤٤٤/٤) ورد هذا الشطر من البيت :
إن تحت التراب حزماً وجوداً
(٢) الأغانى (٣٢٣/١٤ — ٣٢٤) .
(٣) الاستيعاب (١٤٤٦/٤) .
(٤) طبقات ابن سعد (٢٠/٦) وانظر الاستيعاب (١٤٤٥/٤) .
(٥) الأغانى (٣١٦/١٤ — ٣١٧) .
(٦) الإصابة (١٣٢/٦) .
(٧) السير الحلبية (١٦٤/٣) .
(٨) ابن الأثير (٢١٣/٢) .

ستة وثلاثين حديثا [1] ، كما عُدَّ من أصحاب الفتيا من الصحابة [2] .

وكان مزواجاً مطلاقاً ، فكان إذا اجتمع عنده أربع نسوة قال : « إنّكنّ لطويلات الأعناق ، كريمات الأخلاق ، ولكني رجل مطلاق ، فاعتددن ! » . وقد أصبح لكثرة ما تزوج وطلّق خبيراً بالنساء ، فكان يقول : « النساء أربع والرجال أربع : رجل مذكر وامرأة مؤنثة فهو قوام عليها ، ورجل مؤنث وامرأة مذكرة فهي قوامة عليه ، ورجل مذكر وامرأة مذكرة فهما كالوعلين ينتطحان ، ورجل مؤنث وامرأة مؤنثة فهما لا يأتيان بخير ولا يفلحان » [3] . وكان يقول : « نكحت تسعاً وثمانين امرأة ، فما أمسكت منهن امرأة على حب : أمسكها لولدها ، ولحسبها ، ولكذا وكذا . . . » . وقد ذكروا النساء عند المغيرة فقال : « أنا أعلمكم بهن ، تزوجت ثلاثاً وتسعين امرأة ، منهن سبعون بكراً ، فوجدت أن اليمانية كثوبك أخذت بجانبه فأتبعك ، ووجدت الربيعية أمتك أمرتها فأطاعتك ، ووجدت المضرية قرناً ساورته فغلبته أو غلبك » [4] .

وكان يحب هذا الفخر ويحب أن يتميز على أقرانه بأي شيء ، وقد علمت كيف ألقى خاتمه في قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، وكيف أنه جلس على باب الدار التي كان فيها أهل الشورى ليقول : إنه شهد أهل الشورى !

وبلغ من حبه لهذا الفخر ، أنه أراد أن يتزوج من هند بنت النعمان بن المنذر وهي يومئذ متنصرة عمياء بنت تسعين سنة ؛ فقد ركب المغيرة إليها . فقالت له : « أنت عامل هذه المدرة ؟ » [5] وتعني الكوفة ، فقال : « نعم ! » .

---

(١) أسماء الصحابة الرواة — ملحق بجوامع السيرة لابن حزم ص (٢٧٨) .

(٢) أصحاب الفتيا من الصحابة — ملحق بجوامع السيرة لابن حزم ص (٣٣٢) .

(٣) الأغاني (١٤/٣١٩) .

(٤) الأغاني (١٤/٣٢٠) .

(٥) المدرة : القرية ، جمعها : مدر بفتحتين .

قالت : « ما حاجتك ؟ » . قال : « جئتك خاطباً إليك نفسك ! » . قالت : « أما والله لو كنتَ جئت تبغي جمالاً أو دنيا لزوجناك ، ولكنك أردت أن تجلس في موسم من مواسم العرب ، فتقول : تزوجتُ بنت النعمان بن المنذر ! وهذا والصليب مالا يكون أبداً . . . أو ما يكفيك فخراً أن تكون فى ملك النعمان و بلاده ، فتدبرها كما تريد ؟ ! »[1] .

وكان لحبه هذا الفخر — ومن أجله — أول من رشا فى الإسلام ، فقد كان يقول : « كنت آتى فأجلس على باب عمر أنتظر الأذن على عمر ، فقلت لحاجب عمر : خذ هذه العمامة فألبسها فإن عندى أختها ؛ فكان يأذن لى أن أقعد فى داخل الباب ، فمن رآنى قال : إنه ليدخل على عمر فى ساعة لا يدخل غيره »[2] .

ولكن أبرز ما فى المغيرة دهاؤه . كان يقال له : مغيرة الرأى . قال الشعبى عنه : « كان من دهاة العرب » . وقال قبيصة بن جابر : « صحبت المغيرة فلو أن المدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها إلا بالمكر ، لخرج المغيرة من أبوابها كلها ! » . وقال الطبرى عنه : « كان لا يقع فى أمر إلا وجد له مخرجاً ، ولا يلتبس عليه أمران إلا ظهر الرأى من أحدهما »[3] .

وقال الشعبى : « دهاة العرب أربعة : معاوية بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وزياد . فأما معاوية فللأناة والحلم ، وأما عمرو

---

(١) الأغانى (١٤/٣١٧ — ٣١٨) .
(٢) الإصابة (٦/١٣٢) .
(٣) الإصابة (٦/١٣٢)

فالمعضلات ، وأما المغيرة فللمبادهة ، وأما زياد فللصغير والكبير[1] ، فهو من دواهي العرب[2] ».

تلك لمحات من شخصية المغيرة ، تظهر لنا أنه كان داهية من الدهاة ، ذا كفاءات وقابليات ممتازة وذكاء نادر وشخصية متكاملة — فمن حقه أن يكون له فى المجتمع الإسلامى مكان مرموق — ولكن سعيه الحثيث لطلب الأمارة جعله يتساهل فى كثير من أمور دينه ، فاختلط فيه الخير بالشر حتى أصبح مشكلة من المشكلات : يعمل للآخرة إلى الحد الذى لا تتعارض مع طلبه للإمارة ، فإذا تعارض ذلك مع طموحه للسيادة والحكم تساهل فى أمر آخرته . . . والحق أن أعماله غريبة عجيبة خلط فيها عملاً حسناً بآخر سيء ، حتى كأن أعماله حصيلة شخصين أحدهما من نور وآخر من ظلام .

لقد كان نهّازاً للفرص ، طموحاً غاية الطموح ، يعرف كيف ومتى ومن أين تؤكل الكتف .

إنه مثال رائع للدهاء العربى وللذكاء الفطرى فى العصر الأول من عصور الإسلام .

القائد :

لم نلمس فى حياة المغيرة العسكرية موقفاً واحداً يدل على إقدامه لدرجة المجازفة بحياته ، كالتغلغل بعيداً فى صفوف العدو ، أو الإقدام على طلب مبارزة أبطال العدو ، ولكنه كان دائماً يبدى آراء سديدة للغاية لرؤسائه حين يكون

---

(١) أسد الغابة (٤/٤٠٧) والاستيعاب (٤/١٤٤٦) والأغانى (٤/٣١٤) وتاريخ الخلفاء للسيوطى ص (١٣٦) .

(٢) البدء والتاريخ (٥/١٠٤) .

مرؤوساً ولمرؤوسيه حين يكون رئيساً في إعداد الخطط المناسبة للقضاء على العدو ، كما كان دائماً مفاوضاً من الطراز الرفيع عند إرساله لمفاوضة قادة العدو .

لقد كان سلاحه الأول ما يتمتع به من عقلية متزنة وذكاء خارق ونظر بعيد جداً ؛ فإذا برز بعض القادة بشجاعتهم الشخصية ، فقد برز المغيرة بتفكيره السليم ، فأفاد المسلمين بخططه الحكيمة من جهة وبزعزعته معنويات خصومهم في مفاوضاته من جهة أخرى .

وليس معنى ذلك أن المغيرة لم يكن شجاعاً مقداما ، ولكن معنى ذلك أن الناحية العقلية في قيادته كانت أظهر من شجاعته الشخصية وإقدامه ؛ فكان يعتمد على الرأي الصائب أكثر مما يعتمد على عضلاته وسيفه ؛ وبتعبير آخر ، إن المغيرة كان يقاتل بعقله بالدرجة الأولى ويقاتل بسيفه بالدرجة الثانية .

لقد أحسن المغيرة كل الأحسان في جهاده ، وإذا كان هناك من يأخذ عليه بعض الهفوات في حياته (المدنية) فليس هناك من يستطيع أن يأخذ عليه مأخذاً واحداً في حياته (العسكرية) ؛ إذ أنه بذل جهوداً مشرفة في كافة ميادين القتال التي أتيح له القتال فيها جندياً وقائداً .

كانت له قابلية فائقة لإعطاء القرارات السريعة الصحيحة ، له إرادة قوية ثابتة وشخصية فذة نادرة ، يتحمل المسؤولية كاملة بلا تردد أو خوف ، بعيد النظر بشكل مدهش حقاً ، يعرف نفسيات مرؤوسيه وقابلياتهم ونفسية رؤسائه وقابلياتهم أيضاً ، يثق برجاله ويثقون به ويثق أمراؤه ثقة كاملة به .

وكانت كل معاركه (تعرضية) ، يتوخى في إعداد خططها مبدأ (المباغتة) ولا يقدم على خوض معركة ما ، ما لم (يحشد قواته) ويؤمن لها (أمورها الإدارية) ويعمل على (إدامة معنوياتها) ؛ وتلك هي مبادئ الحرب التي كان

يضعها نصب عينيه قبل القتال وأثناءه ، وبها — بالإضافة إلى قابلياته الشخصية في القيادة — انتصر في معارك الفتح .

المغيرة في التاريخ :

يذكر التاريخ للمغيرة ، أنه كان إدارياً ناجحاً وقائداً ناجحاً .

لقد كان من دهاة العرب المعدودين في زمانه ؛ ولا نزال حتى اليوم ، نعجب حين نقرأ أخباره أشد الإعجاب بذكائه الفطري الخلاّق ، ذلك الذكاء الذي استخدمه المغيرة لمصالحه الشخصية مرة ولمصالح المسلمين مرات .

إن البصرة أنشأها عُتبة بن غَزْوان ، ولكن المغيرة هو الذي وسّعها ونظّم أمورها وأرسى إدارتها على قواعد مدنية سليمة بعد أن كانت تدار بأسلوب بدائي أقرب إلى البداوة منها إلى الحضارة ؛ كما كان له نفس الأثر في الكوفة ، والبصرة والكوفة هما القاعدتان الأماميتان للفتح الإسلامي في المشرق كله ، تينك القاعدتان اللتان كان لهما أعظم الأثر في العقل الإسلامي والفتح الإسلامي على حد سواء .

إن التاريخ يذكر للمغيرة ، أنه رجل دولة بكل ما في هذه الكلمة من معاني ، رجل دولة قلما يجود الدهر بأمثاله إلا نادراً .

لقد كان من رجال الدهر حزماً وعزماً ورأياً ودهاء[1] .

رضي الله عن الصحابي الجليل ، الألمعي الداهية ، الإداري الحازم ، القائد الفاتح ، المُغِيرَة بن شُعْبَة الثقفي .

---

(١) شذرات الذهب (١/٥٦)

قادة فتح
المنطقة الجبلية من شمالي العراق

عتبة بن فرقد السلمي

فاتح شمال العراق وأَذْرَبِيْجَان

إسلامه :

أسلم أبو عبد الله عُتْبَة بن فَرْقَد السُّلَمي قبل غزوة (خيبر)[1] ، إذ أنه شهد هذه الغزوة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقسم له منها ، فكان يعطى نصيبه منها لبنى أعمامه عاماً ولبنى أخواله عاما[2] ، وكانت غزوة (خيبر) فى سنة سبع للهجرة[3] ، مما يدل على أنه أسلم فى هذه السنة أو قبلها بقليل . وقد غزا مع النبى صلى الله عليه وسلم غزوتين[4] فقط ، فنال شرف الصحبة[5] وشرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد .

جهاده :

نهض عتبة بعد النبى صلى الله عليه وسلم بقسطه من جهاد المرتدّين ؛ فلما عاد أهل الردَّة إلى الإسلام ، نهض عتبة بقسطه من الفتح الإسلامى .

ولا نعلم بالضبط متى جاء العراق غازياً ولا المعارك التى شهدها فيه ، وأول

---

(١) أورد ابن سعد فى طبقاته عتبة مع الصحابة الذين أسلموا قبل فتح مكة وبعد غزوة (أحد) . انظر اسمه فى تلك القائمة فى طبقات ابن سعد (٣٨٩/٤) وانظر ما جاء عنه فى طبقات ابن سعد (٢٧٥/٤) .

(٢) الإصابة .

(٣) فتح البارى بشرح البخارى (٣٠٦/٧) وسيرة ابن هشام (٣٧٨/٣) .

(٤) أسد الغابة (٣٦٥/٣) والاستيعاب (١٠٢٩/٣) .

(٥) الإصابة (٢١٦/٤) وأسد الغابة (٣٦٥/٣) والاستيعاب (١٠٢٩/٣) وطبقات ابن سعد (٣٨٩/٤) .

ماورد ذكره هو تسنّمه منصب إمارة الموصل على الحرب والخراج سنة سبع عشرة خلفاً لعرفجة بن هرثمة البارق الذى أمدّ به عمر بن الخطاب عتبة بن غزوان[1] ، ولا يمكن أن يتولى أحد مثل هذا المنصب الخطير مالم يكن قد بذل جهوداً مشرّفة فى الجهاد من قبل .

ولما استقرّ عتبة بالموصل ، شرع فى فتح مناطقها المجاورة وهى : (شهر زور)[2] و (الصامغان)[3] و (داراباذ)[4] ؛ ففتح (شهر زور) بعد قتال على مثل صلح (حُلوان)[5] ، وصالح أهل (الصامغان) و (داراباذ) على الجزية والخراج[6] ، وكان ذلك سنة اثنتين وعشرين للهجرة[7] ، فلما

(١) الطبرى (٣/١٤٤) وابن الأثير (٢/١٨٨) .

(٢) شهر زور : كورة واسعة فى الجبال بين أربيل وهمذان . راجع معجم البلدان (٥/٣١٢) وآثار البلاد وأخبار العباد للقزوينى ص (٣٩٧) . أما فى المسالك والممالك للاصطخرى ص (١١٨) فيذكر : (أنها بلدة صغيرة بهذا الاسم) أقول : وقد سمّيت هذه الكورة الواسعة باسم هذه المدينة الصغيرة .

(٣) الصامغان : كورة من كور الجبل فى حدود طبرستان . راجع معجم البلدان (٥/٣٣٤) .

(٤) داراباذ : قلعة حصينة فى جبال طبرستان . راجع معجم البلدان (٤/٦) . وهى ليست (دارا) الواقعة فى الجزيرة بين نصيبين وماردين ، لأن الأولى هى فى منطقة فتح عتبة والثانية خارجة عن منطقته .

(٥) حلوان : آخر حدود السواد مما يلى الجبال من بغداد ، وكانت مدينة عامرة . راجع معجم البلدان (٣/٣٢٢) . وفى آثار البلاد وأخبار العباد ص (٣٥٧) : أنها مدينة بين همذان وبغداد . وفى المسالك والممالك ص (٦١) : إنها مدينة عامرة ليس فى العراق بعد البصرة والكوفة وبغداد وسامراء والحيرة مدينة أكبر منها ! .
وتوجد اليوم آثار خرائب هذه المدينة بين خانقين وجلولاء يطلق عليها هذا الاسم .

(٦) ابن الأثير (٣/١٥) ، وقد أضاف البلاذرى فى ص (٣٢٩) مايلى : صالح أهل الصامغان ودارا باذ على الجزية والخراج ، على ألا يقتلوا ولا يسبوا ولا يمنعوا طريقاً يسلكونه .

(٧) ١ — ذكر البلاذرى فى ص (٣٢٧) : أن عتبة فتح الموصل ، وفى ص (٣٢٨) ذكر : أنه فتح تكريت . ويضيف إلى ذلك بأنه فتح الموصل سنة =

أنجز ذلك كتب إلى عمر بن الخطاب : «إنّ فتوحي قد بلغ (أَذْرَبَيْجان)»[1] فولاه إيّاها وأعاد عرفجة بن هرثمة البارقي إلى الموصل[2] .

وسار عتبة لفتح (آذربيجان) من (شهر زور)[3] ، وهي مجاورة لمنطقة (آذربيجان) ، كما سار بُكَيْر بن عبد الله[4] لفتحها من (حلوان)[5] ؛ فتح عتبة من (آذربيجان) الجهة المتاخمة (لشهر زور) باتجاه تقدمه كما فتح بكير منها ما يليه[6] ، ولكن عمر بن الخطاب أصدر أمره إلى بكير أن يتوجه لفتح (الباب)[7] وأمره أن يستخلف على عمله ، فاستخلف بكير عتبة على الذي افتتحه من (آذربيجان) ، فأقرّ عتبة سماك بن خرشة الأنصاري

= عشرين للهجرة، والصحيح إن الموصل فتحت سنة ست عشرة للهجرة . راجع الطبري (١٤٢/٣) وابن الأثير (٢٠٢/٢) .

٢ — لقد فتح عتبة (شهر زور) و (داراباذ) ، وهذه المناطق كانت تعتبر جزءاً من الموصل كما جاء في البلاذري ص (٣٢٩) : «ولم تزل شهر زور وأعمالها مضمومة إلى الموصل ، حتى فرّقت في آخر خلافة الرشيد» لذلك فإن عتبة فتح هذه المناطق من أعمال الموصل لا بلدة الموصل نفسها .

٣ — جرى فتح هذه المناطق سنة اثنتين وعشرين . راجع ابن الأثير (١٥/٣) .

(١) أذربيجان : كلمة أذربيجان في الفارسية معناها أرض النار أو معابد النار ، وقد أطلق عليها هذا الاسم لكثرة معابد النار التي كانت موجودة فيها حينذاك . وأذربيجان صقع جليل ومملكة عظيمة الغالب عليها الجبال ، أشهر مدنها تبريز وهي قصبتها . راجع معجم البلدان (١٥٩/١) والمسالك والممالك . ص (١٠٨) .

(٢) البلاذري ص (٣٢٢) .

(٣) البلاذري ص (٣٢٢) : ونص عبارته : أنّ عمر ولّى آذربيجان عتبة بن فرقد السلمي ، فأتاها من الموصل ويقال : بل أتاها من شهر زور .

(٤) هو بكير بن عبد الله الليثي فاتح موقان وقسم من آذربيجان وسترد ترجمته التفصيلية مع قادة الفتح الإسلامي .

(٥) البلاذري ص (٣٢٢) .

(٦) الطبري (٢٣٤/٣) .

(٧) الباب : وتسمى باب الأبواب ، وهي مدينة كبيرة على بحر الخزر . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٩/٢) .

وليس بأبي دجانة[1] على عمل بكير ، إذ جمع عمر آذربيجان كلها لعتبة[2] .

وكان قائد الفرس في تلك المنطقة يدعى (بهرام) قد حشد جيشاً لصدّ عتبة عن استكمال فتح آذربيجان ، لذلك تقدّم عتبة بقواته إلى حيث عسكر جيش (بهرام) فنشبت بين الطرفين معركة حامية خسرها الفرس ، فاستسلمت المناطق الأخرى من آذربيجان سلماً ، وأصبحت مناطقها كلها بيد المسلمين ؛ فكتب عتبة بينه وبين أهل آذربيجان أماناً لسهلها وجبلها وحواشيها وشفارها وأهل ملكها على أنفسهم وأموالهم وملكهم وشرائعهم على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم[3] وامتد فتح عتبة حتى

---

(١) سماك بن خرشة الأنصاري : صحابي جليل شهد القادسية وتولى لعمر إمارة بعض المسالح في أرض همذان وله جهاد وبلاء في فتح الري وآذربيجان . راجع الإصابة (٣/١٢٨) والاستيعاب (٢/٦٥٢) .

(٢) الطبري (٢/٣٢٤) و (٢/٢٣٥) .

(٣) نص كتاب عتبة لأهل آذربيجان : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أعطى عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل آذربيجان سهلها وجبالها وحواشيها وشفارها وأهل مللها كلهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم ، وليس على صبي ولا امرأة ولا زمن (أي مريض مرضاً مزمناً) ليس في يديه شيء من الدنيا ، ولا متعبد ليس في يديه من الدنيا شيء ، لهم ذلك ولمن سكن معهم ؛ وعليهم قرى المسلم من جنود المسلمين يوماً وليلة ودلالته . ومن حشر منهم في سنة وضع عنه جزاء تلك السنة ، ولمن أقام فله مثل ما لمن أقام من ذلك ؛ ومن خرج فله الأمان حتى يلجأ إلى حرزه » راجع الطبري (٣/٢٣٥) .

ونلاحظ في هذه الوثيقة ، أن الجزية فرضت لحماية المغلوبين في أموالهم وعقائدهم وأعراضهم وكرامتهم ، وتمكينهم من التمتع بحقوق الرعية مع المسلمين الفاتحين سواء بسواء . إنّ هذه الجزية فرضت على الأغنياء والقادرين على العمل فقط ؛ وأن هذه الجزية بدل الخدمة العسكرية لذلك توضع عندما يشترك دافعها في عمل مع المسلمين عسكرياً كان أم غير عسكري أو قدّم خدمة عامة للدولة ، كما أعطت هذه الوثيقة حرية العقيدة وحرية التنقل وحرية الأمان للمغلوبين .

هذا هو عدل العرب المسلمين من واقعهم التاريخي ، فهل وصل العالم اليوم إلى ما وصلوا إليه من عدل وإنصاف قبل ما يزيد على ثلاثة عشر قرناً ؟ ؟ . . هيهات ! .

مدينة (أُرْمِيَةُ)[1] الواقعة بالقرب من بحيرة (أرمية)[2] .

الإنسان :

تولى عتبة الموصل كما أسلفنا ، وتولى بعدها آذربيجان حربها وخراجها وبقى عليها حتى تولى الوليد بن عقبة بن أبى معيط[3] الكوفة من قبل عثمان ابن عفان سنة خمس وعشرين للهجرة[4] فعزل عتبة عن آذربيجان ، فنقض أهلها الصلح مع المسلمين ، فاضطر الوليد على غزوهم[5] ؛ وهذا يدلنا على أنّ عتبة كان محبوباً من أهل آذربيجان يثقون به ثقة كاملة لاستقامته وعدله فى إدارته وحكمه .

لقد كان عتبة موضع ثقة أبى بكر وعمر ، كما كان موضع ثقة سعد بن أبى وقاص حين كان قائداً عاماً فى العراق ووالياً على الكوفة ، فقد بقى عتبة والياً على آذربيجان فى زمن عمر وبقى عليها فى عهد عثمان ما بقى سعد والياً على الكوفة ؛ فلما عزله عثمان وولى مكانه الوليد بن عقبة عاد فعزله عن منصبه ، لأن الوليد لم يكن يتقيدّ بالشروط التى التزم بها الشيخان : أبو بكر وعمر وكبار الصحابة من الولاة وقادة الفتح عند توليتهم الولاة والقادة ، تلك الشروط التى كانت تخضع لكفاءة الماضى المجيد فى خدمة الإسلام وصحبة النبى صلى الله

---

(١) أرمية : اسم مدينة عظيمة قديمة بآذربيجان بينها وبين البحيرة المسماة باسمها نحو ثلاثة أميال أو أربعة . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (١/٢٠٢) ويطلق على اسم بحيرة أرمية اليوم بحيرة رضائية .

(٢) البلاذرى ص (٣٢٧) .

(٣) الوليد بن عقبة بن أبى معيط الأموى : أنظر ترجمته فى هامش ترجمة سعد ابن أبى وقاص الزهرى .

(٤) ابن الأثير (٣/٣١) .

(٥) البلاذرى ص (٣٢٣) .

عليه وسلم ، ولكفاءة الحاضر من بلاء وشجاعة وإقدام وتضحية وقابلية على قيادة الرجال وإدارة الأعمال . . . والظاهر أن السياسة الجديدة لم تعجب عتبة فسكن الكوفة واعتكف بها حتى مات ، وله عقب بها يقال لهم : الفراقدة [1] .

لقد ترك عتبة آثارا فى الموصل ، منها الجامع [2] الواقع فى محلة الكوازين والذى يسمى الجامع الأموى [3] . ولا يزال هذا الجامع موجودا حتى اليوم . ولا بد أنه ترك آثاراً كثيرة فى آذربيجان وغيرها من البلاد التى فتحها .

وكان غنياً معدوداً من أغنياء العرب [4] فى الجاهلية وفى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن حديث الغنى ، كوّن ماله من الغنائم وغيرها بعد الفتح ، وكان كريماً مضيافاً ؛ وعندما كان فى (آذربيجان) أكل (الخبيص) [5] فوجده طيباً حلواً ، فأرسل منه سفطين هدية إلى عمر بن الخطاب ، فلما ذاقه عمر قال : « إن هذا لطيب ! أكل المهاجرين أكل منه شبعه ؟ ! » ، فلما علم أنه هدية خاصة به أعاده إلى عتبة وكتب إليه : « إنه ليس من كدّك ولا كدّ أمك ولا كدّ أبيك ! لا تأكل إلا ما يشبع منه المسلمون فى رحالهم [6] » ثم استقدمه عمر بالخبيص الذى كان أهداه له ، وذلك لأن عمر كان يأخذ عماله بموافاته الموسم فى كل سنة يحجر عليهم بذلك الظلم ويحجزهم به عنه .

---

(١) أسد الغابة (٣/٣٦٦) .
(٢) أسد الغابة (٣/٣٦٦) .
(٣) تاريخ الموصل الحدباء — ياسين العمرى — (٢٠٩) .
(٤) الطبرى (٣/٢٣٤) .
(٥) الخبيص : حلوى تعمل من التمر والسمن .
(٦) البلاذرى (٣٢٤) .

وكان شريفاً له صحبة ورواية[1] شهماً غيوراً نبيلاً مأمون النقيبة مؤمناً حقاً يعمل لعقيدته أكثر مما يعمل لنفسه ولولا ذلك لما تجشم مشقات الجهاد وعناء إدارة الناس ، وهو غنى وافر المال .

وكان نظيف الملبس مزواجا يكثر من الطيب ؛ قالت زوجه أم عاصم : « كنا عنده أربع نسوة ، فكنا نجتهد فى الطيب ، وأنه لأطيب منا ريحا[2] » .

القائد :

تتّسم قيادة عتبة ببعد النظر ، فعندما أصبح والياً على الموصل ، استطاع أن يفتح شمالى العراق كله بالتدريج وبأقل خسائر ممكنة بالأرواح على الرغم من وعورة تلك المناطق ووجود الجبال الشاهقة فيها .

والذين يعرفون درجة وعورة مناطق العراق الشمالية وطبيعة (آذربيجان) الجبلية ، وأن الذين فتحوا هذه المناطق الشاسعة ذات الجبال العالية والذرى الشاهقة هم من العرب أبناء الصحراء حيث لا جبال ولا وديان ، يقدّر كفاءة عتبة الممتازة فى القيادة .

لقد كان قائداً عقائدياً من الطراز الأول ، يتحلى بضبط متين وعقلية متزنة وقابلية بدنية فائقة ومعنويات عالية ، سريع القرار صحيحهُ ، له إرادة قوية ثابتة وشخصية رصينة نافذة ونفسية لا تتبدّل فى حالتى النصر والاندحار ، يتحمل مسؤوليته كاملة ويحب رجاله ويحبونه ويثق بهم ويثقون به ويعرف نفسيات مرؤوسيه وقابلياتهم ويعرف مبادىء الحرب ويطبقها ، يتمتع بمزية سبق النظر ، وله ماض ناصع مجيد .

---

(١) أسد الغابة (٣/٣٦٦) .

(٢) الإصابة (٤/٢١٦) .

عتبة في التاريخ :

تلك هي مزايا عتبة القائد الإنسان ، وذلك هو جهاده في سبيل إعلاء كلمة الله ، فلا عجب أن يفتح شرقي دجلة من شمـال الموصل حتى الحدود العراقية — التركية — الإيرانية وهي أقضية زاخو والعمادية ودهوك وعقرة من لواء الموصل بالإضافة إلى لوائي أربيل والسليمانية ، كما فتح معظم آذربيجان[1] الواقعة في إيران والمتاخمة للحدود العراقية — التركية — الروسية ، ونشر الإسلام في كل تلك الربوع .

كيف استطاع العرب أبناء الصحراء قهر جبال هذه المنطقة الواسعة وكلهم لم ير في حياته جبلا شاهقا ولم يمارس في حياته أساليب الحروب الجبلية ؟؟

ذلك أثر من آثار العقيدة الراسخة والإيمان العظيم ، والشجاعة النادرة والقيادة الحكيمة ممثلة في رهبان الليـل وفرسان النهـار من العرب المسلمين جنوداً ، وفي قائد الرجال وقاهر الجبال الصحابي الجليل عتبة بن فرقد السلمي عليه رضوان الله قائداً .

---

(١) حدود آذربيجان : من برذعة شرقا إلى ارزنجان غرباً وبلاد الديلم شمالا ، ومن أم مدنها : مراغة — تبريز — خوري — سلماس — أرمية — أردبيل — مرند وغير ذلك . وهو صقع جليل ومملكة عظيمة الغالب عليها الجبال وفيه قلاع كثيرة . راجع معجم البلدان (١/ ١٦٠) .

قادة فتح
الجزيرة

عياض بن غنم الفهري

فاتح الجزيرة[1]

إسلامه :

أسلم عِياض بن غَنْم الفِهْرى القرشى قديماً قبل الحديبية ، وشهد الحديبية مع رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] ، وبذلك نال شرف الصحبة وشرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد .

جهاده :

١ — في العراق :

كتب أبو بكر الصديق إلى خالد بن الوليد رضى الله عنهما بعد معركة اليمامة : « إن الله فتح عليك ، فعارق حتى تلقى عياضا » . وكتب إلى عياض

(١) الجزيرة : هى التى بين دجلة والفرات ، تشتمل على ديار مضر وديار ربيعة ، سميت (الجزيرة) لأنها بين دجلة والفرات . وهى صحيحة الهواء جيدة الريع والنماء واسعة الخيرات ، بها مدن جليلة وحصون وقلاع كثيرة . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٣/٩٦) وأنظر حدودها بالتفصيل فى المسالك — للاصطخرى — ص (٥٠) .

(٢) طبقات ابن سعد (٧/٣٩٨) والاصابة (٥/٥٠) وأسد الغابة (٤/١٦٤) والاستيعاب (٣/١٢٣٤) وصفة الصفوة (١/٢٧٧) وهناك من يعتقد أن عياض بن غنم وعياض بن زهير الفهرى هما شخص واحد ، وهناك من يعتقد أنهما شخصان . وأننى أرجح أنهما شخصان ، لأن عياض ابن زهير هاجر الهجرة الثانية إلى الحبشة وشهد بدراً وأحداً والخندق وتوفى بالمدينة سنة ثلاثين ، بينما عياض بن غنم لم يهاجر إلى الحبشة ولم يشهد بدراً وأحداً والخندق ومات سنة عشرين فى الشام . راجع عن عياض بن زهير طبقات ابن سعد (٣/٤١٧) والإصابة (٥/٤٩) وأسد الغابة (٤/١٦٣) والاستيعاب (٣/١٢٣٣) .

وهو بين (النباج)[1] والحجاز : « سِرْ حتى تأتى (المُصَيّخ)[2] فأبدأ بها ، ثم ادخل العراق من أعلاها ، وعارق حتى تلق خالدا »[3] ، أى أن أبا بكر كتب إلى خالد بن الوليد إذ أمّره على حرب العراق أن يدخلها من أسفلها ، وإلى عياض إذ أمّره على حرب العراق أيضاً أن يدخلها من أعلاها ، ثم يستبقا إلى (الحيرة) ، فأيهما سبق إليها فهو أمير على صاحبه[4] .

واستمد عياض أبا بكر ، فأمده برجل واحد هو عبد بن غوث الحميرى[5] وهو من أبطال العرب ، كما أمد خالداً برجل واحد أيضاً هو القعقاع بن عمرو التميمى ، وكتب إليه وإلى خالد : « استنفرا مَن قاتل أهل الردة ومَن ثبت على الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يغزون معكم أحد ارتد حتى أرى رأيى » ، فلم يشهد الأيام مرتد[6] .

وسار عياض إلى (دُوْمَة الجندل)[7] ليخضع أهلها المتمردين ، ثم يسير منها شرقاً إلى هدفه ؛ ولكنه لم يستطع فتح (دومة الجندل) ، فكتب إلى خالد بعد أن عجز عن فتحها يستمده على من بإزائه من العدو ، وكان خالد

---

(١) النباج : منزل لحجاج البصرة ، وهو موضع بين مكة والبصرة ، وهو من البصرة على عشرة مراحل . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٨/٢٤٣) .

(٢) المصيخ : مدينة بين حوران والقلت . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٨/٧٩) .

(٣) الطبرى (٢/٥٥٣) وابن الأثير (٢/١٤٧) .

(٤) الطبرى (٢/٥٥٤) .

(٥) عبد بن غوث الحميرى : بعثه أبو بكر إلى عياض لما استمده من العراق وشكا قلة من معه . راجع الإصابة (٥/١٠١) .

(٦) الطبرى (٢/٥٥٤) وابن الأثير (٢/١٤٧) .

(٧) دومة الجندل : حصن على سبع مراحل من دمشق ، تقع بين دمشق والمدينة . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٤/١٠٦) .

حينذاك قد فرغ من فتح (عين التمر)[1] ، فسار سيراً حثيثا نحو عياض ، فلما وصل (دومة الجندل) وجد عياضا قد حاصر أهلها وحاصروه ، وقد أخذوا عليه بالطريق وأشجوه وشجوا به ، فجعل خالد (دومة الجندل) بين عسكره وعسكر عياض .

وخرج أهلها لقتال المسلمين ، ولـكنهم لم يلبثوا أن انهزموا إلى الحصن ، فلما امتلأ أغلق مَن فيه أبوابه دون أصحابهم وتركوهم عرضة للقتل والأسر .

وأطاف خالد بباب الحصن ، ثم أمر به فاقتُلع . واقتحم المسلمون على من فيه وقتلوا كافة المقاتلة إلاّ أسارى بنى كلب الذين أمنهم بنو تميم[2] .

وعاد خالد ومعه عياض إلى الحيرة ، فاستخلفه عليها عندما خرج للقـاء عدوه فى (المصيخ)[3] ، لأن الحيرة أصبحت القاعدة المتقدمة للمسلمين وحمايتها ضرورية لأمن قواتهم المقاتلة فى ساحات القتال .

٢ — فى الشام :

استصحب خالد عياضا إلى أرض الشام عند نقله من منصب القائد العام فى العراق إلى منصب القائد العام فى الشام[4] ، فشهد مع خالد كافة معاركه فى طريقه إلى الشام ، وكان على أحد كراديس الميسرة فى معركة اليرموك[5] .

وفى معركة فتح دمشق كان عياض على الخيل[6] ، كما شهد مع أبى عبيدة

---

(١) عين التمر : بلدة قريبة من الأنبار غربى الـكوفة بقربها موضع يقال له (شفاثا) راجع معجم البلدان (٦/٢٥٣) .

(٢) الطبرى (٢/٥٧٨ — ٥٨٠) وابن الأثير (٢/١٥٢) .

(٣) الطبرى (٢/٥٨٠) .

(٤) الطبرى (٣/١٥٤) .

(٥) الطبرى (٢/٥٩٣) .

(٦) الطبرى (٢/٦٢٦) .

كافة معاركه فى أرض الشام ، وكان معه فى فتح (حلب)[1] على المقدمة ، وكان هو الذى أبرم الصلح مع أهل (حلب) ، فأنفذ أبو عبيدة صلحه[2] .

وعاد عياض إلى العراق ، وكان على الخيل عند تقدم المسلمين إلى (المدائن)[3] وشهد فتحها كما شهد معركة جلولاء[4] .

٣ — الفاتح :

لما قصد الروم أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين (بحمص)[5] ، كتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب بذلك ، فكتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص : « اندب الناس مع القعقاع بن عمرو وسرحهم من يومهم ، فإن أبا عبيدة قد أحيط به ! وسرح سهيل بن عدى إلى (الرَّقَّة)[6] ، فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص » . وأمره أن يسرح عبد الله

---

(١) حلب : مدينة عامرة بالأهل جدا ، على مدرج طريق العراق إلى الثغور وسائر الشامات ، انظر المسالك والممالك للاصطخرى ص (٤٦) وهى مدينة عظيمة واسعة كثيرة الخيرات طيبة الهواء وهى قصبة جند قنسرين . وحلب بلد مسوّر بحجر أبيض وفيه ستة أبواب وفي جانب السور قلعة . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٣١١/٣) .

(٢) البلاذرى ص (١٥٢) وفى رواية أنه عاد إلى العراق مع أهل العراق بعد معركة فتح دمشق فشهد القادسية تحت لواء سعد بن أبي وقاص . راجع الطبرى (٧٥/٣) .

(٣) المدائن : عاصمة كسرى ، اسمها بالفارسية (توسفون) وعربوه على (الطيسفون)، وإنما سمتها العرب المدائن لأنها سبع مدائن بين كل مدينة وأخرى مسافة قريبة أو بعيدة ، وهى الآن بليدة شبيهة بالقرية بينها وبين بغداد ستة فراسخ راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٤١٢/٧) واسمها اليوم سلمان پاك وفيها ضريح سلمان الفارسى .

(٤) الطبرى (٨٠/٣) .

(٥) حمص : بلد مشهور قديم كبير مسوّر ، وهى بين دمشق وحلب فى نصف الطريق . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٣٣٩/٣) والمسالك والممالك ص (٤٦) .

(٦) الرقة : مدينة مشهورة على الفرات . انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٧٢/٤) والمسالك والممالك (٥٣) .

ابن عبد الله بن عِتْبَان إلى (نَصِيْبِيْن)[1] ثم ليقصد (حَرّان)[2] و (الرُها)[3] وأن يسرح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ ، وأن يسرح عياض بن غنم ، فإن كان قتال فأمرهم إلى عياض .

وخرج عياض وأمراء الجزيرة ، فأخذوا طريق الجزيرة وتوجه كل أمير إلى المنطقة التي أمّر عليها[4] ، فأرسل سهيل بن عدى إلى (الرقة) فحاصرها ، فطلب أهلها الصلح وبعثوا فى ذلك إلى عياض ، فقبل منهم وصالحهم وصاروا ذمة ، كما فتح عبد الله بن عبد الله بن عتبان (نصيبين) صلحاً ، إذ كتب أهلها بذلك إلى عياض ، فقبل منهم وعقد لهم .

وتوجه عياض بعد أن ضم إليه سهيلا وعبد الله إلى (حران) فأجابه أهلها إلى الجزية ، فسرح سهيلا وعبد الله إلى (الرها) فأجابوهما إلى الجزية أيضاً ، فكانت الجزيرة أسهل البلدان فتحا[5] .

وبعد فتح الجزيرة على يد عياض حتى لم يبق بها موضع قدم إلا فتح على عهد عمر بن الخطاب[6] ، رجع سهيل وعبد الله إلى الكوفة والتحق عياض بأبى عبيدة الذى كتب إلى عمر يسأله أن يضم إليه عياضا ، فوافق عمر

---

(١) نصيبين : مدينة كبيرة عامرة فى بلاد الجزيرة . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٢٩٢/٨) والمسالك والممالك (٥٢) .

(٢) حران : مدينة عظيمة مشهورة فى الجزيرة . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٢٤١/٣) والمسالك والممالك ص (٥٤) .

(٣) الرها : مدينة في الجزيرة . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٣٤٠/٤) والمسالك والممالك ص (٥٤) .

(٤) الطبرى (١٥٤/٣) وابن الأثير (٢٠٥/٢) .

(٥) الطبرى (١٥٦/٣ — ١٥٧) وابن الأثير (٢٠٥/٢ — ٢٠٦) .

(٦) البلاذرى ص (١٧٩) والاستيعاب (١٢٤٣/٣) .

وصرفه إليه ، واستعمل حبيب بن مسلمة على عجم الجزيرة وحربها والوليد ابن عقبة على عربها[1] .

ولم يقتصر عياض على فتح الجزيرة ، بل دخل (الدرب)[2] وأجازه إلى (بَدْلِيس)[3] وبلغ (خِلاط)[4] فصالحه بَطْرِيقُها وانتهى إلى (العين الحامضة)[5] من أرمينية ، ثم عاد إلى الرقة ومضى إلى حمص[6] ، فكان عياض أول من أجاز (الدرب)[7] عبر الجزيرة إلى بلاد الروم ، وبذلك مهد للفتح الإسلامي فى أرمينية .

الإنسان :

كان عياض ممن نزل الشام من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم[8] ، فلما مات أبو عبيدة استخلف عياضا على (حمص)[9] وفى رواية أنه استخلفه

( ) الطبرى (٣/١٥٧) وابن الأثير (٢/٢٠٦) وهناك روايات مختلفة عن فتح الجزيرة . انظر ابن الاثير (٢/٢٠٦) والبلاذرى (١٧٦ — ١٨١) وكلها روايات مرجوحة لوضوح التباين فى تسلسلها التاريخى وتسلسلها الجغرافى أيضاً ، لذلك اخترنا الرواية التى ذكرناها فى أعلاه لقربها إلى العقل والمنطق وإلى الواقع من الناحية العسكرية فى تعاقب الفتح الإسلامى وتسلسله .

(٢) الدرب : الطريق ما بين طرسوس وبلاد الروم لأنه مضيق كالدرب . راجع معجم البلدان (٤/٤٨) .

(٣) بدليس : بلدة من نواحى أرمينية قرب خلاط ذات بساتين كثيرة راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٢/٩٠) .

(٤) خلاط : بلدة عامرة مشهورة وهى قصبة أرمينية الوسطى . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٣/٤٥٣) .

(٥) العين الحامضة : عين فى أرمينية .

(٦) ابن الاثير (٢/٢٠٧) ومعجم البلدان (٢/٩٠) و (٣/٤٥٣) .

(٧) الإصابة (٥/٥٠) والاستيعاب (٣/١٢٣٤) وأسد الغابة (٤/١٦٤) وابن الأثير (٢/٢٢٠) .

(٨) طبقات ابن سعد (٧/٣٩٨) .

(٩) الإصابة (٥/٥٠) .

على جند (حمص)[1] ، وأرجح هذه الرواية ، لأن عياضا كان دائماً فى ساحات القتال بعد موت أبى عبيدة مما يؤيد أنه كان غازياً لا والياً .

وسأل عمر بن الخطاب : « من استخلف أبو عبيدة ؟ » . فقالوا : عياض ابن غنم ، فأقره قائلا : « لا أبدل أميراً أمره أبو عبيدة »[2] وكتب إليه : « إنى قد وليتك ما كان أبو عبيدة يليه ، فأعمل بالذى يحق الله عليك »[3] ، ورزقه حين ولاه حمص كل يوم دينارا وشاة ومدا ، وبقى بمنصبه هذا حتى توفاه الله بالشام سنة عشرين للهجرة (٦٤٠م) وهو ابن ستين سنة ، أى أنه ولد سنة أربعين قبل الهجرة (٥٨٣ م) ودفن بحمص[4] .

مات عياض ولم يترك مالا ولم يكن عليه دين[5] ، إذ أنفق أمواله بسخاء فى سبيل الله ، فقد كان كريما جداً ، وكان يقال له : زاد الراكب ، لأنه كان يطعم رفقته ما كان عنده ، وإذا كان مسافرا آثرهم بزاده ، فان نفذ نحر لهم جمله[6] .

وكان سمحاً يعطى ما يملك ، فكلّم فيه عمر ، فقيل : « يبذّر المال ! » ، فقال : « إن سماحه فى ذات يده ، فاذا بلغ مال الله عز وجل لم يعط منه شيئاً ، ولا أعزل من ولاّه أبو عبيدة »[7] .

---

(١) طبقات ابن سعد (٣٩٨/٧) .

(٢) طبقات ابن سعد (٣٩٨/٧) والإصابة (٥٠/٥) وأسد الغابة (١٦٤/٤) والاستيعاب (١٢٣٤/٣) وصفة الصفوة (٢٧٧/١) .

(٣) طبقات ابن سعد (٣٩٨/٧) .

(٤) طبقات ابن سعد (٣٩٨/٧) والإصابة (٥٠/٣) وأسد الغابة (١٦٦/٤) والاستيعاب (١٢٣٤/٣) وابن الاثير (٢٢٠/٢ وانظر معجم البلدان (٩٩/٣) حول دفنه بحمص .

(٥) طبقات ابن سعد (٣٩٨/٧) .

(٦) الإصابة (٥١/٥) وأسد الغابة (١٦٥/٤) .

(٧) صفة الصفوة (٢٧٧/١) .

وفى أحد الأيام من أيام إمارته على أرض الشام ، قدم عليه نفرٌ من أهل بيته يطلبون صلته ، فلقيهم بالبشر وأنزلهم وأكرمهم ، فأقاموا أياماً ثم كلموه فى الصلة ، وأخبروه بما لقوا من المشقة فى السفر رجاء صلته ، فأعطى كل رجل منهم عشرة دنانير (وكانوا خمسة) ، فردّوها وتسخّطوا ونالوا منه ، فقال : « أى بنى عم ! والله ما أنكر قرابتكم ولا حقكم ولا بُعد شقتكم ، ولكن والله ما إلى ما وصلتكم به إلا ببيع خادمى وبيع مالا غنى بى عنه ، فاعذرونى ! » . قالوا : « والله ما عذرك الله ، فإنك والى نصف الشام وتعطى الرجل منا ما جهده أن يبلغه إلى أهله ؟ ! » ، قال : « فتأمرونى أسرق مال الله ، فوالله لأن أشق بالمنشار أحب إلى من أن أخون فلساً أو أتعدى ! ! » ، قالوا : « قد عذرناك فى ذات يدك ، فولّنا أعمالاً من أعمالك نؤدى ما يؤدى الناس إليك ونصيب من المنفعة ما يصيبون ، وأنت تعرف حالنا ، وأنّا لسنا نعدو ما جعلت لنا » ، قال : « والله إنى لأعرفكم بالفضل والخير ، ولكن يبلغ عمر أنى وليت نفراً من قومى فيلومنى » ، قالوا : « فقد ولاّك أبو عبيدة وأنت منه فى القرابة بحيث أنت ، فأنفذ ذلك عمر ، فلو وليتنا لأنفذه » ، قال : « إنى لست عند عمر كأبى عبيدة » ، فمضوا لائمين له[1]

إنه كان يحرص على أموال الأمة أكثر مما يحرص على ماله الخاص ، فسماحة فى ذات يده لا فى أموال المسلمين كما قال عنه عمر بن الخطاب ، وقد كان يفضل أن يشق بالمنشار على أن يسرق أو يتعدى ! !

وكان شاعراً من شعراء الفرسان . قال فى فتح الجزيرة[2] :

---

(١) صفة الصفوة (١/٢٧٧ — ٢٧٨) .

(٢) الطبرى (٣/١٥٧) ومعجم البلدان (٣/٩٨) .

مَن مُبلغُ الأقوام أن جموعنا ... حوت الجزيرة غير ذات زِحام

جمعوا الجزيرة والغياث فنفسوا ... عمن بحمص غَيابة القُدّام

إنّ الأعزّة والأكارم معشر ... فضوا الجزيرة عن فراخ الهام

غلبوا الملوك على الجزيرة فانتهوا ... عن غزو مَن يأوى بلاد الشام

وكان فاضلا سمحا[1] ، ذكره ابن الرقيات فيمن ذكره من أشراف قريش ، فقال[2] :

وعياض وما عياض بن غنم ... كان من خير من أجن النساء[3]

لهذه المزايا وثق به أبو عبيدة فاستخلفه ، ولم يستخلفه لأنه كان ابن عمه أو ابن خاله أو ابن عمته أو ابن زوجه[4] ، ولهذه المزايا أيضاً أقره عمر بن الخطاب ، ومن لا يستخلف مثله ومن لا يقر أمثاله ؟ ؟ .

القائد :

كان حازما يحرص غاية الحرص على غرس روح الضبط والطاعة فى نفوس رجاله ، فقد ذكروا أنه جلد[5] صاحب (دارا)[6] حين فتحت ، فأغلظ له

---

(١) الإصابة (٥/٥٠) وأسد الغابة (٤/١٦٠) .

(٢) الاستيعاب (٣/١٢٣٤) .

(٣) أجن الشيء فى صدره : أكنه ، وأجنّت المرأة ولداً ، أى أكنته فى بطنها . يريد خير من حملت النساء فى بطونها .

(٤) الإصابة (٥/٥٠) وأسد الغابة (٤/١٦٤) والاستيعاب (٢/١٢٣٤) .

(٥) كان الفاتحون يقضون قضاءاً مبرماً على حياة أعدائهم عند فتح بلادهم ، فإذا اكتفى عياض بالجلد فإن ذلك يعتبر رحمة منه بالنسبة لأعمال غيره من الفاتحين ، ومع ذلك فلم يسكت بعض رجاله عن عمله هذا واعترضوا له .

(٦) دارا : بلد فى لحف الجبل بين نصيبين وماردين ، انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٤/٥) .

هشام بن حكيم[1] القول حتى غضب عياض. ثم مكث ليالى فأتاه هشام واعتذر إليه، ثم قال: ألم تسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « إنّ من أشد الناس عذاباً أشدهم للناس عذاباً فى الدنيا؟ ». فقال عياض: « قد سمعنا ما سمعت ورأينا ما رأيت. أو لم تسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « من أراد أن ينصح لذي سلطان عامة فلا يبد له علانية ولكن ليخل به، فإن قبل منه فذاك، وإلا كان قد أدى الذى عليه! »[2] وعلى الرغم من إعجابنا الشديد بالروح الإنسانية التى دفعت هشام بن حكيم للدفاع عن إنسان يعذبه الأمير ولو كان هذا الإنسان فى ساحة قتال وعلى غير دينه، إلا أن ذلك من جهة ثانية يدل على حسن تصرف عياض فى عدم إفساح المجال لتغلغل روح الاعتراض بين رجاله على تصرفاته مما يكون له أسوأ الأثر على الضبط والطاعة فى ميدان القتال.

لقد كان قائداً عقائدياً من الطراز الأول، ولكنه لم يكن يتحلى بروح

---

(١) هشام بن حكيم الأسدى القرشى: أسلم يوم الفتح ومات قبل أبيه وقيل إنه استشهد فى معركة أجنادين. وكان من فضلاء الصحابة وخيارهم ممن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. ذكر مالك أن عمر بن الخطاب كان يقول إذا بلغه أمر ينكره: « أما ما بقيت أنا وهشام بن حكيم فلا يكون ذلك » وكان هشام فى نفر من أهل الشام يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ليس لأحد عليهم إمارة، فكانوا يمشون فى الأرض بالإصلاح والنصيحة يحتسبون.

وكان هشام رضى الله عنه كالسائح لم يتخذ أهلا ولا ولداً. راجع الإصابة (٦/٢٨٥) والاستيعاب (٤/١٥٣٩).

(٢) أسد الغابة (٤/١٦٥). هذا إذا كان يستطيع أن يخلو بالسلطان ليبدى له نصحه، وإذا كان السلطان من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن ذوى المثل العليا، أما إذا لم يستطع الناصح أن يخلو بالسلطان وكان هذا السلطان بعيداً عن المثل العليا وعن العقيدة الراسخة، فما على الناصح إلا أن يفضى بمكنون فؤاده للناس علانية بأى وسيلة من وسائل النشر والإذاعة والإعلان.

(المباغتة) و (التعرض) ، فبقى فى حصار مستكِنّ حول دومة الجندل مدة طويلة ، حتى أنقذه خالد من ورطته بالقضاء على مقاومة أهلها وفتحها بعد ذلك .

لقد كان عياض يثق برجاله ويثقون به وكان موضع ثقة مرجعه الأعلى ، فقد وثق به عمر وسعد بن أبى وقاص وأبو عبيدة بن الجراح ، كما كان يحب رجاله ويحبونه بل كان يحب كل النـاس ويؤثرهم بزاده على نفسه فى أحرج الأوقات ، وكان له ماض ناصع مجيد .

عياض فى التاريخ :

لا تزال رايات الإسلام ترفرف فى ربوع الجزيرة ، ولا يزال العـرب يسكنون هذه المناطق حتى اليوم .

كل ذلك يذكر سكان هذه المنطقة الشاسعة الغنية بالرجل الذى فتحها ، بالصحابى الجليل ، القائد الإنسان ، عياض بن غنم رضى الله عنه وأرضاه .

سهيل بن عدى الخزرجى

فاتح الرقة والرها وولاية كرمان

إسلامه :

أسلم سهيل بن عدى الخزرجى[1] مبكرا ، فقد شهد (بدرا) و(أحدا)[2] وقاتل تحت لواء النبى صلى الله عليه وسلم فى غزواته الأخرى ، فهو من الأنصار الأولين الذين نصروا الله ورسوله بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة .

جهاده :

كان أحد رجال جيش أسامة بن زيد إلى أرض الشام ، فلما عاد أسامة إلى المدينة ، جاهد المرتدين حتى عادوا إلى الإسلام ، فسار مع الفاتحين إلى أرض العراق ، وفى معركة الجسر استشهد أخوه الحارث[3] . وكان إلى جانب سعد

---

(١) ورد اسمه فى الإصابة (٣/١٤١) وأسد الغابة (٢/٣٦٨) : (سهل بن عدي) أما فى الطبرى (٣/١٨٩) وابن الأثير (٢/٢١٤) عند ذكر فتح الجزيرة وفى الطبرى (٣/٢٥٧) وابن الأثير (٣/١٧) عند ذكر فتح كرمان ، فقد ورد اسمه (سهيل ابن عدى) ، وقد أخذنا باسمه الذى ذكره الطبرى وابن الأثير نظراً لشهرته فى فتوحاته بهذا الاسم .

(٢) أسد الغابة (٢/٣٦٨) والإصابة (٣/١٤١) ، ولم يرد ذكره بين من شهد بدرا فى طبقات ابن سعد وفى سيرة ابن هشام وفى جوامع السيرة لابن حزم ... إلخ .

(٣) الحارث بن عدى الخزرجى الأنصارى : شهد أحداً وقتل يوم جسر أبى عبيد شهيداً . راجع الاصابة (١/٢٩٧) وأسد الغابة (١/٣٣٩) والاستيعاب (١/٢٩٧).

ابن أبي وقاص في معارك فتح العراق ؛ وقد بذل قصارى جهده في المعارك التي خاضها مما رشحه لتولي قيادة أحد جيوش المسلمين ، إذ كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما : « سرح سهيل بن عدى إلى الجزيرة في الجند ، وليأت الرقة[1] ، فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل (حمص)[2] » ؛ وكانت الجيوش الرومانية وحلفاؤها على قوات أبي عبيدة ابن الجراح في حمص وفي شمالي أرض الشام .

وخرج عياض بن غنم ومن معه من القادة ، فأرسل سهيلا إلى (الرقة) ، فسلك طريق (الفراض)[3] ، وكان قد ارفضّ أهل الجزيرة عن (حمص) إلى مناطقهم للدفاع عنها ، وذلك حين سمعوا بمقدم أهل الكوفة إلى أرضهم ، فحاصر سهيل الرقة حتى صالحه أهلها[4] .

ولما فتح سهيل (الرقة) انضم بقواته إلى قوات عياض ، فساروا جميعا إلى (حران)[5] ، فأجابه أهلها إلى الجزية[6] ؛ فسرّح سهيلا وعبد الله بن عبد الله بن عِتْبان إلى (الرُها)[7] ، فأجاب أهلها إلى الجزية أيضا ، فكانت الجزيرة أسهل البلدان فتحا[8] .

---

(١) الرقة : مدينة مشهورة على الفرات . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٢٧٢) .

(٢) الطبري (٣/١٥٤) .

(٣) الفراض : موضع على تخوم الشام والعراق والجزيرة في شرق الفرات . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٦/٣٥٠) .

(٤) الطبري (٣/١٥٦) وابن الأثير (٢/٢٠٥) .

(٥) حران : مدينة عظيمة مشهورة في الجزيرة . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٣/٢٤١) .

(٦) الطبري (٣/١٥٧) .

(٧) الرها : مدينة في الجزيرة . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٣٤٠) .

(٨) الطبري (٣٠/١٥٧) وابن الأثير (٢/٢٠٦) .

وعاد سهيل إلى الكوفة بعد ذلك ، ومن هناك تحرّك إلى البصرة ، وفيها استلم لواء (كَرْمَان)[1] ، فسار بجيشه لفتحها ، ولكنه قبل أن يتوجّه لفتحها كان له نصيب كبير فى مشاغلة القوات الفارسية وقطع إمداداتها[2] وتهديد خط رجعتها حتى يحـول دون مساعدتها لأهل (نَهَاوَنْد)[3] ، ولما انتصر المسلمون فى معركة (نهاوند) الحاسمة وأكمل سهيل متطلبات جيشه وأنجز تحشده قصد (كَرْمَان) ولحقه عبد الله بن عبد الله بن عتبان مددا له ، فالتقى الطرفان فى تخوم (كرمان) فانهزم الفرس ، ولكن المسلمين أخذوا عليهم الطرق[4] ، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وغنموا غنائم لا تعدّ ولا تُحصى[5] .

ولما كان القتال دائرا فى ولاية (مكران)[6] ، كان سهيل على رأس

---

(١) كرمان : ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقري واسعة . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٧/٢٤١) ، وانظر حدود كرمان وتفاصيل عنها فى المسالك والممالك للاصطخرى (٩٧ — ١٠٠) .

(٢) ابن الأثير (٣/٣) .

(٣) نهاوند : مدينة عظيمة فى قبلة (جنوب) همذان بينهما ثلاثة أيام . انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٨/٣٢٩) وهى على جبل بناؤها من طين ، ولها أنهار وبساتين وفواكه كثيرة . راجع المسالك والممالك (١١٨) .

(٤) الطبرى (٣/٢٥٥) والإصابة (٣/١٤١) .

(٥) ابن الأثير (٣/١٧) والطبرى (٣/٢٥٥) وفى البلاذرى ص (٣٩٤) أن الذى فتحها هو عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعى وهذا غير صحيح لأن عبد الله الخزاعى كان صبياً فى أيام عمر بن الخطاب إذ قتل فى صفين وله من العمر أربع وعشرون سنة .

(٦) مكران : راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٨/١٣٠) وفى المسالك والممالك ص (١٠٢) .

جيشه مددا المسلمين ، وبذلك رجحت كفة المسلمين على الفرس ، ففتح المسلمين (مكران) أيضا[1] .

الإنسان :

كان سهيل شاعراً رقيقاً يصف معاركه وصفاً دقيقا ، قال في فتح الرقة[2] :

وصادمنا الفرات غداة سرنا ... إلى أهل الجزيرة بالعوالى

أخذنا الرقة البيضاء لما ... رأينا الشهر لوح بالهلال

وأزعجت الجزيرة بعد خفض ... وقد كانت تخوف بالزوال

وكان مؤمنا قوى الإيمان ، حريصا على الدفاع عن عقيدته ، كرّس حياته كلها لرفع مكانة الإسلام فى الجزيرة العربية وخارجها ، وبذل فى سبيل ذلك جهوداً جبارة دون أن يقتنى من جهاده مالا ولا عقاراً ، مما يدل على أنه كان يعمل لعقيدته لا لجيبه ، وأنه استغل نفسه لخدمة الناس ولم يستغل أحداً لخدمة نفسه .

وكان وفيا كريما مضيافا سمحاً شهماً غيوراً صادقاً فى قوله وعمله .

أما أعماله بعد الفتح ، فلا نعلم عنها شيئاً ، كما لا نعلم أين استقرّ ولا متى وأين ذهب ، ولكن ما قيمة كل ذلك بالنسبة إلى ما تركه من فضائل وما خلّفه من آثار فى الفتح ! ؟

القائد :

يمتاز سهيل بالقدرة الفائقة فى قتال المشاغلة ، فقد نجح بمشاغلة عدوه

(١و٢) معجم البلدان (٤/٢٧٢) .

بقوة قليلة فحال بينه وبين معاونة قواته الأصيلة فى المناطق الحيوية من مناطق القتال .

وليست مشاغلة العدو فى أهداف تعبوية لإجباره على توزيع قواته وصرفها عن أهدافها السوقية بالأمر الهين اليسير ، إذ هى تحتاج إلى قائد ممتاز يتميز بسرعة الحركة ويعرف متى وكيف وأين يشاغل قوات عدوه لإجباره على الانقياد لرغبات ذلك القائد ، فيقضى عليه فى الزمان والمكان المناسبين .

وكما نجح سهيل فى قتال المشاغلة ، فقد نجح فى هجومه المدبّر على القوات الفارسية فى ولاية (كِرْمان) ، فاستطاع بقواته القليلة بالنسبة لسعة تلك المنطقة أن ينتصر بسرعة ويسر على أعدائه ، وهذا يدلّ على أنه كان قديراً فى إعداد الخطط الدقيقة وفى إعطاء القرارات السريعة السديدة ، كما يدل على تمتعه بشخصية قوية نافذة وعلى تحمله المسؤولية وعلى ثقته برجاله وحبه لهم وعلى ثقتهم به وحبهم له ، وكان ماضيه الناصع المشرف من العوامل التى ضاعفت ثقة قواته به وحبهم له وتقديرهم لقابلياته العالية فى القيادة .

سهيل فى التاريخ :

كان لنجاح سهيل فى مشاغلة أهل الجزيرة ، أثر حاسم فى انتصار أبى عبيدة فى (حمص) على الروم ، وفى فتح الجزيرة التى تعتبر المنطقة الدفاعية القصوى للدفاع عن عاصمة الروم : القسطنطينية .

وكان لنجاحه فى مشاغلة الفرس أثر حاسم فى انتصار المسلمين على القوات الفارسية فى معركة (نهاوند) الحاسمة .

إن نجاحه هذا كفيل بتخليده فى التاريخ ، ولكنه أضاف إلى هذا النجاح نصراً آخر لا يقل أهمية عن نجاحه الأول ، وهو فتحه بعض بلدان الجزيرة وفتحه ولاية (كرمان) الغنية بثروتها الزراعية والصناعية .

ولكنه لم يقف عند هذا الحد من النجاح والنصر ، بل ساند قائد ولاية (مكران) فى مهمة فتحها . .

رضى الله عن الصحابى الجليل ، القوى الأمين ، القائد الفاتح ، سهيل ابن عدى الأنصارى .

عبد الله بن عبد الله بن عتبان الأنصاري [1]

فاتح نَصِيْبَيْن والرُّها وأصبهان

إسلامه :

كان عبد الله بن عبد الله بن عِتْبَان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] ، ولكننا لا نعرف متى أسلم ولا الغزوات التي شهدها تحت لواء الرسول القائد ، والظاهر أنه كان صغيراً أيام النبي صلى الله عليه وسلم ، فحرم من شرف الجهاد مع النبي ولم يحرم من شرف الصحبة .

جهاده :

شهد عبدالله حرب أهل الردة[3] ، فلما عاد المرتدون إلى الإسلام وشملت الوحدة شبه الجزيرة العربية ثانية ، سار عبد الله مع الفاتحين إلى العراق[4] ،

---

(١) أورد الطبري في (٣/١٥٩) ومعجم البلدان في (٨/٢٩٢) اسمه : عبد الله ابن عبد الله بن عتبان ، وهذا يتفق مع ما ورد في الإصابة (٤/٩٧) وأسد الغابة (٣/١١٩) من أن عبد الله بن عبد الله بن عتبان هو فاتح نصيبين . أما ابن الأثير في (٢/٢٠٥) فذكر اسمه : عبد الله بن عتبان فنقل ذلك عنه الدكتور محمد حسين هيكل في (١/٢٢٦) من كتابه : الفاروق عمر . والصحيح ما ذكرناه أعلاه . لأن عبد الله ابن عتبان هو والد عبد الله بن عبد الله بن عتبان . والولد لا الوالد هو الذي فتح نصيبين . انظر ترجمة عبد الله بن عتبان الوالد في الإصابة (٤/١٠٠) وقد استشهد رضي الله عنه في معركة اليمامة .

(٢) الإصابة (٤/٩٧) وأسد الغابة (٣/١١٩) .

(٣) الإصابة (٤/٩٧) .

(٤) ابن الأثير (٢/٢٠٥) .

فجاهد هناك جهاد الأبطال فاستحق لجهاده المشرف تولى قيادة جيش من جيوش المسلمين ، إذ كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص : سرّح سهيل بن عدى إلى (الرَّقَّة) ، فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل (حمص) ، وأمره أن يسرح عبدالله بن عبدالله بن عتبان إلى (نَصِيبِيْن)[1] . ثم ليقصد (حَرَّان)[2] و (الرُّها)[3] ؛ فسلك عبد الله الطريق المحاذية إلى مدينة (الموصل) ، وعبر من هناك حتى وصل (نصيبين) ، فصالحه أهلها وعقد لهم عبد الله[4] .

ولما أعطى أهل (الرقة) الصلح لسهيل بن عدى وأهل (نصيبين) الصلح لعبدالله ، ضم عِياض بن غَنْم إليه سهيلاً وعبدالله ، وسار بالناس إلى (حَرَّان) وأخذ ما دونها ، وعندما انتهى إليها أجابه أهلها إلى الجزية ؛ فسرّح سهيلاً وعبدالله إلى (الرُها) فأجابهما أهلها إلى الجزية أيضاً ، فكانت الجزيرة أسهل البلدان فتحاً[5] .

وعاد عبدالله إلى الكوفة بعد انتهاء واجبه في الجزيرة ، فكان يعاون سعد بن أبي وقاص في إنجاز مهامه الجسيمة . ولما استدعى عمر بن الخطاب سعداً إلى المدينة ، استخلف سعدٌ على الكوفة عبدالله ، فأقَرَّه عمر واستعمله[6] ،

---

(١) نصيبين : مدينة كبيرة عامرة فى بلاد الجزيرة . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٨/٢٩٢) .

(٢) حران : مدينة عظيمة مشهورة فى الجزيرة . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٣/٢٤١) .

(٣) الرها : مدينة فى الجزيرة . انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٤/٣٤٠) .

(٤) ابن الأثير (٢/٢٠٥) .

(٥) انظر الطبرى (٣/١٥٦ ـ ١٥٧) وابن الأثير (٢/٢٠٥ ـ ٢٠٦) .

(٦) الطبرى (٣/٢٠٩) وابن الأثير (٣/٣) .

وكتب إليه ليستنفر أهل الكوفة إلى النعمان بن مُقَرِّن المُزَنِي ، فأرسل عبدالله من الكوفة إلى النعمان جيشاً بقيادة حذيفة ابن اليمان[1] ، فكان لهذا الجيش أثر كبير فى انتصار المسلمين على الفرس فى معركة (نهاوند) الحاسمة .

ولكن ، هل يبقى عبدالله أميراً على الكوفة ؟ إنّ مكانه فى ساحات القتال غازياً لا فى عرصات القصور والياً ، لذلك وجّهَ عمر بن الخطاب قائداً لفتح منطقة (أصبهان)[2] وأمدّه بأبى موسى الأشعرى من البصرة ؛ فخرج عبدالله من (نهاوند) فيمَن كان معه ومَن تابعه من جند النعمان بن مُقَرِّن المُزَنِي نحو هدفه ، فلقيه جيش عظيم من الفرس فى ظاهر (أصبهان) ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، وكان على مقدمة الفرس شيخ طاعن فى السن هو (شهر براز)[3] ابن جاذويه ، وكان من أبطال الفرس المعدودين ، فدعا هذا الشيخ المسلمين إلى البراز ، فبرز له عبدالله ابن ورقاء الرياحى[4] فقتله ، فلما رأى الفرس استقتال المسلمين فروا من ساحة المعركة ، ففتح المسلمون أول رستاق من منطقة (أصبهان) وأطلقوا عليه رستاق الشيخ[5] ذكرى للفارس الشيخ الذى خرّ صريعاً فى ابتداء المعركة .

---

(١) الطبرى (٢١٣/٣) .

(٢) أصبهان : أو أصفهان : مدينه عظيمة كانت عاصمة إقليم من أقاليم العراق العجمى يطلق عليه اسمها ، وكانت تتألف من مدينتين متجاورتين : جى واليهودية . وجى هى القصبة وهى من أصح المواضع تربة وأطيبها هواء وأعذبها ماء ، ولهذا اختارها الملوك سكناً لهم . انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٢٦٩/١) .

(٣) شهر براز كما جاء اسمه فى الطبرى (٢٠٤/٣) ، أما اسمه فى الفارسية فهو شهريار . انظر الفاروق عمر (٣٨/٢) للدكتور محمد حسين هيكل .

(٤) عبد الله بن ورقاء الرياحى كان على المقدمة فى معركة فتح أصبهان ، انظر الإصابة (٩٦/٥) .

(٥) ابن الأثير (٧/٣) . والرستاق مجموعة من القرى .

وتراجع الفرس إلى (جي)[1] يحتمون بأسوار (أصبهان) المنيعة ويتحصنون بقلاعها الشامخة ، فحاصرهم المسلمون وطال الحصار كثيراً ، فخرج الفرس واصطف الجيشان للقتال ، ولكن قائد الفرس[2] بعث إلى عبد الله يقول :

« لا تقتل أصحابي ولا أقتل أصحابك ، ولكن ابرز لي فإن قتلتك رجع أصحابك ، وإن قتلتني سالمك أصحابي — وإن كان أصحابي لا تقع لهم نشابة » .

فبرز له عبد الله وقال لقائد الفرس : « إمّا أن تحمل عليّ وإما أن أحمل عليك ! » ، فقال الفارسي : « أحمِلُ عليك » ، فوقف له وحمل عليه قائد الفرس وطعنه طعنة أصابت سرج فرسه فكسرته ، فوقع عبد الله ثم استوى على الفرس عرياً من دون سرج وقال لخصمه : « اثبت ! » ، ولكن خصمه استكان بعد أن عرف أنه الموت الزؤام ، وقال لعبد الله : « ما أحب أن أقاتلك فإني قد رأيتك رجلاً كاملاً ، ولكن أرجع معك إلى عسكرك فأصالحك وأدفع المدينة إليك على أنّ منَ شاء أقام ودفع الجزية وأقام على ماله وعلى أنْ تجرى من أخذتم أرضه مجراهم ويرجعون ، ومَن أبى أن يدخل فيما دخلنا فيه ذهب حيث شاء ولكم أرضه » ، فأقرّ عبد الله هذا الصلح على هذه الشروط[3] . وبذلك أنجز المسلمون فتح كافة منطقة (أصبهان)[4] .

(١) جي : قصبة أصبهان وتسمى الآن عند العجم : شهرستان . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/١٩٦) .

(٢) كان يطلق على هذا القائد لقب (الفاذوستان) وهو لقب يطلق على أربعة أشخاص فقط من الفرس م حكام الدولة الفارسية . انظر كتاب الفاروق عمر (٢/٣٨) للدكتور هيكل .

(٣) الطبري (٣/٢٢٤) ، ومن أراد الاطلاع على نص وثيقة الصلح بين الطرفين فليراجع الطبري (٣/٢٢٥) . أما البلاذري في ص (٣٠٨) فيذكر أن فاتح أصبهان هو عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي ، وهذا غير صحيح ؛ لأن عبد الله الخزاعي كان له أربع وعشرون سنة من العمر يوم قتل في (صفين) فكان في أيام عمر بن الخطاب صبيا . انظر الطبري (٣/٢٢٣) . ويذكر البلاذري أيضاً أن فاتحها هو أبو موسى الأشعري ، والصحيح أنه شهد فتحها مدداً لعبد الله بن عبد الله بن عتبان . انظر الطبري (٣/٢٢٥) ومعجم البلدان (١/٢٨٣) .

(٤) الإصابة (٤/٩٧).

فهل آن لهذا القائد أن يستريح ؟ كلا ، فقد قرر عمر بن الخطاب أن يرسله مدداً إلى سهيل بن عدى لفتح منطقة (كَرْمان)[1] ، فكتب إليه : « سر حتى تَقْدم على سهيل بن عدى فتجامعه على قتال مَن بكرمان »[2] ، فأسرع عبد الله برجاله حتى لحق بسهيل ، ففتحا (كرمان) بعد قتال[3] .

الإنسان :

كان عبد الله شاعراً يعبّر شعره عن نفسيته أصدق تعبير : حب للسلام والعدل بدون قيد أو شرط لمن يريد ذلك ، أما لدعاة الحرب فليس لهم إلاّ السيف . قال فى فتح (نصيبين)[4] .

ألا مَنْ مبلغٌ عنى بجيراً فما بينى وبينك من تعادى
فإن تقبل تلاقِ العدل فينا فأنسى ما لقيتُ من الجهاد
وإن تدبر فمالك من نصيب نصيبين فتحلق بالعباد
وقد ألقت نصيبين إلينا سواد البطن بالخرج الشداد
لقد لقيت نصيبين الدواهى بدهم الخيل والجرد الوراد

وشعره هذا من السهل الممتنع ، قوى المعنى متين المبنى ، يدل على شاعرية أصيلة .

لقد كان شجاعاً بطلاً من أشراف الصحابة ومن وجوه الأنصار[5] ،

---

(١) كرمان : ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ، ذات بلاد وقرى واسعة ، راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٢/٢٤١) . وانظر حدود كرمان وتفاصيل وافية عنها فى المسالك والممالك للاصطخرى (٩٧ — ١٠٠) .

(٢) الطبرى (٣/٢٢٤) :

(٣) الطبرى (٣/٢٢٥) .

(٤) معجم البلدان (٨/٢٩٣) .

(٥) الطبرى (٣/٢٢٢) والإصابة (٤/٩٧).

وكان كريماً مضيافاً معطاء لم يبق له كرمه الأصيل مالاً ولا ملكا ، وكان قد أصاب من غنائم الفتح مالاً عظيما[1] .

وكان شهماً غيوراً صادقا وفياً ميمون النقيبة ورعاً غاية الورع ، همّه من الدنيا نشر عقيدته بين الناس ، وقد وفق لنشر الإسلام فى منطقة الجزيرة وفى مناطق واسعة من أرض فارس ، وكان ذلك أكبر إنجازاته فى حياته .

وكان قارئا كاتبا ، وهو الذى تولى كتابة وثيقة الصلح بين المسلمين وبين أهل مدينة (جَىّ)[2] .

ولسنا نعلم عن أيامه الأخيرة شيئاً ، فقد سكت المؤرخون عن ذكرها ، وكان بودنا لو أفاضوا بالحديث عنها ، لتكون أعماله قدوة حسنة للذين يريدون أن يسلكوا (حقاً) سواء السبيل .

القائد :

كان عبد الله جندياً ممتازاً وقائداً ممتازاً ، فقد كان شجاعاً غاية الشجاعة مدرباً تدريباً رائعاً على استعمال سلاحه وعلى الفروسية ، لهذا كان مثالاً حياً لرجاله فى الشجاعة والإقدام .

وإذا كان بعض القادة يكتفون بتنظيم الخطط العسكرية والإشراف على تنفيذها ، فإن عبد الله يضيف إلى ذلك مباشرته القتال بنفسه فى أخطر المواقف ، فيقدم على مبارزة قادة أعدائه وشجعانهم ، فيكون انتصاره عليهم عاملاً نهائياً لاستسلام أعدائه للمسلمين .

لقد اجتمعت فى عبد الله مزايا الشجاعة الشخصية ، والتدريب الراقى ،

---

(١) الطبرى (٣/٢٢٥).

(٢) أسد الغابة (٣/١٩٩) .

والتجربة الطويلة للحروب ، والذكاء اللماح ، والماضي الناصع المجيد ، والشخصية القوية ، والإرادة النافذة ، وحبه للمسؤولية ، فلا عجب أن تكون قراراته صحيحة تؤدى دائما إلى النصر المبين .

وعند تطبيق أعماله الحربية على مبادىء الحرب ، نجد أنه كان قائداً تعرضياً كل معاركه (تعرضية) يعمل على إنجاز (تحشيد قواته) ويبذل قصارى جهده لكى (يديم معنوياتها) حتى ولو كان ذلك على حساب تعرض حياته للخطر المباشر كما فعل عند مبارزته لقائد الفرس فى معركة فتح (أصبهان) .

ابن عتبان فى التاريخ :

برز عبدالله فى قتال المشاغلة وفى الحصار الطويل وفى الهجوم ، و كانا أدلة قاطعة على أصالة قيادته .

إن التاريخ يذكر له فتوحاته فى الجزيرة وفى بلاد فارس ، ويذكر له جهوده لنشر الإسلام فى تلك الربوع .

رضى الله عن القائد الفاتح ، الفارس البطل ، الصحابى الجليل عبد الله ابن عبد الله بن عتبان الأنصارى .

الوليد بن عقبة بن أبي معيط الأموي

فاتح منطقة عرب الجزيرة[1] وفاتح أذْرَبيْجَان[2] وبعض إرْمِيْنيَة[3] ثانية

« أرى لابن أروى خلتين اصطفاهما
قتال إذا يلقى العدو ونائله »
(الحطيئة)

نسبه وأهله :

هو الوليد بن عُقْبَة بن أبي مُعَيط بن أبي عمرو بن أُمية بن عبد شمس ابن عبد مناف القرشي الأموي ، ويكنى : أبا وَهْب ، وهو أخو عثمان

---

(١) الجزيرة : هي التي بين دجلة والفرات ، تشتمل على ديار مضر وديار ربيعة . سميت : الجزيرة ، لأنها بين دجلة والفرات . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٣/٩٦) ، وانظر حدودها التفصيلية في المسالك والممالك ص (٥٠) .

(٢) أذربيجان : كلمة : أذربيجان في الفارسية معناها : أرض النار أو معابد النار ، وقد أطلق عليها هذا الاسم لكثرة معابد النار التي كانت موجودة فيها حينذاك . وأذربيجان : صقع جليل ومملكة عظيمة ، الغالب عليها الجبال . أشهر مدنها : تبريز ، وهي قصبتها . انظر التفاصيل في معجم البلدان (١/١٥٩) والمسالك والممالك ص (١٠٨) .

(٣) أرمينية : بلاد واسعة بين أذربيجان والروم ، ذات مدن وقلاع وقرى كثيرة ، وهي أربع أرمينيات : الأولى والثانية والثالثة والرابعة . انظر التفاصيل في آثار البلاد وأخبار العباد ص (٤٩٥) ومعجم البلدان (١/٢٠٤) .

ابن عفان لأمه ، أمهما : أرْوَى بنت كُرَيْز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس ابن عبد مناف[1] .

أبوه عُقْبَة بن أبي مُعَيْط كان من أشد الناس أذى للنبي صلى الله عليه وسلم[2] ، شهد (بدراً) مع المشركين فوقع أسيرا بيد المسلمين ، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بقتله[3] ، على اعتبار أنه مجرم حرب ، فقتل لجرائمه النكراء التي اقترفها ضد الإسلام والمسلمين .

واسم أبي مُعَيْط : أبان بن أبي عمرو . واسم أبي عمرو : ذكوان بن أمية ابن عبد شمس[4] ، وكان أبو عمرو هذا عبداً استلحقه أمية وكناه : أبا عمرو ، فقد خرج أُمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين ، فوقع على أمة لبنى لَخم يهودية من أهل (صَفُّورية)[5] يقال لها : (ترْنا) ، فولدت له ذكوان ، فادعاه أمية واستلحقه ، ثم قدم به مكة ، فلذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لعقبة بن أبي معيط يوم أمر بقتله : « إنما أنت يهودى من أهل (صَفُّورِية)[6] » .

وأخوه : عُمارة بن عُقبة أسلم يوم فتح مكة[7] . وأخوه : خالد بن عقبة

---

(١) طبقات ابن سعد (٧/٤٧٦) والإصابة (٦/٣٢١) وأسد الغابة (٥/٩٠) والاستيعاب (٤/١٥٥٢) والمعارف ص (٣١٨ - ٣١٩) .

(٢) انظر سيرة ابن هشام (١/٣٨٥) و (٢/٢٥) والإصابة (٦/٣٢١) .

(٣) الإصابة (٦/٣٢١ وسيرة ابن هشام (٢/٢٨٦) و (٢/٣٥٦) وطبقات ابن سعد (٢/١٨) .

(٤) الاستيعاب (٤/١٥٥٢) وأسد الغابة (٥/٩٠) .

(٥) صفورية : كورة وبلدة من نواحي الأردن بالشام ، وهى قرب طبرية : انظر معجم البلدان (٥/٣٦٩) .

(٦) المعارف ص (٣١٨ - ٣١٩) .

(٧) الإصابة (٦/٣٢١) والمعارف ص (٣٢٠) .

كان من سَرَوَاتهم ، أسلم يوم فتح مكة أيضاً وشهد جنازة الحسن بن على من بين بنى أمية .

لقد كان الوليد من بيت رفيع العماد من قريش .

مع النبي :

أسلم الوليد يوم الفتح[1] ، فقد قال : « لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، جعل أهل مكة يأتونه بصبيانهم ، فيمسح على رؤوسهم ويدعو لهم بالبركة . فأتى بى إليه وأنا مضمّخ بالخَلوق[2] ، فلم يمسح على رأسى ، ولم يمنعه من ذلك إلاّ أن أُمى خَلّقتنى ، فلم يمسحنى من أجل الخلوق » . وهذا الحديث منكر مضطرب لا يصح ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم بعث الوليد مصدقا[3] ، ولا يمكن أن يكون من بُعث مصدقاً فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم صبياً يوم الفتح . كما أن الوليد وعُمارة ابنى عقبة خرجا ليردا أختهما أم كلثوم من الهجرة ، وكانت هجرتها فى الهدنة بين النبى صلى الله عليه وسلم وبين أهل مكة ، ومن كان غلاماً مخلقاً يوم الفتح لا يجيء منه مثل هذا ، ولا يقدر أن يرد أخته قبل الفتح[4] . ومما يدل على أنه كان رجلا يوم الفتح قدومه فى فداء ابن عم أبيه الحارث بن أبى وجزة بن أبى عمرو بن أمية ، وكان أسر يوم (بدر) فافتداه بأربعة آلاف[5] .

---

(١) المعارف ص (٣٢١) ، وانظر أسد الغابة (٥/٩٠) حول إسلامه يوم فتح مكة .

(٢) الخلوق : ضرب من الطيب . وخلقه تخليقاً : طلاه به فتخلق .

(٣) المصدق : عامل الزكاة الذى يستوفيها من أربابها .

(٤) الاستيعاب (٤/١٥٥٢ – ١٥٥٣) وأسد الغابة (٥/٩٠ – ٩١) .

(٥) الإصابة (٦/٣٢٢) .

لقد كان رجلاً حين أسلم يوم الفتح ، وقد بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلى بنى (المُصْطَلِق) مصدقاً فى أوائل السنة التاسعة للهجرة ، أى بعد إسلامهم بعامين[1] ، فلما رأوه أقبلوا نحوه فهابهم ، فرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره أنهم قد ارتدوا عن الإسلام ، وأبوا من أداء الزكاة ، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد وأمره أن يتثبت فيهم ، فأخبروه أنهم يتمسكون بالإسلام ، فنزلت الآية الكريمة بحق الوليد : (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة)[2] ، وكان سبب رجوع الوليد قبل أن يتبين أمرهم ، هو خروجهم لاستقباله ، فظن أنهم يريدون قتاله ، وكان بينه وبينهم إحنة ، فرجع من حيث أتى[3] .

وجرى مرة بين الوليد وعلى بن أبى طالب تنازع وكلام فى شيء ، فقال الوليد لعلى : « أسكت فإنك صبى ، وأنا والله أنشط منك لساناً وأحد منك سنانا وأشجع منك جنانا وأملأ منك حشوا فى الكتيبة » ، فقال له على : « اسكت فإنك فاسق » ، فنزل قوله تعالى : (أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقا ، لا يستوون !)[4] . .

---

(١) السيرة الحلبية (٢٦٤/٢)

(٢) المعارف ص (٣١٩) والاستيعاب (١٥٥٣/٤) والإصابة (٣٢١/٦) وأسد الغابة (٩١/٥) . وانظر تفسير هذه الآية الكريمة فى تفسير ابن كثير (١١/٨ ـ ١٢) وبهامشه تفسير ابن البغوى (١٠/٨ وتفسير الزمخشرى (١٢١/٣) وتفسير البيضاوى (٨٧/٥) وفى ظلال القرآن (١٣٣/٢٦) . وانظر سيرة ابن هشام (٣٤٠/٣ ـ ٣٤١) .

(٣) تفسير البيضاوى (٨٧/٥) .

(٤) انظر تفسير ابن كثير (٤٩١/٦) والبغوى على هامش ابن كثير (٤٩٠/٦ ـ ٤٩١) . وانظر ما جاء حول ذلك من الاستيعاب (١٥٥٤/٤) والأغانى (٣٥٦/٤) والسيرة الحلبية (٨٣/٢) .

لقد شهد الوليد بعد إسلامه غزوات النبى صلى الله عليه وسلم التى كانت بعد فتح مكة ، وبذلك نال الوليد شرف الصحبة وشرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد .

جهاده :

١ — في الجزيرة :

كان العراق ميداناً لجهاد الوليد ، فقد كان مع خالد بن الوليد هناك فأرسله إلى أبى بكر الصديق قبيل معركة (المذار) ببقية الخمس وبالفتح[1] ، فلما قدم الوليد من عند خالد على أبى بكر وجّهه إلى عياض بن غنم وأمدّه به ، فقدم الوليد وعياض فحاصرهم فى (دُومة الجندل) وهم محاصروه . وقد أخذوا عليه بالطريق ، فقال له : « الرأى فى بعض الحالات خير من جند كثيف . ابعث إلى خالد فاستمدّه » ، ففعل عياض[2] .

ولما استسلمت (دُومة الجندل) للمسلمين ، ولى أبو بكر الوليد صدقات قضاعة ، ثم خيره بين أن يبقى (جابياً) وبين أن يكون (غازياً) فأجابه بإيثار الجهاد وندب الناس للجهاد[3] .

وكان الوليد فى العراق حين قصد الرومُ أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين بحمص ، كتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب بذلك ، فكتب عمر إلى سعد بن أبى وقاص : « أن يسرح سُهيل بن عَدِىّ وعبد الله ابن عبد الله بن عِتبَان ، وأن يسرح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من

---

(١) الطبرى (٥٥٧/٢) .
(٢) الطبرى (٥٧٨/٢) .
(٣) الطبرى (٥٨٨/٢) .

ربيعة وتنوخ ، وأن يسرح عياض بن غَنْم ؛ فإن كان قتال فأمرهم إلى عياض ، فإن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص » .

وخرج عياض وأمراء الجزيرة فأخذوا طريق الجزيرة ، وتوجه كل أمير إلى المنطقة التي أُمِّر عليها[1] .

وقدم الوليد على عرب الجزيرة فنهض معه مسلمهم وكافرهم إلا بنى إياد ابن نزار ، فإنهم ارتحلوا إلى أرض الروم . وكتب الوليد إلى عمر بن الخطاب بالمدينة يخبره بما صنعوا وأقام ينتظر جوابه فى أمرهم . وكتب عمر إلى (هرقل) ملك الروم يقول : « بلغنى أن حياً من أحياء العرب ترك دارنا وأتى دارك ! فوالله لتخرجنه إلينا أو لنخرجن النصارى إليك » ، فلم يجد هرقل بُداً من النزول على ما أراد عمر ، فأخرج إياداً من بلاده ؛ فعاد أربعة آلاف منهم إلى منازلهم التى فتحها المسلمون ، وتفرق بقيتهم فيما يلى الشام والجزيرة من بلاد الروم ، فكل إيادى فى أرض العرب من أولئك الأربعة آلاف[2] ، وإنما كتب عمر إلى هرقل هذا الكتاب ، حتى لا يتخذ المنهزمون أمام المسلمين أرض عدوهم ملجأ يتحصنون به ليوم ثأر ، وحتى يجمع العرب كلهم فى صعيد واحد تحت سلطان واحد[3] .

وأبى الوليد أن يقبل من تغلب إلا الإسلام ، وكتب بذلك إلى عمر ، فكتب إليه عمر : « إنما ذلك لجزيرة العرب ، لا يُقبَل منهم إلا الإسلام ، فدعهم على ألا يُنصّروا وليداً ولا يمنعوا أحداً منهم من الإسلام » فلما بلغهم حكم عمر رضى بعضهم أن يدخل فى دين الله وأصر بعضهم على نصرانيته ،

---

(١) الطبرى (٣/١٥٤) وابن الأثير (٢/٢٠٥) .

(٢) الطبرى (٣/١٥٧) وابن الأثير (٢/٢٠٦) .

(٣) الفاروق عمر للدكتور هيكل (١/٢٦٩) .

ثم لم يقبل هؤلاء أن يكونوا أهل ذمة يؤدون الجزية[1] .

وذهب وفد من تغلب إلى المدينة ، وكان بينهم بعض من أسلم منهم ، فقال مسلموهم لعمر : « لا تنفروهم بالخراج فيذهبوا ، ولكن ضعّفوا عليهم الصدقة التي تأخذونها من أموالهم فيكون جزاء ، فإنهم يغضبون من ذكر الجزية ، على ألا ينصّروا مولوداً إذا أسلم آباؤهم » . وأصرّ عمر على أن يؤدوا الجزَاء . فقالوا : « والله لئن وضعت علينا الجزاء لندخلن أرض الروم ! والله لتفضحنا من بين العرب » ، فقال لهم : « أنتم فضحتم أنفسكم وخالفتم أمتكم فيمن خالف وافتضح من عرب الضاحية . وتالله لتؤدنّه وأنتم صغرة قماة ، ولئن هربتم إلى الروم لأكتبن فيكم ولأسبينّكم » ، قالوا : « فخذ منا شيئاً ولا تسمّه جزاء ! ! » . فقال : « أما نحن فنسميه جزاء ، وسموه أنتم ما شئتم ! » ، فقال على بن أبي طالب لعمر : « يا أمير المؤمنين ! ألم يضعف عليهم سعد بن مالك[2] الصدقة ؟ » ، فقال عمر : « بلى ! » ورضى منهم الصدقة بدل الجزاء ، فرجعوا على ذلك . وكان فى بنى تغلب عز وامتناع ، ولا يزالون ينازعون الوليد ، فهمَّ بهم فخاف عمر أن يُخْرِجوه فيضعف صبره فيسطو عليهم ، فعزله عن الجزيرة[3] ، كيا يطمئن إلى استتباب الأمن واستقرار الطمأنينة فى ربوعهم .

٢ — فى أذربيجان وأرمينية :

تولى الوليد الكوفة أيام عثمان بن عفان بعد سعد بن أبى وقاص[4] ،

(١) الطبرى (٣/١٥٨) وابن الأثير (٢/٢٠٦) .
(٢) هو سعد بن أبى وقاص .
(٣) الطبرى (٣/١٥٨) وانظر البلاذرى ص (١٨٥ — ١٨٦) .
(٤) الطبرى (٣/٣١١) وابن الأثير (٣/٣١) وأبو الفدا (١/١٦٦) واليعقوبى (٢/١٤٢) .

فعزل الوليد عُتبة بن فَرْقَد السُّلَمى[1] عن أَذْرَبَيْجَان فنقضوا فغزاهم الوليد[2]، وذلك لأن أهلها منعوا ما كانوا صالحوا عليه المسلمين أيام عمر بن الخطاب[3].

وتوجه الوليد بجيشه إلى (أذربيجان) وعلى مقدمته عبد الله بن شُبيل الأَحمسى[4]، وفى رواية أن سلمان بن ربيعة الباهلى كان على مقدمته[5]، فمضى الوليد فى الناس حتى دخل (أذربيجان)، فبعث عبد الله بن شُبيل الأَحمسى فى أربعة آلاف فأغار على أهل (مُوقَان)[6] و (بِبْر)[7] و (الطَّيْلَسَان)[8]، فأصاب من أموالهم وغنم، ثم عاد إلى الوليد، فصالَح الوليد أهل (أذربيجان) على ثمانمائة ألف درهم وانقادوا للمسلمين[9].

وبعد انتصار الوليد على (أذربيجان) بعث سلمان بن ربيعة الباهلى إلى (إِرْمِينِيَة) فى اثنى عشر ألفاً، فسار سلمان فى أرض إرمينية وقتل وسبى وغنم ثم انصرف حتى أتى الوليد[10].

---

(١) انظر ترجمة عتبة بن فرقد السلمى .

(٢) ابن الأثير (٣/٣٢) . (٣) الطبرى (٣/٣٠٧) .

(٤) عبد الله بن شبيل الأحمسى : فى صحبته نظر . قدم أذربيجان غازياً فى خلافة عثمان بن عفان فأعطوه الصلح الذى كان صالحهم عليه حذيفة بن اليمان ، وكان عبد الله على مقدمة الوليد بن عقبة فأغار على مدن كثيرة وانتصر ، فطلب أهل أذربيجان الصلح ، فصالحهم . انظر التفاصيل فى أسد الغابة (٣/١٨٣) والإصابة (٤/٨٤)

(٥) الطبرى (٣/٣٠٧) .

(٦) موقان : ولاية فيها قرى ومروج كثيرة يحتلها التركمان للرعى ، وهى بأذربيجان أنظر التفاصيل فى معجم البلدان (٨/١٩٩) .

(٧) ببر : بغير تعريف ، بلد حصين من نواحى شهرزور . انظر معجم البلدان (٢/٣٢٨) .

(٨) الطيلسان : إقليم واسع كثير البلدان والسكان من نواحى الديلم والخزر أنظر معجم البلدان (٦/٨٠) .

(٩) الطبرى (٣/٣٠٨) وابن الأثير (٣/٣٢) .

(١٠) الطبرى (٣/٣٠٨) وابن الأثير (٣/٣٢) .

وعاد الوليد إلى الكوفة بعد أن أعاد إلى منطقتي أذربيجان وأرمينية الأمن والاستقرار والسلام .

٣ — العودة :

وفي طريق عودة الوليد من أذربيجان وإرمينية إلى الكوفة ، أتاه كتاب عثمان بن عفان ، وكان الوليد حينذاك قد وصل مدينة (الموصل) ونزل (الحديثة)[١] في طريق إيابه ، فكان في كتاب عثمان : « أما بعد . فإن معاوية ابن أبي سفيان قد كتب إليّ : أن الروم قد أجلبت على المسلمين بجموع عظيمة ؛ وقد رأيت أن يمدهم إخوانهم من أهل الكوفة ، فإذا أتاك كتابي هذا ، فأبعث رجلا ممن ترضى نجدته وبأسه وشجاعته وإسلامه في ثمانية آلاف أو تسعة آلاف أو عشرة آلاف إليهم من المكان الذي يأتيك فيه رسولي ، والسلام » ، فقام الوليد في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد . أيها الناس ! فإن الله قد أبلى المسلمين في هذا الوجه بلاء حسنا : ردّ عليهم بلادهم التي كفرت ، وفتح بلاداً لم تكن افتتحت ، وردّهم سالمين غانمين مأجورين ، فالحمد لله رب العالمين . وقد كتب إليَّ أمير المؤمنين يأمرني أن أندب منكم ما بين العشرة الآلاف إلى الثمانية الآلاف تمدون إخوانكم من أهل الشام ، فإنهم قد جاشت عليهم الروم ، وفي ذلك الأجر العظيم والفضل المبين ، فانتدبوا رحمكم الله مع سلمان بن ربيعة الباهلي » ، فانتدب ثمانية آلاف تحركوا في اليوم الثالث من وصول كتاب عثمان إلى الوليد ، فمضوا حتى دخلوا أرض الروم مع أهل الشام[٢] .

---

(١) الحديثة : وهي حديثة الموصل . وهي بليدة كانت على دجلة بالجانب الشرقي قرب الزاب الأعلى . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٢٣٤) .

(٢) الطبري (٣/٣٠٨ — ٣٠٩) وابن الأثير (٣/٣٢) .

وعاد الوليد بما بقي من رجاله إلى مقره فى الكوفة ترفرف فوق رأسه رايات النصر .

الإنساد :

بعث النبي صلى الله عليه وسلم الوليد مصدقاً إلى بنى المُصْطَلِق كما أسلفنا، واستعمله أبو بكر الصديق والياً وغازياً ، واستعمله عمر بن الخطاب على عرب الجزيرة ثم عزله وأعاده ثانية إليها فكان عامله على عرب الجزيرة وعامل عثمان ابن عفان من بعده حتى ولاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبي وقاص[1] .

وقدم الوليد الكوفة ، فقال له سعد : « والله ما أدرى ا أ كِسْتَ[2] بعدنا أم حمقنا بعدك » ، فقال الوليد : لا تجزعن أبا إسحاق ، فإنما هو الملك يتغداه قوم ويتعشاه آخرون » فقال سعد : « أرا كم ستجعلونها ملكا »[3] ، فبقى فى الكوفة خمس سنين وهو أحب الناس فى الناس وأرفقهم بهم وليس على داره باب[4] .

والحق أن الوليد سار فى أثناء ولايته على الكوفة سيرة ممتازة ، فهو لم يقصر فى سد الثغور والإمعان فى الفتح ، وإنما بلغ من ذلك غاية عرفت له وتحدّث بها الناس فى حياته وبعد موته . وقد ساس أهل الكوفة سياسة حزم وعزم ومضاء ، فأقر الأمن وضرب على أيدى المفسدين من الأحداث والذين

---

(١) الطبرى (٣/٣١١) وابن الأثير (٣/٣١) .

(٢) الكيس : بوزن الكيل ، ضد الحمق ، ورجل كيِّس : أى ظريف ومتزن وعاقل . . . إلخ .

(٣) أسد الغابة (٥/٩١) والأغانى (٤/٣٤٤) وابن الأثير (٣/٣٢ — ٣٣)

(٤) الطبرى (٣/٣١٢) وابن الأثير (٣/٣١) ، وقد بقى على الكوفة من سنة خمس وعشرين للهجرة إلى سنة تسع وعشرين للهجرة .

لا يرعون للنظام حرمة ولا يرجون للدين وقاراً ؛ فقد عدا نفر من الشباب على فتى من أهل الكوفة فقتلوه ، فأخذهم الوليد وأقام عليهم الحد ، فقتلهم على باب قصر الإمارة فى الرحبة[1] ، فأحفظ ذلك آباء هؤلاء على الوليد ، فأخذوا يتلمسون أغلاطه ويتكلفون اتهامه ويشككون فيه الناس[2] ، فقالوا : إن الوليد يعتكف على الخمر وأذاعوا ذلك حتى طرح على ألسنة الناس ، فقال لهم عبدالله بن مسعود : «من استتر عنا بشىء لم نتتبع عورته ، ولم نهتك ستره» ، فلما سمع الوليد قول ابن مسعود هذا أرسل إليه وعاتبه فى ذلك ، وقال : « أيُرضى من مثلك بأن يجيب قوماً موتورين بما أجبت ؟ ! على أى شىء استتر به ؟ ! إنما يقال هذا للمريب » ، فتلاحيا ثم افترقا على تغاضب ، ولم يكن بينهما أكثر من ذلك[3] .

ودخل عليه رجلان من الموتورين وكان نائماً ، فأكب عليه أحدهما وأخذ خاتمه وذهب مع صاحبه بالخاتم إلى عثمان ، فشهدا عنده على أن الوليد يشرب الخمر[4] . والتكلف فى هذه القصة واضح ، فما من أمير ينام وعنده سماره ، ثم يمعن فى النوم حتى يُستل خاتمه من إصبعه دون أن يحس ذلك أو يحسه أحد من خدامه وحجابه وشرطته[5] !

وربما كان من التكلف ما روى من أن الوليد أتى بساحر فنظر إلى لعبه ، فغضب لذلك بعض أهل الكوفة وقتلوا الساحر بين يدى الوليد ، ثم ذهبوا يشكون الوليد إلى عثمان فردهم وتقدم إلى الناس : ألا يعملوا بالظنون وألا يقيموا الحدود دون السلطان[6] .

(١) الطبرى (٣/٣٢٦) . (٢) الطبرى (٣/٣٢٧).
(٣) الطبرى (٣/٣٢٧) . (٤) الطبرى (٣ / ٣٣٠) .
(٥) أنظر كتاب : عثمان ، للدكتور طه حسين (٩٥) .
(٦) الطبرى (٣/٣٢٨) .

وأصدق ما قاله خصومه عنه، هو أنه كان يعاقر الخمر مع صديقه وشاعره أبى زبيد الطائى الذى عرفه فى تغلب حين كان عليهم بالجزيرة، فأنصفه من أخواله بنى تغلب وآثره بمودته. وكان أبو زبيد طائى الأب تغلبى الأم، وكان نصرانياً؛ فلما ولى الوليد أمر الكوفة وفد عليه، وكان يقيم عنده، ويأخذ جوائزه، فما زال به الوليد حتى أسلم فقرب ما بينهما[1]. والذى يؤيد صدق ادعاء خصوم الوليد من أنه عاقر الخمرة، هو أن عثمان أقام عليه الحد — والحدود تدرأ بالشبهات، فلو قد رأى عثمان فى شهادة الشاهدين على الوليد بشربه الخمر شبهة قوية أو ضعيفة، لتحرج من إقامة الحد عليه.

لقد تولى جلد الوليد أربعين جلدة عبدالله بن جعفر بإشراف على بن أبى طالب[2]، وعلىٌّ أعلم بالدين وأحفظ للسنن وأشد إيثاراً لرضا الله وإنفاذ أمره من أن يقيم الحد والشبهة قائمة. وفى رواية أخرى: أن الذى ضرب الوليد الحد هو سعيد بن أبى وقاص الأموى[3]؛ وسعيد هذا قريب القرابة من عثمان ومن الوليد، فلو قد رأى شبهة لكان خليقاً أن يراجع عثمان فى قضائه، ولكان خليقاً إذ لم يفلح أن يعتذر من ضرب الوليد، ولكنه ضربه فأورث هذا الضرب عداوة متصلة فى أعقاب الرجلين[4].

وقد زعم خصوم الوليد، أنه أصبح ذات يوم سكران، فصلى الصبح بالناس أربعاً ثم التفت إليهم وقال: « إن شئتم زدناكم » فقال له ابن مسعود: « مازلنا معك فى الزيادة منذ اليوم »، فقال الحطيئة:

---

(١) ابن الأثير (٣/٤٠).
(٢) أسد الغابة (٥/٩١). والاستيعاب (٣/١٥٥٦).
(٣) ابن الأثير (٣/٤٠).
(٤) الطبرى (٣/٣٣٠).

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه | أن الوليـد أحق بالعذر
نادى وقد تمت صلاتهم | أأزيدكم ؟ سكراً وما يدرى
فأبوا أبا وهب ، ولو أذنوا | لقرنت بين الشفع والوتر
كفوا عنانك إذ جريت ولو | تركوا عنانك لم تزل تجرى !

وقال أيضاً :

تـكلم فى الصلاة وزاد فيها | علانيـة وجاهر بالنفاق
ومجّ الخمر فى سنن المصلى | ونادى والجميع إلى افتراق
أزيدكمُ على أن تحمدونى | فـا لـكمُ ومالى من خَلاَق[1]

والظاهر أن هذه القصة مخترعة من أصلها ، فلو قد زاد الوليد فى الصلاة لمـا تبعته جماعة من المسلمين من أهل الـكوفة ، وفيهم نفر من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وفيهم القراء والصالحون ، ولمـا رضى المسلمون من عثمان بمـا أقام عليه من حد الخمر ، فإن الزيادة فى الصلاة والعبث بها أعظم خطراً عند الله وعند المسلمين من شرب الخمر[2] . وهذا الشعر لم يقله الحطيئة ، إنمـا قال شعراً آخر يمدح به الوليد مدح محب له حريص على رضاه فقال :

شهد الحطيئة يوم يلقى ربه | أن الوليد أحق بالعُـذر
خلعوا عنانك إذ جريت ولو | تركوا عنانك لم تزل تجرى
ورأوا شمائل ماجد أنف | يعطى على الميسور والعُسْر
فَنُزِعْت مكذوباً عليك ولم | تنزع إلى طمع ولا فقر[3]

(١) الاستيعاب (٤/١٥٥٤ — ١٥٥٥) وانظر ابن الأثير (٣ / ٤٠) والأغانى (٤/٣٧٥) .
(٢) كتاب عثمان للدكتور طه حسين ص (٩٦) .
(٣) الأغانى (٤/٣٤٧) .

وجملة القول ، أن الوليد قد تعصب عليه قوم من أهل الكوفة بغياً وحسداً [1] فتزيدوا عليه ، وقد أجرى إصلاحات كثيرة فى الكوفة : أنشأ داراً للأضياف [2] وفرض لكل مملوك بالكوفة ثلاثة دراهم فى كل شهر ، دون أن ينقص ذلك من أعطيات سادتهم ومواليهم ، وإنما كان يؤدى إليهم ذلك من فضول الأموال [3] ، وكان يغزو فينتهى إلى بلاد بعيدة نائية ماقصر ولا انتقض عليه أحد حتى عزل من ولايته [4] . وقد أدى إنشاء دار للضيافة وأخذ بعض الفئ ليوسع به على العبيد والإماء إلى تذمر المتمولين من أهل الكوفة من هذه الإصلاحات ، فكان الناس فى الوليد فرقتين : العامة معه والخاصة عليه [5] ؛ لذلك تفجّع عليه الأحرار والمماليك عند نقله ، وكان يسمع الولائد وعليهن الحداد يقلن :

يا ويلتا قد عُزل الوليدُ وجاءنا مجوِّعاً سعيدُ
ينقص فى الصاع ولا يزيد فَجَوِّعَ الإماء والعبيدُ [6]

ولعل خير ما يمثل شعور أكثرية أهل الكوفة تجاه عزل الوليد قول أبى زبيد :

من يرى العير لابن أروى على ظهـــر المَرَوْرَى حُداتُهُنّ عجال
مصعدات والبيت بيت أبى وهـ ـبٍ خلاء تحن فيه الشمال
يعرف الجاهل المضَلّل أن الدهـ ـر فيه النكراء والزلزال

. . . الخ ، وهى قصيدة طويلة [7] .

---

(١) الاستيعاب (٤/٥٥) وأسد الغابة (٥/٩١) .
(٢) الطبرى (٣/٣٢٦) .
(٣) الطبرى (٣/٣٢٨) .
(٤) الطبرى (٣/٣٢٨) .
(٥) الطبرى (٣/٣٣٠) .
(٦) الطبرى (٣/٣٣٠ — ٣٣١) .
(٧) أنظر الأغانى (٤/٣٥١ — ٣٥٢) .

ولما قتل عثمان بن عفان اعتزل الوليد الفتنة ، فخرج من الكوفة وأقام (بالرقة)[1] إلى أن توفى بها[2] وقبره على (البليخ)[3] وولده بالرقة وبالكوفة[4].

لقد كان الوليد من أكثر رجال قريش ظرفاً وحلماً وشجاعة وأدباً[5] ، وكان له خلق ومروءة[6] ، وكان شريب خمر[7] ولكنه يتستر على نفسه فى شربه.

وكان من الشعراء المطبوعين ، وكان شاعراً كريماً[8] ، ومن شعره يرثى عثمان بن عفان :

ألا من لليل لا تغور كواكبه ... إذا لاح نجم لاح نجم يراقبه

لعمرك لا أنسى ابن أروى وقتله ... وهل ينسين الماء ما عاش شاربه

همُ قتلوه كى يكونوا مكانه ... كما غدرت يوماً بكسرى مرازبه[9]

ولم يكن يجلس مع عثمان على سريره إلا العباس بن عبد المطلب وأبو سفيان بن حرب والحكم بن أبى العاص والوليد بن عقبة ، فأقبل ، الوليد يوماً فجلس ، ثم أقبل الحكم ، فلما رآه عثمان زحل له عن مجلسه ، فلما قام

---

(١) الرقة : مدينة مشهورة على الفرات . أنظر التفاصيل فى معجم البلدان (٤/٢٧٢).

(٢) أسد الغابة (٥/٩٢) والاستيعاب (٤/١٥٥٦) وطبقات ابن سعد (٧/٤٧٧).

(٣) البليخ : اسم نهر بالرقة يجتمع فيه الماء من عيون . انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٢/٢٨٢) وانظر المعارف ص (٣٢٠) . وقد وردت : البليخ فى أسد الغابة (٥/٩٢) بلفظ : التليح وهو خطأ مطبعى .

(٤) المعارف ص (٣٢٠) .

(٥) أسد الغابة (٥/٩١) والاستيعاب (٤/١٥٥٤) .

(٦) الاستيعاب (٤/١٥٥٤) .

(٧) أسد الغابة (٥/٩١) والإصابة (٦/٣٢٢) .

(٨) أسد الغابة (٥/٩١) والاستيعاب (٤/١٥٥٤) .

(٩) أنظر القصيدة بكاملها فى الأغانى (٤/٣٤١ — ٣٤٢) وانظر الاستيعاب (٤/١٥٥٧) .

الحكم قال الوليد : « والله يا أمير المؤمنين ، لقد تلجلج فى صدرى بيتان قلتهما حين رأيتك آثرت عمك على ابن أمّك » ، فقال له عثمان : إنه شيخ قريش ، فما البيتان اللذان قلتهما ؟ » ، فقال : قلت :

رأيت لعم المرء زلفى قرابة ... دُوَين أخيه حادثاً لم يكن قدما
فأمّلت عَمرًا أن يشب وخالداً ... لكى يدعوانى يوم مزحمة عَمّا

يعنى عَمرًا وخالداً ابنى عثمان[1]

لقد كان من الشعراء المطبوعين حقا .

وتوفى الوليد فى خلافة معاوية بن أبى سفيان[2] ، وقد روى حديثين عن النبى صلى الله عليه وسلم[3] .

وجملة القول أن الوليد كان شاباً من شباب قريش ، أسلم إسلاماً لم يتغلغل فى نفسه تغلغلا يجعله فى مصاف المؤمنين الصادقين ، فشرب الخمر وتحمل الحد جزاء عمله .

ولكنى لا أشك أنه ثاب إلى رشده من الناحية الدينية فى أيامه الأخيرة ، لذلك اعتزل على بن أبى طالب ومعاوية ، وكان من المؤمل أن يكون إلى جانب معاوية ، لأنهما أمويان أولا ، ولأن المطالبة بدم عثمان تجمعهما ثانياً . ولكنه آثر الاعتزال عن الفتن حرصاً على ألا يلطخ يديه بدم المسلمين ، ولست أصدق أنه كان يحرض معاوية بكتبه وشعره[4] ، إذ لو كان الأمر كذلك

---

(١) الأغانى (٤/٣٤٣) .
(٢) الإصابة (٦/٣٢٢) ، وفى الأعلام للزركلى (٩/١٤٣) : أنه توفى سنة أحدى وستين للهجرة (٦٨٠ م) بينما توفى معاوية سنة ستين ، والوليد قد توفى فى خلافة معاوية .
(٣) أسماء الصحابة الرواة — ملحق بجوامع السيرة لابن حزم — ص (٢٩٤) .
(٤) أسد الغابة (٥/٩٢) .

لانضم إلى جانب معاوية ولكان له شأن مرموق فى الحرب الدائرة بين على ومعاوية ، ولتولى المناصب الرفيعة فى أيام معاوية ، ورضى عنه معاوية الذى كان لا يرضاه[1] .

إن الوليد كان ضحية كثير من التزوير فى أخباره والمبالغة بقدحه من خصومه ومدحه من أنصاره على حد سواء ؛ ودراسة حياته بحياد تام ، تظهر أنه كان خفيف الدين فى ريعان شبابه ولكنه عاد إلى الطريق السوى بعد ذلك ؛ أما مزاياه الإنسانية وكفاءاته الإدارية فليست موضع شك وريبة عند الذين يدرسون سيرته بصورة مجردة ، وربما يؤخذ عليه مبالغته فى الرأفة والرحمة بالذين يسيئون إلى سمعته الشخصية ، وكان عليه أن يصون كرامة وسمعة السلطان ولا يتساهل مع الذين يريدون بسمعة الأمراء — دون مبرر — سوءا[2] .

القائد :

إذا كان هناك من يطعن فى سيرة الوليد إنسانا ، فليس هناك من يطعن فى سيرته قائدا .

لقد رد الوليد بجهاده المشرف إلى المسلمين بلادا كفرت وفتح بلادا لم تكن افتتحت[3] ؛ فأصبح بلاؤه الممتاز حديث الناس فى أيامه وبعد موته ، إذ لم يقصر فى سد الثغور والإمعان فى الفتح ، حتى قال الإمام الشعبي عنه : « كيف لو أدركتم الوليد : غزوه وامارته ! إن كان ليغزو فينتهى إلى كذا

---

(١) الاستيعاب (٤/١٥٥٧) .

(٢) أنظر فى الطبري (٣/٣٢٧) كيف أن الوليد ستر على الذين تعمدوا الإساءة إلى سمعته الشخصية وكيف طوى أمرهم عن عثمان بن عفان .

(٣) الطبرى (٣/٣٠٩) وابن الأثير (٣/٣٢) .

وكذا ماقصر ولا انتقض عليه أحد حتى عزل عن عمله[1] » ، وكفى بشهادة الإمام الشعبي تثمينا لقيادته .

وفى قيادة الوليد — بالإضافة إلى مزاياه الأخرى ، يقول الحطيئة :

أرى لابن أروَى خَلّتين اصطفاها ... قتال إذا يلقى العدو ونائله
فتى يملأ الشِيزىَ[2] ويُروى بكفه ... سنان الرُدَيْنيّ الأصم وعامله
يؤم العدو حيث كان بجحفل ... يصم السميع جرسه وصواهله
إذا حان منه منزل الليل أوقدت ... لأخراه فى أعلى اليَفَاع[3] أوائله
نفيت الجعاد البيض عن حُرّ دارهم ... فلم يبق إلا حيّة أنت قاتلة[4]

لقد كان من أكثر رجال قريش شجاعة[5]، وكان على جانب عظيم من الذكاء والألمعية ، لذلك كانت قراراته صحيحة سريعة .

وكان من شخصيات قريش البارزة ، لذلك كان مسيطراً على رجاله سيطرة تامة ، فلا يمكن أن يسمح لأحد أن يخالف أوامره خاصة فى ساحات القتال .

وكان من أكثر رجال قريش ظرفاً وحلماً وأدباً وكرماً ، لذلك كان محبوباً من رجاله — خاصة الذين لا ينافسونه على الإمارة .

وكان يتحمل المسؤولية كاملة ، فهو بالإضافة إلى أنه أخو عثمان لأمه وهذا يجعله ذا مكانة خاصة فى نفس الخليفة تدعم حبه للمسؤولية وإقدامه

---

(١) الطبرى (٣٢٨/٣) .
(٢) الشيزى : خشب أسود تتخذ منه قصاع .
(٣) اليفاع : ما ارتفع من الأرض ، وأيفع الغلام ، أى ارتفع فهوى (يافع) .
(٤) الأغانى (٣٦٢/٤) .
(٥) أسد الغابة (٩١/٥) والاستيعاب (١٠٠٤/٤) .

على تحملها ، فقد كان من عائلة معروفة فى الجاهلية والإسلام بتحمل المسؤولية الضخمة دون تردد .

وكانت له قابلية على التنظيم الدقيق ، هذا التنظيم الذى نعجب به حتى اليوم كل الإعجاب . فقد كانت مغازى أهل الكوفة فى أيامه الرى وأذربيجان ، وكان بهذين الثغرين عشرة آلاف مقاتل من أهل الكوفة — وذلك لاستخدامها فى الدفاع الفورى ضد المعتدين على بلاد المسلمين حتى تردهم النجدات من قواعد المسلمين الأمامية فى الكوفة والبصرة — وكان بالكوفة حينذاك أربعون ألف مقاتل ، وكان يغزو هذين الثغرين منهم عشرة آلاف فى كل سنة ، فكان الرجل يصيبه فى كل أربع سنين غزوة[1] !

تنظيم ما أروعه من تنظيم : قوات فى الثغور للدفاع الفورى ، وقوات احتياطية من القاعدة الأمامية للهجوم المقابل أو للفتح ، وتقسيم دقيق للواجبات ، بحيث يعرف كل شخص ماله وما عليه ومتى وكيف وأين يغزو العدو !

تلك هى تنظيمات الوليد التعبوية والسوقية للقضاء على تحرشات العدو الداخلى والخارجى ، فلا عجب إذا لم ينتقض عليه بلد من البلدان حتى عزل عن عمله .

لقد كان الوليد يطبق مبدأ (التعرض) فى حروبه ، وقد كانت كل معاركه تعرضية ، وكان يمتاز بتطبيق مبدأ (تحشيد القوى) بشكل ممتاز للغاية : يتخذ له مقراً مناسباً ، ثم يبث قوة مناسبة إلى هدف مناسب ، فإذا انتهى من ذلك الهدف ، أرسل قوة مناسبة أخرى إلى هدف مناسب آخر ، وبذلك انتصر بيسر وسهولة على أعدائه الكثيرين فى بلادهم الوعرة الشاسعة ولو أنه

---

(١) الطبرى (٣/٣٠٧) .

قسم قواته ووزعها إلى أكثر من هدف واحد ، لأصبح ضعيفاً بكل مكان ، فلا يقدر على القضاء المبرم بسرعة ويسر على أعدائه.

إنه قائد ممتاز حقا.

الوليد فى التاريخ :

كان الوليد ولا يزال من الشخصيات التى تعانى من إفراط الصديق فى المدح وتفريط العدو فى القدح.

إن التاريخ يذكر أن الوليد كان شريب خمر وأنه عزل عن الكوفة لذلك ، ولست أشك أنه تاب عن الخمر وحسن إسلامه بعد أيام شبابه ، لذلك كان من القلائل جدا من بنى أمية الذين اعتزلوا معاوية فى حربه مع على بن أبى طالب ، إذ آثر دينه على دنياه.

ويذكر له أنه كان من أوائل من عالج مشكلة الإماء والعبيد بصورة عملية ، فمنحهم المخصصات المالية المناسبة شهريا من بيت المال.

ويذكر له ، أنه فتح منطقة عرب الجزيرة واستعاد فتح أذربيجان وأرمينية ثانية إلى بلاد المسلمين.

لقد أساء الوليد إلى نفسه ، ولكنه أحسن إلى المسلمين ، وقد انقضى أمر إساءته الشخصية إلى نفسه ، وبقيت آثار إحسانه إلى المسلمين حتى اليوم.

غفر الله للقائد الفاتح ، الإدارى الإلمعى ، الشاعر الأريحى ، الوليد بن عقبة ابن أبى مُعَيْط الأموى.

عمير بن سعد الأنصاري الأوسي

فاتح مدينة رأس عين[1] في أرض الجزيرة

« عمير بن سعد نسيج وحده »
عمر بن الخطاب

إسلامه :

صحب عمير بن سعد الأنصاري الأوسي رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان من فضلاء الصحابة وزهادهم[2] ، سمع جلاس بن سويد الصامت[3] الذي تخلف عن غزوة تبوك يقول : « لئن كان هذا الرجل صادقاً لنحن شر من الحمر » ، فرفع ذلك عمير من قول جلاس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان في كنف جلاس الذي تزوج أم عمير بعد أبيه ، فقال له عمير : « والله يا جلاس ! إنك لأحب الناس إلي وأحسنه عندي يداً ، وأعزه علي أن يصيبه

---

(١) رأس عين : ويقال رأس العين ، والأصح رأس عين ، وهي مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ، بينها وبين نصيبين خمسة عشر فرسخاً وقريب من ذلك بينها وبين حران . وفي رأس عين عيون كثيرة عجيبة تجتمع كلها في موضع فتصير نهر الخابور . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٤/٢٠٦) .

(٢) أسد الغابة (٤/١٤٤) .

(٣) جلاس بن سويد بن الصامت الأنصاري كان من المنافقين : أنظر أسماء المنافقين في سيرة ابن هشام (٢/١٤١ — ١٥٣) ثم تاب وحسنت توبته ، وقد تخلف عن غزوة تبوك ، فنزل قول الله تعالى فيه (وإن يتوبوا خيراً لهم) فتاب ، وذلك بعد غزوة تبوك . أنظر الإصابة (١/٢٥٢) وأسد الغابة (١/٢٩٢) والاستيعاب (١/٢٦٤) .

شيء يكرهه ، ولقد قلت مقالة لئن رفعتها عليك لأفضحنك ، ولئن صمت عليها ليهلكن ديني ، ولإحداهما أيسر على من الأخرى » ثم مشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر له ما قال جلاس ، فحلف جلاس بالله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لقد كذب عليّ عمير وما قلت ما قال عمير بن سعد ، فأنزل الله عز وجل فيه : (يحلفون بالله ما قالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا ، وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ، فإن يتوبوا يك خيراً لهم ، وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة ، ومالهم فى الأرض من ولى ولا نصير)[1] ، فتاب الجلاس وحسنت توبته حتى عرف منه الخير والإسلام[2] فما زال عمير فى علياء حتى مات ؛ ولم يسمع عمير من الجلاس شيئاً يكرهه بعدها ، وقال رسول الله صلى الله عليه : « وفت أذنك يا غلام وصدقك ربك »[3] وهذا يدل على أنه كان غلاماً حينذاك ، لذلك نال عمير شرف الصحبة ولم ينل شرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد .

جهاده :

شهد عمير فتوح الشام[4] ، فكتب عمر بن الخطاب إلى عياض بن غنم يأمره أن يوجه عمير بن سعد إلى (عين الوردة)[5] ، فوجهه إليها وقدم الطلائع

---

(١) الآية الكريمة من سورة التوبة (٩ — ٧٤) .

(٢) سيرة ابن هشام (١٤١/٢ — ١٤٢) والإصابة (٣٢/٥) وأسد الغابة (١٤٤/٤) والاستيعاب (١٢١٥/٣ — ١٢١٦) .

(٣) الاستيعاب (١٢١٦/٣) وأسد الغابة (١٤٤/٤) .

(٤) الإصابة (٣٢/٥) .

(٥) عين الوردة : هى رأس عين ، المدينة المشهورة بالجزيرة . راجع التفاصيل فى معجم البلدان (٢٠٨/٦) .

أمامه ، فأصابوا قوما من الفلاحين وغنموا مواشي من مواشي العدو ، ولكن أهل المدينة أغلقوا أبوابها ونصبوا المنجنيقات ، فقتل من المسلمين بالحجارة والسهام كثيرون .

وكانت (رأس عين) قد امتنعت على عياض بن غنم من قبل ، ففتحها عمير وهو والي عمر بن الخطاب على الجزيرة بعد أن قاتل أهلها المسلمين قتالا شديدا ، ولكن المسلمين دخلوها عنوة ، ثم صالحوهم بعد ذلك ، فدفعت الأرض إلى أهلها الأصليين ووضعت الجزية على كل فرد أربعة دنانير ، ولم تسب نساءهم ولا أولادهم[1] .

ولما فتح عمير (رأس عين) سلك الخابور وما يليه حتى أتى (قَرْقِيسْياء)[2] وقد نقض أهلها ، فصالحهم على مثل صلحهم الأول . ثم أتى حصون الفرات حصناً حصناً ففتحها على ما فتحت عليه قرقيسياء ، ففتح ثانية (عانات)[3] و(النّاوُوسة)[4] و (آلُوسة)[5] ، وفي (هِيت)[6] وجد عمار بن ياسر وهو يومئذ عامل عمر بن الخطاب على الكوفة ، وقد بعث جيشاً يستغزي المنطقة

---

(١) البلاذري (١٨١) وابن الأثير (٢/٢٠٨) .

(٢) قرقيسياء : بلد عند ملتقى نهر الخابور بنهر الفرات . راجع معجم البلدان (٧/٩) .

(٣) عانات : قرى عانات سميت بثلاثة أخوة من قوم عاد ، خرجوا هراباً فنزلوا تلك الجزائر ، فسميت بأسمائهم ، وهم : ألوس وسالوس وناووس ، فلما نظرت العرب إليها ، قالت : كأنها عانات ، أي قطع من الضباء . انظر معجم البلدان (٦/١٠١) . وهي مدينة عانة على الضفة الغربية من الفرات مقابل مدينة : راوه بينهما نهر الفرات .

(٤) الناووسة : من قرى هيت . انظر معجم البلدان (٨/٢٤٢) .

(٥) آلوسه : وهي : ألوس ، اسم رجل سميت به بلدة على الفرات قرب عانات . انظر معجم البلدان (١/٣٢٦) .

(٦) هيت : بلدة على الضفة الغربية من الفرات شمالي الأنبار . انظر معجم البلدان (٨/٤٨٦) وهي مدينة بين الرمادي وعانة غربي الفرات تمتاز بالقير والكبريت .

الكائنة شمالى (الأنبار) وعليه سعد بن عمرو بن حرام الأنصارى ، فانصرف عمير إلى (الرقة)[1] .

وكتب عمير إلى عمر بن الخطاب ، يعلمه أنه أتى شق الفرات الشامى ففتح (عانات) وسائر حصون الفرات ، وأنه أراد مَنْ هناك من بنى تغلب على الإسلام فأبوه وهموا باللحاق بأرض الروم ، وسأله رأيه فيهم ؛ فكتب إليه عمر يأمره أن يضعف عليهم الصدقة التى تؤخذ من المسلمين فى كل سائمة وأرض ، فقبلوا أن يؤخذ منهم ضعف الصدقة وقالوا : « أما إذا لم تكن جزية كجزية الأعلاج ، فإنا نرضى ونحفظ ديننا »[2] .

الإنسان :

كان عمير زاهدا تقيا ورعا وكان بالإضافة إلى ذلك إداريا حازما وقائدا مقداما ، لذلك كان عمر بن الخطاب معجبا بعمير أشد الاعجاب .

كان عمر يسميه : (نسيج وحده) ، لإعجابه به ، وكان يقول عن عمير : « وددت أن لى رجالا مثل عمير بن سعد أستعين بهم على أعمال المسلمين » ، وقال عمر يوما لعبد الرحمن بن عمير : « ما كان بالشام أفضل من أبيك »[3] .

ولاه عمر الجزيرة[4] فبنى المساجد فى ديار مضر وديار ربيعة[5] ، ثم ولاه حمص[6] بعد سعيد بن عامر بن حذيم[7] ، وكان عمر بن الخطاب يشتد اغتباطه حين

(١) البلاذرى ص (١٨٣) .
(٢) البلاذرى ص (١٨٦) .
(٣) الإصابة (٥/٣٢) .
(٤) . البلاذري (١٨١) .
(٥) البلاذرى ص (١٨٢) .
(٦) . طبقات ابن سعد (٧/٢، ٤) وابن الأثير (٢/٧ ٢) .
(٧) . سعيد بن عامر بن حذيم القرشى الجمحى : من كبار الصحابة وفضلائهم ، أسلم قبل خيبر فهاجر فشهدها وما بعدها . ولاه عمر حمص وكان مشهوراً بالخير والزهد . مات سنة عشرين للهجرة بحمص .
انظر طبقات ابن سعد (٤/٢٦٩) والاستيعاب (٢/٦٢٤) وأسد الغابة (٢/٣١١) والإصابة (٣/٩٩) .

يرى عماله يتجردون لخير الرعية ويثني عليهم لذلك أعظم الثناء ، فقد كتب إلى عمير وهو على حمص : « أقبل بما جبيت من فئ المسلمين » ، فلما أقبل عمير سأله عما صنع ، فقال : « بعثتني حتى أتيت البلد ، فجمعت صلحاء أهلها فوليتهم جباية فيئهم ، حتى إذا جمعوه وضعته مواضعه ، ولو نالك منه شيء لاتيتك به ! » قال عمر : « فما جئتنا بشيء ! ؟ » ، فلما أكد له أنه انفق كل شيء على أهل حمص قال : « جددوا لعمير عهدا »[1] .

وعمير هذا هو الذي قال على منبر حمص : « لا يزال الإسلام منيعاً ما اشتد السلطان . وليست شدة السلطان قتلا بالسيف أو ضربا بالسوط ، ولكن قضاء بالحق وأخذ بالعدل »[2] ، فليس عجيبا وهذا شعاره وتلك مزاياه — أن يتمنى عمر رجالا أمثاله ليستعين بهم على أعمال المسلمين .

وكان على جانب عظيم من النزاهة ، فقد كتب عمر بن الخطاب إلى أهل حمص : « اكتبوا لي فقراءكم » ، فكتبوا إليه أسماء الفقراء وذكروا فيهم عمير بن سعد — وكان أميراً عليهم . فلما قرأ عمر اسمه قال : « من عمير بن سعد ! ؟ » ، فقالوا : أميرنا ! فقال : « أو فقير هو ؟ » ، فقالوا : « ليس أهل بيت أفقر منه ! ! » ، فقال عمر : « فأين عطاؤه ؟ » فقالوا : « يخرجه كله لا يمسك منه شيئا » فوجّه إليه عمر بمائة دينار ، فأخرجها كلها إلى الفقراء ، فقالت له امرأته : « لو كنت حبست لنا منها دينارا واحدا ! » ، فقال لها : « لو ذكرتني فعلت »[3] .

---

(١) بقي عمير واليا على حمص وقنسرين طيلة أيام عمر بن الخطاب . انظر ابن الأثير (٣/٨) و (٣/٣٠) و (٣/٤٤) والطبري (٣/٢٢٧) و (٣/٣٠٤) و(٣/٣٢٩) .

(٢) انظر الفاروق عمر للدكتور هيكل (٢/٢٢٤) .

(٣) انظر أخبار عمر للطنطاويين ص (١٩٧ ــ ١٩٨) منقولة عن ألف باء (١/٤٤٣) للبلوي طبعة مصر .

ومات عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعمير على حمص وقنسرين، ثم مرض فى إمارة عثمان بن عفان فاستعفاه واستأذنه فى الرجوع إلى أهله، فأذن عثمان وضم عمله إلى معاوية بن أبى سفيان[١] فمات عمر فى أيام عثمان[٢] حوالى سنة إحدى وثلاثين هجرية، لأنه استقال من منصبه بحمص خلال هذا العام لإصابته بمرض طال به[٤] أى أن وفاته كانت سنة (٦٥١ م)، وقد سكن الشام ومات بها[٤].

روى عن النبى صلى الله عليه وسلم[٥] وكان من أصحاب الفتيا من الصحابة[٦]، وكان على جانب عظيم من الورع والتقوى والزهد والكفاءة العسكرية والإدارية، وكان ذكيا نابها رزينا صادقا وفيا كريما مضيافا.

لقد كان نسيج وحده حقا، كما كان يصفه عمر بن الخطاب.

القائد :

كان عمير شجاعا مقداما ومقاتلا رهيبا، إذ لم تصده مناعة المنطقة التى يقاتل فيها ومناعة المدينة التى يحاصرها. والأسلحة الفتاكة المتفوقة التى كانت متيسرة لدى عدوه، كما لم تصده استماتة هذا العدو وعناده فى الدفاع عن مدينتهم المحصنة المنيعة — لم يصده كل ذلك عن فتح تلك المدينة التى استعصى فتحها على القادة من قبله.

---

(١) الطبرى (٣٣٩/٣) وابن الاثير (٤٤/٣).
(٢) الإصابة (٣٢/٥) كما ورد انه توفى أيام عمر، وهذا لم يثبت كما ذكرنا.
(٣) الطبرى (٣٣٩/٣).
(٤) الاستيعاب (١٢١٧/٣)
(٥) طبقات ابن سعد (٤٠٢/٧) والإصابة
(٦) وأسد الغابة (١٤٤/٤)
(٧). أصحاب الفتيا من الصحابة ومن بعدهم على مراتبهم ـ لابن حزم ـ ملحق بجوامع السيرة ص (٣٣٣)

لقد كان صحيح القرار ، يتحمل المسؤولية الكاملة ، وكان يثق برجاله ويحبهم ويثقون به ويحبونه ، وكان ذا شخصية قوية محبوبة وإرادة صلبة نافذة وحزم لا يعرف المداورة واللين ، وكان ذا نفسية رصينة لا تتبدل فى حالتى النصر والاندحار ، وكان يتحلى بمزية سبق النظر وله ماض مشرف مجيد .

وكان (يختار مقصده ويديمه) ، تسيطر عليه روح (التعرض)و (المباغتة) ويعمل على (تحشيد قوته)و (يقتصد بالمجهود) ، وذلك باتخاذ تدابير (الأمن) لسلامة قواته وتأمين (التعاون) بينها وبين قوات المسلمين الأخرى وداخل صفوفها بالذات ، لهذا كان يعمل على (إدامة المعنويات) وتهيئة كافة (الأمور الإدارية) لقواته . . وتلك هى أهم مبادئ الحرب الخالدة التى طبقها عمير فى حركاته العسكرية .

لقد كان نسيج وحده فى القيادة أيضا .

عمير فى التاريخ :

يذكر التاريخ لعمير جهاده الطويل المشرف فى سبيل عقيدته منذ استطاع حمل السلاح حتى توفاه الله . ويذكر إخلاصه الشديد لعقيدته — لا يسكت عمن يريدها بضرر أو شر حتى لو كان أقرب المقربين إليه وأكثر الناس فضلا عليه .

ويذكر له تفرغه للمصلحة العامة حقا ، فترك المال والقصور والحشم والخدم لكل من هانت عليه نفسه فباعها بالمال والقصور والحشم والخدم .

رضى الله عن الصحابى الجليل ، الإدارى الحازم . والقائد الفاتح ، الأمير الفقير ، عمير بن سعد الأنصارى .

تعاليم الفتح في الإسلام

الإسلام ـ أو الجزية ـ أو القتال

— ١ —

نزل خالد بن الوليد (الحيرة) ، فخرج إليه أشرافها مع إياس بن قبيصة الطائي[(١)] وكان أمّره عليها كسرى بعد النعمان بن المنذر ، فقال له خالد ولأصحابه : « أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام ، فإن أجبتم إليه فأنتم من المسلمين لكم ما لهم وعليكم ما عليهم ، فإن أبيتم فالجزية ، فإن أبيتم الجزية فقد أتيتكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على الحياة ، جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم » ، فقال إياس بن قبيصة : « ما لنا بحربك من حاجة ، بل نقيم على ديننا ونعطيك الجزية »[(٢)] .

ولما دخل وفد سعد بن أبي وقاص على كسرى قبيل معركة القادسية ، سألهم كسرى : « ما جاء بكم وما دعاكم إلى غزونا والولوع ببلادنا ؟ ! أمن أجل أنّا أجممناكم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟ ! » ، فقال النعمان بن مُقَرِّن المُزَني وكان على الوفد : « إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يدلّنا على الخير ويأمرنا به ، ويعرّفنا الشر وينهانا عنه ، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة ، . . . ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف ،

---

(١) في الخراج لأبي يوسف ص (١٧) اسمه : إياس بن قبيصة الطائي وكذلك في ابن الأثير (١٤٧/٢) . وفي الطبري (٥٥١/٢) ورد اسمه : قبيصة ابن إياس .
(٢) الطبري (٥٥١/٢ ـ ٥٥٢) .

فنحن ندعوكم إلى ديننا ، وهو دين حسّن الحسن وقبّح القبيح كله ، فأن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شرّ منه : الجزاء ، فإن أبيتم فالمناجزة ؛ فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمنا على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، وإن اتقيتمونا بالجزاء قبلنا ومنعناكم ، وإلا قاتلناكم »[1] .

وإذا استقصينا روح كلام كافة قادة الفتح فى مفاوضاتهم أهل البلاد الذين يريدون فتحها قبل الإقدام على القتال ، لوجدناه يتلخّص فى ثلاث كلمات : الإسلام أو الجزية أو القتال .

وليس عجيباً أن يتفق كل القادة الفاتحين فى كل البلاد على هذه الكلمات الثلاثة ، لأن هذه الكلمات هى روح تعاليم الإسلام فى الفتح ، إذ تقضى هذه التعاليم ، بأنه إذا أراد المسلمون غزو بلد وجب عليهم — أولاً — أن يدعوا أهله إلى الدخول فى الإسلام ، فإن أسلموا كانوا هم وسائر المسلمين سواء ؛ وإن لم يسلموا دعوهم إلى أن يسلّموا بلادهم للمسلمين يحكمونها ، ويبقوا على دينهم — إن شاءوا — ويدفعوا الجزية ، فإن قبلوا ذلك كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وكانوا فى ذمة المسلمين يحمونهم ويدافعون عنهم ؛ وإن لم يقبلوا الإسلام ولا الدخول تحت حكمه ودفع الجزية ، أعلنت عليهم الحرب وقوتلوا[2] .

تلك هى المبادىء التى تسيطر على تعاليم الإسلام فى الفتح : الإسلام — الجزية — القتال !

---

(١) الطبرى (١٧/٣) وابن الاثير (١٧٦/٢) وانظر نص كلام النعمان وجواب كسرى فى هذين المصدرين .

(٢) انظر فجر الإسلام ص (١٠٦) للأستاذ أحمد أمين ــ الطبعة الثالثة .

واسنا بصدد الحديث عن المبدأ الأول من هذه المبادىء الثلاثة ، وهو الإسلام ، إذ أن تعاليمه السمحة الغراء أكبر من أن يتسع لها مثل هذا المكان . وسأقتصر على إعطاء صورة مختصرة عن المبدأين الآخرين : الجزية والقتال .

— ٢ —

الجزية فى اللغة : جاء فى القاموس[1] : « والجزية بالكسر خراج الأرض وما يؤخذ من الذمى ، جمعها : جِزى ، وجزْىٌ ، وجِزاء » .

وجاء فى لسان العرب[2] : « الجزاء : المكافأة على الشىء . . . والجزاء : القضاء ، جَزَى هذا الأمر : قضى . ومنه قوله تعالى : (لا تجزى نفس عن نفس شيئاً) . والجزية : خراج الأرض ، والجمع : جِزى ، وجزْىٌ ، وجزية الذمى منه .

وقال الماوردى[3] : « فأما الجزية فهى موضوعة على الرؤوس واسمها مشتق من الجزاء ، والأصل فيها قوله تعالى : (حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)[4] .

والجزية لا تجب إلا على الرجال (يعنى منها النساء والصبيان) الأحرار العقلاء من أهل الذمة : اليهود والنصارى والمجوس والصابئة والسامرة[5] ،

---

(١) القاموس المحيط للفيروزآبادى مادة (الجزاء) .
(٢) لسان العرب ـ لابن منظور ـ مادة (جزى) .
(٣) الأحكام السلطانية للماوردى ص (١٣٦) .
(٤) سورة التوبة (٩ : ٢٩) وانظر تفسيرها فى ابن كثير (٤/١١٤ ـ ١٤٥) والبغوى (٤/١٤٤ ـ ١٤٧) والكشاف للزمخشرى (٢/٣٠) والبيضاوى (٣/٦٥) .
(٥) الأحكام السلطانية للماوردى ص (١٣٧) والخراج لأبى يوسف ص (١٤٥) .

ولا تؤخذ من المسكين الذى يتصدق عليه ولا من مقعد ولا من أعمى لا حرفة له ؛ ولا من المترهبين وأهل الصوامع إن لم يكونوا ذوى يسار[1] .

ولعل من المفيد ذكر نص ما جاء عن الجزية فى وثيقة خالد بن الوليد التى صالح بموجبها أهل الحيرة : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من خالد بن الوليد لأهل الحيرة . إن خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، أمرنى أن أسير بعد منصرفى من أهل اليمامة إلى أهل العراق من العرب والعجم بأن أدعوهم إلى الله جل ثناؤه وإلى رسوله عليه السلام ، وأبشرهم بالجنة وأنذرهم من النار ، فإن أجابوا فلهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين . وإنى انتهيت إلى الحيرة ، فخرج إلى إياس بن قبيصة الطائى فى أناس من أهل الحيرة من رؤسائهم ، وإنى دعوتهم إلى الله فأبوا أن يجيبوا ، فعرضت عليهم الجزية أو الحرب ، فقالوا : لا حاجة لنا بحربك ، ولكن صالحنا على ما صالحت عليه غيرنا من أهل الكتاب فى إعطاء الجزية ، وإنى نظرت فى عدّتهم ، فوجدت عدّتهم سبعة آلاف رجل ؛ ثم ميزتهم ، فوجدت من كانت به زمانة ألف رجل ، فأخرجتهم من العدّة ، فصار من وقعت عليه الجزية ستة آلاف ، فصالحونى على ستين ألفاً[2] ؛ وشرطت عليهم ، أن عليهم عهد الله وميثاقه الذى أخذ على أهل التوراة والإنجيل : أن لا يخالفوا ولا يعينوا كافراً على مسلم من العرب ولا من العجم ، ولا يدلوهم على عورات المسلمين ، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه الذى أخذه أشد ما أخذه

---

(١) الخراج لابى يوسف ص (١٤٦) والأم للإمام الشافعى (٤/٩٧ — ٩٨) .

(٢) فى الطبري (٢/٥٥٢) أن خالد بن الوليد صالح أهل الحيرة على تسعين ألفاً وفى الطبرى (٢/٥٥٣) أنه صالحهم على تسعين ومائة ألف درهم وكذلك فى الطبرى (٢/٥٦٧) .

على نبي من عهد أو ميثاق أو ذمة ، فإن هم خالفوا فلا ذمة لهم ولا أمان ، وإن هم حفظوا ذلك ورعوه وأدّوه إلى المسلمين ، فلهم ما للمعاهد وعلينا المنعة لهم. فإن فتح الله علينا فهم على ذمتهم ، لهم بذلك عهد الله وميثاقه أشد ما أخذ على نبي من عهد أو ميثاق ، وعليهم مثل ذلك لا يخالفوا . وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدّقون عليه — طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين — وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام ، فإن خرجوا إلى غير دار الهجرة ودار الإسلام ، فليس على المسلمين النفقة على عيالهم . وأيما عبد من عبيدهم أسلم أقيم في أسواق المسلمين فبيع بأغلى ما يقدر عليهم في الوكس ولا تعجيل ودفع الثمن لصاحبه . . .

« وشرطت عليهم جباية ما صالحتهم عليه حتى يؤدوه إلى بيت مال المسلمين ، عمالهم منهم ، فإن طلبوا عوناً من المسلمين أُعينوا به ومئونة العون من بيت مال المسلمين »[1] .

لقد أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم الجزية من (أُكيدر) صاحب (دُوْمَة الجندل)[2] كما أخذها من مجوس (هجر)[3] ومن بعض أهل اليمن[4] ، كما صالح يوحنا بن رؤبة صاحب (أيلة) على الجزية[5] ، مما يدلّ على أن تشريع أخذ الجزية بدأ من عهد الرسول القائد وأن الخلفاء الراشدين اقتدوا

---

(١) انظر نص الوثيقة في الخراج لأبي يوسف ص (١٧١ ــ ١٧٣) وانظر نص وثيقة أخرى في الطبري (٢/٥٦٧) لصلح خالد أهل الحيرة .

(٢) طبقات ابن سعد (٢/١٦٦) وسيرة ابن هشام (٤/١٨٢) .

(٣) تفسير ابن كثير والبغوي (٤/١٤٤ ــ ١٤٦) .

(٤) تفسير البغوي (٤/١٤٦) .

(٥) الطبري (٢/٣٧٢) وابن الأثير (٢/١٠٧) .

بسنّته ، ولا صحة لادعاء بعض المستشرقين أن لفظ الجزية اتّخذ معناه الخاص حوالى منتصف القرن الثاني[1] ، إذ قد اتّخذ معناه ومبناه من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .

لقد كانت الجزية قبل الإسلام تفرض على المغلوبين للإذلال والامتهان[2] ، فهي لذلك تحمل معنى بغيضاً من معاني الثأر والانتقام ؛ ولكن الإسلام فرضها لحماية المغلوبين في أموالهم وعقائدهم وأعراضهم وكرامتهم ، وتمكينهم من التمتّع بحقوق الرعوية مع المسلمين الفاتحين سواء بسواء .

وكانت الجزية عند الأمم الماضية تحمل معنى استغلال المغلوبين وابتزاز أموالهم ، فكانت تفرض عليهم بقدر يرهقهم ويكلّفهم من أمرهم عسرا ؛ ولكنها في الإسلام أبعد ما تكون عن الاستغلال والطمع بأموال المغلوبين ،

---

(١) انظر ماجاء في كتاب الجزية في الإسلام ـ دانيل دينيت ـ ترجمة الدكتور فوزي فهيم جاد الله ص (٢٩ ـ ٤٢) . وفيه ادعاءات فلهاوزن وبيكر وجروهمان وكاتياني. ومن الادعاءات : « إن حملات المسلمين لا تزيد عن كونها إغارة ، وأن جيش خالد كان صغيراً وكان هدفه الغنائم والأسلاب » كما جاء في كتاب : الجزية والإسلام ـ لدانيل دينيت . ومن العجيب أن يذكر هذه الادعاءات في القرن العشرين بعد أن انكشفت حقائق الفتح الإسلامي ، حتى بالنسبة للمنصفين من المستشرقين .

إن هذه الادعاءات صحيحة إذا كان ما أورده نفس المستشرق في نفس الصفحة (٤٩) : « . . . استطاع المثنى أن يثبت في وجه الفرس خلال صيف ١٣ هـ ، ولكن موقفه كان شديد الحرج ، حتى إنه اضطر أن يبعث في طلب العون ، وكل العمل الأخير الذي قام به أبو بكر قبل وفاته هو إرساله مجندين جددا تحت قيادة أبي عبيد الثقفي . . الخ » ! !

والصحيح أن الذي أرسل أبا عبيد الثقفي هو عمر بن الخطاب . انظر كافة مصادر التاريخ وعلى سبيل المثال انظر الطبري (٢/٦٣١) وابن الأثير (٢/١٦٦) وتاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزي ص (٦٧) .

تلك هي درجة علم المستشرقين حتى بأبسط حوادث التاريخ ! !

(٢) انظر الباب الأول من كتاب : الخراج في الدولة الإسلامية ـ للأستاذ محمد ضياء الدين الريس ص (٢٤ ـ ٨٢) ففيه تفاصيل وافية مفيدة عن الأحوال الاقتصادية في الأقاليم الرومية والأقاليم الفارسية .

إذ كانت تفرض بمقادير قليلة على المحاربين والقادرين على العمل فحسب ، وكانت على ثلاثة أقسام : الأغنياء والأوساط والعمال بثمانية وأربعين وأربعة وعشرين واثنى عشر درهماً على الترتيب[1] ، وقد جعل الشافعى الجزية ديناراً أما مالك فلم يقدّر أقلها ولا أكثرها بل أوكل ذلك إلى اجتهاد الولاة[2] ، وكل أربعة وعشرين درهما يعادل ديناراً عراقياً[3] ، وهذا مبلغ لا يكاد يذكر بجانب ما يدفعه المسلم من زكاة ماله فحسب .

ثم إن الجزية عند الأمم السابقة لم تكن تمنع دافعيها من تجنيدهم فى جيش الغالبين وإراقة دمائهم فى سبيل مجد الفاتحين ، فكانوا يدفعون الجزية ويساقون إلى الحرب مرغمين ! ولكن الإسلام أعفاهم من الخدمة فى الجيش ، فإذا رضى الذمى أن يتطوّع فى الجيش الإسلامى قُبِل ذلك منه وسقطت عنه الجزية[4] ؛ فى الجزية إذاً معنى (بدل الخدمة العسكرية) فى عصرنا الحاضر ، لذلك فالجزية بمعناها الحديث هى : ضريبة الدفاع ليس إلا .

ولم تكن الأمم الغالبة تلتزم نحو الأمم المغلوبة بأى حق نحو الفقراء

---

(١) الخراج لأبى يوسف ص (١٤٨) .

(٢) الخراج فى الدولة الإسلامية ــ للأستاذ محمد ضياء الدين الريس ــ ص(١٢١).

(٣) نظام السلم والحرب فى الإسلام للدكتور مصطفى السباعى ، والدينار العراقى حوالى عشرة ليرات سورية أو لبنانية تقريباً .

(٤) فى قصة فتح (الباب) ، أن ملكها أتى عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى ، وطلب منه الجزية ، فقال له عبد الرحمن : « فوقى رجل قد أظلك فسر إليه » فسار الملك إلى سراقة ابن عمرو ، فقال له سراقة : « قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا مادام عليه ، ولا بد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض » فقبل ذلك وصار سنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين ، وفيمن لم يكن عنده الجزاء إلا أن يستنفروا فتوضع عنهم جزاء تلك السنة . وكتب سراقة إلى عمر بن الخطاب بذلك ، فأجازه وحسنه . انظر التفاصيل فى الطبرى (٢٣٦/٣) وانظر أيضاً كتاب الدولة العربية وسقوطها ــ يوليوس ولهاوزن ــ ترجمة الدكتور يوسف العش ص (٣٠) .

والعاجزين وذوى العاهات ، بل كانوا يرهقونهم بالجزية والضرائب ، ثم يتركون ذوى الحاجات منهم فريسة للحاجة والجوع والمرض . أما الإسلام فقد أعلن تأمينه الاجتماعى للذميين سواء منهم من دفع الجزية ومن لم يدفع ؛ إذ يعتبرهم رعايا الدولة كالمسلمين يجب عليها أن تضمن لهم حياة كريمة لا يحتاجون فيها إلى ذل السؤال ومرارة البؤس .

إن نصوص القرآن الكريم التى تحتّم إعالة البائسين والمحتاجين هى عامة شاملة لم تقيّد بالمسلمين فحسب : (وآتى ذا القربى حقّه والمسكين وابن السبيل)[1] و (فى أموالهم حق للسائل والمحروم)[2] ، وجاء فى عهد خالد بن الوليد لأهل الحيرة : « أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدّقون عليه ، طرحت جزيته وأعيل من بيت مال المسلمين وعياله » ، وقد طبّق عمر بن الخطاب رضى الله عنه هذا المبدأ الإسلامى العظيم حين مرّ بشيخ كبير يسأل الناس الصدقة ، فلما علم أنه من أهل الجزية أخذه بيده إلى بيته وأعطاه ما وجده من الطعام والملبس ، ثم أرسل إلى خازن بيت المال ، فقال : « انظر هذا وضرباءه ، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) والفقراء هم المسلمون ، وهذا من المساكين من أهل الكتاب » ووضع عنه الجزية وعن ضربائه[3] وأعطاهم ما يكفيهم من بيت المال .

---

(١) سورة الإسراء (١٧ : ٢٦) .

(٢) سورة الذاريات (٥١ : ١٩) .

(٣) الخراج ـ لأبى يوسف ـ ص(١٥١) والجديد فى هذا النوع من الضمان الاجتماعى ، أن الدول الحديثة تمنح الضمان لأهلها . أما الإسلام فإنه يمنح ضماناً اجتماعياً لغير المسلمين ، من العاجزين عن الكسب لآفة كالعمى الزمن ، أو بسبب جائحة مالية تصيب الرجل فيفتقر بعد غنى ، وعلى الحاكم المسلم أن ينظر فى أمر المحتاج ، فأما أن يكتفى بإعفائه من ضريبة الدفاع وهى الجزية . وإما أن يجرى بعد ذلك عليه رزقاً يكفيه وعياله من بيت مال المسلمين . انظر مقال الدكتور عبد الفتاح حسن عن : ميثاق الأمم والشعوب فى الإسلام المنشور فى مجلة مجلس الدولة للجمهورية العربية المتحدة الصادرة سنة ١٩٦٠ ص (٢٨٧)

وكانت الجزية قبل الإسلام تفرض على من لم يكن من الفاتحين عرقاً أو بلداً أو ديناً سواء حارب أم لم يحارب ، أما فى الإسلام فلا تفرض إلا على المحاربين من أعداء الأمة . أما المواطنون من غير المسلمين ممن لم يحاربوا الدولة فلا تفرض عليهم الجزية كما فعل عمر بن الخطاب مع نصارى تغلب .

بقى أن نعرض لما قد يرد فى الخواطر ، فى أن الجزية لا تحمل معنى الامتهان والإذلال : (حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) .

إن تفسير الآية الكريمة : (حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) يجب أن يتّفق مع مبادىء الإسلام العامة ومع فعل النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين فى أخذ الجزية من أهل الكتاب . وإذا رجعنا إلى التاريخ لم نجد فى معاملة النبى صلى الله عليه وسلم لأهل الكتاب ولا فى معاملة الخلفاء الراشدين لهم أى معنى من معانى الاحتقار والإذلال ، ولم تكن تؤخذ منهم الجزية على أى وضع يشعر بالإساءة والمهانة . ولّى النبى صلى الله عليه وسلم عبدالله بن أرقم على جزية أهل الذمة وقال له : «ألا من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقته أو انتقصه أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه ، فأنا حجيجه يوم القيامة». وقال عمر بن الخطاب : « أوصى الخليفة من بعدى بأهل الذمة خيراً : أن يوفى لهم عهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ، وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم »[1] . لذلك وجب أن تفهم الآية الكريمة على غير ما فهمها بعض الناس ، وذلك أن تفسير (اليد) فى قوله تعالى : (عن يد) بالقدرة ؛ وفى نصوص القرآن واللغة مايؤكد هذا المعنى ، وقد جاء فى عهد خالد بن الوليد لصاحب قس الناطف قوله : « على كل ذى يد »[2] أى قدرة ، وهذا هو ماقررناه من أن الجزية لا تفرض إلا على القادرين على دفعها .

(١) الخراج لأبى يوسف ص (١٥٠) . (٢) الطبرى (٢/٥٧٠) .

وأما قوله تعالى : (وهم صاغرون) ، فيتحتم تفسير الصغار هنا بالخضوع لا بالذلّة والمهانة ، فمن معانى الصغار فى اللغة : الخضوع ، ومنه أطلق (الصغير) على الطفل لأنه يخضع لأبويه ولمن هو أكبر منه . والمراد بالخضوع حينئذ الخضوع لسلطان الدولة ، بحيث يكون فى دفع الجزية معنى الالتزام من قبل أهل الذمة بالولاء للدولة ، كما تلتزم الدولة لقاء ذلك بحمايتهم ورعايتهم واحترام عقائدهم[1] .

- ٣ -
والمبدأ الثالث هو القتال

إن السلم هو العلاقة الأصلية بين الناس فى نظر الإسلام ، وهو بهذا الأصل لا يطلب من غير المسلمين إلا أن يكفوا شرهم عن دعوته وأهله ، وألا يثيروا عليه الفتن والمشاكل ، ويأبى الإباء كله أن يتخذ الإكراه طريقاً للدعوة إليه ونشر تعاليمه: (أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)[2] .

وإذا احتفظ غير المسلمين بحالة السلم ، فهم والمسلمون فى نظر الإسلام سواء فى الإنسانية ، يتعاونون على خيرها العام ، ولكل دينه يدعو إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، دون إضرار بأحد .

والإسلام لا يخرج عن هذا الوضع الطبيعى ، إلا إذا امتدّت إليه يد العدوان ووُضعت أمامه العراقيل وأخذت فى فتنة الناس عنه بالإيذاء والتنكيل؛ وهنا فقط يؤذن لأهله أن يردوا العدوان بالعدوان إقراراً للسلم وإقامة للقسط ،

(١) انظر ما جاء عن الجزية فى كتاب : نظام السلم والحرب فى الإسلام للدكتور مصطفى السباعى ص (٢٩ ــ ٣٨) ، وقد أفدنا منه فيما كتبناه أعلاه . وانظر كتاب اختلاف الفقهاء لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى ص (١٩٩ ــ ٢٤٠) .

(٢) سورة المائدة (٥ : ٨) .

وهو بذلك يحرّم عليهم حرب الاعتداء والعسف واستنزاف الموارد والتضييق على عباد الله ، وفى ذلك يقول الله تعالى: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ)[1] . (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)[2] .

إن الحرب ليست إلا علاجاً لشذوذ لم تنفع فيه الحكمة ولا الموعظة الحسنة ، وإن غير المحاربين وغير المدبرين للحروب لا ينالون فيها بسوء ويعامل أسرى الحرب بالبر والإحسان إلى أن يطلق سراحهم بالمن أو الفداء[3] .

— ٤ —

تلك هى تعاليم الفتح فى الإسلام ، فأين منها تعاليم الفتح فى القرن العشرين ؟ وأين منها قانون الحرب والحياد من القانون الدولى فى عصر الذرة والصواريخ ومحاولة التغلغل فى الفضاء الخارجى ؟ : (قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ، فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً)[4] .

والله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً ، وسبحان الله بكرة وأصيلا ؛ وصلى الله على الرسول القائد، وآله وصحبه، وقادته وجنده ،وسلم تسليما كثيراً.

---

(١) سورة الحج (٢٢/٣٩ : ٤٠) .
(٢) سورة البقرة (٢ : ١٩٠) .
(٣) انظر كتاب الإسلام عقيدة وشريعة ــ للأستاذ محمود شلتوت ص(٤٦٥ــ٤٦٦) وانظر كتاب الرسول القائد ــ القتال فى الإسلام ــ ص (١٩ ــ ٣٣) الطبعة الثانية .
(٤) الآية الكريمة من سورة الإسراء (١٧ : ٨٤) .

المراجع

١ — الفتوحات الإسلامية.
أحمد بن زيني دحلان مفتي مكة المكرمة.

٢ — أيام العرب في الجاهلية
محمد أحمد جاد المولى وأصحابه .

٣ — أيام العرب في الإسلام
محمد أبو الفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوي .

٤ — الخلفاء الراشدون
عبد الوهاب النجار .

٥ — حياة محمد
محمد حسين هيكل .

٦ — الصديق أبو بكر
محمد حسين هيكل .

٧ — الفاروق عمر
محمد حسين هيكل .

٨ — مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي
محمد حميد الله الحيدر آبادي .

٩ — في منزل الوحي
محمد حسين هيكل .

١٠ — سيف الله خالد بن الوليد
أبو زيد شلبي .

١١ — القائد الخالد خالد بن الوليد
المرحوم المقدم عبد الحميد السامرائي .

١٢ — خالد بن الوليد
المرحوم العميد طه الهاشمي .

١٣ — خالد بن الوليد
محمد صبيح .

١٤ — خالد بن الوليد
جمال الدين الرمادي .

١٥ — عبقرية خالد
عباس محمود العقاد .

١٦ — أعلام الصحابة
محمد خالد .

١٧ — تاريخ الموصل
ياسين بن خير الدين الخطيب العمري .

١٨ — شباب قريش في بدء الإسلام
عبد المتعال الصعيدي .

١٩ — خريجو مدرسة محمد
إبراهيم الواعظ .

٢٠ — زعماء الإسلام
حسن إبراهيم حسن .

٢١ — عثمان
طه حسين .

٢٢ — علي وبنوه
طه حسين .

٢٣ — شهداء الإسلام في عهد النبوة
علي سامي النشار .

٢٤ — الإمبراطورية الإسلامية
محمد حسين هيكل .

٢٥ — فجر الإسلام
أحمد أمين .

٢٦ — سعد بن أبي وقاص
سالم سعيد الصميدعى .
٢٧ — سعد بن أبي وقاص
عبد السلام العشرى .
٢٨ — الجندية فى الدولة العباسية .
المرحوم الرئيس الركن نعمان ثابت .
٢٩ — قانون الحرب والجهاد
سامى جنينة .
٣٠ — نظام السلم والحرب في الإسلام
مصطفى السباعى .
٣١ — الحضارة العربية
ى . هل . ترجمة إبراهيم العدوى .
٣٢ — اشتراكية الإسلام
مصطفى السباعى .
٣٣ — التشريع الجنائى الإسلامى
عبد القادر عوده .
٣٤ — الجزية والإسلام
دانيـال دينيت — ترجمة فوزى فهيم جاد الله .
٣٥ — الخراج فى الدولة الإسلامية
محمد ضياء الدين الريس .
٣٦ — قصة الـكفاح بين روماوقرطاجنة
توفيق الطويل .
٣٧ — حياة نابليون
حسن جلال .
٣٨ — السياسة الشرعية
ابن تيمية .
٣٩ — منهاج الإسلام فى الحـكم
محمد أسد .
٤٠ — الرسول القائد
محمود شيت خطاب .
٤١ — نظامات الخدمة السفرية .
٤٢ — إدارة الحرب .
٤٣ — فوج مشاة في المركة .
٤٤ — الفرقة فى المركة .
٤٥ — محاضرات كلية الأركان ودورة الأقدمين فى إنـكلترا .
٤٦ — الدولة العربية وسقوطها
يوليوس ولهاوزن — ترجمة يوسف العش .
٤٧ — الإسلام عقيدة وشريعة
محمود شلتوت .
٤٨ — دائرة المعارف الإسلامية .
٤٩ — بلدان الخلافة الشرقية
لسترنج — نقله إلى العربية : بشير فرنسيس وكوركيس عواد .

المراجع الأجنبية

1. The spirit of Jslam — By Sayed Amir Ali
2. Life of Mahomet — By Sir William Muire
3. Mohammad — By Margaliouth
4. Quran and war — By Maulvi · Sadr — ud Din.
5. War and religion — By Muhammad Marmaduke pickthall
6. Emcyclopedia Britannica

المصادر

١ — القرآن الكريم

٢ — تفسير ابن كثير
الحافظ ابن كثير . مطبعة المنار بمصر — ١٣٤٧ هـ .

٣ — تفسير البغوى
الإمام البغوى . مطبعة المنار بمصر — ١٣٤٧ هـ — مطبوعة فى القسم الأدنى من صحائف تفسير ابن كثير .

٤ — تفسير الكشاف
الإمام الزمخشرى — مطبعة بولاق بمصر — ١١١٣ هـ .

٥ — تفسير البيضاوى
القاضى البيضاوى . مطبعة دار الكتب العربية الكبرى بمصر — ١٣٣٠ هـ .

٦ — تفسير المنار
السيد رشيد رضا . مطبعة المنار بمصر — ١٣٢٥ هـ .

٧ — تفسير الجلالين
جلال المحلى وجلال السيوطى . مطبعة حجازى بالقاهرة — مطبوع على هامش القرآن الكريم .

٨ — فضائل القرآن
الإمام ابن كثير . مطبعة المنار بمصر — ١٣٤٧ هـ . مطبوع بنهاية تفسير ابن كثير .

٩ — تفصيل آيات القرآن الكريم
وضعه بالفرنسية جول لابوم وترجمه محمد فؤاد عبد الباقى . مطبعة عيسى البابى الحلبى بمصر . الطبعة الأولى — ١٣٤٣ هـ .

١٠ — فتح البارى بشرح البخاري
الإمام ابن حجر العسقلانى . مطبعة بولاق بمصر — ١٣٠١ هـ .

١١ — شرح النووى على مسلم
الإمام النووى . المطبعة الكتلية بمصر — ١٢٨٣ هـ .

١٢ — مسند الإمام أحمد بن حنبل
الإمام أحمد بن حنبل . المطبعة الميمنية بمصر — ١٣١٣ هـ .

١٣ — سنن ابن ماجة .
الإمام ابن ماجة . المطبعة العلمية بمصر . ١٣١٣ هـ .

١٤ — مفتاح كنوز السنة
وضعه بالإنكليزية الدكتور فنسنك وترجمه محمد فؤاد عبد الباقى — مطبعة مصر — ١٣٥٢ هـ .

١٥ — سيرة ابن هشام
أبو محمد عبد الملك بن هشام . مطبعة حجازى بالقاهرة — ١٣٥٦ هـ .

١٦ — عيون الأثر
ابن سيد الناس . مطبعة القدسى ومطبعة السعادة بمصر — ١٣٥٦ هـ .

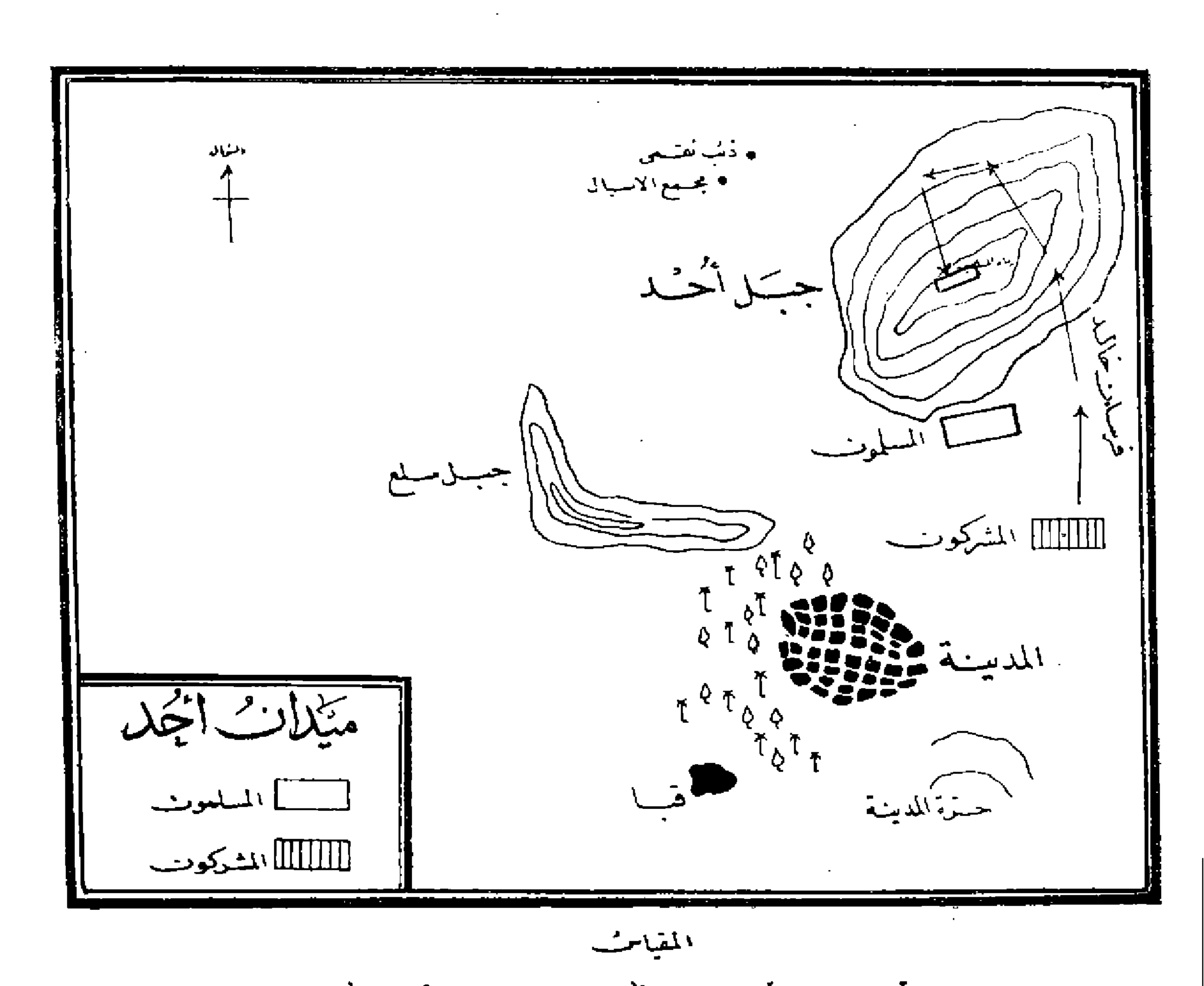
١٧ — جوامع السيرة
ابن حزم . مطبعة دار المعارف بمصر

١٨ — السيرة الحلبية
على الحلبي الشافعي . مطبعة مصطفى محمد بمصر .
١٩ — طبقات ابن سعد
ابن سعد . مطبعة دار بيروت وصادر بيروت — ١٣٧٦ هـ .
٢٠ — الإصابة فى تمييز الصحابة
الإمام العسقلانى . مطبعة دار السعادة بمصر — ١٣٢٣ هـ .
٢١ — أسد الغابة فى معرفة الصحابة
ابن الأثير . المطبعة الإسلامية بطهران — ١٣٧٧ هـ .
٢٢ — الاستيعاب فى معرفة الأصحاب
ابن عبد البر . مطبعة نهضة مصر بمصر .
٢٣ — أصحاب الفتيا من الصحابة ومن بعدهم على مراتبهم فى كثرة الفتيا .
ابن حزم . ملحق بجوامع السيرة . مطبعة دار المعارف بمصر .
٢٤ — أسماء الصحابة الرواة وما لكل واحد منهم من العدد
ابن حزم . ملحق بجوامع السيرة . مطبعة دار المعارف بمصر .
٢٥ — المعارف
ابن قتيبة . مطبعة دار الكتب المصرية — ١٩٦٠ م .
٢٦ — تهذيب ابن عساكر
المطبعة العربية بالشام — ١٣٥١ هـ .
٢٧ — تهذيب التهذيب
الإمام ابن حجر العسقلانى . مطبعة حيدر آباد الدكن — ١٣٢٦ هـ .
٢٨ — صفة الصفوة .
الإمام ابن الجوزى . مطبعة حيدر آباد الدكن — ١٣٥٥ هـ
٢٩ — خلاصة تذهيب الكمال فى أسماء الرجال
صفى الدين أحمد الخزرجى . المطبعة الخيرية بمصر — ١٣٢٢ هـ .
٣٠ — الرياض النضرة فى مناقب العشرة
المحب الطبرى . مطبعة دار التأليف بمصر — ١٣١٣ الطبعة الثانية .
٣١ — حلية الأولياء وطبقات الأصفياء
للحافظ الأصبهانى . مطبعة السعادة بمصر — ١٣٥١ هـ .
٣٢ — تاريخ الطبرى
الإمام الطبرى . مطبعة الاستقامة بمصر — ١٣٤٧ هـ .
٣٣ — تاريخ ابن الأثير
ابن الأثير . مطبعة ذات التحرير بمصر — ١٣٠٣ هـ .
٣٤ — مروج الذهب
المسعودى . طبع على هامش تاريخ ابن الأثير . مطبعة ذات التحرير بمصر — ١٣٠٣ هـ .
٣٥ — البلاذرى
فتوح البلدان . أبو الحسن البلاذرى . مطبعة السعادة بمصر — ١٩٥٩ م .
٣٦ — فتوح الشام
محمد الواقدى . مطبعة دار العهد الجديد بمصر — ١٣٧٣ هـ .
٣٧ — المختصر من أخبار البشر
تاريخ أبى الفدا . المطبعة الحسينية بمصر — ١٣٢٥ هـ .

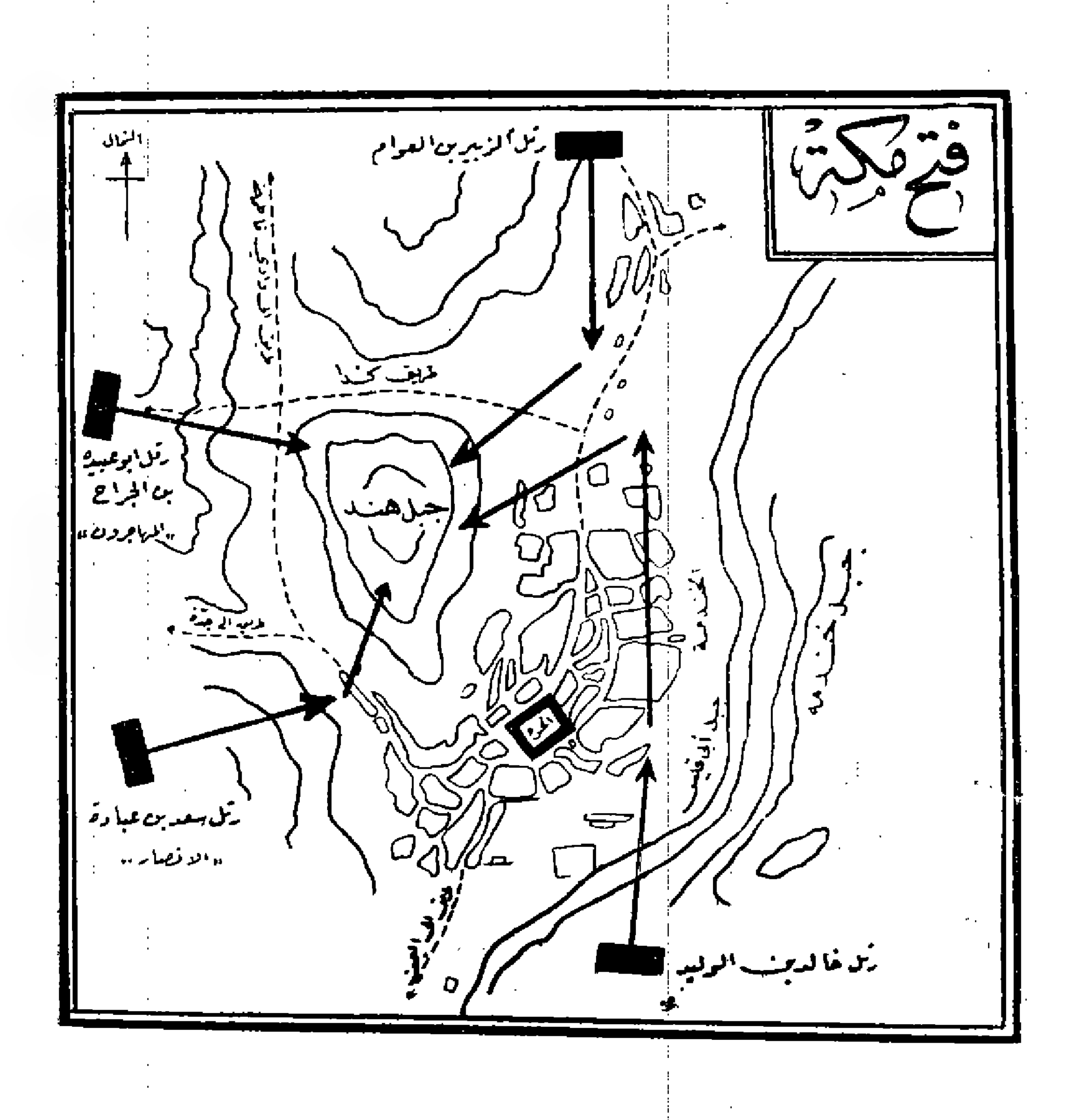
٣٨ — تاريخ اليعقوبي
أحمد بن يعقوب . مطبعة الغرى بالنجف — ١٣٨٥ هـ .
٣٩ — تاريخ ابن خلدون
العلامة ابن خلدون . مطبعة بولاق بمصر — ١٢٨٤ هـ .
٤٠ — مقدمة ابن خلدون
ابن خلدون مطبعة محمد مصطفى بمصر .
٤١ — الإمامة والسياسة
ابن قتيبة الدينوري مطبعة البابي الحلبي بمصر — ١٣٧٧ هـ — الطبعة الثانية .
٤٢ — تاريخ عمر ابن الخطاب
ابن الجوزي . مطبعة محمد علي صبيح .
٤٣ — البداية والنهاية
عماد الدين أبو الفدا . مطبعة السعادة بمصر
٤٤ — شذرات الذهب
ابن العماد الحنبلي . مطبعة القدسي بمصر ١٣٥٠ هـ .
٤٥ — تاريخ الإسلام
شمس الدين الذهبي . مطبعة السعادة بمصر ١٣٦٨ هـ :
٤٦ — دول الإسلام
الإمام الذهبي . مطبعة حيدرآباد الدكن
٤٧ — البدء والتاريخ
المنسوب لابن البخلي . طبع باريس ١٩١٦ هـ .
٤٨ — تاريخ الخميس
حسين بن محمد بن الحسن الديار بكرى مطبعة عثمان عبد الرزاق بمصر الطبعة الأولى — ١٣٠٢ .
٤٩ — المسالك والممالك
الأصطخري . مطابع دار القلم بالقاهرة ١٣٨١ هـ .
٥٠ — معجم البلدان
ياقوت الحموي . مطبعة دار السعادة بمصر ١٣٢٣ هـ .
٥١ — آثار البلاد وأخبار العباد
زكريا القزويني . مطبعة دار صادر ودار بيروت — ١٣٨٠ هـ .
٥٢ — رحلة ابن جبير
محمد بن أحمد بن جبير . مطبعة حنفي بمصر ١٣٥٦ هـ .
٥٣ — أطلس العالم الإسلامي
هادي مازار ترجمة إبراهيم زكي خورشيد مطبعة مصر .
٥٤ — الخراج
الإمام أبو يوسف . المطبعة السلفية . ١٣٤٦ هـ .
٥٥ — الأم
الإمام الشافعي . مطبعة بولاق الطبعة الأولى — ١٣٢٢ هـ .
٥٦ — كتاب الجهاد وكتاب الجزية وأحكام المحاربين من كتاب اختلاف الفقهاء
محمد بن جرير الطبري . مطبعة ليدن ١٩٣٣ م .
٥٧ — أنساب الأشراف
البلاذري . مطبعة دار المعارف بمصر .
٥٨ — نسب قريش
المصعب الزبيري . دار الطباعة بمصر ١٩٥٧ م
٥٩ — ذكر أخبار أصبهان
مطبعة ليدن — ١٩٣١ م .

٦٠ — ألف باء
يوسف محمد البلوى . المطبعة الوهبية ١٢٨٧ هـ .
٦١ — الأغانى
الأصبهانى . طبع دار الفكر بيروت
٦٢ — العقد الفريد
ابن عبد ربه . المطبعة الأزهرية بمصر الطبعة الثانية ـ ١٤٤٦ هـ .
٦٣ — عيون الأخبار
ابن قتيبة . مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٤٣ هـ .
٦٤ — الكامل
المبرد . مطبعة محمد على صبيح بمصر ١٣٤٧ هـ .
٦٥ — الأعلام
خير الدين الزركلى . الطبعة الثانية
٦٦ — جمهرة أنساب العرب
ابن حزم . مطبعة دار المعارف بمصر .
٦٧ — الأصنام
أبو المنذر هشام بن محمد الكلبي المطبعة الأميرية بالقاهرة ـ ١٣٣٢ هـ .
٦٨ — نكت الهميان فى نكت العميان
خليل الصفدى . المطبعة الجمالية بمصر ١٣٢٩ هـ .



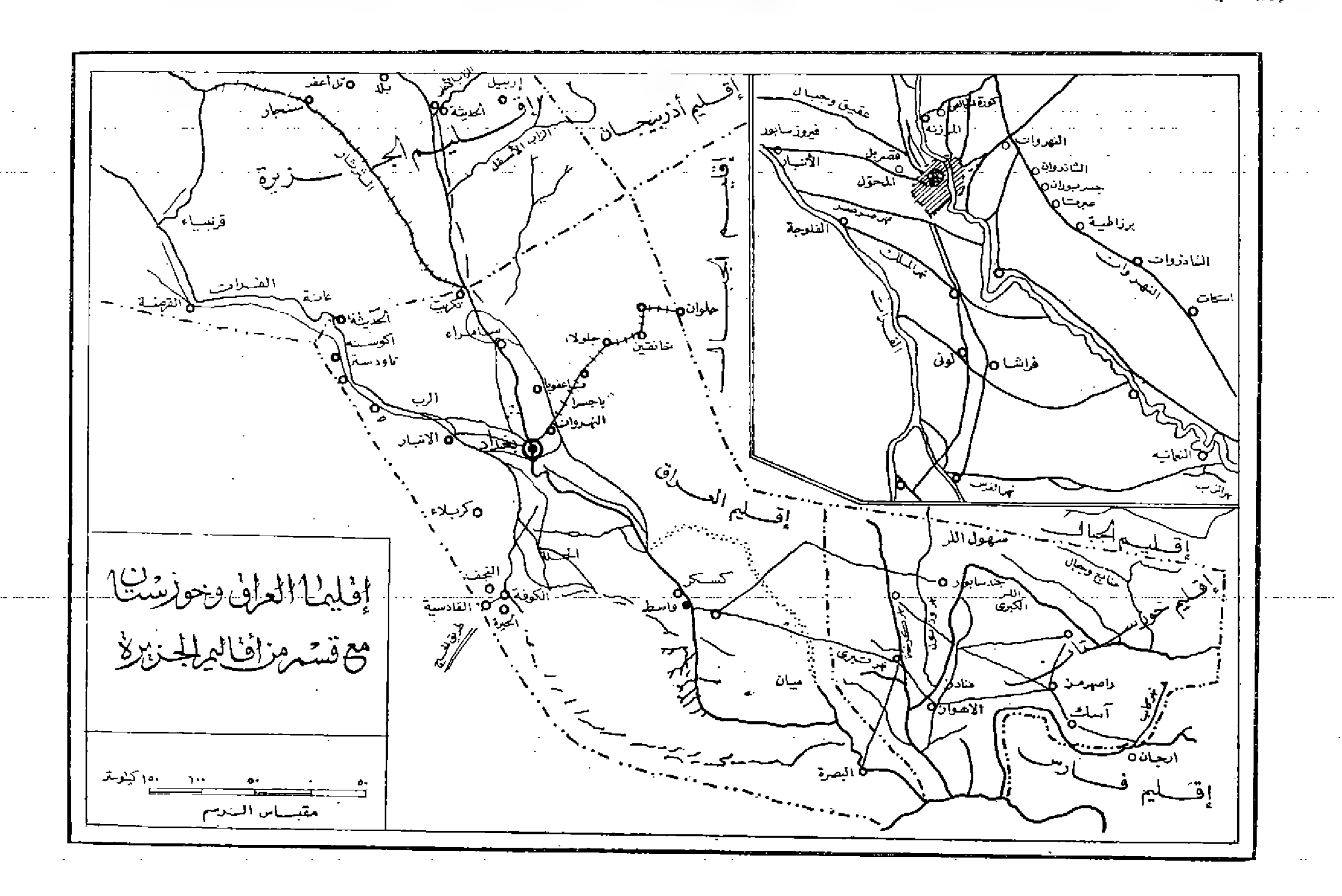


الشمال
ذنب نقمى
مجمع الاسيال
جبل أحُد
فرسان خالد
المسلمون
جبل سلع
المشركون
المدينة
قبا
حرة المدينة
ميدان أحُد
المسلمون
المشركون
المقياس
ميل
ميل


فتح مكة
الشمال
رتل الزبير بن العوام
طريق كدا
رتل ابو عبيدة
بن الجراح
"المهاجرون"
جبل هند
طريق الى جدة
رتل سعد بن عبادة
"الانصار"
الحرم
جبل أبي قبيس
جبل خندمة
رتل خالد بن الوليد

فتح الشام وفلسطين

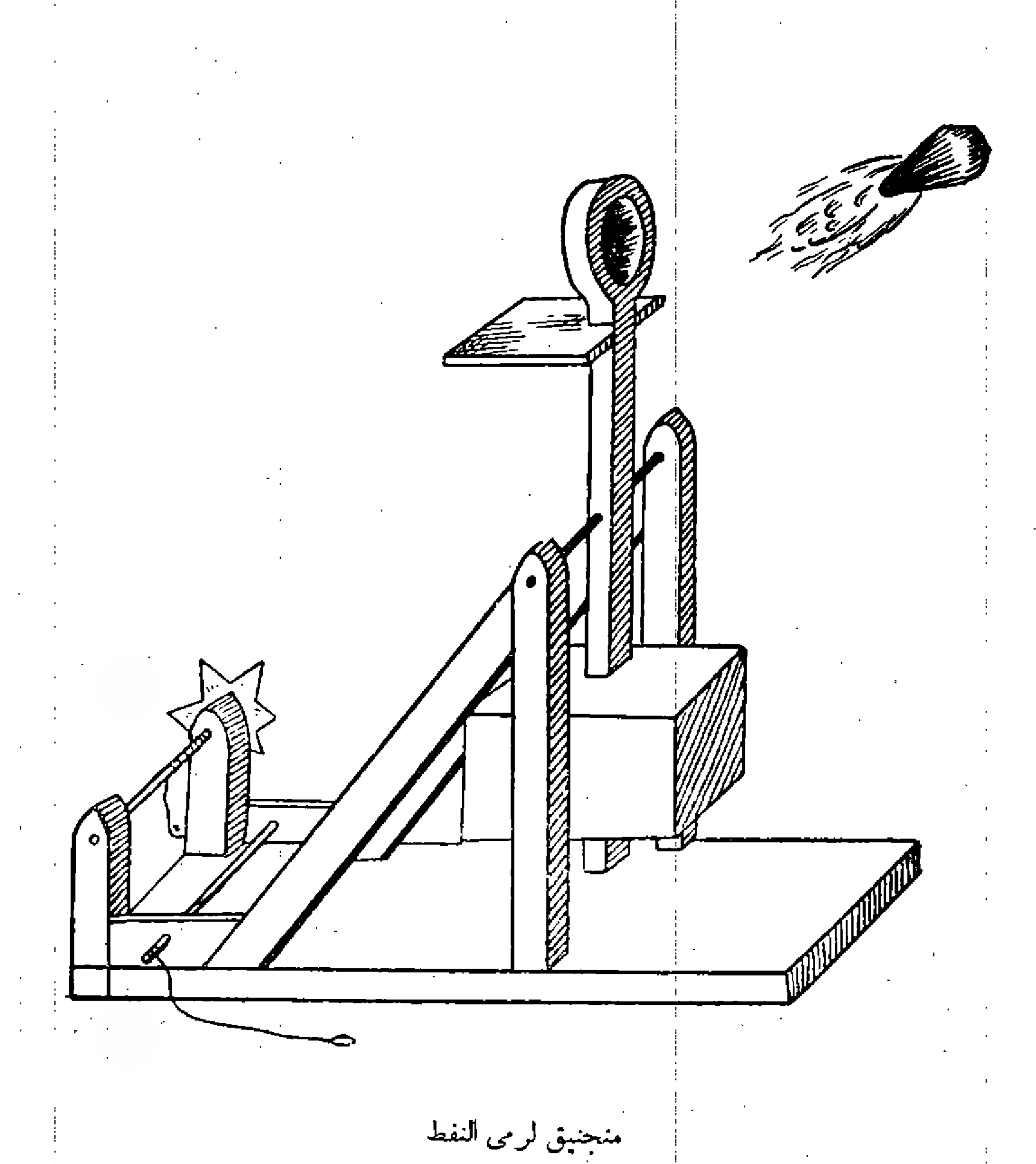
طوروس
سلوقية
اسكندرونة
نهر أنطاكية
أنطاكية
نهر العاصي
حلب
نهر الفرات
صفين
اللاذقية
طرطوس
طرسوس
قبرص
حماة
طرابلس الشام
حمص
نهر الكلب
بيروت
بعلبك
صيداء
دمشق
صور
بلاد الشام
بادية السماوة
البحر الأبيض المتوسط
عكاء
فحل
حيفا
طبرية
قيسارية
أجنادين
بصرى
الأردن
يافا
الرملة
بيت المقدس
فلسطين
عسقلان
بيتلحم
غزة
رفح
الإسكندرية
العريش
فرما
بلبيس
بابليون
نهر النيل
طور سيناء
بحر القلزم



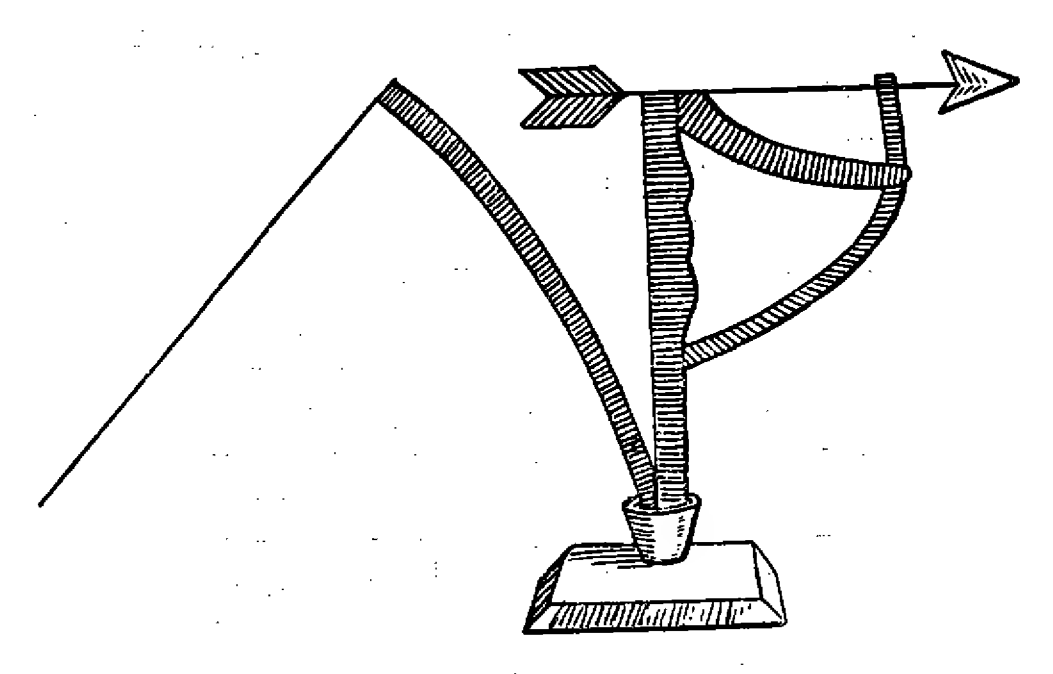
إقليما العراق وخوزستان
مع قسم من أقاليم الجزيرة
مقياس الرسم
١٥٠ كيلومتر
إقليم الجزيرة
إقليم أذربيجان
إقليم العراق
إقليم الجبال
إقليم خوزستان
إقليم فارس
سنجار
تل أعفر
بلد
الحديثة
إربيل
الزاب الأسفل
قرقيسياء
الفرات
عانة
القرقيسية
تكريت
سامراء
حلوان
خانقين
جلولاء
الأنبار
بغداد
النهروان
كربلاء
الكوفة
النجف
القادسية
الحيرة
كسكر
واسط
ميان
البصرة
الأهواز
مناذر
رامهرمز
آسك
ارجان
سهول اللر
جندسابور
الفلوجة
المحوّل
فيروز سابور
عقيق وجبال
النهروان
برزاطية
صرصر
نهر الملك
فراشا

بحر بنطس
إقليم الروم
كرجستان
تفليس
نهر الكر
شروان
باب الأبواب
شماخي
بردعة
برزيخ
البيلقان
الران
نهر الرس
دبيل
أرمينية
الفرات الغربي
نهر امرس
أرزنجان
إلى سيواس
فاليقلا
نهر ارسناس
شمشاط
ملطية
وان
وسطام
خوي
مرند
أذربيجان
مرقان
تبريز
أوجا
أرمية
سميساط
الجزيرة
ماردين
دنيسر
جزيرة ابن عمر
نصيبين
الرها
حران
سروج
جسر منبج
رأس العين
حصن مسلمة
العمادية
الخابور الصغير
معلتايا
بلد
تل أعفر
الموصل
الزاب الأعلى
إربل
الثرثار
الحضر
الزاب الأسفل
سهل صفين
الرصافة
شهرزور
هشترود
سفيد رود أو النهر الأبيض
زنجان
سفيد رود
إقليم الجبال
مقياس الرسم
كيلومتر ٥٠ ٠ ٥٠ ١٠٠ ١٥٠

قادة فتح المنطقة الجبلية



منجنيق لرمى النفط



منجنيق لرمى السهام الثقيلة

فهرس

صحيفة

صفحة

صفحة

الخرائط

الصور